أنطون تشيخوف

الأعمال المختارة

المجلد الثاني

الروايات القصيرة

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

دار الشروق

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢٢١٨٩
ISBN 978 - 977 - 09 - 2179 - 4

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ:

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد ابن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغي الإمعان في تأخيره.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج« ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم في أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجي تجسيدا عملياً لرسالة المؤسسة المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع الثقافة، يمكن زيارة موقع المؤسسة www.mbrfoundation.ae

عن المؤسسة:

انطلقت **مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم** بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها، لأول مرة، في كلمته أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت ـ الأردن في أيار/ مايو ٢٠٠٧. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه، وقد قام بتخصيص وقفٍ لها قدره ٣٧ مليار درهم (١٠ مليارات دولار).

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، كما أراد لها مؤسسها، إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي، من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التي تواجه مجتمعاتهم.

المحتويات

الراهب الأسود	٩
الفلاحون	٤٩
فى الخور	٩١
كاشتانكا	١٤٣
القبلة	١٧٣
الحسناوات	١٩٧
قلادة آنا	٢٠٩
المنزل ذو العلية	٢٢٥
أيونيتش	٢٤٩
الرجل المعلب	٢٧٥
حبوبة	٢٩٣
اللعوب	٣٠٩
السيدة صاحبة الكلب	٣٤٣
العروس	٣٦٥

الراهب الأسود

١

أصيب أندريه فاسيليفتش كوفرين الماجستير فى الفلسفة بالإرهاق وانهارت أعصابه. ولكنه لم يتعالج، بل تحدث ذات مرة، بصورة عابرة، مع طبيب من أصدقائه وهما يحتسيان الخمر، فنصحه هذا بقضاء الربيع والصيف فى الريف. وبالمناسبة فقد تلقى رسالة طويلة من تانيا بيسوتسكايا، طلبت منه فيها أن يأتى إلى ضيافتهم فى بوريسوفكا. فقرر أنه بالفعل بحاجة إلى السفر.

فى البداية ـ وكان ذلك فى أبريل ـ سافر إلى ضيعة عائلتهم كوفرينكا، حيث أمضى هناك وحيدًا ثلاثة أسابيع. ثم انتظر حتى أصبحت الطرق صالحة، فسافر بالخيول إلى وصيه ومربيه السابق بيسوتسكى خبير البساتين المعروف فى روسيا كلها. كانت المسافة من كوفرينكا إلى بوريسوفكا، حيث كان يعيش آل بيسوتسكى، لا تزيد على سبعين فرسخًا، وكان السفر على طريق ربيعى لين، وفى عربة مريحة بزنبركات متعة حقيقية.

كان منزل بيسوتسكى ضخمًا، بأعمدة وأسود تساقط منها الملاط، وبحاجب يقف فى الفراك بجوار المدخل.

وامتدت حديقة عتيقة، جهمة وصارمة، مخططة على الطريقة الإنجليزية، حوالى فرسخ كامل من المنزل حتى النهر، وانتهت هنا بشاطئ طينى جرفى منحدر بشدة، نمت فوقه صنوبرات بجذور عارية تشبه المخالب الكثة. وفى

الأسفل لمعت المياه بعزلة وخواء، وحلقت طيور البكاشين بزعيق شاك، وكان يسود هنا دائمًا مزاج خاص يغرى بتأليف الأناشيد الملحمية. ولكن بجوار المنزل، فى فنائه وفى بستان الفواكه الذى كان يشغل مع المشاتل حوالى ثلاثين ديسياتينا[1]، كان الجو مرحا ومفعما بالفرحة حتى فى الطقس السيئ. لم ير كوفرين فى أى مكان آخر مثل هذه الورود المدهشة والزنابق والكاميليا، مثل هذه الأقحوانات العديدة الألوان، ابتداء من الأبيض الناصع وانتهاء بالأسود كالسناج، وعمومًا مثل هذه الثروة من الزهور التى كانت لدى بيسوتسكى. كان الربيع قد بدأ لتوه، وكانت الروعة الحقيقية لأحواض الزهور لا تزال مختبئة بعد فى الدفيئات، ومع ذلك فقد كان ما يزدهر منها بحذاء الممرات، وهنا وهناك فى الخمائل كافيًا لكى تشعر ـ وأنت تتجول فى البستان ـ بأنك فى ملكوت الألوان الرقيقة، وخاصة فى ساعات الصباح الباكر، عندما يلمع الندى على كل ورقة.

أما القسم الديكورى من البستان، والذى كان بيسوتسكى نفسه يسميه فى احتقار بالتوافه، فقد ترك فى نفس كوفرين أيام الطفولة انطباعًا خياليًا. أية شواذ ومسوخ منتقاة بدقة، وتشويهات للطبيعة كانت هنا! كان هنا تكعيبات من أشجار الفواكه، وشجرة كمثرى على شكل حور هرمى، وأشجار بلوط وزيزفون على صورة كرات، ومظلة من شجرة تفاح، وأقواس وزخارف وشمعدانات، بل وحتى رقم ١٨٦٢ من أشجار البرقوق ـ الرقم المشير إلى السنة التى بدأ فيها بيسوتسكى يزاول فلاحة البساتين، وكنت ترى هنا أحيانًا شجيرات جميلة باسقة، بجذوع مستقيمة وقوية كجذوع النخل، ولكن إذا ما حدقت فيها بإمعان تعرفت فى هذه الشجيرات على عنب الثعلب أو الزبيب الرومى. أما أكثر ما كان يضفى البهجة والرونق الحى على البستان، فهو الحركة الدائبة. فمن الصباح الباكر وحتى المساء كان أناس بعربات ومجارف ورشاشات ينقبون كالنمل حول الأشجار والخمائل وفى الممرات والأحواض..

---

(١) الديسياتينا مقياس روسى قديم لمسطح الأرض يعادل ١,٠٩ هكتار. (المعرب).

وصل كوفرين إلى آل بيسوتسكى مساء، فى حوالى العاشرة. ووجد تانيا وأباها يجور سيميونيتش فى قلق بالغ. فقد كانت السماء الصافية النجمية والترمومتر ينبئان بصقيع فى الصباح، بينما رحل البستانى إيفان كارليتش إلى المدينة، ولم يكن هناك من يعتمد عليه. وأثناء العشاء دار الحديث فقط عن صقيع الصباح، وتقرر ألا تذهب تانيا إلى الفراش، وفى الساعة الواحدة تتجول فى البستان لترى هل كل شىء على ما يرام، أما يجور سيميونيتش فسيستيقظ فى الساعة الثالثة أو ربما قبل ذلك.

جلس كوفرين مع تانيا المساء كله، وبعد منتصف الليل مضى معها إلى البستان. كان الجو باردًا. وفاحت فى الفناء بشدة رائحة الدخان. ففى بستان الفواكه الكبير الذى كان يدعى بالتجارى وكان يعود على يجور سيميونيتش بدخل صاف يبلغ عدة آلاف روبل سنويًا، انتشر فوق الأرض دخان أسود كثيف خانق وغطى الأشجار لينقذ من الصقيع هذه الآلاف. كانت الأشجار موزعة هنا بنظام رقعة الشطرنج، وكانت صفوفها مستقيمة منتظمة، كأنها طوابير جنود، فأضفى هذا الانتظام الصارم الدقيق، مع كون الأشجار كلها بارتفاع واحد، وأغصان وجذوع متشابهة تمامًا، أضفى على الصورة طابع الرتابة، بل والملل. سار كوفرين وتانيا عبر صفوف الأشجار التى كانت تشتعل بجوارها أكوام من الروث والقش وشتى المخلفات، وكانا أحيانا يقابلان عمالا يحومون فى الدخان كالظلال. لم تكن مزهرة سوى أشجار الكرز والبرقوق وبعض أنواع التفاح، بيد أن البستان كله كان غارقًا فى الدخان، فلم يتنفس كوفرين بملء رئتيه إلا بجوار المشاتل.

قال وهو يهز كتفيه:

ـ منذ الطفولة كنت أعطس هنا من الدخان. ولكنى حتى الآن لا أفهم كيف يستطيع الدخان أن يحمى من الصقيع.

فأجابت تانيا:

ـ الدخان يحل محل السحب عندما لا تكون موجودة..

ـ وما الحاجة إلى السحب؟

ـ فى الجو الملبد بالسحب لا يحل الصقيع صباحًا.

ـ هكذا!

وضحك وأمسك يدها. كان وجهها العريض، الجاد للغاية والمقرور وذو الحاجبين الأسودين الدقيقين، وياقة معطفها المرفوعة التى كانت تعوق رأسها عن التحرك بحرية، وهى كلها، النحيلة الممشوقة، فى فستانها المرفوع قليلاً حتى لا يبلله الندى، تثير فيه الدهشة والتأثر.

وقال:

ـ يا إلهى، لقد أصبحت كبيرة! عندما سافرت من هنا آخر مرة، منذ حوالى خمس سنوات، كنت بعد طفلة تمامًا. كنت نحيلة جدًا، طويلة الساقين، حاسرة الرأس، ترتدين فستانًا قصيرًا، وكنت أغيظك بـــ «الكركى».. ماذا يفعل الزمن؟!

فتنهدت تانيا:

ـ نعم، خمس سنوات! كم مر منذ ذلك الحين. قل لى يا أندريوشا بصدق ـ قالت بحيوية وهى تحدق فى وجهه ـ: هل نسيتنا؟ وعمومًا فما لى أسأل؟ أنت رجل، تحيا الآن حياتك الخاصة، الشيقة، أنت شخص بارز.. والاغتراب طبيعى تمامًا! ولكن مهما كان يا أندريوشا، فإننى أود أن تعتبرنا أهلك. ولنا الحق فى ذلك.

ـ أنا أعتبركم يا تانيا.

ـ أتقول الحق؟

ـ نعم، أقول الحق.

ـ أدهشك اليوم أن لدينا هذه الكثرة من صورك. ولكنك تعرف أن أبى معجب بك. وأحيانًا يخيل إليّ أنه يحبك أكثر منى. إنه فخور بك. فأنت عالم، رجل فذ، وقد شققت لنفسك مستقبلاً باهرًا، وهو واثق من أنك أصبحت كذلك لأنه هو الذى ربّاك. وأنا لا أصرفه عن هذا الاعتقاد. ليكن.

حل الفجر. وكان هذا ملحوظًا بصفة خاصة من ذلك الوضوح الذى أخذت تبرز به فى الهواء أعمدة الدخان وأغصان الأشجار. وصدحت البلابل، وتناهى من الحقول صياح السمان.

وقالت ثانيا:

ـ ولكن حان الوقت لننام. ثم إن الجو بارد ـ وتأبطت ذراعه ـ شكرًا يا أندريوشا على مجيئك. معارفنا هنا ليسوا ممتعين، وحتى هؤلاء قليلون. ليس لدينا سوى البستان، البستان، البستان، ولا شيء غيره ـ وقالت ضاحكة ـ شتامب، نصف شتامب، أوبورتو، رينيت، بوروفينكا[1]، التلقيح، التطعيم.. حياتنا كلها كلها ابتلعها البستان، حتى إننى لا أحلم أبدًا بشيء سوى بأشجار التفاح والكمثرى. بالطبع هذا حسن، مفيد، ولكنى أحيانًا أتوق أيضًا إلى شيء أخر من أجل التنويع. أذكر عندما كنت تأتى إلينا فى الإجازات أو هكذا بلا مناسبة، كان جو المنزل يصبح أكثر انتعاشًا وإشراقًا، كما لو كانت الأغطية قد نزعت عن النجف والأثاث. كنت أنا طفلة آنذاك، ومع ذلك كنت أفهم.

تحدثت طويلا وبعاطفة قوية. ولسبب ما دار بذهنه أنه من الجائز خلال الصيف أن يتعلق بهذا المخلوق الصغير الضعيف الكثير الكلام، ويغرم به ويحبه.. ففى مثل وضعهما كان هذا شيئًا محتملاً جدًا وطبيعيًا! وفتنته هذه الفكرة وأضحكته، فمال إلى الوجه الرقيق المهموم وغنى بصوت خافت:

أنيجين، لن أخفى حبى

---

(١) شتامب: اسم جذع الشجرة من الجذر إلى الفروع أوبورتو، رينيت، بوروفينكا: أسماء أنواع من التفاح. (المعرب).

قد هام بتاتيانا قلبى..[1].

حينما عادا إلى المنزل كان يجور سيميو نيتش قد استيقظ. ولم يشعر كوفرين برغبة فى النوم فاندمج فى الحديث مع العجوز، وعاد معه إلى البستان. كان يجور سيمونيتش طويل القامة، عريض المنكبين، بكرش كبيرة، وكان يعانى من اللهاث، ولكنه كان يسير دائمًا بسرعة إلى درجة يصعب معها اللحاق به. وكان مظهره ينم عن القلق البالغ، يسرع دائمًا إلى مكان ما وعلى وجهه تعبير، كأنما لو تأخر دقيقة واحدة لضاع كل شىء!

ـ يا لها من حكاية يا أخى.. ـ شرع يتحدث متوقفًا بين الحين والحين ليلتقط أنفاسه ـ على سطح الأرض صقيع كما ترى، ولو رفعت الترمومتر على عصا لمسافة ذراعين فوق الأرض فستجد الجو دافئًا.. فلماذا هكذا؟ فقال كوفرين ضاحكًا:

ـ لا أدرى حقًا.

ـ أم.. طبعًا لا يمكن معرفة كل شىء.. مهما كان العقل واسعًا فلن يتسع لكل شىء. أنت مهتم أكثر بالفلسفة، أليس كذلك؟

ـ بلى، أقرأ محاضرات فى علم النفس، ولكنى أشتغل عمومًا بالفلسفة.

ـ ألا تمل؟

ـ بالعكس، لا أحيا إلا على ذلك.

ـ وفقك الله.. ـ قال يجور سيميونيتش وهو يمسد سالفيه الأشيبين متفكرًا ـ وفقك الله.. أنا مسرور جدًا من أجلك.. مسرور يا أخى..

ولكنه أصاخ السمع فجأة، وأصبح وجهه رهيبًا، وركض جانبًا، وسرعان ما غاب وراء الأشجار فى سحب الدخان.

---

(١) من أوبرا تشايكوفسكى «يفجينى أنيجين» المأخوذ عن رواية بوشكين الشعرية. وتانيا هو اسم التدليل من الاسم الكامل تاتيانا.

ـ من هذا الذى ربط الحصان إلى شجرة التفاح؟ ـ تناهت صرخته اليائسة الملتاعة ـ من هذا الوغد المحتال الذى تجاسر على ربط الحصان إلى شجرة التفاح؟ يا إلهى يا إلهى! أفسدوا البستان، دنسوه، لوثوه! ضاع البستان! هلك البستان! يا إلهى!

وعندما عاد إلى كوفرين كان وجهه منهكًا، مهانًا. وقال بصوت باك وهو يشيح بيديه:

ـ ماذا أفعل لهؤلاء الملاعين؟ ستيوبكا نقل الروث ليلاً وربط الحصان إلى شجرة التفاح! لف عليها الوغد اللجام بشدة، حتى إن اللحاء جرح فى ثلاثة مواضع. هل رأيت؟! أقول له وهو لا يفقه شيئًا بل يطرف بعينيه: قليل عليه الشنق!

وإذ هدأت ثورته عانق كوفرين وقبله فى خده. ودمدم:

ـ حسنا، وفقك الله.. وفقك الله.. أنا سعيد جدًا بمجيئك. سعيد سعادة لا توصف.. شكرًا لك.

وبعد ذلك، وبنفس المشية السريعة والوجه المهموم، طاف بالبستان كله، وفرّج ربيبه السابق على المشاتل والدفيئات وحظائر التربة ومنحليه اللذين كان يسميهما أعجوبة هذا القرن.

وأثناء طوافهما أشرقت الشمس وأضاءت البستان بنور ساطع وانتشر الدفء. وإذ توقع كوفرين يومًا طويلاً صافيًا مرحًا، تذكر أن ذلك ليس إلا بداية مايو، وأن الصيف كله ما زال فى الأمام، صيف طويل صاف مرح مثل هذا اليوم، وفجأة تحرك فى قلبه إحساس فرح فتى كذلك الذى كان يراوده فى الطفولة عندما كان يركض فى هذا البستان. وإذا به يعانق العجوز ويقبله برقة. ومضيا كلاهما إلى البيت منفعلين، وشرعا يشربان الشاى من أقداح خزفية عريقة مع الكريم والكعك الدسم المشبع. وذكرت هذه التفاصيل كوفرين بطفولته وصباه مرة أخرى. واتحد الحاضر الرائع بصور الماضى التى استيقظت فيه، فضاقت بهما روحه، ولكنه أحس بالراحة..

وانتظر حتى استيقظت تانيا، فشرب معها القهوة، وتنزه، ثم ذهب إلى غرفته وجلس يعمل. كان يقرأ بإمعان، ويسجل ملاحظات، وأحيانًا يرفع بصره لينظر إلى النوافذ المفتوحة أو إلى الزهور النضرة التى لا تزال مبللة بالندى والموضوعة فى أصيص على الطاولة، ثم يعود ببصره إلى الكتاب، وبدا له أن كل عرق فى بدنه ينتفض ويرقص من المتعة.

٢

ظل فى الريف يواصل نفس الحياة القلقة المضطربة التى كان يحياها فى المدينة. كان يقرأ ويكتب كثيرًا، ويتعلم اللغة الإيطالية، وعندما يتنزه كان يفكر بلذة فى أنه سيعود ليواصل العمل قريبًا. وكان ينام قليلاً جدًا لدرجة أثارت دهشة الجميع. فإذا نعس فى النهار صدفة لنصف ساعة فلا ينام الليل، وبعد ليلة من السهاد يشعر بالحيوية والمرح وكأن شيئًا لم يكن.

كان يتحدث كثيرًا، ويحتسى النبيذ ويدخن السيجار الفاخر. وكانت آنسات من جارات تانيا يزرن آل بيسوتسكى كثيرًا، كل يوم تقريبًا، ويعزفن مع تانيا على البيانو ويغنين. وأحيانًا كان يأتى شاب جارهم، يعزف جيدًا على الكمان.

وكان كوفرين يستمع إلى العزف والغناء بنهم ويرهق منهما، وكان الإحساس الأخير يتجلى بدنيًا فى انطباق جفنيه وميل رأسه جانبًا.

وذات مرة جلس بعد شاى المساء فى الشرفة يقرأ. وفى تلك الأثناء كانت تانيا فى غرفة الجلوس تغنى سوبرانو، وإحدى الآنسات تغنى كونترالتو والشاب يعزف على الكمان، وهم يتدربون على سيرنادا براج المعروفة. وأصغى كوفرين إلى الكلمات ـ وكانت بالروسية ـ ولم يستطع أبدا أن يفهم معناها. وأخيرًا ترك الكتاب وأصاخ بإمعان ففهم: سمعت فتاة مصابة بالوهم فى الحديقة ليلا أصواتًا غامضة، رائعة وغريبة إلى درجة كان ينبغى معها أن تعتبرها هارمونيًا مقدسًا، ليس مفهومًا لنا ـ نحن الفانين ـ ولهذا يعود أدراجه طائرًا إلى السماء.

وأخذ جفنا كوفرين ينطبقان. فنهض وتمشى فى غرفة الجلوس مرهقًا، ثم فى الصالة. وعندما توقف الغناء تأبط ذراع تانيا وخرج معها إلى الشرفة. وقال:

ـ منذ الصباح تشغل بالى إحدى الأساطير. لا أذكر هل قرأتها فى كتاب ما أو سمعتها، ولكنها أسطورة غريبة، لا مثيل لها. فهى قبل كل شىء لا تتميز بالوضوح. فقبل ألف عام سار راهب، يرتدى السواد، فى الصحراء، فى مكان ما فى سوريا أو الجزيرة العربية.. وعلى بعد عدة أميال من المكان الذى كان يسير فيه رأى الصيادون راهبًا آخر كان يمشى ببطء على سطح البحيرة. وكان هذا الراهب الثانى سرابا. والآن انسى كل قوانين البصريات، التى يبدو أن الأسطورة لا تعترف بها، واسمعى التالى. من ذلك السراب تكون سراب آخر، ومن الآخر تكون ثالث، حتى إن صورة الراهب الأسود أصبحت تتنقل بلا نهاية من إحدى طبقات الجو إلى الأخرى. وشوهد تاره فى إفريقيا، وتارة فى أسبانيا، وتارة فى الهند، وتارة فى أقصى الشمال.. وأخيرًا تجاوز نطاق الغلاف الجوى الأرضى وأصبح الآن يضرب فى الكون دون أن يصادف محيطًا تنطفئ صورته فيه. وربما يرونه الآن فى مكان ما على المريخ، أو فى إحدى نجوم الصليب الجنوبى. ولكن أهم مافى الأمر يا عزيزتى، الشىء المحورى فى الأسطورة، هو أنه بعد ألف عام بالضبط من ذلك الزمن الذى كان الراهب فيه يقطع الصحراء، سيعود السراب ثانية إلى الغلاف الجوى الأرضى ويظهر للناس. وكما لو كانت هذه الأعوام الألف على وشك الانقضاء.. وحسب مغزى الأسطورة فعلينا أن نتوقع ظهور الراهب الأسود بين يوم وليلة.

ـ سراب غريب.. ـ قالت تانيا التى لم تعجبها الأسطوره.

فضحك كوفرين قائلاً:

ـ ولكن أغرب ما فى الأمر أننى لا أستطيع أبدا أن أتذكر من أين وردت هذه الأسطورة إلى رأسى؟ هل قرأتها؟ هل سمعتها؟ أم ربما رأيت الراهب الأسود فى المنام؟ أقسم أننى لا أذكر. ولكن الأسطورة تشغل بالى. إننى أفكر فيها اليوم طوال النهار.

وترك تانيا تنصرف إلى ضيوفها وخرج من المنزل وتجول متفكرًا بجوار أحواض الزهور. كانت الشمس تغـرب ولأن الزهور قد رشت لتوها بالماء فقد تضوعت برائحة رطبة مثيرة للأعصاب. وتردد الغناء فى المنزل من جديد، وبدا صوت الكمان من بعيد أشبه بصوت بشرى. وأجهد كوفرين فكره ليتذكر أين قرأ أو سمع الأسطورة، ومضى على مهل إلى الحديقة فبلغ النهر دون أن يلحظ.

وهبط إلى النهر على الدرب الممتد على الشاطئ الشديد الانحدار بجوار الجذور العارية، فأزعج البكاشين وأفزع بطتين. وعلى ذؤابات الصنوبرات الجهمة كانت آخر أشعة الشمس الغاربة تنعكس هنا وهناك، ولكن المساء كان قد حل تمامًا على سطح النهر. وعبر كوفرين إلى الضفة الأخرى فوق قنطرة. أصبح أمامه الآن حقل واسع مغطى بجودار فتى لم يزدهر بعد. ولم يكن هناك مسكن بشرى أو روح حية على مدى البصر، وبدا أن الدرب، لو سرت عليه، لأفضى بك إلى ذلك المكان الغامض المجهول الذى هبطت فيه الشمس لتوها، والذى يتوهج فيه المغيب بهذا الاتساع والعظمة.

وفكر كوفرين وهو يسير على الدرب: «يا للرحابة والحرية والهدوء هنا ! يبدو أن الدنيا كلها تنظر إلىَّ، وقد كتمت أنفاسها فى انتظار أن أفهمها..»

وها هو ذا الجودار يتموج، ومس نسيم المساء الخفيف رأس كوفرين الحاسر برقة. وبعد دقيقة هبت دفقة ريح ثانية، ولكنها أقوى، فصخب الجودار، وتناهى من الخلف هزيم الصنوبرات المكتوم. وتوقف كوفرين مأخوذا. فعند الأفق تصاعد من الأرض حتى السماء عمود أسود طويل، يشبه الزوبعة أو الدوامة الهوائية. ولم تكن حدوده واضحة، ولكن كان من الممكن منذ الوهلة الأولى إدراك أنه لم يكن ثابتًا فى مكانه، بل يتحرك بسرعة رهيبة، يتحرك إلى هنا بالذات، نحو كوفرين مباشرة، وكلما اقترب أصبح أصغر وأوضح. وارتمى كوفرين جانبًا فى الجودار ليفسح له الطريق، وبالكاد تمكن من ذلك..

مرق بجواره، راهب فى حلة سوداء، برأس أشيب وحاجبين أسودين، وقد عقد ذراعيه على صدره.. ولم تكن قدماه الحافيتان تمسان الأرض. وبعد أن مرق إلى مسافة ثلاث أذرع التفت إلى كوفرين، وأومأ برأسه وابتسم له ابتسامه رقيقة ولكنها فى الوقت نفسه ماكره. ولكن كم كان وجهه شاحبًا، شاحبًا إلى درجة فظيعة، ونحيلاً! وأخذ يكبر مرة أخرى فعبر النهر طائرًا، وارتطم دون صوت بالشاطئ الطينى والصنوبرات، ونفذ من خلالها، ثم اختفى كالدخان.

ودمدم كوفرين:

ـ أرأيتم إذن.. وهكذا فالأسطورة صادقة.

لم يحاول أن يشرح لنفسه هذه الظاهره الغريبة، وأرضاه فحسب أنه استطاع أن يرى بهذا القرب والوضوح لا حلة الراهب السوداء فقط، بل ووجهه وعينيه أيضا، فعاد إلى المنزل وهو يشعر باضطراب لطيف.

فى الحديقة وفى البستان كان الناس يغدون ويروحون فى هدوء، وفى المنزل كانوا يعزفون، وإذن فهو وحده الذى رأى الراهب. وتملكته رغبة شديدة فى أن يخبر بذلك تانيا ويجور سيميونيتش، ولكنه أدرك أنهما، فى الغالب، سيعتبران روايته هذيانا، وسيفزعهما ذلك؛ فمن الأفضل إذن أن يصمت. وأخذ يضحك بصوت عال، ويغنى، ويرقص المازوركا، وكان يشعر بالمرح، فاعتبر الجميع ـ الضيوف وتانيا ـ أن وجهه يبدو اليوم بصورة خاصة، نورانيا، ملهما، وأنه شخص طريف للغاية.

٣

بعد العشاء، عندما انصرف الضيوف، ذهب إلى غرفته وتمدد على الكنبة، فقد كان يريد أن يفكر فى الراهب. ولكن سرعان ما دخلت تانيا.

ـ خذ يا أندريوشا، اقرأ مقالات أبى ـ قالت وهى تقدم له رزمة من الكراريس والملازم المطبعية ـ مقالات ممتازة. إنه يكتب بصورة رائعة.

ـ دعيك من المبالغة! ـ قال يجور سيمونيتش الذى دخل فى أثرها ـ وهو يضحك بتصنع؛ فقد كان خجلا ـ لا تصغ إليها من فضلك، لا تقرأ! وعمومًا إذا أردت أن تنعس فلتقرأها إذن، وسيلة منومة رائعة.

فقالت تانيا بيقين راسخ:

ـ فى رأيى أنها مقالات عظيمة. اقرأها يا أندريوشا، وأقنع بابا بأن يكتب أكثر. بإمكانه أن يكتب دورة محاضرات كاملة فى فلاحة البساتين.

قهقة يجور سيمونيتش بتوتر، وتضرج وجهه، وأخذ يقول عبارات من تلك التى يقولها المؤلفون المحرجون عادة. وأخيرًا بدأ يستسلم.

ـ فى هذه الحالة اقرأ أولا مقالة جوشيه ثم هذه المقالات الروسية ـ دمدم وهو يقلب الكراريس بأصابع مرتعشة ـ وإلا فلن تكون المسائل مفهومه لك. فقبل أن تقرأ اعتراضاتى ينبغى أن تعرف علام أعترض. وعمومًا، كلام فارغ.. فى غاية الملل. ثم إن موعد النوم قد حان، كما أظن.

خرجت تانيا. وجلس يجور سيميونيتش إلى جانب كوفرين على الكنبة وزفر بعمق.

ـ نعم يا أخى.. ـ شرع يقول بعد فترة صمت ـ هكذا يا عزيزى الماجستير. ها أناذا أكتب مقالات، وأشارك فى المعارض، وأحصل على ميداليات.. ويقولون إن التفاحة عند بيسوتسكى بحجم الرأس، ويقولون أن بيسوتسكى كوّن لنفسه ثروة من البستان. وباختصار، كوتشوبى غنى وشهير[1]. ولكن السؤال هو: وما جدوى ذلك؟ صحيح أن البستان رائع، نموذجى.. ليس بستانًا، بل مؤسسة كاملة ذات أهمية كبرى على مستوى الدولة؛ لأنه ـ إذا جاز التعبير ـ خطوة إلى العصر الجديد للاقتصاد الروسى والصناعة الروسية. ولكن ما جدواه؟ ما الهدف؟

---

(١) البيت الأول من قصيدة بوشكين «بولتافا»، وكوتشوبى إحدى شخصيات هذه القصيدة (المعرب).

ـ عملكم يشهد لنفسه بنفسه.

ـ لا أقصد هذا المعنى. إننى أريد أن أسأل: ما الذى سيحدث للبستان عندما أموت؟ لن يبقى بعد وفاتى شهرًا واحدًا بهذه الصورة التى تراه عليها. إن سر النجاح ليس فى كون البستان كبيرًا والعمال كثيرين، بل فى أننى أحب هذا العمل، أتفهم؟ أحبه ربما أكثر من نفسى. انظر إلىَّ، إننى أصنع كل شىء بنفسى. إننى أعمل من الصباح إلى المساء. التطعيم كله أجريه بنفسى، والتقليم بنفسى، والشتل بنفسى، كل شىء بنفسى. وعندما يساعدنى أحد أشعر بالغيرة وأستثار إلى حد الخشونة. السر كله فى الحب، أى فى العين المدبرة اليقظة، وفى الأيدى المدبرة، وأيضًا فى ذلك الإحساس الذى يراودك عندما تذهب ضيفًا إلى أحد ما لمدة ساعة فتشعر وأنت هناك بأن قلبك فى غير مكانه، وأنت نفسك على غير طبيعتك إذ تخشى أن يحدث شىء للبستان. فمن ذا الذى سيعتنى به بعد أن أموت؟ من ذا الذى سيعمل؟ البستانى؟ العمال؟ نعم؟ إذن فلتسمع ما أقوله لك يا صديقى العزيز: إن العدو الأول لعملنا ليس الأرنب أو الخنفساء أو الصقيع، بل الشخص الغريب.

فسأله كوفرين ضاحكًا:

ـ وتانيا؟ لا يمكن أن تكون أكثر ضررا من الأرانب. إنها تحب هذا العمل وتفهمه.

ـ نعم، إنها تحبه وتفهمه. لو أن البستان آل إليها بعد وفاتى وأصبحت صاحبته، فليس هناك بالطبع من هو أفضل من ذلك. ولكن ماذا ـ لا قدر الله ـ لو تزوجت؟ ـ همس يجور سيميونيتش، ونظر إلى كوفرين بفزع ـ تلك هى المسألة! ستتزوج، وتنجب أطفالا، وعندها لا يصبح لديها وقت للتفكير فى البستان. إن أكثر ما أخشاه أن تتزوج من شاب ما، ويتملك الجشع هذا الشاب فيؤجر البستان للبائعات، فيذهب كل شىء إلى الشيطان فى أول سنة! النساء فى عملنا هذا لعنة مسلطة!

تنهد يجور سيميونيتش وصمت قليلا. ثم قال:

ـ ربما كانت هذه أنانية، ولكنى أقول لك بصراحة:

أنا لا أريد لتانيا أن تتزوج. أخاف! يوجد هنا غندور يزورنا بكمان ويطنطن عليه. وأعرف أن تانيا لن تتزوجه، أعرف جيدًا، ومع ذلك لا أطيق رؤيته! وعموما يا أخى فأنا فعلا غريب الأطوار. أعترف بذلك.

نهض يجور سيميونيتش، وذرع الغرفة منفعلا، وكان واضحا أنه يريد أن يقول شيئًا مهمًا للغاية ولكنه لا يجرؤ.

ـ إننى أحبك بحرارة وسوف أكون صريحًا معك ـ قرر أخيرًا أن يقول، وقد دس يديه عميقًا فى جيبيه ـ أنا أنظر إلى بعض الأمور الحساسة ببساطة، وأقول مباشرة ما أفكر فيه، ولا أطيق ما يسمى بالأفكار المكنونة. أقول لك بصراحة: أنت الشخص الوحيد الذى لا أخشى أن أزوجه ابنتى. أنت رجل ذكى، ذو قلب، ولن تسمح لعملى المحبوب أن يهلك. أما السبب الرئيسى فهو أننى أحبك كابنى.. وأفخر بك. ولو نشأت بينك وبين تانيا علاقة فليكن. سأكون مسرورًا جدا، بل وسعيدًا. أقول لك هذا بصدق، دون تكلف، كرجل شريف.

ضحك كوفرين. وفتح يجور سيميونيتش الباب ليخرج، ثم توقف على العتبة.

ـ لو ولد لك ولد من تانيا لجعلت منه خبير بساتين ـ قال بعد تفكير ـ وعموما فما هى إلا أحلام فارغة.. طابت ليلتك.

عندما أصبح كوفرين وحده تمدد فى وضع مريح وتناول المقالات. كان عنوان إحداها: «حول المحصول الانتقالى»، وعنوان الأخرى: «تعليق قصير على مقال السيد (س) حول تقليب التربة لإقامة بستان جديد»، وكان عنوان الثالثة: «مرة أخرى عن التطعيم بالأكمام النائمة»، وهكذا دواليك. ولكن أية نبرة منفعلة، عصبية، أى حماس يكاد يكون مرضيًا! ها هى ذى مقالة بعنوان يبدو مسالما للغاية وبمحتوى محايد، وهى تتحدث عن تفاح أنطونوفكا

الروسى. ولكن يجور سيميونيتش يبدأها «audiatur altera pars»[1] وينهيها بـ «sapienti sat»[2] وبين هاتين العبارتين شلال دافق من الكلمات اللاذعة الموجهة إلى «الجهل العلمى للسادة خبرائنا المعترف بهم فى فلاحة البساتين الذين يراقبون الطبيعة من منابرهم الجامعية»، أو إلى السيد جوشيه «الذى أحرز نجاحه بفضل الجهلة والهواة»، ثم أسف غير مناسب، وغير صادق، على أنه لم يعد من الممكن جلد الفلاحين الذين يسرقون الفواكه ويحطمون الأشجار أثناء ذلك.

وفكر كوفرين: «قضية جميلة، لطيفة، وسليمة، ولكن حتى هنا تلتهب الغيرة وتشتعل الحرب. لا بد أن الأشخاص العقائديين هم فى كل مكان ومجال عصبيون ويتميزون بحساسية عالية. ربما كان ذلك مطلوبًا».

وتذكر تانيا التى تعجبها جدًا مقالات يجور سيميونيتش. قصيرة القامة، شاحبة، نحيلة إلى درجة بروز عظام الترقوة. عيناها مفتوحتان باتساع، داكنتان، ذكيتان، تحدقان دائمًا بإمعان وتبحثان دائمًا عن شىء ما. ومشيتها، كمشية أبيها، دقيقة، متعجلة. وهى تتحدث كثيرا، وتهوى الجدل، وخلال ذلك تصاحب كل عبارة، حتى التافهة بحركات الوجه واليدين. يبدو أنها عصبية إلى أقصى حد.

وواصل كوفرين القراءة، ولكنه لم يفهم شيئًا فتركها. وذلك الانفعال اللطيف، الذى رقص به المازوركا واستمع إلى الموسيقى منذ قليل، أصبح الآن يعذبه ويثير فيه أفكارًا كثيرة. فنهض، وأخذ يذرع الغرفة، وهو يفكر فى الراهب الأسود. وخطر بذهنه أنه إذا كان هو وحده الذى رأى هذا الراهب الغريب، الخارق، فهذا يعنى أنه مريض وبلغ به الأمر حد التهيؤات. وأخافه هذا الخاطر، ولكن لوقت قصير.

---

(١) «فليسمعوا الطرف الآخر» (باللاتينية فى الأصل).

(٢) «الذكى يكفيه» (باللاتينية فى الأصل).

«ولكنى أشعر بالراحة، ولا أسبب أذى لأحد، وإذن فليس فى تهيؤاتى أى شىء سيئ» ـ فكر كوفرين، ومن جديد أحس بالراحة.

وجلس على الكنبة ووضع رأسه بين يديه وهو يكتم فرحة غير مفهومة ملأت كل كيانـه، ثم راح وجاء مرة أخرى، وجلس إلى المكتب ليعمل. ولكن الأفكار التى قرأها فى الكتاب لم ترضه. كان يرغب فى شىء عملاق، لا حدود له، مذهل. وقبيل الصباح نزع ملابسه وأوى مكرها إلى الفراش، فمن المفروض فى النهاية أن ينام!

وعندما سمع كوفرين وقع خطوات يجور سيميونيتش الذى خرج إلى البستان، دق الجرس وأمر الخادم أن يحضر له نبيذا. وشرب عدة كؤوس من نبيذ «لافيت» بلذة، ثم تغطى حتى رأسه. وغام وعيه، ثم نعس.

٤

كان يجور سيميونيتش وتانيا كثيرا ما يتشاجران فيكيل كل منهما للآخر كلمات مسيئة.

وفى هذا الصباح تشاجرا بسبب شىء ما. وبكت تانيا وانصرفت إلى غرفتها. ولم تخرج للغداء ولا لتناول الشاى. وفى البداية سار يجور سيميونيتش متخذا سيماء الأهمية، عابسًا، كما لو كان يريد أن يظهر أن مصالح العدالة والنظام بالنسبة له أسمى من أى شىء فى الدنيا، ولكنه لم يستطع أن يصمد طويلا وسرعـان ما انهـارت معنوياته. وأخذ يتجول فى الحديقة حزينًا ويتنهد: «آه، يا إلهى، يا إلهى!»، ولم يذق فى الغداء لقمة واحدة. وأخيرًا مضى مذنبا، معذب الضمير إلى الباب الموصد فطرقه ونادى بوجل:

ـ تانيا! تانيا!

فسمع من خلف الباب صوتًا ضعيفًا، أرهقته الدموع ولكنه فى الوقت نفسه حازم:

ـ دعنى أرجوك.

وانعكست كآبة السادة على البيت كله، حتى على العاملين فى البستان. وكان كوفرين منهمكا فى عمله الشيق، ولكن حتى هو، أحس فى النهاية بالملل والحرج. ولكى يبدد المزاج العام السيئ بشكل ما، قرر أن يتدخل، فدق باب غرفة تانيا قبيل المساء. وسمحت له بالدخول.

ـ عيب، عيب، ألا تخجلين؟ ـ بدأ يقول مازحا وهو ينظر بدهشة إلى وجه تانيا الباكى، الحزين، المغطى ببقع حمراء ـ الأمر جد هكذا؟ عيب عليك.

ـ آه لو تعلم كيف يعذبنى! قالت تانيا وانهمرت دموع مريرة غزيرة من عينيها الواسعتين ـ لقد عذبنى تمامًا! ـ استطردت وهى تلوى ذراعيها ـ أنا لم أقل له شيئًا.. أبدا.. قلت فقط إنه لا داعى للاحتفاظ.. بعمال زائدين، طالما.. طالما من الممكن فى أى وقت استئجار عمال مياومين. العمال.. العمال لا يفعلون شيئًا طوال أسبوع.. أنا.. هذا فقط ما قلته، فصرخ فىَّ، وانهال علىَّ بكلمات مسيئة، مهينة جدا، لماذا؟

فقال كوفرين وهو يسوى شعرها:

ـ كفى، كفى. تشاجرتما وبكيت فيكفى. لا يصح الزعل طويلا، هذا ليس حسنا.. وخاصة إنه يحبك بلا حدود.

فمضت تانيا تقول وهى تشهق:

ـ إنه.. إنه أفسد حياتى. لا أسمع منه سوى الإساءات.. و .. والإهانات. إنه يعتبرنى زائدة فى بيته. حسنا، إنه على حق. سأرحل من هنا غدا، وألتحق بمكتب تليغراف.. ليكن..

ـ طيب، طيب، طيب.. لا داعى للبكاء يا تانيا. لا داعى يا عزيزتى.. كلاكما سريع الغضب، عصبى، وكلاكما مخطئ. هيا، هيا أصالحكما.

كان كوفرين يتكلم بلطف وإقناع، بينما واصلت تانيا البكاء وكتفاها تنتفضان، وراحت تعصر يديها وكأنما حلت بها حقا فاجعة رهيبة. ومما زاد

من إشفاقه عليها أن مصابها كان بسيطا بينما كانت تعانى منه بشدة. أية أشياء تافهة كانت كافية لجعل هذا المخلوق تعيسا طول النهار، بل ربما طول العمر! وبينما كان كوفرين يهدئ تانيا، راح يفكر فى أنه لن يجد فى الدنيا كلها، ولو أعياه البحث ـ غير هذه الفتاة وأبيها أحدا يحبه كواحد منهم، كشخص عزيز قريب. ولولا هذان الشخصان لما عرف ـ فى الغالب حتى الممات، هو الذى فقد أباه وأمه فى طفولته المبكرة ـ معنى المودة الصادقة، وذلك الحب الساذج المسلم الذى نكنه فقط للأشخاص القريبين للغاية الذين تربطنا بهم أواصر الدم. وأحس أن أعصابه شبه المريضة، المستثارة تستجيب لأعصاب هذه الفتاة الباكية المنتفضة، كالحديد إلى المغناطيس. وما عاد فى وسعه أبدا أن يحب امرأة صحيحة، قوية، حمراء الخدين، ولكن تانيا الشاحبة الضعيفة، التعيسة، أعجبته.

فراح يمسد شعرها وكتفيها بسرور، ويضغط على راحتيها، ويمسح دموعها.. وأخيرا كفت عن البكاء. وظلت طويلا تشكو من أبيها وحياتها الشاقة التى لا تحتمل فى هذا البيت وتتوسل إلى كوفرين أن يتفهم وضعها. ثم أخذت شيئًا فشيئًا تبتسم وتتنهد إذ بلاها الله بهذا الطبع السيئ، ولكنها فى النهاية ضحكت بصوت عال، ووصفت نفسها بالحمقاء وانفلتت راكضة من الغرفة.

وعندما خرج كوفرين إلى البستان بعد ذلك بقليل، كان يجور سيميونيتش وتانيا يتنزهان معا فى الممر، كأن شيئًا لم يكن، وكان كلاهما يأكلان خبز الجودار بالملح، فقد كانا جائعين.

٥

ذهب كوفرين إلى الحديقة مسرورا من أنه وفق فى أن يلعب دور المصلح. وبينما كان جالسا على الأريكة يفكر سمع وقع عربات وضحكا نسائيًا.. لقد وصل الضيوف. وعندما ارتمت ظلال المساء على البستان، ترددت بوهن

أنغام كمان وأصوات تغنى، فذكره ذلك بالراهب الأسود. ترى أين يهيم الآن هذا اللامعقول البصرى، فى أى بلد أو فى أى كوكب؟

وما إن تذكر الأسطورة ورسم فى خياله ذلك الشبح الأسود الذى رآه فى حقل الجودار حتى خرج من وراء الصنوبرة، قبالته تماما بدون صوت، دون أدنى حفيف، رجل متوسط القامة، برأس أشيب حاسر، متشحا بالسواد، حافى القدمين، أشبه بالشحاذ، وفى وجهه الشاحب كوجه ميت، برز بحدة حاجباه الأسودان. اقترب هذا الشحاذ أو الجوال من الأريكة دون صوت فجلس، وهو يومئ برأسه محييا، فعرف فيه كوفرين الراهب الأسود. ومضت دقيقة وهما يتبادلان النظر.. كوفرين بذهول، والراهب برقة، وكما فى المرة السابقة، بشىء من المكر، وبتعبير من يعرف شيئًا ويخفيه.

وقال كوفرين:

ـ ولكنك سراب. فلماذا أنت هنا ولماذا أنت جالس لا تتحرك؟ إن هذا لا يتفق والأسطورة.

فأجابه الراهب بعد فترة، بصوت خافت، ملتفتا بوجهه نحوه:

ـ هذه سيان. الأسطورة والسراب وأنا.. كل ذلك من وحى خيالك المستثار. أنا شبح.

فسأله كوفرين:

ـ إذن فلست موجودًا؟

ـ فكر كما تشاء ـ أجاب الراهب وابتسم بوهن ـ أنا موجود فى خيالك، وخيالك جزء من الطبيعة، وإذن فأنا موجود فى الطبيعة.

فقال كوفرين:

ـ وجهك عجوز وذكى جدا، ومعبر إلى أقصى حد، كأنك عشت بالفعل أكثر من ألف عام. لم أكن أعرف أن خيالى قادر على خلق هذه الخوارق. ولكن لماذا تنظر إلىَّ بهذا الإعجاب؟ هل أروق لك؟

ـ نعم. أنت واحد من أولئك القلائل الذين يدعون بأبناء الله المختارين. أنت تخدم الحقيقة الخالدة. وأفكارك، ونواياك، وعلمك المدهش، وحياتك كلها تحمل بصمات إلهية، سماوية، لأنها مكرسة لما هو حكيم وجميل، أى لما هو خالد.

ـ تقول: الحقيقة الخالدة.. ولكن هل يستطيع الناس بلوغ الحقيقة الخالدة، وهل هم بحاجة إليها إذا لم تكن هناك حياة خالدة؟

فقال الراهب:

ـ بل هناك حياة خالدة.

ـ أتؤمن بخلود البشر؟

ـ نعم، طبعًا. إن مستقبلاً عظيمًا باهرًا ينتظركم، أنتم البشر. وكلما كثر أمثالك على الأرض، تحقق هذا المستقبل أسرع. فلولاكم، أنتم الذين تخدمون الغاية الأسمى، وتعيشون بوعى وحرية، لكانت البشرية تافهة. ولو تطورت وفق النظام المألوف لظلت طويلا تنتظر نهاية تاريخها الأرضى. أما أنتم فسوف تدخلونها ملكوت الحقيقة الخالدة قبل الأوان ببضع آلاف من السنين، وتلك هى الخدمة الجليلة التى ستقدمونها، أنتم تجسدون البركة الإلهية التى لم يحظ بها البشر.

فسأل كوفرين:

ـ وما هى غاية الحياة الخالدة؟

ـ كغاية كل حياة: المتعة. إن المتعة الحقيقية هى فى المعرفة، والحياة الخالدة ستقدم منابع عديدة لا تنفد للمعرفة، وفى هذا المعنى بالذات قيل: إن فى بيت أبى منازل كثيرة[1].

---

(١) إنجيل يوحنا، الفصل الرابع عشر، الآية ٢. (المعرب).

فقال كوفرين وهو يفرك يديه من المتعة:

ـ آه لو تدرى كم أستمتع بسماعك!

ـ مسرور جدًا.

ـ ولكى أعرف أنك حينما تمضى سوف يؤرقنى السؤال عن طبيعتك. أنت شبح، تهيؤات. وإذن فأنا مريض نفسيًا، مجنون؟

ـ حتى لو كان كذلك. فيم الخجل؟ أنت مريض لأنك عملت فوق طاقتك وأجهدت نفسك، وهذا يعنى أنك ضحيت بصحتك فى سبيل الفكرة، وقريبًا يحل الوقت الذى تهبها فيه حياتك أيضًا. فهل هناك ما هو أفضل؟ إن هذا هو ما تسعى إليه عادة كل الشخصيات الموهوبة النبيلة.

ـ وإذا ما كنت أعرف أننى مريض نفسيًا، فهل أستطيع إذن أن أثق فى نفسى؟

ـ ولماذا تعتقد أن العباقرة، الذين يثق بهم العالم أجمع، لم يروا هم أيضًا أشباحًا؟ ألا يقول العلماء الآن أن العبقرية صنو الجنون. يا صديقى، الأصحاء والطبيعيون هم فقط الأشخاص العاديون، أفراد القطيع. إن الاعتبارات التى تذكر بخصوص عصر القلق، والإرهاق، والإنحلال... إلخ، لا يمكن أن تثير أحدا سوى أولئك الذين يرون غاية الحياة فى الحاضر، أى أفراد القطيع.

ـ ولكن الرومان قالوا: mens sana in corpore sano [1].

ـ ليس كل ما قاله الرومان أو الإغريق حقيقة. فالمزاج العالى، والاستثارة، والنشوة، أى كل ما يميز الأنبياء والشعراء وشهداء الفكرة عن الناس العاديين، يتنافر مع الجانب الحيوانى فى الإنسان، أى مع صحته البدنية. أكرر: إذا أردت أن نكون صحيحًا وطبيعيًا، فاذهب إلى القطيع.

---

(١) العقل السليم فى الجسم السليم (باللاتينية فى الأصل).

فقال كوفرين:

ـ غريب أنك تكرر ما يطوف كثيرًا بذهنى. كأنك تلصصت وتنصّت إلى أفكارى المكنونة. ولكن دعنا نترك الحديث عن شخصى. ما الذى تعنيه بالحقيقة الخالدة؟

لم يرد الراهب. وتطلع كوفرين إليه فلم يميز وجهه.. تضببت ملامحه وتلاشت. ثم أخذ يختفى رأس الراهب، ويداه، واختلط بدنه بالأريكة وغسق المساء، ثم تلاشى تمامًا.

ـ انتهت التهيؤات! ـ قال كوفرين ثم ضحك ـ يا خسارة.

وعاد أدراجه إلى البيت مرحًا وسعيدًا. لم تهدهد تلك الكلمات القليلة التى قالها له الراهب الأسود غروره، بل روحه كلها، وكيانه كله. أن يكون من المختارين، أن يخدم الحقيقة الخالدة، أن يكون فى عداد أولئك الذين سيجعلون البشرية جديرة بملكوت الله قبل الأوان بعدة آلاف من السنين، أى يريحون الناس من عدة آلاف سنين لا مبرر لها من النضال والذنوب والعذاب، أن يهب الفكرة كل شىء: صباه وقواه وصحته، أن يكون مستعدًا للموت فى سبيل خير الجميع.. يا له من قدر سام سعيد! وومض فى ذاكرته ماضيه، البرىء، الطاهر، المفعم بالعمل، وتذكر ما تعلمه وما علمه هو نفسه للآخرين، فقرر أنه لم تكن هناك مبالغة فيما قاله الراهب.

كانت تانيا تسير نحوه فى الحديقة. وكانت قد غيرت فستانها. قالت:

ـ أنت هنا؟ ونحن نبحث عنك ونفتش.. ولكن ماذا بك؟ ـ قالت بدهشة وهى ترى وجهه المفعم بالإعجاب والبريق وعينيه المليئتين بالدموع ـ كم أنت غريب يا أندريوشا.

فقال كوفرين وهو يضع يديه على كتفيها:

ـ أنا مبسوط يا تانيا. بل أكثر من مبسوط، أنا سعيد! تانيا، يا تانيا العزيزة، أنت مخلوق لطيف للغاية. تانيا العزيزة، كم أنا مسرور، كم أنا مسرور!

ولثم يديها بحرارة واستطرد:

ـ لقد عشت منذ قليل لحظات مشرقة، خلابة، سامية. ولكنى لا أستطيع أن أروى لك كل شيء لأنك ستعتبريننى مجنونًا أو لا تصدقيننى. فلنتحدث عنك. تانيا العزيزة الرائعة! إننى أحبك وأصبحت آلف حبك. أصبح قربك ولقاؤنا عشر مرات فى اليوم حاجة لا غنى عنها لروحى. لا أعرف كيف سأعيش بدونك عندما أعود إلى دارى.

فضحكت تانيا:

ـ أوه! سوف تنسانا بعد يومين. نحن ناس صغار، وأنت رجل عظيم.

فقال كوفرين:

ـ كلا، فلنتحدث جديًا! سوف آخذك معى يا تانيا. حسنا؟ هل تأتين معى؟ هل تريدين أن تصبحى لى؟

ـ أوه! ـ قالت تانيا وأرادت أن تضحك ثانية، ولكنها لم تفلح، وظهرت بقع حمراء على وجهها.

ـ وترددت أنفاسها بتلاحق، واندفعت تسير بسرعة، ولكن ليس باتجاه المنزل، بل إلى عمق الحديقة.

ـ أنا لم أفكر فى ذلك.. لم أفكر! ـ قالت وهى تعصر يديها كأنما فى يأس.

وسار كوفرين خلفها وهو يقول بنفس الوجه المشرق الطافح بالإعجاب:

ـ إننى أريد حبا يستولى على كل كيانى، وهذا الحب لا يستطيع أن يهبه لى إلا أنت يا تانيا. أنا سعيد! سعيد!

كانت مذهولة، فانطوت وانكمشت كأنما كبرت فجأة عشرة أعوام، أما هو فكان يراها رائعة ويعبر عن إعجابه بصوت عال:

ـ كم هى جميلة!

٦

عندما علم يجور سيميونيتش من كوفرين أنه لم تنشأ بينه وبين تانيا علاقة فحسب، بل سيكون عرس أيضًا، أخذ يذهب ويجىء طويلاً من ركن إلى ركن محاولاً إخفاء اضطرابه. وأصابت الرعشة يديه، وانتفخ عنقة وتضرج، فأمر بإعداد العجلة الخفيفة ورحل إلى جهة ما. وعندما رأت تانيا كيف أهوى بالسوط على الحصان، وكيف شد العمرة عميقًا على رأسه، حتى أذنيه تقريبًا، أدركت كنه مزاجه، فأغلقت غرفتها على نفسها وبكت طول النهار.

فى الدفيئات كان الخوخ والبرقوق قد نضجا. وكان تغليف هذه البضاعة الرقيقة والنزقة وإرسالها إلى موسكو يتطلب كثيرًا من العناية والجهد والمشاغل. ولما كان الصيف حارًا وجافًا، فقد كان ينبغى رى كل شجرة، الأمر الذى استهلك الكثير من الوقت والأيدى العاملة، وظهرت الديدان بكمية رهيبة، فكان العمال، وحتى يجور سيميونيتش وتانيا، يسحقونها بأصابعهم مباشرة، مما أثار تقزز كوفرين البالغ. وعلاوة على ذلك فقد حان الوقت لتلقى الطلبات لتوريد الفواكه والأشجار فى الخريف والقيام بمكاتبات كثيرة. وفى إبان هذه الفترة الحرجة، حين بدا أن أحدا لا يملك دقيقة فراغ حل أوان أعمال الحقول، التى انتزعت من البستان أكثر من نصف العمال. وكان يجور سيميونيتش، الذى اسمر بشدة، يركض معذبًا، غاضبًا، تارة إلى البستان، وتارة إلى الحقل، ويصرخ بأنهم يمزقونه إربا، وأنه سيطلق رصاصة على رأسه.

أضف إلى ذلك مشاغل جهاز العروس، الذى كان آل بيسوتسكى يولونه أهمية غير قليلة. ومن رنين المقصات ودق ماكينات الخياطة، ودخان المكاوى،

ومن نزق مصممة الأزياء، تلك السيدة العصبية السريعة الغضب، دارت رؤوس كل أهل البيت. وكأنما نكاية بهم أخذ الضيوف يأتون كل يوم، فكان لا بد من تسليتهم وإطعامهم، بل وإبقائهم للمبيت أحيانًا. ولكن كل هذه الأشغال الشاقة مرت دون أن تلاحظ، وكأنما من خلال الضباب. وكانت تانيا تشعر وكأنما دهمها الحب والسعادة بغتة، رغم أنها كانت منذ الرابعة عشرة من عمرها واثقة لسبب ما بأن كوفرين سيتزوج منها بالذات. كانت تشعر بالذهول والدهشة ولم تصدق نفسها.. وتارة تغمرها فرحة بحيث تود لو حلقت إلى عنان السماء فتصلى هناك لله، وتارة تتذكر فجأة أنه سيكون عليها فى أغسطس أن تفارق عشها الحبيب وتترك أباها، أو تواتيها من حيث لا يعلم إلا الله فكرة أنها تافهة، ضحلة وغير جديرة برجل عظيم مثل كوفرين، فتمضى إلى غرفتها وتوصدها عليها وتبكى بحرقة لعدة ساعات. وعندما يزورهم ضيوف يخيل إليها بغتة أن كوفرين جميل بصورة غير عادية، وأن جميع النساء مغرمات به ويحسدنها، فتمتلئ روحها بالإعجاب والفخر، كأنما انتصرت على العالم أجمع، ولكن ما إن يبتسم كوفرين لآنسة ما، حتى تنتابها رعشة الغيرة، فتمضى إلى غرفتها، فإلى الدموع ثانية. واستولت عليها تمامًا هذه المشاعر الجديدة، فكانت تساعد أباها بطريقة آلية ولا تلاحظ الخوخ أو الديدان أو العمال، أو مرور الوقت بهذه السرعة.

وكان نفس الشيء تقريبًا يحدث ليجور سيمونيتش. كان يعمل من الصباح إلى المساء، ودائمًا يقصد على عجل جهة ما، ويفقد أعصابه ويتوتر، ولكن ذلك كله كان يجرى فى شبه حلم مسحور. وكأنما كان يستقر داخله شخصان: أحدهما يجور سيميونيتش الحقيقى، الذى كان، وهو يصغى إلى تقرير البستانى إيفان كارليتش عن المخالفات، يغلى غضبًا ويمسك رأسه بيديه فى يأس، والثانى شخص آخر، غير حقيقى، كأنما شبه ثمل، يقطع فجأة حديث العمل، ويربت عى كتف البستانى ويشرع يدمدم:

- أيا ما كان الأمر، فالدم يعنى الكثير. لقد كانت أمه امرأة مدهشة، فى غاية

النبل والذكاء. كان من الممتع أن تنظر إلى وجهها الطيب الصبوح الصافى كوجه ملاك. كانت ترسم بروعة، وتنظم الأشعار، وتتحدث بخمس لغات أجنبية، وتغنى.. المسكينة، عليها الرحمة، ماتت بالسل..

ويتنهد يجور سيميونيتش غير الحقيقى، ويصمت قليلاً، ثم يستطرد:

ـ عندما كان صغيرا يتربى عندى كان له مثل ذلك الوجه الملائكى الصبوح الطيب. ونظراته وحركاته وحديثه رقيقة ورشيقة مثلما لدى أمه. وذكاؤه؟ كان دائمًا يذهلنا بذكائه. يكفى أنه أصبح ماجستيرا ليس صدفة! ليس صدفة! انتظر يا إيفان كارليتش وسترى كيف سيصبح بعد عشر سنوات! لن تبلغه يدك!

ولكن يجور سيميونيتش الحقيقى يستدرك فجأة، فيصبح وجهه رهيبًا، ويمسك برأسه ويصيح:

ـ الشياطين! أفسدوا البستان، دنسوه، لوثوه! ضاع البستان! هلك البستان!

أما كوفرين فكان يعمل بدأبه السابق ولم يلاحظ الهرج. وصب الحب المزيد من الزيت على النار. وبعد كل لقاء مع تانيا كان يعود إلى غرفته سعيدًا، معجبًا، وبنفس الهيام الذى قبّل به تانيا منذ قليل وباح لها بحبه، ينكب على كتاب أو على مخطوطه. كان ما قاله الراهب الأسود عن أبناء الله المختارين، عن الحقيقة الخالدة، عن مستقبل البشرية الباهر وغير ذلك، يضفى على عمله أهمية خاصة، غير عادية، ويملأ روحه بالاعتزاز والإدراك لسموه. وكان يلتقى بالراهب الأسود مرة أو مرتين أسبوعيًا، فى الحديقة أو فى المنزل، فيتحدث معه طويلاً، ولكن ذلك لم يخفه، بل بالعكس، أثار إعجابه، لأنه أصبح على ثقة تامة بأن مثل هذه الرؤى لا تراود إلا المختارين، البارزين، الذين وهبوا حياتهم لخدمة الفكرة.

وذات مرة جاء الراهب أثناء الغداء فجلس بجوار النافذة فى غرفة الطعام. وفرح كوفرين، وأدار حديثًا مع يجور سيميونيتش وتانيا بمهارة كبيرة عما يمكن أن يكون شبقًا للراهب.

وأصغى الضيف الأسود وهو يهز رأسه ببشاشة، وأصغى يجور سيميونيتش وتانيا أيضًا وهما يبتسمان بمرح، دون أن يفطنا إلى أن كوفرين لا يتحدث إليهما، بل إلى تهيؤاته.

لم يلاحظوا كيف اقترب صيام الرفع، وسرعان ما تبعه يوم العرس الذى احتفلوا به، حسب رغبة يجور سيميونيتش الملحة، «بفرقعة»، أى بازدحام مشوش استمر يومين. وأكلوا وشربوا بحوالى ثلاثة آلاف روبل، ولكنهم بسبب الفرقة الموسيقية المؤجرة السيئة، والأنخاب الزاعقة، وهرولة الخدم، بسبب الصخب والزحام لم يقدروا مذاق النبيذ الفاخر أو المزات المدهشة المجلوبة من موسكو.

٧

ذات ليلة طويلة من ليالى الشتاء كان كوفرين راقدا فى الفراش يقرأ رواية فرنسية. وكانت تانيا المسكينة، التى كانت تعانى من الصداع كل مساء لعدم تعودها على المعيشة فى المدينة، نائمة منذ وقت طويل، وأحيانًا تتفوه هاذية بعبارات ما غير مترابطة.

ودقت الساعة الثالثة. فأطفأ كوفرين الشمعة ورقد. وظل ممددًا فترة طويلة بعينين مغمضتين، ولكنه لم يستطع أن ينام لأن الجو فى غرفة النوم، كما خيل إليه، كان حارًا، وكانت تانيا تهذى. وفى الرابعة والنصف أشعل الشمعة ثانية وفى تلك اللحظة رأى الراهب الأسود جالسًا فى المقعد قرب السرير.

ـ مرحبًا ـ قال الراهب، ثم صمت قليلاً وسأله ـ فيم تفكر الآن؟

فقال كوفرين:

ـ فى الصيت. فى الرواية الفرنسية، التى كنت أقرأها لتوى يصور المؤلف شخصًا، عالمًا شابًا، يرتكب الحماقات ويذوى من الحنين إلى الصيت. هذا الحنين غير مفهوم لى.

ـ لأنك ذكى. أنت تنظر إلى الصيت بلا مبالاة، كدمية لا تثير اهتمامك.

ـ نعم، هذا صحيح.

ـ والشهرة لا تروق لك. فما هو الأمر المغرى، أو المسلى، أو ذو العبرة فى أن ينقشوا اسمك على تمثال القبر، ثم يمحو الزمن هذه الكتابة مع طلائها المذهب؟ ثم إنكم، ولحسن الحظ، أكثر من أن تحتفظ الذاكرة البشرية الضعيفة باسمائكم.

فقال كوفرين موافقًا:

ـ مفهوم، ثم ما الداعى لتذكرها؟ لكن هيا نتحدث عن شىء آخر. عن السعادة مثلاً. ما هى السعادة؟

عندما دقت الساعة الخامسة، كان جالسًا فى السرير، مدليًا ساقية على البساط، يتحدث مخاطبًا الراهب:

ـ فى الماضى أحس أحد السعداء فى نهاية الأمر بالخوف من سعادته لفرط ما كانت عظيمة! ولكى يتقى غضب الآلهة ضحى لهم بخاتمه الأثير. أتدرى؟ أنا أيضًا، مثل بوليقراط، بدأت أقلق نوعًا ما من سعادتى. إذ يبدو لى غريبًا أننى لا أشعر من الصباح إلى المساء إلا بالفرحة فقط، وهى تملأ كل كيانى، وتطغى على كل المشاعر الأخرى. أنا لا أعرف ما الحزن أو الأسى أو الملل. هاأناذا لا أنام، وينتابنى الأرق، ولكنى لا أشعر بالملل. أقول لك بجدية، لقد بدأت أستغرب.

فذهل الراهب وقال:

ـ فلماذا؟ هل الفرحة شعور خارق؟ أليس من المفروض أن تكون هى الحالة الطبيعية للإنسان؟ وكلما ارتقى الإنسان فى تطوره الذهنى والخلقى، وكلما أصبح أكثر تحررا، أصبحت الحياة تجلب له المزيد من المتعة. إن

سقراط وديوجين ومرقس أوريليوس كانوا يشعرون بالفرحة لا بالحزن. كما أن الرسول قال: افرحوا كل حين. فلتفرح إذن ولتكن سعيدًا.

ـ ولكن قد تغضب الآلهة؟ ـ قال كوفرين مازحا ثم ضحك ـ لو أنهم حرمونى من الرفاهية واضطرونى إلى حياة البرد والجوع فلا أظن أن ذلك سيروق لى.

وفى تلك الأثناء كانت تانيا قد استيقظت وأخذت تنظر إلى زوجها بذهول ورعب. كان يتحدث مخاطبًا المقعد، وهو يشيح بيديه ويضحك. وكانت عيناه تلمعان وكان فى ضحكه شىء ما غريب.

ـ أندريوشا مع من تتحدث؟ ـ سألته تانيا وهى تشد يده التى مدها نحو الراهب ـ أندريوشا! مع من تتحدث؟ فقال كوفرين محرجا:

ـ أه؟ مع من؟ معه.. ها هو ذا جالس ـ قال مشيرًا إلى الراهب الأسود.

ـ لا أحد هنا.. لا أحد! أندريوشا، أنت مريض!

وعانقت تانيا زوجها والتصقت به كأنما تحميه من الرؤى وأغمضت عينيه بيدها.

وانتحبت وبدنها كله يرتجف:

ـ أنت مريض! سامحنى يا حبيبى، يا عزيزى، ولكنى لا حظت من وقت طويل أن روحك مضطربة.. أنت مريض نفسيًا يا أندريوشا..

وانتقل ارتجافها إليه. ونظر مرة أخرى إلى المقعد، الذى أصبح الآن خاويًا، فأحس فجأة بضعف فى يديه وقدميه، وتملكه الخوف، وراح يرتدى ملابسه.

ودمدم وهو يرتعش:

ـ هذا لاشىء يا تانيا.. لا شىء. فعلا أنا معتل قليلاً.. ينبغى أن أعترف بذلك.

فقالت تانيا وهى تحاول كتمان النحيب:

ـ أنا لاحظت منذ وقت طويل.. وبابا أيضًا لاحظ. أنت تكلم نفسك، وتبتسم ابتسامات غريبة.. ولا تنام. أوه يا إلهى، يا إلهى أنقذنا! ـ قالت برعب ـ لكن لا تخف يا أندريوشا، لا تخف، بالله عليك لا تخف..

وراحت هى الأخرى ترتدى ثيابها. الآن فقط، عندما نظر كوفرين إليها، أدرك كل خطورة وضعه، أدرك ما الذى يعنيه الراهب الأسود وأحاديثه معه. لقد أصبح واضحًا له الآن أنه مجنون.

لبسا ملابسهما وهما لا يدريان لماذا وخرجا إلى الصالة، هى فى المقدمة وهو خلفها. وهنا أيضًا كان يقف يجور سيميونيتش، الذى نزل ضيفًا عليهما، فى الروب، حاملا شمعة بعد أن أيقظه النحيب.

وقالت تانيا وهى ترتعش كالمحمومة:

ـ لا تخف يا أندريوشا، لا تخف.. بابا، هذا سيزول.. كل شىء سيـزول..

ولم يستطع كوفرين أن يتحدث من شدة الانفعال. وأراد أن يقول لحميه بلهجة مازحة:

ـ هنئنى، يبدو أننى جننت. ـ ولكنه حرك شفتيه فقط وابتسم بمرارة.

وفى التاسعة صباحًا ألبسوه المعطف الصوفى ومعطف الفراء، ولفعوه بشال، ونقلوه فى عربة إلى الطبيب. وبدأ يتعالج.

٨

حل الصيف من جديد، ونصح الطبيب بالانتقال إلى الريف. وكان كوفرين قد شفى، ولم يعد يرى الراهب الأسود، ولم يبق إلا أن يعزز قواه البدنية. وأثناء

إقامته لدى حميه فى الريف أخذ يشرب اللبن بكثرة، ويعمل ساعتين فقط فى اليوم، وامتنع عن شرب الخمر وعن التدخين.

وعشية عيد القديس إيليا أقاموا فى المنزل صلاة المساء. وعندما أعطى الشماس المبخرة للقس فاحت فى الصالة العتيقة الضخمة رائحة كرائحة القبور، فأحس كوفرين بالملل. وخرج إلى البستان. ودون أن يلاحظ الزهور الفاخرة، تجول فى البستان، وجلس على الأريكة، ثم تمشى فى الحديقة. وعندما بلغ النهر هبط إلى أسفل، ووقف هناك متفكرًا وهو يحدق فى المياه. لم تعد الصنوبرات الجهمة ذات الجذور الكثة، والتى شهدته فى العام الماضى شابًا، فرحًا، نشيطًا، تهمس الآن، بل انتصبت جامدة خرساء، كأنما لم تتعرف عليه. وبالفعل، فقد كان رأسه حليقًا، ولم يعد لديه ذلك الشعر الطويل الجميل، وأصبحت مشيته ذابلة، وسمن وجهه، بالمقارنه مع العام الماضى، وشحب.

وعبر إلى الضفة الأخرى فوق القنطرة. وفى المكان الذى كان يغطيه الجودار فى العام الماضى امتدت الآن صفوف شعير محصود. وكانت الشمس قد غربت، وتوهج عند الأفق شفق أحمر عريض، منبئًا بطقس ريحى فى الغد. وساد الهدوء. وحدق كوفرين فى الجهة التى ظهر منها الراهب الأسود لأول مرة فى العام الماضى، ووقف حوالى عشرين دقيقة، إلى أن بدأ شفق المغيب يعتم..

وعندما عاد إلى البيت ذابلا غير راض، كانت الصلاة قد انتهت. وكان يجور سيميونيتش وتانيا جالسين على درجات الشرفة يشربان الشاى. كانا يتحدثان عن شىء ما، ولكنهما صمتا فجأة عندما شاهدا كوفرين فقرر من تعبير وجهيهما أنهما كانا يتحدثان عنه.

وقالت تانيا لزوجها:

ـ أظن أن الوقت قد حان لتشرب اللبن.

ـ لا، لم يحن.. ـ قال وهو يجلس على آخر درجة فى أسفل السلم ـ اشربيه أنت. أنا لا أريد.

تبادلت تانيا مع أبيها نظرة قلقة وقالت بنبرة ذنب:

ـ أنت نفسك تلاحظ أن اللبن مفيد لك.

فضحك كوفرين بسخرية:

ـ نعم، مفيد جدا! أهنئكم؛ منذ يوم الجمعة ازداد وزنى رطلاً آخر ـ وضغط رأسه بيديه بقوة وقال بأسى ـ لماذا، لماذا عالجتمونى؟ محاليل البروم، والبطالة، والحمامات الدافئة، والرقابة، والخوف الجبان من كل رشفة، من كل خطوة.. كل هذا سيؤدى بى فى النهاية إلى البله. نعم، لقد جننت، كنت مريضًا بجنون العظمة، ولكنى كنت مرحا، نشيطا، بل سعيدًا. كنت طريفًا وأصيلاً. والآن أصبحت أعقل وأرصن، ولكنى صرت مثل الجميع، أنا عادى، سئمت الحياة.. أوه، كم قسوتم علىَّ! كنت أرى تهيؤات، ولكن من ذا الذى كان يزعجه ذلك؟ إننى أسأل: من ذا الذى كان يزعجه ذلك؟

فتنهد يجور سيميونيتش وقال:

ـ الله يعلم ما هذا الذى تقول! حتى سماع هذا ممل.

ـ إذن لا تسمع.

كان وجود الآخرين، وبخاصة يجور سيميونيتش، يثير الآن كوفرين، فكان يرد عليه بجفاف وبرود، بل وحتى بغلظة، ولم يكن يعامله إلا بسخرية وكراهية، أما يجور سيميونيتش فكان يرتبك ويسعل بذنب، رغم أنه لم يكن يحس بأنه ارتكب أى ذنب. ولما لم تكن تانيا تفهم لماذا تغيرت بحدة علاقات الود والبشاشة بينهما، فقد التصقت بأبيها وأخذت تحدق فى عينيه بقلق. كانت تريد أن تفهم ولا تستطيع، وأصبح واضحًا لها شىء واحد، وهو أن علاقاتهما تتدهور من يوم إلى يوم، وأن أباها هرم بشدة فى الآونة الأخيرة، وأصبح زوجها عصبيًا، نزقا، متمحكا وغير طريف. ولم يعد فى وسعها أن تضحك أو تغنى،

ولم تكن تذوق شيئًا فى الغداء، ولا تنام ليالى كاملة وهى تتوقع شيئًا رهيبًا، وأنهكت إلى درجة أنها ظلت ذات مرة فى حالة إغماء من الغداء إلى المساء. وخيل إليها أثناء صلاة المساء أن أباها كان يبكى، أما الآن، وهم جالسون ثلاثتهم فى الشرفة، فقد جاهدت لكى لا تفكر فى ذلك.

وقال كوفرين:

ـ ما كان أسعد بوذا ومحمدً وشكسبير لأن أقاربهم الطيبين والأطباء لم يعالجوهم من النشوة والوحى! لو أن محمدًا كان يتناول بروميد البوتاسيوم من الأعصاب، ويعمل ساعتين فقط فى اليوم ويشرب اللبن لما تبقى بعد هذا الإنسان الرائع أكثر مما تبقى بعد كلبه. سيتمكن الأطباء والأقارب الطيبون فى نهاية الأمر من جعل البشرية تتبلد، وسوف تعتبر العادية عبقرية وستهلك الحضارة ـ وقال كوفرين بأسى ـ آه لو تعلمون كم أنا ممتن لكم!

أحس بضيق شديد، ولكى لا يتفوه بما لا داعى له نهض بسرعة ودخل المنزل. كان الهدوء يشمل المنزل، ومن النوافذ المفتوحة تناهت من البستان رائحة الطباق ونبات الحلبة. وفى الصالة الضخمة المظلمة انتشرت على الأرض والبيانو بقع خضراء من ضوء القمر. وتذكر كوفرين لحظات إعجابه فى العام الماضى، عندما تضوع شذى الحلبة أيضًا مثلما الآن ولاح ضوء القمر من النوافذ. ولكى يستعيد مزاج العام الماضى توجه بسرعة إلى غرفة المكتب، ودخن سيجارا قويًا وأمر الخادم أن يحضر له نبيذا. ولكنه أحس بطعم السيجار مرا وكريها فى فمه، ولم يكن النبيذ لذيذًا كما فى العام الماضى. ما أكثر ما يعنى نسيان العادة! فمن سيجار وجرعتى نبيذ دار رأسه وتلاحقت نبضات قلبه، فكان لا بد من تناول بروميد البوتاسيوم.

وقبل أن يأويا إلى الفراش قالت له تانيا:

ـ أبى يعبدك. وأنت غاضب منه لسبب ما، وهذا يكاد يقتله غما. انظر كيف

يهرم كل ساعة لا كل يوم. أتوسل إليك يا أندريوشا، أستحلفك بالله، أن تكون لطيفًا معه من أجل راحتى ومن أجل أبيك الراحل!

ـ لا أستطيع ولا أريد.

ـ ولكن لماذا؟ ـ سألته تانيا وبدأ بدنها كله يرتجف ـ خبرنى، لماذا؟

ـ لأنه لا يروق لى، وهذا كل ما هنالك ـ قال كوفرين باستخفاف وهز كتفيه ـ ولكن دعينا لا نتحدث عنه. إنه أبوك.

فقالت تانيا وهى تضغط على صدغيها وتحدق فى نقطة واحدة:

ـ لا أستطيع، لا أستطيع أن أفهم! هناك شىء رهيب، لا يمكن إدراكه، يجرى فى منزلنا. أنت تغيرت، لم تعد كما كنت.. أنت الشخص العاقل، غير العادى، أصبحت تنزعج لأشياء بسيطة وتدخل فى المشاحنات.. تثيرك أشياء فى غاية التفاهة لدرجة أننى أحيانًا أدهش ولا أصدق: أهذا أنت؟ حسنا، حسنا، لا تغضب ـ استطردت تانيا ومضت تلثم يديه وقد خافت من كلماتها ـ أنت ذكى، طيب، نبيل. فلتكن عادلا مع أبى. إنه لطيف جدا!

ـ ليس لطيفًا بل ملاطفًا. إن الأعمام الهزليين، أمثال أبيك، ذوى الوجوه الشبعانة البشوشة، الكرماء للغاية والغريبى الأطوار، كانوا فى وقت ما يثيرون إعجابى وضحكى سواء فى القصص أم فى الهزليات أم فى الحياة، أما الآن فيثيرون نفورى. إنهم أنانيون حتى النخاع. وأكثر ما ينفرنى منهم هو شبعهم، وذلك التفاؤل الثيرانى أو الخنازيرى البحت النابع من معداتهم.

جلست تانيا فى الفراش ووضعت رأسها على الوسادة.

ـ هذا عذاب ـ قالت، وكان واضحًا من صوتها أنها أصبحت مرهقة لأقصى حد وأنه من الصعب عليها أن تتكلم ـ من الشتاء لم أعرف دقيقة راحة.. ما أفظع هذا يا إلهى! إننى أتعذب..

ـ نعم، أنا طبعًا هيرودس، وأنت وباباك صبيان مصر[1]. طبعًا!

بدا وجهه لتانيا قبيحًا ومنفرًا. ولم تكن الكراهية والسخرية تنسجمان معه. وقد لاحظت من قبل أن شيئًا ما ينقص وجهه، كما لو أن ملامحه أيضًا قد تغيرت منذ أن حلق شعره. وشعرت بالرغبة فى أن تقول له شيئًا مهينًا، ولكنها انتبهت على الفور إلى هذا الإحساس الكريه فخافت، وغادرت الغرفة.

٩

حصل كوفرين على كرسى أستاذ مستقل. وتحدد موعد محاضرته الافتتاحية فى الثانى من ديسمير، وعلّق إعلان بذلك فى ممر الجامعة. ولكنه فى اليوم المحدد أرسل إلى مسئول الطلاب برقية يعتذر فيها عن عدم استطاعته إلقاء المحاضرة لمرضه.

نزف دما من حلقه. كان قبلها يبصق دما، ومرتين فى الشهر ينزف بغزارة، وعندئذ كان ينتابه ضعف شديد وميل إلى النوم. ولم يكن هذا المرض يسبب له خوفا كبيرا لأنه كان يعرف أن المرحومة أمه عاشت بنفس هذا المرض عشر سنوات بل وأكثر، وأكد له الأطباء أن ذلك ليس خطيرًا، ونصحوه فقط بألا ينفعل، وأن يتبع نظامًا سليمًا للمعيشة، ويقلل من الكلام.

وفى يناير ألغيت المحاضرة لنفس السبب، أما فى فبراير فكان الوقت متأخرا للبدء فى الدورة. فاضطروا للتأجيل إلى العام القادم.

لم يعد يعيش مع تانيا، بل مع امرأة أخرى كانت تكبره بعامين وتعتنى به كما يعتنى بطفل. وكان مزاجه مسالما، مستكينا: فقد كان يطيعها عن طيب

(١) الإشارة إلى ما جاء بإنجيل متى (الفصل الثانى) عن قيام الملك هيرودس بقتل جميع صبيان بيت لحم بعد هروب يوسف ومريم ويسوع الوليد إلى مصر خوفا من بطشه. (المعرب).

خاطر، وعندما عزمت فارفارا نيكولايفنا ـ هكذا كانت تدعى رفيقته ـ على السفر به إلى القرم، وافق رغم أنه كان يحدس بأن هذه الرحلة لن تسفر عن أى شيء طيب.

وصلا إلى سيفاستوبول مساء ونزلا فى فندق لكى يستريحا ثم يسافران غدا إلى يالطا. وارهقهما السفر كليهما. وشربت فارفارا نيكولايفنا الشاى، وأوت إلى الفراش، وسرعان ما نامت. ولكن كوفرين لم يذهب إلى الفراش. فقد تلقى وهو بعد فى المنزل، قبل التوجه إلى المحطة بساعة، رسالة من تانيا، ولم يجرؤ على فضها، وها هى ذى الآن ترقد فى جيبه الجانبى، وأثار التفكير فيها اضطرابا كريها فى نفسه. كان الآن يعتبر فى قرارة نفسه وبإخلاص أن زواجه بتانيا كان خطأ، وكان راضيًا لأنه انفصل عنها نهائيًا، ولم تثر ذكرياته عن هذه المرأة التى تحولت فى نهاية الأمر إلى مومياء حية، والتى بدا أن كل شيء فيها مات، اللهم إلا عينيها الواسعتين الذكيتين الثاقبتى النظرة، لم تثر ذكرياته عنها إلا الحسرة والأسى على نفسه. وذكّره خطها على المظروف كم كان ظالما وقاسيًا منذ عامين، وكم صب نقمته لخواء روحه وملله ووحدته وبرمه بالحياة على أناس أبرياء. وتذكر بالمناسبة كيف مزق ذات مرة رسالة الدكتوراه ومقالاته التى كتبها أثناء مرضه مزقا صغيرة، وألقى بها من النافذة، فطارت المزق مع الريح وهى تتعلق بالأشجار والأزهار. لقد رأى فى كل سطر من سطورها ادعاءات غريبة لا أساس لها، وهراء عابثًا ووقاحة وجنون عظمة، فترك هذا فى نفسه انطباعًا، كأنما كان يقرأ وصفا لرذائله. ولكن عندما مزق آخر دفتر وألقى به من النافذة شعر فجأة بالأسى والمرارة، فذهب إلى زوجته وأسمعها الكثير من الإساءات. يا إلهى كم كان يتلف أعصابها! ذات مرة، وقد أراد أن يؤلمها، قال لها إن أباها لعب فى قصة غرامهما دورًا مشينًا، لأنه رجاه أن يتزوج منها. وسمع يجور سيميونيتش ذلك عرضًا فاندفع إلى الغرفة، ولم يستطع من شدة الإساءة أن يقول كلمة واحدة، بل ظل فقط يراوح فى مكانه، ويخور بصورة غريبة، كما لو كان لسانة قد شل، أما تانيا فنظرت إلى أبيها وصرخت صرخة تمزق القلب وسقطت مغشيًا عليها. كان ذلك شيئًا فظيعًا.

ورد كل هذا على خاطره عندما تطلع إلى الخط المعروف. وخرج إلى الشرفة. كان الجو هادئًا دافئًا، وفاحت رائحة البحر. وعكس الخليج الرائع صورة القمر والأضواء، واكتسى بلون يصعب أن تجد له اسما. كان ذلك خليطًا رقيقًا وناعمًا من اللونين الأزرق والأخضر. وفى بعض الأماكن كان لون المياه يشبه الزاج الأزرق، وفى أماكن أخرى بدا أن ضوء القمر تكثف فملأ الخليج بدلا من المياه، وعموما، فيا له من توافق ألوان، ويا له من مزاج مسالم، مستكين، سام!

يبدو أن النوافذ فى الطابق الأدنى، تحت الشرفة، كانت مفتوحة، فقد تناهت بوضوح أصوات نسائية وضحك. الظاهر أنه كانت هناك حفلة.

وتحامل كوفرين على نفسه وفض الرسالة، وذهب إلى غرفته وقرأ:

«مات أبى لتوه. وأنا مدينة لك بذلك، لأنك أنت الذى قتلته. وبستاننا يهلك، وأصبح الغرباء يديرونه، أى يحدث بالضبط ما كان يخشاه أبى المسكين وأنا مدينة بذلك لك أيضًا. إننى أمقتك من صميم قلبى وأتمنى أن تهلك فى أقرب وقت. أوه، كم أعانى! روحى يحرقها ألم لا يطاق.. عليك اللعنة. لقد ظننتك إنسانًا فذا، عبقريًا، وأحببتك، ولكن ظهر أنك مجنون..».

لم يستطع كوفرين أن يواصل القراءة فمزق الرسالة وألقى بها. وتملكه قلق يشبه الخوف. وكانت فارفارا نيكولايفنا نائمة خلف الحاجز، وتردد صوت أنفاسها. ومن الطابق الأسفل تناهت الأصوات النسائية والضحك، ولكن تملكه إحساس بأنه لا يوجد فى الفندق كله أحد غيره. ولأن تانيا التعيسة، التى حطمتها البلوى لعنته فى رسالتها وتمنت له الهلاك، فقد أحس بالرعب، ونظر إلى الباب لمحا، كأنما كان يخشى أن تدخل الغرفة وتتحكم فيه ثانية تلك القوة المجهولة التى ألحقت بحياته وحياة أقربائه فى غضون ما لا يزيد عن سنتين كل هذا الدمار.

كان يعرف من واقع التجربة أنه إذا ما أفلتت الأعصاب فإن أفضل وسيلة

لكبح جماحها هى العمل. ينبغى أن يجلس إلى الطاولة ويرغم نفسه، مهما كلف الأمر، أن يركز انتباهه على فكرة ما. وأخرج من حقيبته الحمراء دفترا سجل فيه ملخصًا سريعًا لمؤلف تصنيفى صغير، كان قد أعده ليشغل به نفسه فيما لو بدت له الإقامة فى القرم مملة بدون عمل. وجلس إلى الطاولة وانكب على هذا الملخص، فبدا له أنه يستعيد مزاجه الهادئ المستكين اللامبالى. بل إن هذا الدفتر قد أوحى إليه بأفكار عن باطل الحياة الدنيا. وفكر فى أن الحياة تأخذ الكثير لقاء تلك النعم الضئيلة، أو العادية للغاية، التى يمكن أن تقدمها للإنسان. وعلى سبيل المثال، فلكى يحصل على كرسى أستاذ وهو يناهز الأربعين، ولكى يكون أستاذًا عاديًا، يصوغ بلغة ذابلة مملة ثقيلة أفكارًا عادية، هى فوق ذلك أفكار الآخرين.. وباختصار فلكى يبلغ منزلة العالم المتوسط، كان عليه، هو كوفرين، أن يدرس خمسة عشر عامًا، ويعمل ليل نهار، ويصاب بمرض نفسى عضال ، ويخوض تجربة زواج فاشل، ويرتكب الكثير من الحماقات والمظالم التى يسعده ألا يتذكرها. كان كوفرين يدرك الآن بوضوح أنه شخص عادى، وقنع بذلك عن طيب خاطر، لأن كل إنسان، حسب رأيه، ينبغى أن يرضى بما هو عليه.

كان الملخص يهدئه تماما، بيد أن الرسالة الممزقة الملقاة على الأرض كانت تلوح لناظريه فتعوقه عن التركيز. فنهض من أمام الطاولة، وجمع مزق الرسالة وألقى بها فى النافذة، ولكن نسيمًا خفيفًا هب من البحر فتناثرت المزق على حافة النافذة. ومن جديد تملكه قلق يشبه الخوف، وعاوده الإحساس بأنه لا يوجد فى الفندق كله أحد غيره.. وخرج إلى الشرفة. كان الخليج، كمخلوق حى، يحدق فيه بأعين زرقاء وسماوية وفيروزية ونارية عديدة ويشده إليه. وبالفعل كان الجو حارًا وخانقًا يغرى بالاستحمام.

وفجأة تردد من الطابق الأدنى تحت الشرفة عزف كمان، وغنى صوتان نسائيان رقيقان. وبدا ذلك شيئًا مألوفًا. كانت الأغنية التى غنوها فى الأسفل تتحدث عن فتاة ما، مصابة بالوهم، سمعت ليلاً فى الحديقة أصواتًا غامضة

فاعتبرتها هارمونى مقدسًا، ليس مفهومًا لنا ـ نحن الفانين ـ واحتبست أنفاس كوفرين، وعصر الحزن قلبه، ورفرفت فى صدره فرحة رائعة حلوة منسية منذ زمن بعيد.

وعلى ضفة الخليج الأخرى ظهر عمود أسود طويل، يشبه الزوبعة أو الدوامة الهوائية. وتحرك فوق الخليج بسرعة رهيبة متجهًا نحو الفندق وهو يزداد انكماشًا وقتامة، فلم يتمكن كوفرين من التنحى إلا بالكاد ليفسح له الطريق.. ومرق الراهب الأسود، برأسه الأشيب الحاسر، وحاجبيه الأسودين، وقدميه الحافيتين ويديه المعقودتين على صدره، بجوار كوفرين وتوقف فى وسط الغرفة.

وسأل بعتاب وهو ينظر إلى كوفرين برقة:

ـ لماذا لم تصدقنى؟ لو صدقت ما قلته لك آنذاك بأنك عبقرى، لما قضيت هذين العامين بهذا الحزن والجدب.

أصبح كوفرين الآن يؤمن بأنه من أبناء الله المختارين وعبقرى، وتذكر على الفور كل أحاديثه السابقة مع الراهب الأسود، وأراد أن يتكلم، ولكن الدم سال من حلقه على صدره مباشرة، فأخذ، وهو لا يدرى ماذا يفعل، يمسح بيديه على صدره، فتبللت أساوره بالدم. وأراد أن يدعو فارفارا نيكولايفنا التى كانت نائمة خلف الحاجز، فتحامل على نفسه وتمتم:

ـ تانيا!

وسقط على الأرض، ثم نهض على ذراعيه ونادى ثانية:

ـ تانيا!

كان ينادى تانيا، ينادى البستان الكبير بأزهاره الفاخرة المبللة بالندى، ينادى الحديقة، وأشجار الصنوبر ذات الجذور الكثة، وحقل الجودار، وعلمه البديع، وشبابه، وجسارته، وفرحته، كان ينادى الحياة التى كانت جد رائعة. ورأى

بجوار وجهه على الأرض بركة دم كبيرة، ولم يعد بوسعه من شدة الضعف أن ينطق بكلمة واحدة، ولكن سعادة لا نهائية لا توصف ملأت كل كيانه. وفى الأسفل تحت الشرفة كانوا يعزفون سيرنادا، بينما راح الراهب الأسود يهمس له بأنه عبقرى وبأنه لا يموت إلا لأن جسده البشرى الضعيف قد فقد توازنه ولم يعد قادرًا على أن يكون غلافًا يحفظ العبقرية.

عندما استيقظت فارفارا نيكولايفنا وخرجت من وراء الحاجز، كان كوفرين قد فارق الحياة، وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة عذبة.

الفلاحـــون

١

مرض نيكولاى تشيكيلديف الخادم بفندق « سلافيانسكى بازار» بموسكو. نملت ساقاه وتغيرت مشيته، حتى إنه تعثر ذات مرة وهو يسير فى الممر فوقع بالصينية التى كانت عليها شرائح خنزير بالبازلاء. واضطر إلى ترك العمل. وأنفق كل ما كان لديه من نقوده ونقود زوجته على العلاج، ولم يعد هناك ما ينفق على الطعام، وملَّ البطالة فقرر أنه ربما كان عليه أن يرحل إلى بيتهم فى الريف. فالمرض فى البيت أخف والحياة أرخص؛ وليس عبثًا أن يقال: فى البيت الجدران تساعد.

وصل إلى قريته جوكوفو قبيل المساء. وكان مسقط رأسه يبدو له فى ذكريات الطفولة مشرقًا، حميمًا، مريحًا، أما الآن، وعندما دخل الدار، فقد شعر حتى بالخوف؛ فكم كان المكان مظلما وضيقًا وقذرًا. ونظرت زوجته أولجا وابنته ساشا، اللتان جاءتا معه، باستغراب إلى الفرن الكبير المنفر، الذى كاد أن يشغل نصف الدار، والمسود من الهباب والذباب. ما أكثر الذباب! كان الفرن مائلا، وجذوع الأشجار التى شيدت منها الجدران معوجة، فبدا أن الدار ستنهار توًا. وفى الركن الأمامى، بجوار الأيقونات، ألصقت رقع ماركات الزجاجات ومزق من الصحف، وذلك بدلاً من الصور. يا للفقر! لم يكن أحد من الكبار فى المنزل، إذ كانوا كلهم يحصدون. وعلى الفرن جلست طفلة فى حوالى

الثامنة، بيضاء الرأس، قذرة الوجه، لا مبالية. لم تنظر حتى إلى القادمين. وفى الأسفل تمسحت قطة بيضاء بالبشكور.

ودعتها ساشا إليها:

ـ بس، بس!

فقالت الطفلة:

ـ إنها لا تسمع. طرشت.

ـ مم؟

ـ هكذا. من الضرب.

أدرك نيكولاى وأولجا منذ الوهلة الأولى أية حياة هنا، ولكن أحدًا منهما لم يقل للآخر شيئًا. أنزلا الصرر فى صمت، وخرجا فى صمت. كانت دارهم الثالثة من الطرف، وبدت أفقر الدور وأقدمها. ولم تكن الدار الثانية أفضل، ولكن الثالثة كانت بسقف معدنى وستائر على النوافذ. هذه الدار،التى لم تكن مسيجة، لاحت قائمة بذاتها، وكان بها حانة. وامتدت الدور صفا واحدا، وبدت القرية كلها، الهادئة المستغرقة، بأشجار الصفصاف والبيلسان والغبيراء المطلة من الأفنية، لطيفة المنظر.

وبعد دور الفلاحين يبدأ منحدر نحو النهر، شديد الانحدار وجرفى، وظهرت أحجار ضخمة وسط الطين هنا وهناك. وعلى السفح، بجوار هذه الأحجار والحفر التى حفرها الفخارون، تعرجت دروب، وتكدست أكوام من شقف الأوانى المكسرة، بعضها بنى وبعضها أحمر، وفى الأسفل امتد مرج أخضر ساطع واسع مستو، حصد عشبه، فأصبحت ماشية الفلاحين ترعى فيه الآن بحرية. وكان النهر على بعد فرسخ من القرية، نهر متعرج، بشطآن رائعة متموجة الخمائل، ومن بعده مرج واسع آخر، وماشية وطوابير طويلة من الأوز الأبيض، ثم طريق منحدر بشدة ـ كما فى هذا الشاطئ ـ صاعد إلى

التل، وفى الأعلى، على التل، قرية بكنيسة ذات خمس قباب ومنزل السادة على مقربة منها.

وقالت أولجا وهى ترسم على صدرها علامة الصليب فى مواجهة الكنيسة:

ـ ناحيتكم جميلة! يا إلهى، ياللرحابة!

وفى هذه اللحظة دوت أجراس صلاة المساء (كانت عشية الأحد) وتطلعت فتاتان صغيرتان كانتا تنقلان الماء فى دلو فى الأسفل إلى الكنيسة لتسمعا الرنين.

ودمدم نيكولاى حالما:

ـ فى هذا الوقت يقدمون العشاء فى «سلافيانسكى بازار»..

ورأى نيكولاى وأولجا وهما جالسان على الجرف كيف راحت الشمس تغرب، وكيف انعكست السماء الذهبية القرمزية فى النهر وفى نوافذ الكنيسة وفى الهواء كله، الرقيق الساكن، النقى بصورة لا توصف، والذى لا مثيل له فى موسكو أبدا. وعندما غربت الشمس مر قطيع الماشية وهو يخور ويزأر، وأقبل الأوز طائرا من تلك الناحية، ثم صمت كل شىء، وخبا الضوء الخافت فى الهواء، وزحف ظلام المساء بسرعة.

وفى تلك الأثناء عاد العجوزان، والد نيكولاى وأمه، هزيلين، محنيين، بلا أسنان، كلاهما من طول واحد. وجاءت النساء: زوجتا الأخوين ماريا وفيكلا اللتان كانتا تعملان وراء النهر لدى الإقطاعى. كان لدى ماريا، زوجة الأخ كيرياك، ستة أطفال، ولدى فيكلا، زوجة الأخ دينيس الذى جند فى الجيش، طفلان. وعندما دخل نيكولاى الدار ورأى العائلة كلها، كل هذه الأجساد الكبيرة والصغيرة التى كانت تتحرك على ألواح النوم وفى المهود وفى جميع الأركان، وعندما رأى بأية شراهة كان العجوز والنسوة يأكلون الخبز الأسود

وهم يغمسونه فى الماء، أدرك أنه عبثًا جاء إلى هنا مريضًا، بلا مال، وفوق ذلك مع أسرته، عبثًا!

وسأل بعد أن سلم عليهم:

ـ وأين أخى كيرياك؟

فأجابه أبوه:

ـ يعيش عند التاجر حارسا، فى الغابة. فلاح لا بأس به، لكنه يفرط فى الشراب.

فدمدمت العجوز دامعة:

ـ ليس مُطعما! رجالنا بلايا، لا يحملون إلى البيت بل يسحبون من البيت. كيرياك يشرب، والعجوز أيضًا، ولا داعى للتستر، إنه يعرف الطريق إلى الحانة. غضبت علينا السيدة العذراء.

وبمناسبة مجيء الضيوف أشعلوا السماور. وفاحت من الشاى رائحة السمك، وكان السكر مقروضًا ورماديًا، وتراكضت الصراصير فوق الخبز والأوعية. كان الشرب كريها، والحديث أيضًا كريهًا.. كله عن الفاقة والأمراض. وما إن شربوا أول كوب شاى حتى تناهت من الفناء صيحة عالية طويلة ثملة:

ـ مـ.. ا.. ريا!

فقال العجوز:

ـ يبدو أنه كيرياك قد جاء. تذكرنا القط..

صمت الجميع. وبعد قليل ترددت نفس الصيحة الفظة الطويلة كأنها من تحت الأرض:

ـ مـ.. ا.. ريا!

شحبت ماريا، زوجة الابن الأكبر والتصقت بالفرن، وكان غريبًا أن ترى

على وجه هذه المرأة القوية، العريضة الكتفين، القبيحة، تعبير الرعب. وفجأة بكت ابنتها بصوت عال، تلك الفتاة التى كانت جالسة على الفرن وبدت لا مبالية.

فصاحت بها فيكلا، وهى امرأة جميلة وأيضًا قوية وعريضة الكتفين:

ـ وأنت، أيتها المطعونة، مالك؟ لن يقتلك!

علم نيكولاى من العجوز أن ماريا كانت تخاف العيش مع زوجها فى الغابة، وأنه عندما يكون ثملا يأتى دائمًا ليأخذها، ويثير أثناء ذلك صخبًا ويضربها بلا رحمة.

ودوت الصرخة عند الباب تمامًا:

ـ مـ.. ا.. ريا!

فتمتمت ماريا وهى تتنفس كشخص أنزلوه فى ماء بارد للغاية:

ـ احمونى بحق المسيح يا أحبابى، احمونى يا أحبابى..

وبكى كل من كان فى الدار من أطفال، وبكت ساشا أيضًا وهى تحذو حذوهم. وتناهى سعال ثمل، ودلف إلى الدار فلاح طويل، أسود اللحية، فى طاقية شتوية، ولما لم يكن وجهه ظاهرًا فى ضوء المصباح الكابى فقد بدا رهيبًا. كان ذلك كيرياك. اقترب من زوجته فطوح بيده إلى الوراء وسدد إليها لكمة فى وجهها فلم يند عنها صوت وقد أصمتها اللكمة. أقعت فحسب، وعلى الفور تدفق الدم من أنفها.

ودمدم العجوز وهو يصعد إلى سطح الفرن:

ـ يا للعار، أمام الضيوف! حرام عليك!

أما الجدة فجلست صامته، متكورة، وهى تفكر فى شىء ما. وكانت فيكلا تهز المهد.. ويبدو أن كيرياك كان يدرك أنه رهيب ويشعر بالرضى لذلك، فأمسك بذراع ماريا وجرها إلى الباب، وزأر كوحش ليبدو أكثر رهبة، ولكنه رأى الضيوف فى تلك اللحظة فتوقف.

ودمدم وهو يخلى سبيل زوجته:

ـ آه، وصلتم!.. أخى الحبيب وأسرته..

وصل أمام الأيقونة مترنحا وقد فتح عينيه الحمراوين الثملتين واسعا، واستطرد:

ـ أخى وأسرته جاءوا إلى بيت الوالدين.. من موسكو يعنى. من العاصمة الأولى يعنى، أم المدن.. اعذرونى..

وانحط على الأريكة بجوار السماور وراح يشرب الشاى من الطبق وهو يرشفه بصوت عال، بينما خيم الصمت.. شرب حوالى عشرة فناجين، ثم مال على الأريكة وارتفع شخيره.

وبدأوا يستعدون للنوم. وضعوا نيكولاى باعتباره مريضًا على الفرن مع العجوز. ورقدت ساشا على الأرض، بينما مضت أولجا مع النساء إلى الحظيرة.

وقالت وهى ترقد على الدريس بجوار ماريا:

ـ إيه يا حلوة، الدموع لن تخفف البلوى. اصبرى وهذا كل شىء. فقد جاء فى الكتاب: من ضربك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر.. إيه يا حلوة!

ثم تحدثت بصوت شبه هامس ناغم عن موسكو، وعن حياتها، وكيف كانت تعمل خادمًا فى البنسيونات.

قالت:

البيوت فى موسكو كبيرة، حجرية، والكنائس كثيرة جدًا، بالمئات، وأصحاب البيوت سادة، كلهم جميلون، كلهم مهذبون.

وقالت ماريا أنها لم تذهب أبدا لا إلى موسكو فحسب بل حتى إلى مدينة إقليمهم. كانت أمية، لا تعرف أية صلاة، ولا حتى «أبانا الذى». كانت هى وزوجة الأخ الآخر، فيكلا، التى كانت جالسة الآن غير بعيد وتستمع، كانتا كلتاهما متخلفتين جدًا ولم يكن بوسعهما فهم شىء. وكلتاهما لم تكونا

تحبان زوجيهما. كانت ماريا تخشى كيرياك، وعندما يبقى معها كانت ترتعد من الخوف، ودائمًا ما تختنق وهى بقربه فقد كانت تتصاعد منه بشدة رائحة الفودكا والتبغ. أما فيكلا فردت على السؤال عما إذا كانت تشعر بالملل بدون زوجها، قائلة بأسى:

ـ فليذهب فى داهية!

وبعد أن تحدثن صمتن..

كان المكان باردا، وبجوار الحظيرة صاح ديك بأعلى صوته فعاقهن عن النوم. وعندما تسرب ضوء الفجر الأزرق الشاحب عبر جميع الشقوق، نهضت فيكلا بهدوء وخرجت، ثم تردد وقع قدميها العاريتين وهى تركض إلى مكان ما.

٢

ذهبت أولجا إلى الكنيسة واصطحبت معها ماريا. وعندما هبطتا على الدرب إلى المرج شعرتا كلتاهما بالمرح. كانت أولجا معجبة بالرحابة، أما ماريا فأحست فى عديلتها بإنسان قريب حبيب. وأشرقت الشمس. وحلق صقر ناعس على ارتفاع منخفض فوق المرج، وكان النهر عابسًا، وفى بعض الأماكن هوم الضباب، أما على الشاطئ الآخر، فوق التل، فقد امتد شريط ضوء، ولمعت الكنيسة، وفى بستان السادة صاحت الغربان بضراوة.

وتحدثت ماريا:

ـ العجوز لا بأس به أما الجدة فقاسية، تتشاجر دائمًا. قمحنا كفانا حتى أيام المرافع فقط، والآن نشترى الدقيق من الحانة، ولهذا فهى حانقة، تقول إننا نأكل كثيرًا.

ـ إيه يا حلوة، اصبرى وهذا كل شئ. فقد جاء فى الكتاب: تعالوا إلىَّ ياجميع المتعبين والمثقلين وأنا أريحكم.

كانت أولجا تتحدث بوقار وبصوت ناغم، وكانت مشيتها مثل مشية المتعبدة، سريعة ومضطربة. وكانت تقرأ الإنجيل كل يوم، بصوت مسموع، كقراءة الشماس، ولا تفهم منه الكثير ولكن الكلمات المقدسة كانت تبعث فيها التأثر حتى تدمع عيناها. كانت تؤمن بالله، وبالسيدة العذراء، وبالقديسين، وتؤمن بأنه لا يجوز إيذاء أحد فى الدنيا سواء البسطاء، أم الألمان، أم الغجر، أم اليهود، والويل لأولئك الذين لا يشفقون على الحيوانات، تؤمن بأن ذلك مكتوب فى الكتب السماوية، ولذلك فعندما كانت تلفظ كلمات من الكتاب المقدس، حتى ولو لم تكن مفهومة، يرتسم على وجهها الشفقة والحنان والإشراق.

وسألتها ماريا: ـ من أين أصلك؟

ـ أنا من فلاديمير. لكنهم أخذونى إلى موسكو من زمان، وعمرى ثمانية.

وبلغتا النهر. وعلى الشاطئ الآخر، قرب الماء تمامًا، وقفت امرأة وهى تنزع ثيابها.

وعرفتها ماريا فقالت:

ـ هذه فيكلا، كانت فى بيت السادة وراء النهر، عند الوكلاء. أنها شقية وعيابة جدًا!

وقفت فيكلا، سوداء الحاجبين، مسدلة الشعر، صبية بعد وقوية كفتاة، وألقت بنفسها من الشاطئ، وضربت فى الماء بساقيها، فامتدت الأمواج منها إلى جميع الاتجاهات.

وكررت ماريا:

ـ شقية جدا!

عبر النهر امتدت قنطرة متهالكة من جذوع الأشجار، وتحتها بالضبط مرت أسراب من السمك العريض الرأس فى الماء الصافى الشفاف. ولمعت قطرات

الندى على الخمائل الخضراء المطلة فى الماء. وهبت نسمات دافئة فبعثت السرور. يا له من صباح رائع! وما أجمل الحياة التى كان يمكن أن تكون فى هذه الدنيا على الأرجح لولا الفقر، الفقر الفظيع المحدق، الذى لا مهرب منه! وما إن تنظر إلى القرية حتى تتذكر على الفور كل ما حدث بالأمس، وفى التو واللحظة يتلاشى سحر السعادة الذى لاح فى الأجواء.

ووصلتا إلى الكنيسة. توقفت ماريا عند المدخل ولم تجرؤ على التقدم خطوة واحدة. ولم تجرؤ أيضا على الجلوس رغم أنهم لم يدعوا إلى القدّاس إلا فى الساعة التاسعة. وهكذا ظلت واقفة طوال الوقت.

وأثناء تلاوة الإنجيل دبت الحركة فجأة فى جمهور المصلين وأفسحوا الطريق لأسرة الإقطاعى. دخلت فتاتان فى فستانين أبيضين، وقبعتين عريضتين، ومعهما صبى بدين، متورد الخدين فى بدلة بحار. وتأثرت أولجا لدى ظهورهم، وقررت من الوهلة الأولى أنهم أناس مستقيمون مهذبون جميلون. أما ماريا فنظرت إليهم شزرًا، بتجهم وكآبة، كأنما لم يكونوا بشرا، بل وحوشا كادت أن تسحقها لولا أنها تنحت جانبا.

وكلما كان الشماس يرتل بصوت غليظ كان يتراءى لها أنها تسمع صيحة مــ..ا.. ريا!» فينتفض بدنها.

٣

علم أهل القرية بمجىء الضيوف فاجتمع فى الدار بعد القداس عدد كبير منهم. جاء آل ليونيتش وماتفيفيتش وإيليتش ليعرفوا أخبار أقربائهم العاملين بموسكو. كان جميع صبيان قرية جوكوفو الذين يعرفون القراءة والكتابة يرسلون إلى موسكو ليعملوا خدم مطاعم أو فنادق فقط (كذلك كانوا يرسلون الصبيان من القرية الواقعة على الضفة الأخرى للنهر إلى موسكو للعمل فى المخابز فقط). وكان ذلك معمولا به منذ القدم، منذ عهد القنانة، عندما كان

شخص يدعى لوقا إيفانيتش، وهو فلاح من جوكوفو، أصبح الآن أسطوريا، يعمل عامل بوفيه فى أحد نوادى موسكو، وكان لا يستخدم عنده إلا أبناء قريته فقط، وعندما يستقر هؤلاء فى وظائفهم كانوا يجلبون أقرباءهم ويساعدونهم فى الحصول على عمل فى الحانات والمطاعم. ومنذ ذلك الحين وأهالى المناطق المجاورة لجوكوفو لا يسمونها إلا بـ «الوقحة» و«الخادمة». وقد أرسلوا نيكولاى إلى موسكو وهو فى الحادية عشرة، وساعده في الحصول على عمل إيفان مكاريتش من آل ماتفيفيتش، الذى كان يعمل آنذاك حاجبا فى حديقة «أرميتاج». وها هو ذا نيكولاى الآن يخاطب آل ما تفيفيتش بلهجة الواعظ:

ـ إيفان مكاريتش هو ولى نعمتى، ومن واجبى أن أصلى لله من أجله ليل نهار، فعن طريقه أصبحت رجلا طيبا.

فقالت عجوز طويلة، هى أخت إيفان مكاريتش، بصوت باك:

ـ آه يا بنى، لم نعد نسمع عنه شيئا.

ـ فى الشتاء كان يعمل لدى أومون، أما فى الموسم الحالى فأشيع أنه يعمل فى البساتين، خارج المدينة.. لقد شاخ! كان من قبل، وخاصة فى الصيف، يكسب عشرة روبلات فى اليوم، ولكن العمل الآن كسد فى جميع الأماكن، والعجوز يشقى.

تطلعت العجوز والنسوة إلى ساقى نيكولاى اللتين كان يضعهما فى حذاء من اللباد، وإلى وجهه الشاحب، وقلن بأسى:

ـ لست مطعما يا نيكولاى أوسيبتش، لست مطعما! لا حول لك!

وتودد الجميع إلى ساشا. كانت قد تجاوزت العاشرة، ولكنها كانت قصيرة، نحيلة جدا، وكانت هيئتها توحى بأنها فى السابعة لا أكثر. ووسط الفتيات الأخريات، السمراوات، ذوات الشعر المقصوص بصورة سيئة، المرتديات جلابيب طويلة باهتة، بدت هى ببشرتها البيضاء، وعينيها الواسعتين الداكنتين،

والشريط الأحمر فى شعرها، مضحكة، كأنما حيوان صغير أمسكوا به فى الحقل وجاءوا به إلى الدار.

وقالت أولجا بفخر وهى تتطلع إلى ابنتها برقة:

ـ إنها تجيد القراءة! اقرئى يا بنيتى ـ قالت وهى تستخرج الإنجيل من الصرة ـ اقرئى وسيصغى إليك المسيحيون.

كان الإنجيل قديما، ثقيلا، فى غلاف جلدى، مهترئ الزوايا، وفاحت منه رائحة وكأنما دخل الدار زهبان. ورفعت ساشا حاجبيها وبدأت تقرأ بصوت عال ناغم:

ـ «ولما انصرفوا إذا بملاك الرب.. تراءى ليوسف فى الحلم قائلا: قم فخذ الصبى وأمه..».

ـ الصبى وأمه.. ـ رددت أولجا وتضرج وجهها كله من الانفعال.

ـ «واهرب إلى مصر.. وكن هناك حتى أقول لك..».

وعندما سمعت أولجا الكلمات المقدسة لم تتمالك نفسها فبكت. وحذت ماريا حذوها فشهقت، وتبعتها أخت إيفان مكاريتش. أما العجوز فسعل وتململ باحثا عن هدية يقدمها لحفيدته، ولما لم يجد شيئا أشاح بيده. وعندما انتهت التلاوة تفرق الجيران إلى بيوتهم متأثرين ومسرورين جدا من أولجا وساشا.

وبمناسبة العيد ظلت الأسرة فى البيت طول النهار. وكانت العجوز التى كان زوجها، وزوجات أبنائها، وأحفادها، جميعا ينادونها بالجدة، تحاول أن تقوم بنفسها بكل الأعمال. إذ أشعلت الفرن، هيأت السماور بنفسها، بل ذهبت بنفسها لحلب البقرة، ثم راحت تشكو من أنهم أرهقوها بالعمل. وكانت طوال الوقت تخشى أن يأكل أحدهم قطعة خبز زائدة، أو أن يجلس العجوز وزوجات الأبناء بلا عمل. وتارة كان يخيل إليها أن أوزات صاحب الحانة

تتسلل من الفناء الخلفى إلى مزرعتها، فتنطلق من الدار ومعها عصا طويلة، ثم تظل بعد ذلك لنصف ساعة تصرخ بصوت حاد بجوار كرنبها الهزيل مثلها. وتارة يتراءى لها أن الحدأة تتربص بأفراخها، فتنقض بالسباب على الحدأة. كانت تغضب وتتذمر من الصباح إلى المساء، وكثيرا ما تصيح صياحا شديدا يجعل المارة يتوقفون.

ولم تكن تعامل عجوزها برقة، وتنعته تارة بالتنبل وتارة بالمطعون. لم يكن رجلا قديرًا يعتمد عليه، وربما لولا حثها المستمر له لما عمل إطلاقا، بل لجلس على الفرن فقط وتحدث. ظل يحدث ابنه طويلا عن أعداء ما، ويشكو له من الإهانات التى ادعى أنه يتحملها كل يوم من جيرانه، وكان سماعه يبعث الملل.

كان يتحدث ممسكا بخصرة.

ـ نعم، نعم.. بعد عيد نصب الصليب بأسبوع بعت الدريس بثلاثين كوبيكا للبود، طواعية.. نعم.. حسنا.. وبينما أنا أنقل، يعنى، الدريس صباحا طواعية، ولا أتحرش بأحد، وفى ساعة نحس، نظرت فإذا بالعمدة أنتيب سيديلنيكوف خارج من الحانة: «إلى أين تحمله يا ابن كذا وكذا؟» وضربنى على أذنى.

أما كيرياك فكان الصداع يعذبه عندما أفاق، وكان يشعر بالخجل من أخيه.

ودمدم وهو يهز رأسه المصدع:

ـ انظر ماذا تفعل الفودكا، آه يا إلهى! اعذرنى يا أخى، وأنت يا أختى بحق المسيح، أنا نفسى مستاء.

وبمناسبة العيد اشتروا من الحانة فسيخا مملحا وطبخوا حساء من رؤوس الفسيخ. وفى منتصف النهار جلسوا إلى المائدة ليشربوا الشاى، وشربوه طويلا، حتى سال عرقهم، وبدا كأنما انتفخوا من الشاى، وبعدها فقط بدأوا يتناولون الحساء من صحفة واحدة. أما الفسيخ نفسه فقد أخفته الجدة.

في المساء أحرق الفخّار الآنية على جرف النهر. وعلى المرج فى الأسفل رقصت الفتيات فى دائرة وغنين. وعزفوا على الأكورديون. وعلى الشاطئ الآخر أيضا اشتعل فرن وغنت الفتيات، وبدا هذا الغناء من بعيد متسقا ورقيقا. وفى الحانة وحولها تعالى صخب الفلاحين، وغنوا بأصوات مخمورة متضاربة، وسبوا سبابا فاحشا حتى إن أولجا كانت تنتفض وتتمتم:

ـ آه، يا إلهى..

أدهشها أن السباب كان لا ينقطع، وأن الشيوخ الذين آن لهم أن يموتوا، كانوا هم أكثر الجميع سبابا وأعلاهم صوتا. أما الأطفال والفتيات فكانوا يسمعون هذا السباب دون أدنى خجل، وبدا أنهم ألفوه منذ المهد.

ومر منتصف الليل، وانطفأت الأفران على هذا الشاطئ وذاك، لكن الاحتفال المعربد استمر فى المرج وفى الحانة. وسار العجوز وكيرياك، مخمورين، ممسكين بأيدى بعضهما البعض، متدافعين بالأكتاف، واقتربا من الحظيرة التى كانت ترقد فيها أولجا وماريا.

ومضى العجوز يقنعه:

ـ دعها.. إنها امرأة مسالمة.. حرام..

فصاح كيرياك:

ـ مـ.. ـا.. ريا!

ـ دعها.. حرام.. إنها امرأة طيبة..

ووقفا حوالى دقيقة بجوار الحظيرة ثم انصرفا.

وفجأة غنى العجوز بصوت «تينور» عال ثاقب:

ـ أحب زهور الحقول، أحب قطاف المروج!

ثم بصق وأطلق سبابا قذرا ودخل الدار:

٤

وضعت الجدة ساشا بجوار مزرعتها وأمرتها أن تحرسها من الأوز. كان يومًا حارا من شهر أغسطس. وكان بوسع أوزات صاحب الحانة أن تتسلل إلى المزرعة عبر الفناء الخلفى، لكنها كانت مشغولة الآن بالتقاط الشعير بجوار الحانة وتتحدث فيما بينها بسلام، ما عدا ذكر الأوز الذى كان يرفع رأسه عاليا، كأنما ليعرف ما إذا كانت العجوز قادمة والعصا فى يدها أم لا. وكان بوسع الأوزات الأخريات أن تتسلل من أسفل، ولكنها كانت ترعى الآن بعيدا وراء النهر وقد امتدت شريطا طويلا أبيض فوق المرج. وقفت ساشا قليلا، وعندما ملت ورأت أن الأوزات لا تتسلل، ذهبت إلى جرف النهر.

وهناك رأت موتكا، ابنة ماريا الكبرى، واقفة بلا حراك فوق صخرة ضخمة تحدق فى الكنيسة. أنجبت ماريا ثلاث عشرة مرة، ولكن لم يبق على قيد الحياة سوى ستة أطفال، وكلهم فتيات، أكبرهن فى الثامنة، ولا صبى واحد. وقفت موتكا حافية، فى جلباب طويل، فى اللظى، وكانت الشمس تلهب يافوخها مباشرة، ولكنها لم تلاحظ ذلك، وكأنما تجمدت. ووقفت ساشا بجوارها وقالت وهى تتطلع إلى الكنيسة:

ـ الرب يعيش فى الكنيسة. وعند البشر تشتعل المصابيح والشموع، أما عند الرب فتشتعل القناديل الحمراء والخضراء والزرقاء كالعيون. وفى الليل يسير الرب فى الكنيسة ومعه العذراء المقدسة والقديس نيكولاى ويخطون: دب.. دب.. دب.. والحارس يخاف، يخاف جدًا! ـ واستطردت مقلدة أمها ـ إيه يا حلوة. وعندما تقوم القيامة ستطير كل الكنائس إلى السماء.

وسألت موتكا بصوت غليظ وهى تمط المقاطع:

ـ مع أجراسها؟

ـ مع أجراسها. وفى يوم القيامة يذهب الطيبون إلى الجنة، أما الأشرار

فيحترقون فى النار إلى الأبد ودون انطفاء يا حلوة. وسيقول الرب لأمى ولماريا أيضًا: أنتما لم تؤذيا أحدا، ولذلك اذهبا إلى اليمين، إلى الجنة. وسيقول لكيرياك والجدة: أما أنتما فاذهبا إلى الشمال، إلى النار. ومن أفطر فى الصيام فسيذهب أيضًا إلى النار.

ونظرت إلى أعلى، إلى السماء، وقد فتحت عينيها واسعا وقالت:

ـ انظرى إلى السماء ولا ترمشى، وسترين الملائكة.

فنظرت موتكا أيضًا إلى السماء، ومرت دقيقة صمت.

فسألتها ساشا:

ـ أترين؟

فتمتمت موتكا بصوت غليظ:

ـ لا أرى.

ـ أما أنا فأراهم. ملائكة صغارًا يطيرون فى السماء ويضربون بأجنحتهم: سيك.. سيك.. سيك، كالبعوض.

وفكرت موتكا قليلاً، ثم سألت وهى تحدق فى الأرض:

ـ هل ستحترق جدتى.

ـ ستحترق يا حلوة.

من الصخرة حتى الأسفل تماما امتد منحدر مائل مستو، مغطى بعشب أخضر طرى يبعث فى النفس الرغبة فى لمسه باليد أو الرقاد عليه. فرقدت ساشا وتدحرجت إلى أسفل. ورقدت موتكا أيضًا، بوجه جاد صارم، وهى تزحر، وتدحرجت، وأثناء ذلك انحسر جلبابها حتى كتفيها.

وقالت ساشا بإعجاب:

ـ كم شعرت بالمرح!

وصعدتا معا إلى أعلى لتتدحرجا مرة أخرى، وفى تلك اللحظة تناهى إلى سمعهما الصوت الرفيع المألوف. أوه ما أفظع ذلك! كانت الجدة، المعروقة، الحدباء، بفم خال من الأسنان، وشعر قصير أبيض يتطاير فى الريح، تطارد الأوز من المزرعة بعصا طويلة وتصرخ:

ـ داسوا الكرنب كله، الملاعين، فلتأخذكم مصيبة، عليكم ألف لعنة، فليهلككم طاعون!

ورأت الفتاتين فألقت بالعصا والتقطت غصنا جافا، وأمسكت ساشا من رقبتها بأصابعها الجافة الصلبة كأسنان المذراة وراحت تجلدها. وبكت ساشا من الألم والخوف، وفى تلك اللحظة اقترب ذكر الأوز من الجدة وهو يتمايل من جنب إلى جنب وقد مط عنقه، وفح بشىء ما، وعندما عاد إلى السرب صاحت الأوزات محيية ومشجعة: قو.. قو.. قو! ثم شرعت الجدة فى جلد موتكا، وأثناء ذلك انحسر جلباب موتكا ثانية. وذهبت ساشا إلى الدار لكى تشكو وهى تشعر بالحنق وتبكى عاليًا. وتبعتها موتكا التى كانت تبكى أيضًا، ولكن بصوت غليظ، ولا تمسح دموعها، فأصبح وجهها مبللا حتى بدا كأنها غمرته فى الماء.

ـ يا إلهى! ـ ذهلت أولجا عندما دخلت الفتاتان إلى الدار ـ أيتها السيدة العذراء!

وبدأت ساشا تروى لها ما حدث، وفى تلك الأثناء دخلت الجدة وهى تصرخ بصوت ثاقب وتسب، وغضبت فيكلا، وارتفع الصخب فى الدار.

وقالت أولجا الشاحبة الحزينة وهى تطيب خاطر ساشا وتمسد رأسها:

ـ لا بأس، لا بأس، إنها جدتك. حرام أن تغضبى منها. لا بأس يا بنيتى.

أما نيكولاى الذى عذبه هذا الصراخ المستمر، والجوع الدائم والاختناق، والرائحة الكريهة، والذى أصبح يمقت الفقر ويزدريه، والذى كان يشعر

بالخجل أمام زوجته وابنته من أمه وأبيه، فقد دلى ساقيه من فوق الفرن، ودمدم بصوت منزعج باك مخاطبًا أمه:

ـ ليس لك أن تضربيها! ليس لك أى حق فى ضربها!

فصاحت فيه فيكلا.. بغلٍ:

ـ فلتزهق روحك هناك على الفرن. أية مصيبة جاءت بكم إلى هنا ياعالة!

واختبأت ساشا وموتكا وكل الفتيات الموجودات على الفرن خلف ظهر نيكولاى وسمعن من هناك كل ذلك فى صمت وخوف، وترددت مسموعة دقات قلوبهن الصغيرة. عندما يوجد فى الأسرة شخص مريض منذ أمد طويل مرضًا ميئوسًا منه، تمر أحيانًا لحظات صعبه يتمنى فيها أقاربه موته فى أعماق قلوبهم بوجل وخفية. ولكن الأطفال وحدهم هم الذين يخشون موت القريب، ويشعرون بالرعب كلما خطر لهم ذلك. وها قد حبست الفتيات أنفاسهن ونظرن بتعبير حزن على وجوههن إلى نيكولاى، وفكرن فى أنه سيموت قريبًا، فشعرن بالرغبة فى البكاء وفى أن يقلن له بضع كلمات رقيقة مشفقة.

والتصق نيكولاى بأولجا، وكأنما يبحث فيها عن حماية، وقال لها بصوت خافت متهدج:

ـ أوليا يا عزيزتى، لا أستطيع أن أبقى هنا. لم أعد أحتمل. بحق الله، بحق المسيح فى السماء، اكتبى لأختك كلافديا أبراموفنا، فلتبع ولترهن كل شىء لديها، ولترسل لنا نقودًا لنرحل من هنا. أوه يا إلهى ـ استطرد يقول بكآبة ـ لو ألقى نظرة واحدة على موسكو! لو أراها، مدينتى العزيزة، ولو فى الحلم!

عندما حل المساء وأظلمت الدار، غشيت الوحشة النفوس حتى أصبح من الصعب التفوه بكلمة. وبللت الجدة الغاضبة كسرا من خبز الجودار فى كوب ومضت تمصها فترة طويلة، ساعة كاملة. وبعد أن فرغت ماريا من حلب البقرة، جاءت بدلو اللبن ووضعته على الأريكة. ثم صبته الجدة من الدلو فى أباريق، وأيضًا فترة طويلة، على مهل، ويبدو أنها كانت مسرورة من أن أحدا

لن يشرب اللبن الآن، فى صيام رفع العذراء، سيبقى دون مساس. ولم تصب منه إلا قليلاً جدًا فى طبق صغير لطفل فيكلا. وعندما حملت مع ماريا اللبن إلى القبو قفزت موتكا فجأة، وهبطت من فوق الفرن، واقتربت من الأريكة التى كان عليها الكوب الخشبى بالخبز المبلل، وصبت فيه قليلاً من اللبن من الطبق.

وعادت الجدة إلى الدار ومضت تمص خبزها ثانية، ونظرت ساشا وموتكا إليها وهما جالستان على الفرن، وشعرتا بالسرور لأن الجدة أفطرت وسوف تدخل النار بالتأكيد. وسرى ذلك عنهما فآوتا إلى النوم، وتخيلت ساشا وهى تنعس يوم الحساب الرهيب: كان هناك فرن كبير مشتعل، مثل فرن الفخار، وراح عفريت بقرون كقرون البقرة، أسود كله، يطارد الجدة إلى النار بعصا طويلة كما كانت تطارد الأوز منذ وقت قريب.

٥

فى عيد الرفع، وفى الساعة الحادية عشرة مساء، أطلق الفتيات والفتيان المتنزهون فى المرج فى الأسفل فجأة صراخًا وعويلاً، وركضوا نحو القرية. أما أولئك الجالسون فى الأعلى، على حافة الجرف، فلم يدركوا للوهلة الأولى سبب ذلك.

وترددت فى الأسفل صرخة يائسة:

ـ حريق! حريق! إننا نحترق!

والتفت الجالسون فى الأعلى فتبدت لهم صورة رهيبة عجيبة. ففوق إحدى الدور المتطرفة، وعلى سطحها القشى، انتصب عمود من النيران بارتفاع مترين، كان يتلوى ويطلق الشرر فى جميع الجهات وكأنه نافورة. وعلى الفور اشتعل السطح كله بلهب ساطع، وسمعت قرقعة النيران.

وخبا ضوء القمر، وأصبحت القرية كلها مغمورة بضوء أحمر مرتعش. وعلى الأرض تحركت ظلال سوداء وانتشرت رائحة الحريق. ولهث الراكضون من أسفل ولم يستطيعوا أن يتكلموا من الرجفة، وتدافعوا، وتساقطوا، ولعدم التعود على الضوء الساطع لم يروا جيدًا ولم يميز بعضهم بعضا. وسيطر الرعب. وكان مرعبًا بصفة خاصة أن الحمام كان يطير فوق النيران وسط الدخان، وفى الحانة، حيث لم يعلموا بعد بالحريق، استمر الغناء والعزف على الأكورديون كأنما لم يحدث شىء.

وصاح شخص ما بصوت عال غليظ:

ـ دار العم سيميون تحترق!

وتراكضت ماريا أمام دارها وهى تبكى وتلوى ذراعيها، وأسنانها تصطك، رغم أن الحريق كان بعيدًا، فى الطرف الآخر للقرية. وخرج نيكولاى فى حذائه اللباد، وتقاطر الأولاد إلى الخارج فى قمصانهم القصيرة. وبجوار دار الخفير دقوا على لوح حديدى فتردد فى الجو: بم.. بم.. بم.. وبسبب هذا الرنين المتكرر الملحاح تولد إحساس بالبرودة يعصر القلب. ووقفت النساء العجائز حاملات الأيقونات.

ومن الأفنية أخرجوا الغنم والعجول والبقر، وحملوا الصناديق وجلود الخراف والبراميل. وكان ثمة مهر أسود لم يضموه للقطيع لأنه كان يرفس ويجرح الخيول، وقد أطلق الآن سراحه فركض عبر القرية مرة وأخرى وهو يدق بقوائمه ويصهل، ثم توقف فجأة بجوار عربة وأخذ يضربها بقائمتيه الخلفيتين.

وعلى الضفة الأخرى من النهر دوت أجراس الكنيسة. كان الصهد شديدًا بجوار الدار المشتعلة. وكان المكان مضيئًا إلى درجة ظهرت فيها واضحة كل عشبة على الأرض. وعلى أحد الصناديق التى تمكنوا من إخراجها جلس سيميون، فلاح أحمر الشعر، بأنف كبير، وفى عمرة أغمدها فى رأسه عميقًا،

حتى أذنيه، وفى سترة. ورقدت زوجته على وجهها فى حالة إغماء، وراحت تئن. وكان هناك عجوز ما، فى حوالى الثمانين، قصير القامة، بلحية طويلة، يشبه القزم، ليس من أهل الناحية ولكن يبدو أن له صلة بالحريق، أخذ يروح ويجىء بلا طاقية وفى يديه صرة بيضاء. وانعكس اللهب على صلعته. واقترب العمدة أنتيب سيديلنيكوف، الأسمر والأسود الشعر، والذى يشبه الغجرى، اقترب من الدار بالفأس وحطم النوافذ، الواحدة تلو الأخرى، لسبب غير معلوم، ثم راح يحطم الدرج.

وصاح:

ـ الماء يا نساء! الماكينة! أسرعوا!

وسحب أولئك الفلاحون، الذين كانوا يمرحون لتوهم فى الحانة، ماكينة الإطفاء. كانوا جميعًا سكارى، فراحوا يتعثرون ويسقطون، وظهر على وجوههم جميعًا تعبير عجز، وترقرقت الدموع فى أعينهم.

وصاح العمدة الذى كان أيضًا مخمورًا:

ـ الماء يا بنات! بسرعة يا بنات!

وركضت النساء والفتيات إلى أسفل، حيث يوجد النبع، وحملن إلى أعلى الدلاء والطسوت المملوءة، وبعد أن يفرغنها فى الماكينة كّن يركضن ثانية. ونقلت الماء أولجا وماريا وساشا وموتكا أيضًا. وقامت النساء والصبيان بضخ الماء، وفتح الخرطوم، وصوبه العمدة تارة إلى الباب وتارة إلى النوافذ وهو يضغط التيار بإصبعه فكان يصدر عنه فحيح أشد.

وترددت أصوات استحسان:

ـ شاطر يا أنتيب! اجتهد!

أما أنتيب فاقتحم المدخل وسط اللهب، وصاح من هناك:

ـ ضخوا! اجتهدوا أيها المسيحيون بمناسبة هذا الحادث الأليم!

وتجمهر الفلاحون بجوار الدار وهم لا يفعلون شيئًا، وأخذوا يتطلعون إلى

النار. ولم يكن أحد يعرف ماذا يفعل، ولا أحد يجيد شيئًا، بينما من حولهم أكوام القمح والدريس، والحظائر والحطب الجاف. وهنا أيضًا وقف كيرياك وأبوه العجوز أوسيب، وكانا كلاهما ثملين. وقال العجوز مخاطبًا المرأة الملقاة على الأرض، وكأنما يريد أن يبرر وقوفه بلا عمل:

ـ ما الداعى للنواح يا أشبينة! الدار مؤمّنة، فماذا تريدين!

وأخذ سيميون يروى كيف شب الحريق مخاطبًا تارة هذا الشخص وتارة ذاك:

ـ هذا العجوز ذو الصرة، من خدم الجنرال جوكوف.. كان يعمل طباخًا عند جنرالنا، عليه الرحمة.. جاء مساء وقال: «دعنى أبيت..»، وطبعًا شربنا قليلاً، معلوم.. وقامت زوجتى تشعل السماور لتسقى العجوز شايا، ولسوء الحظ وضعت السماور فى المدخل، وهكذا طار اللهب من مدخنته إلى السقف مباشرة، إلى القش فاشتعل يعنى. نحن أنفسنا كدنا نحترق. وطاقية العجوز احترقت، يا حرام.

واستمر الطرق على اللوح الحديدى بلا كلل، ودقت أجراس الكنيسة كثيرًا وراء النهر. ونظرت أولجا برعب، وقد غمرها الضوء، وهى تختنق، إلى الشياه الحمراء والحمامات الوردية المحلقة فى الدخان، وركضت تارة إلى أسفل وتارة إلى أعلى. وخيل إليها أن هذا الرنين قد انغرز فى قلبها شوكة حادة، وأن الحريق لن ينتهى أبدا، وأن ساشا فقدت.. وعندما انهار سقف الدار بصخب أصابها الخور من فكرة أن القرية سوف تحترق الآن كلها حتمًا، ولم يعد بوسعها أن تجلب الماء، فجلست على الجرف ووضعت الدلاء بجوارها. وجلست النساء بقربها وأعولن كأنما يندبن ميتًا.

ولكن ها هم الوكلاء والعاملون قد جاءوا من الضفة الأخرى، من ضيعة الإقطاعى، فى عربيتين، وأتوا معهم بماكينة إطفاء. وجاء طالب فى سترة بيضاء مسدلة، شاب جدا، على ظهر حصان. وتعالى طرق الفؤوس، ووضعوا سلما

على الجدار المشتعل، وتسلقه خمسة أشخاص دفعه واحدة، وفى مقدمتهم الطالب الذى كان محمرّا، يصرخ بصوت حاد أبح. وبلهجة توحى وكأن إطفاء الحرائق كان عملا معتادًا بالنسبة له. وفككوا جذوع الدار، ونقلوا المعلف والسياج وأقرب كوم دريس.

وترددت أصوات حازمة من الحشد:

ـ امنعوهم من تحطيم الدار! امنعوهم!

فتوجه كيرياك نحو الدار فى هيئة حازمة، كأنما يبغى منع القادمين من تحطيمها، ولكن أحد العمال أداره إلى الخلف وضربه على قفاه. وسمعت ضحكات، وضربه العامل مرة أخرى فسقط كيرياك وزحف على أربع عائدًا إلى الحشد.

وجاءت من الضفة الأخرى فتاتان جميلتان ترتديان قبعتين، يبدو أنهما شقيقتا الطالب. ووقفتا عن بعد تنظران إلى الحريق. ولم تعد الجذوع المفكوكة تشتعل لكنها نفثت دخانًا كثيفًا. وكان الطالب الممسك بالخرطوم يوجهه تارة إلى الجذوع وتارة إلى الفلاحين، وتارة إلى النسوة جالبات الماء.

وصاحت به الفتاتان بعتاب وقلق:

ـ جورج! جورج!

وانتهى الحريق. وعند الانصراف فقط لاحظوا أن الفجر حل، وأن الجميع شاحبون وسمر إلى حدما.. هكذا يبدو دائمًا فى الصباح الباكر عندما تنطفئ آخر نجوم السماء. وضحك الفلاحون وهم ينفضون وسخروا من طاهى الجنرال وطاقيته التى احترقت. كانوا يرغبون الآن فى تحويل الحريق إلى مزحة، وكأنما حتى كانوا يأسفون على انتهاء الحريق بهذه السرعة.

وقالت أولجا للطالب:

ـ لقد أطفأتم الحريق جيدًا يا سيدى. حبذا لو جئتم إلينا فى موسكو. فهناك كل يوم حريق.

فسألتها إحدى الفتاتين:

ـ وهل أنت من موسكو؟

ـ هو كذلك. كان زوجى يعمل فى «سلافيانسكى بازار». وهذه ابنتى ـ وأشارت إلى ساشا المقرورة الملتصقة بها: وهى أيضًا موسكوفية.

وقالت الفتاتان شيئًا ما بالفرنسية للطالب فأعطى هذا لساشا قطعة نقدية بعشرين كوبيكا. ورأى العجوز أوسيب ذلك فأشرق وجهه بالأمل فجأة.

وقال مخاطبًا الطالب:

ـ الحمد لله يا صاحب المعالى إنه لم تكن هناك ريح، وإلا لاحترقنا فى الحال. ـ ثم أضاف بحرج وبنبرة أخفض ـ يا صاحب المعالى، أيها السادة الطيبون، الفجر بارد، لو نتدفأ.. لو تكرمتم بثمن نصف زجاجة.

فلم يعطوه شيئًا فسعل وجر ساقيه إلى البيت. أما أولجا فوقفت على الجرف وتطلعت إلى العربتين وهما تعبران النهر خوضًا، وإلى السادة وهم يسيرون فى المرج. وعلى الشاطئ الآخر كانت هناك عربة فى انتظارهم. وعندما عادت أولجا إلى الدار قصت لزوجها بإعجاب:

ـ ما أطيبهم! ما أجملهم! أما الآنستان فمثل ملاكين.

ودمدمت فيكلا الناعسة بغل:

ـ فلتمزقهم مصيبة!

٦

كانت ماريا تعتبر نفسها تعيسة وتقول إنها تود بشدة لو ماتت. أما فيكلا فعلى العكس، كانت تروق لها كل هذه الحياة: الفقر، والقذارة، والسباب الجامح.

كانت تأكل ما يقدم لها دون تمييز، وتنام حيثما كان وعلى أى شيء. وكانت تلقى بالقاذورات بجوار المدخل مباشرة. تقذف بها من العتبة ثم تخوض بقدميها الحافيتين فى البركة القذرة. ومنذ اليوم الأول مقتت أولجا ونيكولاى بالذات لأن هذه الحياة لم تعجبهما.

وكانت تقول بتشفف:

ـ سأرى ماذا ستأكلون هنا أيها النبلاء الموسكوفيون! سأرى!

وذات صباح ـ وكان ذلك فى بداية سبتمبر ـ أتت فيكلا من أسفل بدلوى مياه. وكانت وردية من البرد، عفية وجميلة. وفى تلك الأثناء كانت ماريا وأولجا جالستين إلى المائدة تشربان الشاى.

فدمدمت فيكلا بسخرية وهى تضع الدلوين:

ـ الشاى والسكر! يا لهما من سيدتين، أصبحت موضة عندهما أن تشربا الشاى كل يوم. احترسا وإلا انتفختما من الشاى! ـ استطردت وهى تنظر إلى أولجا بحقد ـ سمنت فى موسكو سحنة ممتلئة يا كثيرة اللحم!

ورفعت المغرفة وضربت أولجا على كتفها حتى أن كلتا الزوجتين أشاحتا بأيديهما ودمدمتا:

ـ آه، يا إلهى.

ثم ذهبت فيكلا إلى النهر لتغسل الملابس. وظلت طوال الطريق تسب بصوت عال كان يسمع فى الدار.

ومر النهار. وحل مساء خريفى طويل. وكانوا يلفون خيوط الحرير فى الدار. كانوا يلفون جميعًا ما عدا فيكلا التى ذهبت إلى ما وراء النهر. كانوا يأخذون الحرير من مصنع قريب فتكسب منه الأسرة كلها قليلاً، حوالى عشرين كوبيكا فى الأسبوع.

وقال العجوز وهو يلف الحرير:

ـ كان الحال أفضل أيام السادة. تعمل، وتأكل، وتنام، وكل شىء بنظام. فى الغداء تتناول حساء الكرنب والعصيدة، وفى العشاء الكرنب والعصيدة. وما أكثر الخيار والكرنب، كُلْ طواعية قدر ما تشاء. والحزم كان أكثر. كل واحد يعرف قدره.

لم يشتعل سوى مصباح صغير كان يرسل ضوءًا كابيًا ودخانًا. وعندما يحجب أحد ما الضوء فيسقط ظل كبير على النافذة، يلوح نور القمر الساطع. وكان العجوز أوسيب يتحدث على مهل عن الحياة قبل التحرر[1]. وكيف أنه فى نفس هذه الأماكن التى يعيشون فيها الآن بملل وفقر كان السادة يصطادون بكلاب الصيد والكلاب السلوقية وكلاب بسكوف، وكانوا أثناء المطاردة يقدمون الفودكا للفلاحين، وكيف كانت تمضى إلى موسكو العربات المحملة بالطيور البرية من أجل السادة الشبان، وكيف كانوا يعاقبون الأشرار بالجلد أو بالنفى قرب ضيعة تفير، ويكافئون الأخيار. وروت الجدة أيضًا شيئًا ما. كانت تذكر كل شىء، كل شىء بحذافيره. وتحدثت عن سيدتها السابقة، تلك المرأة الطيبة التقية، التى كان زوجها عربيدًا وفاسقًا والتى تزوجت بناتها جميعًا بصورة سيئة ما بعدها سوء، فقد تزوجت واحدة من سكير، والأخرى من شخص متوسط الحال، والثالثة هربت سرًا (وساعدت الجدة نفسها، التى كانت فتاة آنذاك، فى عملية الهرب) ثم سرعان ما متن جميعًا، مثل أمهن، من الآسى. وبكت الجدة قليلاً إذ تذكرت ذلك.

وفجأة دق الباب فانتفضوا جميعًا.

ـ يا عم أوسيب، اسمح لى بالمبيت!

ودخل عجوز صغير أصلع، طاهى الجنرال جوكوف، ذلك الذى احترقت طاقيته. وجلس يصغى ثم راح هو الآخر يتذكر ويروى مختلف الحكايات.

---

(١) فى عام ١٨٦١ ألغى نظام القنانة فى روسيا وتحرر الفلاحون من العبودية المباشرة للإقطاعيين. (المعرب).

وكان نيكولاى، الجالس على الفرن مدليًا ساقيه، يصغى ويسأل عن الأطعمه التى كانوا يطبخونها أيام السادة. فتحدثوا عن اللحم المحمر والكستليتة ومختلف ألوان الحساء والصلصة، وكان الطاهى، الذى يذكر أيضًا كل شىء، يسمى أنواع المأكولات التى لم يعد لها وجود الآن. كانت هناك مثلاً أكله تجهز من عيون الثيران وتسمى «صباحًا بعد الاستيقاظ».

وسأل نيكولاى:

ـ وهل كنتم تعدون كستليتة ماريشال؟

ـ كلا.

فهز نيكولاى رأسه بعتاب وقال:

ـ إيه، طهاة خائبون!

وحدقت الفتيات الراقدات والجالسات على الفرن إلى أسفل دون أن تطرف عيونهن. وبدا أنهن كثيرات جدًا، كالملائكة فى السحب. وأعجبتهن القصص، فرحن يتنهدن وينتفضن ويشحبن تارة من الإعجاب وتارة من الخوف. وأصغين إلى الجدة التى كان حديثها أمتع من حديث الآخرين بأنفاس مبهورة محاذرات ألا تند عنهن حركة.

وأووا إلى النوم فى صمت. وفكر العجائز المنفعلون الذين أثارتهم الحكايات فى روعة الصبا الذى لا يبقى بعده، مهما كان، إلا ما هو حى ومفرح ومؤثر، وما أرهب برودة هذا الموت غير البعيد.. من الأفضل ألا تفكر فيه! وانطفأ المصباح ولسبب ما ذكرهم الظلام والنافذتان، المضاءتان بنور القمر الساطع، والهدوء، وصرير المهد بأن الحياة قد انقضت، ولا يمكن استرجاعها بأى حال.. ما إن تنعس وتغيب حتى يلمس أحد ما كتفك، وينفخ فى خدك، فيطير النوم، وتشعر بجسدك كأنما هرس هرسًا، ولا ترد إلى الذهن إلا الأفكار عن الموت. وتستدير إلى الجنب الآخر، فتنسى الموت ولكن

تجوس فى رأسك الأفكار القديمة المملة المقبضة عن الفاقة والعلف، عن ارتفاع أسعار الدقيق، وبعد قليل تتذكر ثانية أن الحياة قد انقضت، ولا يمكن استرجاعها..

وتنهد الطاهى:

ـ أوه، يا إلهى.

وطرق أحدهم على النافذة طرقات خافته. يبدو أنها فيكلا قد عادت. ونهضت أولجا وهى تتثاءب وتهمس بالصلوات، وفتحت الباب، ثم نزعت مزلاج المدخل.

ولكن لم يدخل أحد بل هبت برودة من الخارج وانتشر الضوء فجأة من القمر. ومن الباب المفتوح ظهر الشارع الهادئ المقفر، والقمر ذاته الذى كان يسبح فى السماء.

وهتفت أولجا:

ـ من هناك؟

ـ أنا ـ تناهى الرد ـ هذه أنا.

وقفت فيكلا بجوار الباب، ملتصقة بالحائط، عارية تمامًا. كانت ترتعش من البرد وأسنانها تصطك، ولاحت فى ضوء القمر الساطع شاحبة للغاية وجميلة وغريبة. وبدت الظلال الساقطة عليها ولمعان القمر على جلدها ملفتة للأنظار بشدة، وبرز بشكل خاص حاجباها الأسودان ونهداها الفتيان القويان.

وتمتمت:

ـ نزع الأشقياء فى الضفة الأخرى ثيابى وتركونى هكذا.. جئت إلى البيت بلا ملابس.. كما ولدتنى أمى. هاتى شيئًا ألبسه.

فقالت أولجا وقد بدأت هى أيضًا ترتعش:

ـ ادخلى إذن!

أخشى أن يرانى العجوزان.

وبالفعل كانت الجدة تتململ وتتذمر والعجوز يسأل:

« من هناك؟ » وجاءت أولجا إليها بقميصها وجونلتها، وألبستها، ثم دخلت كلتاهما بهدوء محاذرتين ألا تصطفق الأبواب.

ودمدمت الجدة بغضب وقد خمنت من القادم:

ـ أهى أنت يا ناعمة؟ آه يا صايعة فا.. لتأخذك داهية.

فهمست أولجا وهى تدثر فيكلا:

ـ لا بأس، لا بأس، لا بأس يا حلوة.

وعاد الهدوء. كان النوم فى الدار سيئًا دائمًا. فقد كان لدى كل منهم شىء لزج ملحاح يمنعه من النوم: الألم فى الظهر لدى العجوز، والهموم والحقد لدى الجدة، والخوف لدى ماريا، والجرب والجوع لدى الأطفال. والآن أيضًا كان نومهم قلقًا، يتقلبون من جنب إلى جنب، ويهذون، وينهضون ليشربوا.

وفجأة أجهشت فيكلا بصوت عال غليظ، ولكنها كتمت بكاءها على الفور، ثم أخذت تشهق أقل وأخفت إلى أن سكتت. وأحيانًا كان رنين الساعة يتناهى من الضفة الأخرى من وراء النهر. ولكنها كانت ساعة غريبة، إذ دقت فى البداية خمس دقات ثم بعد ذلك ثلاث.

وتنهد الطاهى:

ـ أوه، يا إلهى!

بالنظر إلى النوافذ كان من الصعب معرفة ما إذا كان ذلك ضوء القمر أم أن الفجر حل. ونهضت ماريا وخرجت، وسمع صوتها وهى تحلب البقرة فى

الفناء وتقول لها: «قفى!» وخرجت الجدة أيضًا. وكان الظلام لا يزال منتشرًا فى الدار ولكن معالم الأشياء أصبحت واضحة.

وهبط نيكولاى، الذى لم ينم طوال الليل، من فوق الفرن. واستخرج من الصندوق الأخضر فراكه، ولبسه، واقترب من النافذة فمسح كمية وشد أطرافه وابتسم. ثم نزعه بحرص، ودسه فى الصندوق، وعاد فرقد.

عادت ماريا وبدأت تشعل الفرن. ويبدو أنها لم تفق تمامًا من النوم وها هى ذى الآن تفيق أثناء الحركة. وربما تراءى لها شىء فى الحلم أو تذكرت حكايات الأمس، إذ إنها تمطت أمام الفرن بتلذذ وقالت:

ـ كلا، التحرر أفضل!

٧

وصل السيد ـ هكذا كانوا فى القرية يسمون وكيل مأمور الشرطة. كانوا يعرفون منذ أسبوع، متى، ولماذا سيأتى. فرغم أن جوكوفو لم تكن تضم سوى أربعين دارا فإن متأخرات الضرائب، الحكومية والإقليمية، بلغت أكثر من ألفى روبل.

نزل وكيل المأمور فى الحانة. و «أكل» هنا كوبين من الشاى، ثم توجه مشيًا إلى دار العمدة، حيث كان ينتظر حشد من المتخلفين عن السداد. وبالرغم من صغر سن العمدة إنتيب سيديلنيكوف ـ كان يجاوز الثلاثين بقليل.

ـ فقد كان صارما ويقف دائمًا فى صف الرؤساء، وإن كان هو نفسه فقيرًا ولا يسدد الضرائب بانتظام. يبدو أنه كان يسليه أنه عمدة، ويعجبه الإحساس بالسلطة التى لم يكن يستطيع إظهارها إلا بالصرامة. وكانوا فى الاجتماعات يخشونه ويطيعونه. كان يحدث أحيانًا أن ينقض فجأة على أحد السكارى فى الشارع أو بجوار الحانة، فيوثق يديه خلف ظهره ويودعه

فى غرفـة الحبـس. بل إنه أودع الجـدة غـرفة الحبـس ذات مـرة لأنها، إذ جـاءت إلى الاجتمـاع بدلاً من أوسيب، أخذت تسب، فأبقاها هناك يومًا كاملاً. ولم يعـش فى المدينـة، ولم يقرأ الكتب أبدا، لكنه جمع من مكان ما شتى الكلمات الذكية وكان يهوى استخدامها فى حديثه، ولهذا احترموه رغم أنهم لم يكونوا يفهمونه دائمًا.

عندما دخل أوسيب دار العمدة ومعه بطاقة الضرائب، كان وكيل المأمور، وهو عجوز نحيف، بسالفين طويلين أشيبين وفى سترة رمادية ثقيلة، جالسًا إلى طاولة فى الركن تحت الأيقونات يسجل شيئًا ما. كانت الدار نظيفة، والجدران كلها مبرقشة بالصور المنزوعة من المجلات، وفى أبرز مكان، بجوار الأيقونات، علقت صورة باتنبرج، الأمير البلغارى السابق. وبجوار الطاولة وقف أنتيب سيديلنيكوف، عاقدًا يديه على صدره.

وقال عندما جاء دور أوسيب:

ـ عليه يا صاحب المعالى مائة وتسعة عشر روبلا. منذ أن دفع روبلا قبيل عيد الفصح لم يدفع بعدها كوبيكا.

فرفع وكيل المأمور بصره إلى أوسيب وسأله:

ـ لم هكذا يا صاحبى؟

فشرع أوسيب يقول مضطربًا:

ـ اصنعوا معروفًا لله يا صاحب المعالى، اسمحوا لى بأن أقول، فى السنة الماضية قال لى سيد من ضيعة لوتريتس: «يا أوسيب بع لى الدريس.. هيا بعه لى»، ولم لا؟ كان لدىَّ حوالى مائة بود للبيع حصدتها النساء فى المروج قرب النهر.. حسنًا، اتفقنا.. كل شىء تمام، طواعية..

اشتكى من العمدة وهو يستدير بين الحين والحين نحو الفلاحين كأنما يدعوهم شهودًا. واحمر وجهه وتفصد عرقًا، وأصبحت عيناه حادتين، شريرتين.

فقال وكيل المأمور:

ـ لست أفهم لماذا تحكى لى كل هذا؟ إننى أسألك.. أسألك أنت، لماذا لا تدفع المتأخرات؟ أنتم جميعًا لا تدفعون وتريدون أن أتحمل أنا المسئولية؟

ـ لا قدرة عندى!

فقال العمدة:

ـ هذه الكلمات لا أثر لها يا صاحب المعالى. صحيح آل تشيكيلدييف من طبقة غير ميسورة، ولكن تفضلوا واسألوا الآخرين، السبب واحد: الفودكا، وهم عابثون جدًا. بدون أدنى مفهومية.

وسجل وكيل المأمور شيئًا ما ثم قال لأوسيب بسكينة وبنغمة هادئة وكأنه يطلب كوب ماء:

ـ اغرب من هنا.

وسرعان ما رحل. وعندما جلس فى عربته الرخيصة وسعل، بدا واضحًا حتى من منظر ظهره الطويل، أنه لم يعد يذكر شيئًا عن أوسيب أو العمدة أو عن متأخرات جوكوفو، بل كان يفكر فى أموره الخاصة. وما أن ابتعد فرسخًا واحدًا حتى كان إنتيب سيديلنيكوف يخرج من دار آل تشيكيلدييف حاملاً السماور، بينما سارت الجدة خلفه وهى تصيح بصوت رفيع، نافخة صدرها:

ـ لن أعطيه! لن أعطيه لك يا ملعون!

كان أنتيب يسير بسرعة، بخطوات واسعة، أما هى فركضت خلفه وهى تختنق وتكاد تسقط، حدباء، شرسة. وسقط منديل رأسها على كتفيها، وتطاير شعرها الأشيب المائل إلى الخضرة فى الريح. وفجأة توقفت، وكمتمردة حقيقية، أخذت تضرب صدرها بقبضتيها وتصيح أعلى من ذى قبل بصوت ناغم وكأنها تعول:

ـ أيها المسيحيون، يا عباد الله! يا ويلى، أهانونى! يا أحبابى ظلمونى! أغيثونى يا أعزائى!

فقال العمدة بصرامة:

ـ يا جدة، يا جدة، ضعى عقلا فى رأسك.

أصبحت دار آل تشيكيلديف بدون السماور مملة تماما. وكان ثمة شىء مذل، مهين فى هذا الحرمان، كما لو أن الدار جردت فجأة من كرامتها. كان الأفضل لو أن العمدة أخذ الطاولة، وجميع الآرائك وجميع الأباريق، إذن لما بدا المكان بهذا الخواء. وكانت الجدة تصرخ، وماريا تبكى، والبنات يبكين أيضا اقتداء بها. وأحس العجوز بالذنب فجلس فى الركن مطرقا صامتا. وصمت نيكولاى أيضا. كانت الجدة تحبه وتشفق عليه، أما الآن فنسيت الشفقة، وانهالت عليه فجأة بالسباب واللوم وهى تلوح بقبضتيها أمام وجهه تماما. كانت تصرخ قائلة أنه المذنب فى كل ما جرى. وبالفعل فلماذا كان يرسل نقودا قليلة بينما كان هو نفسه يفاخر فى رسائله بأنه يكسب فى «سلافيانسكى بازار» حوالى ٥٠ روبلا فى الشهر؟ ولماذا جاء إلى هنا، وفوق ذلك مع أسرته؟ وإذا مات، فبأى نقود سيدفنونه؟.. وكان منظر نيكولاى وأولجا وساشا يبعث على الرثاء.

وزحر العجوز وتناول طاقيته ومضى إلى العمدة. كان الظلام قد حل. وكان أنتيب سيديلنيكوف يلحم شيئا ما بجوار الفرن، نافخا شدقيه. وكان الجو خانقا. وعلى الأرض كان يلهو أطفاله النحفاء القذرون الذين ليسوا بأفضل من أطفال تشيكيلديف. وكانت زوجته القبيحة، النمشاء، ذات البطن الكبير، تلف خيوط الحرير. كانت عائلة بائسة تعيسة، وإنتيب وحده هو الذى كان يبدو يافعا وجميلا. واصطف على الأريكة خمسة سماورات. وصلى العجوز لصورة باتنبرج وقال:

ـ أنتيب، اصنع معروفا لله ورد السماور! بحق المسيح!

ـ هات ثلاثة روبلات وعندها خذه.

ـ لا قدرة عندى!

ونفخ أنتيب شدقيه، وأز اللهب وفح وهو ينعكس على السماورات. وعصر العجوز طاقيته فى يديه وفكر قليلا ثم قال:

ـ رد السماور!

أصبح العمدة الأسمر يبدو الآن أسود تماما، أشبه بساحر. والتفت إلى أوسيب وقال بصرامة وسرعة:

ـ كل شىء متوقف على رئيس الإقليم. يمكنك أن تتقدم إلى الاجتماع الإدارى فى السادس والعشرين من الشهر بمبررات عدم رضاك شفويا أو على الورق.

لم يفهم أوسيب شيئا لكنه قنع بذلك وعاد إلى الدار.

وبعد حوالى عشرة أيام جاء وكيل المأمور فمكث ساعة ثم رحل. وكان الجو آنذاك شديد الريح، باردا، وقد تجمد النهر منذ فترة طويلة، بينما لم يهبط الثلج بعد، فتعذب الناس لانعدام الطرق. وذات مساء، فى العيد، جاء الجيران إلى أوسيب ليجلسوا قليلا ويتبادلوا الأحاديث. تحدثوا فى الظلام فقد كان من الحرام العمل فلم يشعلوا الضوء. وكانت هناك بعض الأخبار السيئة. ففى دارين أو ثلاثة استولوا على الدجاج سدادا للمتأخرات، وبعثوا به إلى إدارة الإقليم، فنفق هناك لأن أحدا لم يطعمه. واستولوا على الغنم، وأثناء نقلها، ووضعها، مربوطة، من عربة إلى عربة أخرى فى كل قرية، نفقت إحداها. والآن راحوا يبحثون: من المذنب؟

وقال أوسيب:

ـ المجلس المحلى! من غيره!

ـ معلوم، المجلس.

كانوا يتهمون المجلس المحلى بكل شىء: بمتأخرات الضرائب وبالظلم والجدب، على الرغم من أن أحدا منهم لم يعرف ما هو المجلس المحلى. وقد بدأ ذلك منذ أن دخل الفلاحون الأغنياء، الذين كانوا يملكون الفبارك والمتاجر والإنزال، فى عضوية المجالس المحلية فلم تحز رضاهم، ومن بعدها أصبحوا يسبون المجالس المحلية فى فباركهم وحاناتهم.

وتحدثوا فقالوا إن الله لا يمنحهم ثلجا، ولا بد من نقل الحطب ولكن يستحيل السير أو الجر فوق الحفر والنتوءات. وفى الماضى، منذ حوالى خمسة عشر أو عشرين عاما، وقبل ذلك كانت الأحاديث فى جوكوفو أكثر إمتاعا. كان كل عجوز آنذاك يبدو كأنه يحفظ سرا ما ويعرف شيئا، ويتوقع شيئا ما وتحدثوا عن الشهادة ذات الختم الذهبى، وعن تقسيم الأرض، وعن الأراضى الجديدة، وعن الكنوز، ولمحوا إلى شىء ما. أما الآن فلم يعد لدى أهالى جوكوفو أية أسرار، وكانت حياتهم كلها مكشوفة ظاهرة للعيان، ولم يكن بوسعهم أن يتحدثوا إلا عن الفاقة وعن العلف وعن أن الثلج لن يهبط..

وصمتوا. ثم عادوا يتذكرون الدجاج والغنم، وراحوا يبحثون عن المذنب.

فقال أوسيب بكآبة:

ـ المجلس المحلى! ومن غيره!

٨

كانت كنيسة الأبرشية تقع فى كوسوجوروفو، على بعد ستة فراسخ، ولم يكونوا يزورونها إلا للضرورة القصوى، عند التعميد، أو عقد القران، أو لإقامة قداس الموتى. أما للصلاة فكانوا يذهبون إلى ما وراء النهر. وفى أيام الأعياد، فى الطقس الجيد تتزين الفتيات ويذهبن حشدا لصلاة الغداء، وكان منظرهن يبعث البهجة وهن يسرن عبر المرج فى فساتينهن الحمراء والصفراء

والخضراء. وفى الطقس السيئ يبقى الجميع فى بيوتهم. أما صلوات الصيام فكانوا يؤدونها فى الأبرشية. وكان القسيس يطوف بالصليب على الدور فى عيد الفصح فيأخذ ١٥ كوبيكا ممن لم يؤد الفروض فى الصيام الكبير.

لم يكن العجوز يؤمن بالله لأنه لم يفكر فيه أبدا تقريبا. كان يعترف بالخوارق، ولكنه كان يعتقد أن ذلك لا يحدث إلا للنساء وحدهن، وعندما كانوا يتحدثون أمامه عن الدين أو المعجزات ويوجهون إليه سؤالا ما، كان يرد كارها، وهو يحك جلده:

ـ ما أدرانى!

وكانت الجدة تؤمن ولكنه كان إيمانا كابيا، فقد اختلط كل شىء فى ذهنها، وما إن تبدأ فى التفكير بالذنوب والموت وتخليص الروح حتى تستولى الفاقة والهموم على أفكارها فتنسى على الفور ما كانت تفكر فيه. ولم تكن تذكر الصلوات، وفى الأمسيات، قبل النوم، كانت تقف عادة أمام الأيقونات وتهمس:

ـ يا عذراء قازان، يا عذراء سمولنسك، أيتها العذراء الشفيعة..

وكانت ماريا وفيكلا تصليان وتصومان كل عام، ولكنهما لم تفهما شيئا. ولم يعلموا الأولاد الصلاة، ولم يذكروا لهم شيئا عن الله ولم يبثوا فى نفوسهم أية قواعد، بل حرموا عليهم فقط الإفطار فى الصيام. وكان الحال هكذا تقريبا فى الأسر الأخرى، فقليلون هم الذين آمنوا وقليلون هم الذين فهموا. وفى الوقت نفسه كانوا جميعا يحبون الكتاب المقدس، يحبونه برقة، بإجلال، بيد أنه لم تكن لديهم كتب، ولم يكن هناك من يقرأ أو يشرح، ولأن أولجا كانت تقرأ الإنجيل أحيانا فقد احترموها، وكانوا جميعا يخاطبونها هى وساشا بصيغة الجمع.

كانت أولجا تذهب كثيرا لحضور الأعياد والصلوات الكنسية فى القرى المجاورة وفى مدينة مركز الإقليم التى كان بها ديران وسبع وعشرون كنيسة.

كانت أولجا شاردة، وأثناء ترددها على الكنائس كانت تنسى أسرتها تماما، وعندما تعود إلى المنزل تكتشف فجأة بفرح أن لديها زوجا وابنة، وعندئذ تقول مبتسمة متهللة:

ـ منَّ الله على بنعمة!

بدا لها ما يحدث فى القرية بغيضا وكان يعذبها. وكانوا فى عيد إيليا يشربون، وفى عيد رفع العذراء يشربون، وفى عيد نصب الصليب يشربون. وفى عيد التجلى، عيد كنيسة جوكوفو، شرب الفلاحون ثلاثة أيام، وبددوا على الشراب خمسين روبلا من الأموال العامة، وفضلا عن ذلك جمعوا نقودا من جميع الدور لشراء الفودكا. وفى اليوم الأول ذبح آل تشيكيلدييف خروفا وأكلوه فى الصباح وفى الغداء والعشاء، أكلوا كثيرا، وفى الليل أيضا نهض الأطفال ليأكلوا. وكان كيرياك طوال الأيام الثلاثة ثملا إلى درجة فظيعة، وباع كل شىء ليشرب بثمنه، حتى الطاقية والحذاء،، وضرب ماريا حتى إنهم كانوا يصبون عليها الماء لتفيق، وبعد ذلك شعر الجميع بالخجل والتقزز.

ولكن حتى فى جوكوفو، فى «قرية الخدم» هذه جرى ذات مرة مهرجان دينى حقيقى. كان ذلك فى أغسطس، عندما طافوا بالإقليم كله، من قرية إلى قرية، حاملين أيقونة المخلِّصة. وفى اليوم الذى انتظروها فيه، فى جوكوفو كان الطقس هادئا وغائما، وانطلقت الفتيات منذ الصباح لاستقبال الأيقونة فى فساتينهن الزاهية العيدية، وجئن بها قبيل المساء فى مسيرة دينية بالأناشيد، وفى تلك اللحظة دوت الأجراس وراء النهر. وامتلأ الشارع بحشد هائل من الأهالى والغرباء، وارتفع الصخب والغبار واشتد الزحام.. ومد العجوز والجدة وكيرياك أياديهم نحو الأيقونة، وتطلعوا إليها بنهم وقالوا وهم يبكون:

ـ يا مخلصتنا، يا أمنا العذراء، يا مخلصة!

وكأنما أدرك الجميع فجأة أن ما بين الأرض والسماء ليس فراغا، وأن الأغنياء والأقوياء لم يستولوا بعد على كل شىء، وأنه ما زالت ثمة حماية من

الإهانات والاستعباد، من الفاقة غير المحتملة ومن الفودكا الرهيبة.

وانتحبت ماريا وهى تقول:

ـ يا مخلصة، يا أمنا! يا مخلصة!

ولكن ها هو ذا القداس قد انتهى، وحملوا الأيقونة، وعاد كل شىء إلى سابق عهده، ومن جديد ترددت من الحانة أصوات فظة مخمورة.

ولم يكن يخشى الموت سوى الفلاحين الأغنياء الذين كلما ازدادوا ثراء قلّ إيمانهم بالله وبخلاص الأرواح، وبسبب الخوف وحده من نهاية العالم، وتحوطا، كانوا يضعون الشموع ويقيمون القداسات، أما الفلاحون الفقراء فلم يكونوا يخشون الموت. كان يقال للعجوز والجدة فى حضورهما إنهما عاشا طويلا وآن لهما أن يموتا، فلا يعبآن. وفى حضور نيكولاى لم يكونوا يخجلون من القول لفيكلا بأنه عندما يموت نيكولاى، فسيستفيد زوجها دينيس، إذ سيسرحونه من الخدمة العسكرية. أما ماريا فلم تكن لا تخشى الموت فحسب بل كانت تأسف لأنه تأخر إلى هذا الحد، وكانت تشعر بالسرور عندما يموت أطفالها.

لم يكونوا يخشون الموت لكنهم كانوا ينظرون إلى الأمراض بخوف مبالغ فيه. كانت تكفى أية إصابة تافهة ـ كاضطراب فى المعدة، أو حرارة بسيطة ـ حتى ترقد الجدة على الفرن وتتدثر وتبدأ فى التأوة بصوت عال وبلا توقف: «آه، أموت!» ويسرع العجوز باستدعاء القس لمناولتها ومسحها بالزيت. وكثيرا ما كانوا يتحدثون عن نزلة البرد، وعن الديدان، وعن الأورام المتحركة فى البطن والواصلة إلى القلب. وكانت نزلة البرد أكثر ما يخشونه، ولذلك كانوا يلبسون الملابس الثقيلة حتى فى الصيف ويتدفأون على الفرن. وكانت الجدة تهوى العلاج، وكثيرا ما تسافر إلى المستشفى، حيث تقول إن عمرها ليس سبعين سنة بل ثمانية وخمسين. وكانت تعتقد أنه لو عرف الطبيب عمرها الحقيقى فلن يعالجها بل سيقول إنه آن لها أن تموت لا أن تتعالج. وكانت

ترحل إلى المستشفى عادة فى الصباح الباكر، وتأخذ معها صبيتين أو ثلاثا، وتعود فى المساء جوعى وغاضبة بقطرات لها ومراهم للصبيات. وذات مرة أخذت نيكولاى، الذى ظل بعدها أسبوعين يتناول القطرات ويقول إنه يشعر بتحسن.

كانت الجدة تعرف جميع الأطباء والحكماء والمطببين لمدى ثلاثين فرسخا، ولم يعجبها واحد منهم. وفى عيد التجلى، عندما طاف القسيس بالصليب على الدور، قال لها الشماس إن هناك عجوزا، حكيما عسكريا سابقا، يعيش فى المدينة قرب السجن، يعالج جيدا جدا، ونصحها باللجوء إليه. وعملت الجدة بنصيحته. وعندما هبط الثلج لأول مرة سافرت إلى المدينة وجاءت بعجوز متنصر، بلحية وفى ثوب طويل الذيل، وكان وجهه مغطى بعروق زرقاء. وفى تلك الأثناء كان يعمل فى الدار عمال مياومة، كان خياط عجوز يضع نظارة رهيبة يفصل من بعض الأسمال صديريا، وشابان يلبدان الصوف ويصنعان أحذية اللباد. وكان كيرياك الذى طردوه من العمل بسبب السكر وأصبح يعيش الآن فى المنزل، جالسا بجوار الخياط يصلح النير. وكانت الدار ضيقة، خانقة، كريهة الرائحة. وفحص العجوز المتنصر نيكولاى وقال إنه بحاجة إلى كاسات هواء.

وأخذ يضع كاسات الهواء بينما وقف العجوز الخياط وكيرياك والفتيات ينظرون، وخيل إليهم أنهم يرون كيف يخرج المرض من جسد نيكولاى. ونظر نيكولاى أيضا إلى الكاسات وهى تلتصق بصدره فتمتلىء شيئا فشيئا بدم داكن، فشعر كما لو كان شىء ما يخرج بالفعل من جسده، فابتسم مستمتعا.

وقال الخياط:

ـ هذا حسن، جعل الله فيه الشفاء.

وضع المتنصر اثنتى عشرة كأسا، ثم اثنتى عشرة أخرى، وشرب الشاى ثم رحل. وأخذ نيكولاى يرتجف، وهزل وجهه، وكما قالت النساء، تضاءل

بحجم القبضة، وازرقت أصابعه، وتدثر بالبطانية وبمعطف جلد الخروف، ولكنه شعر بازدياد البرودة. وبحلول المساء تملكته الوحشة، وطلب أن يضعوه على الأرض، ورجا الخياط ألا يدخن، ثم سكن تحت المعطف، وفى الصباح توفى.

٩

أوه، يا له من شتاء قاس، طويل!

منذ أعياد الميلاد لم يعد لديهم قمح، فابتاعوا الدقيق. وكان كيرياك، الذى أصبح يعيش الآن فى المنزل، يثور كل مساء فيلقى الرعب فى قلوب الجميع، وفى الصباح يتعذب من الصداع والخجل فكان منظره يبعث على الرثاء. وفى المعلف كان يتردد ليل نهار خوار البقرة الجائعة فيمزق نياط قلبى الجدة وماريا. وكأنما عن عمد ظل الصقيع قارسا طوال الوقت، وتراكم الثلج أكواما، وامتد الشتاء، وفى عيد البشارة هبت عاصفة شتائية حقيقية، وفى أسبوع الفصح هطل الثلج.

ولكن أيا ما كان الحال فقد انتهى الشتاء. وفى بداية أبريل حلت أيام دافئة بينما كانت الليالى قارسة، ولم يتراجع الشتاء، ولكن يومًا دافئا تغلب عليه أخيرا، فسالت الجداول، وصدحت الطيور. وغرق المرج كله والخمائل بقرب النهر فى مياه الربيع، وتحولت المساحة الواقعة بين جوكوفو والشاطىء الآخر من النهر إلى خليج كبير رفرفت فوقه هنا وهناك أسراب من البط البرى. وكان الغروب الربيعى المتلهب، بسحبه المنفوشة، يقدم كل مساء شيئا عجيبا، جديدا خياليا، ذلك الشىء الذى لا تصدقه عندما ترى فيما بعد نفس هذه الألوان ونفس هذه السحب على قماش لوحة.

وطارت اللقالق بسرعة كبيرة وصاحت بحزن، كأنما كانت تدعو للذهاب معها. ووقفت أولجا على حافة الجرف ونظرت طويلا إلى الفيضان، وإلى

الشمس، وإلى الكنيسة المشرقة التى بدت كأنما تجدد شبابها، وسالت الدموع من عينيها واختنقت أنفاسها من الرغبة الجارفة فى الرحيل إلى مكان ما، إلى حيث يمتد البصر، ولو إلى آخر الدنيا. وكانوا قد قرروا أن تعود ثانية إلى موسكو لتعمل خادما، وسيمضى معها كيرياك ليعمل بوابا أو أى عمل آخر. آه، كم تود لو ترحل بسرعة!

وعندما جفت الأرض وأصبح الجو دافئا استعدوا للرحيل. خرجت أولجا وساشا، بالصرر على ظهريهما، وفى نعلين قرويين ما أن لاح الفجر. وخرجت ماريا لكى تودعهما. وكان كيرياك مريضا فتأجل رحيله أسبوعا. وصلت أولجا لآخر مرة فى اتجاه الكنيسة وهى تفكر فى زوجها، ولم تبك لكن وجهها تغضن وصار قبيحا كوجه عجوز. لقد هزلت خلال الشتاء وقبحت وشابت قليلا، وبدلا من ملاحتها السابقة وابتسامتها اللطيفة الودود ظهر على وجهها تعبير حزين مسالم بالأسى الذى عاشته، وظهر فى نظرتها شىء جامد بليد كأنما كانت لا تسمع. كانت آسفة على فراق القرية والفلاحين. وتذكرت كيف حملوا نيكولاى وبجوار كل دار كانوا يقيمون الصلاة وكيف بكى الجميع مشاركين لها بلواها. وأثناء الصيف والشتاء كانت تمر بها ساعات يبدو لها فيها أن هؤلاء الناس يعيشون أسوأ من الحيوانات، وكانت الحياة بينهم مرعبة. فهم أفظاظ، غير شرفاء، قذرون، مخمورون، لا يعيشون فى وفاق، يتشاجرون دائما لأنهم لا يحترمون بعضهم بعضا ويخافون ويرتابون. من يفتح الحانات ويُسكر الناس؟ الفلاح. ومن يبدد الأموال العامة وأموال المدارس والكنائس وينفقها على الشراب؟ الفلاح. ومن سرق جاره، وأحرق، وشهد زورا فى المحكمة مقابل زجاجة فودكا؟ من أول من يهاجم الفلاحين فى اجتماعات المجلس المحلى وغيرها؟ الفلاح. نعم، كانت الحياة بينهم مرعبة، ومع ذلك فهم بشر، يعانون ويبكون كالبشر، وليس فى حياتهم شىء لا يمكن إلا تجد له مبررا. العمل الشاق الذى يئن منه الجسد تعبا فى الليالى، وفصول الشتاء القاسية، والمحاصيل الشحيحة، وضيق المسكن، ولا مساعدة، وليس من جهة تتوقعها منها. فالأغنى والأقوى منهم لا يستطيعون مساعدتهم لأنهم هم

أنفسهم أفظاظ، غير شرفاء، مخمورون، ويسبون نفس السباب الكريه. وأصغر موظف أو وكيل يعامل الفلاحين معاملة المتشردين ويخاطب حتى الشيوخ ورؤساء الكنائس بصيغة المفرد ويعتقد أن له الحق فى ذلك. وهل يمكن أن يكون ثمة أى عون أو مثال طيب من أناس مغرضين، جشعين، فاسقين، كسالى، لا يذهبون إلى القرى إلا لكى يهينوا وينهبوا ويرهبوا؟ وتذكرت أولجا كيف كان منظر العجوزين بائسا ذليلا عندما سيق كيرياك شتاء لمعاقبته بالجلد.. وهى الآن تشعر بالرثاء والألم لكل هؤلاء الناس، وراحت طوال سيرها تتلفت نحو الدور.

وبعد أن سارت ماريا معهما حوالى ثلاثة فراسخ ودعتهما، ثم جثت على ركبتيها وأعولت وهى تسقط بوجهها على الأرض وتصيح:

ـ عدت وحيدة يا ماريا! آه يا تعيسة يا بائسة..

وظلت تعول هكذا طويلا، وظلت أولجا وساشا يريانها طويلا وهى جاثية على ركبتيها تسجد جانبا لشخص ما وقد أمسكت رأسها بيديها، وفوقها حلقت الغربان.

ارتفعت الشمس عاليا واشتد الحر. وبقيت جوكوفو بعيدا فى الوراء. وكان السير محببا، فسرعان ما نسيت أولجا وساشا القرية وماريا، وأحستا بالمرح وكان كل شىء يبدو مسليا. تارة تل، وتارة صف أعمدة البرق التى يمضى كل منها وراء الآخر إلى جهة غير معلومة، وتختفى فى الأفق، والأسلاك تئز بألغاز. وتارة تبدو على البعد عزبة، غارقة فى الخضرة، تهب منها الرطوبة ورائحة القنب، ولسبب ما يخيل إليهما أن قاطنيها أناس سعداء. وتارة يلوح هيكل عظمى لحصان، أبيض وحيد فى الحقل. والقبرات تصدح بلا توقف، وتتصايح السمانات. ويصرخ طائر الدراج بصوت متحشرج يشبه بالفعل صوت درج حديدى صدئ يُسحب.

بلغت أولجا وساشا فى الظهر قرية كبيرة. وهناك قابلتا فى شارع واسع

طاهى الجنرال جوكوف، ذلك العجوز. كان حران، ولمعت فى الشمس صلعته العرقانة الحمراء. ولم تعرفه أولجا ولا هو أيضا عرفها، ثم نظر كل منهما إلى الآخر فى نفس اللحظة فعرفا بعضهما البعض، ودون أن يتفوها بكلمة، مضى كل منهما فى سبيله. وتوقفت أولجا بجوار دار بدت أكثر ثراء وجدة، وانحنت أمام النوافذ المفتوحة وقالت بصوت عال رفيع ناغم:

ـ حسنة لله أيها المسيحيون الأتقياء، حسنة بحق المسيح، رحمة وسلاما على أرواح موتاكم.

وغنت ساشا:

ـ حسنة لله أيها المسيحيون الأتقياء، حسنة بحق المسيح، رحمة وسلاما..

فى الخــور

١

كانت قرية أوكلييفو تقع فى خور، ولذلك، لم يكن يبدو منها للناظر من الطريق ومن محطة السكة الحديدية سوى برج الكنيسة ومداخن فبارك صباغة الشيت. وعندما كان العابرون يسألون أيه قرية هذه يقال لهم:

ـ إنها تلك القرية التى أكل فيها الشماس فى المأتم كل الكافيار.

فذات مرة، أثناء وليمة التأبين عند الصناعى كوستيوكوف، رأى الشماس العجوز بين أطباق المزة كافيارا أسود فراح يلتهمه بشراهة. وأخذوا يدفعونه، ويشدونه من كمه، إلا أنه بدا كأنما فقد الإحساس من شدة المتعة، فلم يعد يشعر بشىء، بل مضى يأكل فقط. والتهم علبة الكافيار كلها، وكان فيها حوالى أربعة أرطال. وقد مضى على ذلك اليوم زمن طويل، ومات الشماس منذ فترة بعيدة، لكن الناس ظلوا يذكرون قصة الكافيار. وسواء كانت الحياة هنا فقيرة إلى هذه الدرجة، أم أن الناس لم يكونوا قادرين على ملاحظة أى شىء غير هذه الحادثة التافهة التى وقعت منذ عشرة أعوام، فإنهم لم يرووا أى شىء آخر عن قرية أوكلييفو.

لم تكن الحمى تختفى منها، وحتى فى الصيف كان فيها وحل كوحل المستنقعات، وخاصة تحت الأسيجة التى تنحنى فوقها أشجار الصفصاف العتيقة بظلالها الوارفة. وكانت تفوح هنا دائما رائحة المخلفات الصناعية

وحامض الخل الذى كانوا يستخدمونه فى معالجة الشيت الملون. ولم تكن الفبارك ـ ثلاث لصباغة الشيت وواحدة للجلود ـ تقع فى القرية، بل فى طرفها وقريبا منها. كانت تلك فبارك صغيرة، وكان يعمل فيها جميعا حوالى أربعمائة عامل لا أكثر. وبسبب فابريكة الجلود كانت مياه النهر كثيرا ما تصبح نتنة. ولوثت المخلفات المرج، فأصيبت ماشية الفلاحين بالقرحة السيبيرية، وصدر أمر بإغلاق الفابريكة. واعتبرت مغلقة، لكنها كانت تعمل سرا، بعلم وكيل المأمور وطبيب الناحية اللذين كان صاحبها يدفع لكل منهما عشرة روبلات فى الشهر. ولم يكن فى القرية كلها سوى منزلين محترمين، مشيدين من الحجر، وبسقف معدنى. كان أحدهما مقرا لإدارة الناحية، وفى الثانى، ذى الطابقين، والمواجه مباشرة للكنيسة، عاش جريجورى بتروف تسيبوكين، البرجوازى الصغير.

كان جريجورى يملك دكان بقالة، ولكن ذلك كان ستارا، أما فى الحقيقة فكان يتاجر فى الفودكا، والماشية، والجلود، والحبوب، والخنازير.. كان يتاجر فى كل ما يتسنى له، وحينما كانوا فى الخارج مثلا، يحتاجون إلى ريش العقعق للقبعات النسائية، كان يكسب من كل زوج ثلاثين كوبيكا. وكان يشترى الأشجار لتقطيعها خشبا، ويقرض بفائدة، وعموما كان عجوزا ماهرا فى الأعمال.

وكان لديه ولدان. الأبن الأكبر، أنيسيم، كان يعمل فى الشرطة، فى قسم المباحث، ونادرا ما يأتى إلى البيت. أما الابن الأصغر، ستيبان، فسار على درب التجارة، وكان يساعد أباه، وإن لم ينتظروا منه مساعدة حقيقية لأنه كان معتل الصحة وأطرش. وكانت زوجته أكسينيا، وهى امرأة جميلة، ممشوقة، ترتدى فى الأعياد قبعة وتحمل مظلة، تستيقظ مبكرا وتنام متأخرا، وتركض طول النهار، مشمرة جونلاتها، وهى تصلصل بالمفاتيح، تارة إلى المخزن، وتارة إلى القبو، وتارة إلى الدكان، فكان العجوز تسيبو كين ينظر إليها بمرح، وتتوقد عيناه، وفى تلك اللحظات كان يأسف أنها ليست متزوجة من ابنه الأكبر، بل من الأصغر، الأطرش، الذى لم يكن، فيما يبدو، يفقه كثيرا فى جمال النساء.

كان العجوز ميالا دوما إلى الحياة العائلية، فكان يحب أسرته أكثر من أى شيء فى الدنيا، وخاصة ابنه الأكبر المخبر وزوجة ابنه الأصغر. وما أن تزوجت أكسينيا من الأطرش حتى كشفت عن مهارة عملية فائقة، وأصبحت تعرف من الذى يمكن أن تبيع له بالدين ومن الذى لا يمكن، واحتفظت بالمفاتيح فلم تأتمن عليها حتى زوجها، وكانت تعد على العداد الخشبى، وتفحص أسنان الخيول مثل الفلاحين. وطول الوقت تضحك أو تصيح. وكلما عملت أو قالت شيئا كان العجوز ينظر بتأثر ويدمدم:

ـ عفارم ياكنّة! عفارم ياحلوة!..

كان أرملا، ولكن بعد زواج ابنه بسنة، لم يتمالك نفسه فتزوج هو الآخر. وجدوا له على بعد ثلاثين فرسخا من أوكلييفو فتاة تدعى فارفارا نيكولايفنا، من أسرة طيبة، تقدمت بها السن ولكنها جميلة، حسنة الهيئة. وما أن سكنت الغرفة الصغيرة، فى الطابق العلوى، حتى أشرق كل شيء فى البيت، كأنما وضع زجاج جديد فى جميع النوافذ. وسطعت القناديل، وفرشت على الطاولات مفارش بيضاء كالثلج، وظهرت على النوافذ وفى الحديقة أزهار بأكمام حمراء، ولم يعودوا يتناولون الغداء من صحفة واحدة بل وضعت الأطباق أمام كل شخص. وكانت فارفارا نيكولايفنا تبتسم برقة ولطف فبدا أن كل ما فى البيت يبتسم. وأخذ الشحاذون والجوالون والمتعبدات يعرجون على فناء الدار، الأمر الذى لم يحدث أبدا من قبل، وترددت تحت النوافذ أصوات فلاحات أوكلييفو الشاكية الناغمة، وسعال خجل للفلاحين المنهكين المفصولين من الفابريكة بسبب السكر. كانت فارفارا تساعدهم بالنقود والخبز والملابس القديمة، وبعد أن ألفت البيت راحت تختلس لهم من الدكان. وذات مرة لمحها الأطرش وهى تسرق ثُمْنَىْ شاى فتملكه الحرج.

وفيما بعد قال لابيه:

ـ نينة أخذت ثُمنى شاى. على أى حساب أسجلهما؟

فلم يجب العجوز بشىء، ووقف قليلا وفكر وهو يلعّب حاجبيه، ثم صعد إلى زوجته.

وقال لها برقة:

ـ يا فارفاروشكا! يا روحى! إذا ما احتجت إلى شىء من الدكان فخذيه. خذى كما تشائين ولا تهتمى.

وفى اليوم التالى صاح لها الأطرش وهو يجرى عبر الفناء:

ـ يا نينة، إذا احتجت لشىء، خذيه!

كانت تتصدق، وكان فى ذلك شىء جديد، وشىء مرح وخفيف، كما فى القناديل والأزهار الحمراء. وحينما كانوا ليلة الصيام أو فى عيد راعى الكنيسة الذى كان يستمر ثلاثة أيام، يبيعون للفلاحين اللحم المملح العفن ذا الرائحة الفظيعة حتى ليصعب الوقوف بجوار البرميل، ويأخذون من السكارى المناجل والطواقى ومناديل زوجاتهم رهنا، وحينما كان عمال الفبارك يتمرغون فى الأوحال وقد أفقدتهم الفودكا السيئة صوابهم، ويبدو أن الحرام قد تكاثف وأصبح معلقا فى الجو كالضباب، عندها يداعب النفس شعور بالراحة من فكرة أن هناك فى البيت امرأة هادئة، لطيفة، لا شأن لها لا باللحم المملح ولا بالفودكا. كان لصدقاتها فى تلك الأيام الممضة المضببة مفعول صمام الأمان فى الآلة.

كانت الأيام فى منزل تسيبوكين تمضى فى المشاغل. فقبل أن تبزغ الشمس تتردد زفرات أكسينيا وهى تغتسل فى المدخل، بينما يغلى السماور فى المطبخ ويئز منذرا بشىء شرير. وكان العجوز جريجورى بتروف، وقد ارتدى سترة سوداء طويلة وسروالا من الشيت، وحذاء عاليا لامعا، يتجول فى الغرف نظيفا، صغيرا، ويدق بكعبيه كوالد الزوج فى الأغنية المعروفة. ثم يفتحون الدكان. وعندما ينتشر الضوء يأتون بالعربة إلى درج المدخل فيقفز إليها العجوز بفتوة، ويغمد عمرته الكبيرة حتى أذنيه، فإذا نظرت إليه لا يمكن أن تقول

أنه في السادسة والخمسين. وتودعه زوجته وكنته. وفى تلك اللحظة، عندما يكون مرتديا سترة جيدة نظيفة، وقد شد إلى العربة حصان أسود ضخم، ثمنه ثلاثمائة روبل، لا يحب العجوز أن يقصده الفلاحون بطلباتهم وشكاواهم. كان يمقت الفلاحين ويتقزز منهم، وعندما يرى أحدهم واقفا ينتظر بجوار البوابة، يصيح فيه بغضب:

ـ ما لك واقفًا هناك؟ سر فى طريقك!

أو يصرخ إذا كان ذلك شحاذا:

ـ الله يسهل لك!

كان يرحل لقضاء أعماله. وكانت زوجته تنظف الغرف أو تساعد فى المطبخ، مرتديه ثيابا داكنة ومريلة سوداء. وتتاجر أكسينيا فى الدكان، وكان يسمع فى الفناء رنين الزجاجات والنقود وضحكها أو صياحها وكلمات الزبائن الغاضبة الذين أهانتهم. وفى الوقت نفسه كان واضحا أن التجارة السرية فى الفودكا قد بدأت فى الدكان. وكان الأطرش يجلس أيضا فى الدكان، أو يسير فى الشارع بلا طاقية، وقد دس يديه فى جيبيه، ويتطلع شاردا إلى الدور أو إلى السماء. وكانوا يشربون الشاى فى البيت حوالى ست مرات فى اليوم، ويجلسون إلى المائدة لتناول الطعام أربع مرات. وفى المساء يحسبون الدخل ويسجلونه، ثم يخلدون إلى نوم عميق.

كانت فبارك الشيت الثلاث فى أوكلييفو، وكذلك بيوت الصناعيين آل خريمين الأكبر وآل خريمين الأصغر وكوستيوكوف مجهزة بالتليفون. ومدوا التليفون أيضا إلى إدارة الناحية ولكنه سرعان ما تعطل هناك إذ عشش فيه البق والصراصير. وكان شيخ الناحية ضعيف التعليم، يبدأ كل كلمة فى الأوراق الرسمية بحرف كبير، ولكنه قال عندما تعطل التليفون:

ـ نعم، ستكون أحوالنا أصعب بلا تليفون.

وكان آل خريمين الأكبر يقاضون دائما آل خريمين الأصغر، وأحيانا كان

آل خريمين الأصغر يتشاجرون، هم أيضا، فيما بينهم ويلجأون إلى المحاكم، وعندئذ تتوقف فابريكتهم شهرا وشهرين إلى أن يتصالحوا، وكان ذلك يسلى أهالى أوكلييفو، إذ كان كل شجار يثير الكثير من الأحاديث والقيل والقال. وفى أيام الأعياد كان كوستيوكوف وآل خريمين الأصغر ينظمون تزحلقًا بالزحافات، فيمرقون فى أوكلييفو ويدوسون العجول. وكانت أكسينيا تتنزه فى الشارع قرب دكانها، فى كامل زينتها وهى تخرخش بجونلاتها المنشاة، فكان آل خريمين الأصغر يلتقطونها ويحملونها معهم كأنما عنوة. وفى ذلك الحين كان العجوز تسيبوكين يتزحلق أيضا لكى يظهر حصانه الجديد، ويصطحب معه فارفارا.

وفى المساء، بعد التزحلق وقبيل النوم، كانوا يعزفون فى فناء آل خريمين الأصغر على أكورديون ثمين، وعندما يكون هناك قمر تبعث هذه الألحان القلق والبهجة فى القلب، ولا تعود أوكلييفو تبدو كالحفرة.

٢

كان الابن الأكبر أنيسيم لا يأتى إلى البيت إلا نادرا، فى الأعياد الكبيرة فقط، ولكنه كان كثيرا ما يرسل مع بلدييه الهدايا والرسائل، المكتوبة بخط شخص غريب، جميل للغاية، وفى كل مرة على فرخ ورق فى صورة التماس. وكانت الرسائل ممتلئة بتعبيرات لم يستخدمها أنيسيم أبدا فى حديثه: «بابا وماما العزيزين. أبعث إليكما برطل من شاى الزهور لتلبية احتياجاتكما البدنية».

وفى أسفل كل رسالة توقيع مخربش، كأنما كتب بريشة مكسورة: «إنيسيم تسيبوكين» وتحت هذا كتب بنفس الخط الرائع السابق: «المخبر».

كانت الرسائل تقرأ جهرا عدة مرات، فيقول العجوز المتأثر المتضرج من شدة الانفعال:

ـ لم يشأ أن يبقى معنا، وقرر أن يسلك طريق العلم طيب، ليكن. كل واحد وله وظيفته.

وذات مرة، قبل أيام المرافع، هطل مطر غزير ببرد، واقترب العجوز وفارفارا من النافذة ليتفرجا، فإذا بهما يريان أنيسيم قادما من المحطة فى زحافة. لم يكونوا يتوقعون مجيئه أبدا. دخل الغرفة قلقا ومنزعجا من شىء ما، وظل هكذا طوال فترة بقائه. وكان يتصرف بشىء من الاستهتار. ولم يتعجل الرحيل، وبدا الأمر وكأنما فصلوه من عمله. وكانت فارفارا مسرورة بمجيئه، وكانت تنظر إليه بمكر، وتتنهد وتهز رأسها. وتقول:

ـ يا إلهى، كيف ذلك؟ الشاب أصبح فى الثامنة والعشرين وما زال يتسكع أعزب، أوه!، هوه!، هو..

من الغرفة الأخرى كان حديثها الهادئ الخافت يسمع هكذا: «أوه!، هوه!، هو». وأخذت تتهامس مع العجوز وأكسينيا، فارتسم على وجهيهما أيضا تعبير ماكر غامض، كما على وجوه المتآمرين.

وقرروا تزويج أنيسيم.

وقالت فارفارا:

ـ أوه!، هوه!، هو.. الأخ الأصغر زوجوه من زمان، وأنت لا تزال بلا شريكة كالديك فى السوق. فى أى شرع هذا؟ أوه ـ هوه، بعد أن تتزوج إن شاء الله، افعل كما تشاء، اذهب إلى العمل، لكن زوجتك ستبقى فى البيت، لتساعدنا. إنك تعيش بلا ترتيب ياشاب، وقد نسيت كل القواعد كما أرى. أوه!، هوه!، هو، ما العمل معكم يا أهل المدينة؟

عندما كان آل تسيبو كين يتزوجون، كانوا يختارون لهم أجمل العرائس باعتبارهم أغنياء. وقد وجدوا لأنيسيم أيضا عروسا جميلة. أما أنيسيم نفسه فلم تكن هيئته جذابة، ولا ملفتة. فمع بنيانه الضعيف المريض وقامته القصيرة، كان له خدان ممتلئان منتفخان كأنما نفخهما عمدا. وعيناه لا تطرفان. ونظرته حادة، ولحيته حمراء، خفيفة الشعر، وعندما يستغرق فى

التفكير كان يدسها فى فمه ويعضها. وعلاوة على ذلك كان يسكر كثيرا، وبدا ذلك واضحا على وجهه ومشيته. ولكن عندما أخبروه أنهم وجدوا له عروسا جميلة جدا، قال:

ـ حسنا، أنا أيضا لست أحول. نحن آل تسيبوكين، كلنا جميلون.

كانت قرية تورجويفو بجوار المدينة مباشرة. وقد ضم أحد شطريها مؤخرا إلى المدينة، وظل الشطر الآخر قرية. وفى الشطر الأول كانت تعيش إحدى الأرامل، فى دار ملكها. وكانت لديها أخت، فقيرة تماما، تعمل فى المنازل بالمياومة. وكان لدى هذه الأخت ابنة تدعى ليبا، تعمل أيضا بالمياومة. وكانت الألسنة فى تورجويفو تتحدث عن جمال ليبا، لكن الشىء الوحيد الذى كان يثير حرج الجميع هو فقرها المدقع. وكانوا يقولون إنه ربما تزوجها كهل أو أرمل غير عابئ بفقرها، أو ربما أخذها لنفسه «هكذا»، وعندئذ تعيش أمها معها فتجد لقمة العيش. وعلمت فارفارا عن ليبا من الخاطبات فسافرت إلى تورجويفو.

ثم أقيم فى بيت الخالة حفل عرض، حسب الأصول، بطعام وشراب، وكانت ليبا فى فستان وردى جديد، حاكوه خصيصا لحفل العرض، وتوهج فى شعرها شريط أحمر كالنار. كانت نحيلة، ضعيفة، شاحبة، وقسماتها دقيقة رقيقة، سمراء من العمل فى الهواء الطلق. ولم تفارق وجهها ابتسامة حزينة وجلة، وأطلت من عينيها نظرة أطفال، بريئة وفضولية.

كانت صبية، طفلة بعد، بصدر لا يكاد يبين، ولكن كان بوسعها أن تتزوج، إذ بلغت السن القانونية. وكانت جميلة بالفعل، ولكن كان فيها شىء واحد ربما لا يحوز الإعجاب: يداها الكبيرتان الرجاليتان، اللتان كانتا تتدليان الآن بلا عمل مثل مخلبين طويلين.

وقال العجوز للخالة:

ـ ليس لديكم مال، ونحن لن نشغل البال. لقد أخذنا لابننا ستيبان عروسا

من أسرة فقيرة أيضا، وهى الآن موضع فخرنا. وسواء فى الدار أم فى العمل فلها يدان من الذهب.

كانت ليبا واقفة بجوار الباب وكأنما تريد أن تقول: «اصنعوا بى ما تريدون، أنا أثق بكم»، أما أمها، المياومة براسكوفيا، فاختبأت فى المطبخ وقد تجمدت من الوجل. فى زمن ما وأيام شبابها، غضب منها تاجر كانت تمسح الأرضية لديه، فدق الأرض بقدميه ثائرًا فيها فارتعبت بشدة واعتراها الذهول، وبقى الخوف فى نفسها طوال العمر. ومن الخوف كانت يداها وساقاها ترتعش دائما، وكذلك خداها. جلست فى المطبخ وهى تحاول أن تتسمع ما يقوله الضيوف، وترسم طوال الوقت علامة الصليب وهى تلصق أصابعها بجبهتها وتنظر إلى الأيقونة. وشد إنيسيم، الذى ثمل قليلا، باب المطبخ وقال باستهتار:

ـ لماذا تجلسين هنا يا نينة الغالية؟ نحن نشعر بالوحشة بدونك.

أما براسكوفيا التى اشتد وجلها فقد أجابته وهى تضغط بيديها على صدرها الهزيل النحيل:

ـ ماذا تقول، العفو العفو.. بارك الله فيكم.

وبعد العرض حددوا يوم الزفاف. وعندما عادوا إلى البيت راح إنيسيم يجوس بالغرف مصفرا، أو يتذكر فجأة شيئا ما فيستغرق فى التفكير، محدقا فى الأرض بنظرة جامدة ثاقبة، كأنما كان يريد بنظرته أن ينفذ عميقا فى الأرض. ولم يعرب لا عن رضاه بأنه سيتزوج، سيتزوج قريبا، وفى نهاية عيد الفصح، ولا عن رغبته فى رؤية عروسه، بل كان يصفر فقط. وكان واضحا أنه لا يتزوج إلا لأن تلك كانت رغبة أبيه وزوجة أبيه، ولأن العادة جرت هكذا فى الريف: أن يتزوج الابن لكى يأتى إلى البيت بمساعدة. وعندما استعد للرحيل لم يتعجل، وعموما كانت تصرفاته لا تشبه تصرفاته السابقة.. كان مستهترا بشدة، ولم يكن يتحدث كما ينبغى.

٣

كانت تعيش فى قرية شيكالوفا خياطتان شقيقتان، من طائفة «الخليست». وقد أوصيتا بتجهيز ثياب جديدة بمناسبة العرس، فجاءتا لقياس الملابس، وظلتا طويلاً تشربان الشاى. حاكتا لفارفارا فستانًا بنيًا بدانتلا سوداء وخرزات زجاجية، وحاكتا لأكسينيا فستانا أخضر فاتحًا، بصدر أصفر وذيل طويل. وبعد أن أنهت الخياطتان عملهما لم يدفع لهما تسيبوكين أجرهما نقدًا بل سلعا من دكانه، فانصرفتا من عنده حزينتين، وفى أيديهما صرر بها شموع وسردين ليستا بحاجة إليها أبدا، وحينما غادرتا القرية وأصبحتا فى الحقل، جلستا على تلة صغيرة وراحتا تبكيان.

وجاء أنيسيم قبل العرس بثلاثة أيام، وكان كل ما عليه جديدًا. كان ينتعل خفًا لامعا من المطاط، ويضع بدلاً من رابطة العنق خيطًا أحمر بكريات، وعلى كتفيه تدلى معطف وكان أيضًا جديدًا.

وصلى بوقار ثم سلك على أبيه وأعطاه عشرة روبلات فضية وعشر قطع من فئة النصف روبل. وأعطى لفارفارا نفس المبلغ، ولأكسينيا عشرين قطعة من فئة الربع روبل وكان أروع ما فى هذه الهدايا أن جميع القطع النقدية كانت جديدة كلها وتلمع فى الشمس. ولكى يظهر أنيسيم وقورا وجادًا شد عضلات وجهه ونفخ شدقيه، وفاحت منه رائحة الخمر، إذ يبدو أنه كان يخرج من العربة فى كل محطة ويشرب فى البوفيه. ومن جديد كان فيه نوع من الاستهتار وشىء زائد. وفيما بعد شرب أنيسيم والعجوز الشاى وأكلا، أما فارفارا فراحت تقلب الروبلات الجديدة فى يديها وتسأل عن بلدييهم القاطنين فى المدينة.

وقال أنيسيم:

ـ لا بأس، يعيشون بخير والحمد لله. ولكن وقعت لإيفان يجوروف حادثة فى حياته العائلية.. ماتت عجوزه صوفيا نيكيفروفنا، بالسل. أوصوا على غداء

التأبين عند الحلوانى، بروبلين ونصف للشخص. وكان هناك خمر عنب. وحتى لقاء غداء الفلاحين ـ بلدينا ـ دفعوا أيضًا روبلين ونصف للشخص. ولكنهم لم يأكلوا شيئًا. وهل يفقه الفلاح فى المأكولات المرفهة!

فقال العجوز وهو يهز رأسه:

ـ روبلان ونصف!

ـ ولم لا؟ هناك مدينة لا قرية. تدخل المطعم لتأكل، فتطلب هذا وذاك، وتجتمع الشلة، فتشرب، وإذا بالفجر حل، وتفضل، ادفع ثلاثة أو أربعة روبلات للشخص. أما مع ساموردوف، فإنه يحب بعد كل ذلك أن يشرب القهوة بالكونياك، وكأس الكونياك وحده بستين كوبيكا.

فدمدم العجوز معجبًا:

ـ يا له من كذاب! يا له من كذاب!

ـ أنا الآن مع ساموردوف دائمًا. إنه هو الذى يكتب لكم رسائلى. رائع فى الكتابة، واستطرد أنيسيم يقول بمرح لفارفارا ـ لو حكيت لك يا نينة أى رجل ساموردوف هذا لما صدقت. إننا جميعًا ندعوه «مختار» لأنه أسود تمامًا، مثل الأرمن. إننى أعرف خباياه، أعرف كل أعماله كمعرفتى لأصابعى الخمس، وهو يشعر بذلك يا نينة. ولهذا يسير دائمًا ورائى ولا يتركنى، ولا يفرقنا الآن شىء. ويبدو أنه يشعر بالرهبة منى، ولكنه لا يستطيع العيش بدونى. أينما ذهبت ذهب ورائى. إن لى يا نينة عينا صائبة صادقة. عندما أكون فى السوق أنظر، فإذا فلاح يبيع قميصًا.. قف! القميص مسروق! وبالفعل، يتضح أن القميص مسروق.

فسألت فارفارا:

ـ وكيف تعرف؟

ـ هكذا، عينى هكذا. أنا لا أعرف ما هذا القميص ولكنى أجد نفسى لسبب ما مشدودا نحوه: قميص مسروق وانتهى الأمر. عندنا فى قسم المباحث

يقولون: «ذهب أنيسيم لاصطياد دجاج الغابة» ومعنى ذلك: ذهب للبحث عن المسروقات. نعم.. كل واحد يستطيع أن يسرق. ولكن كيف تخبئ المسروق! الأرض واسعة ولكن لا مكان تخبئ المسروق فيه!

ـ في قريتنا سرقوا من آل جونتوريف في الأسبوع الماضي خروفًا ونعجتين ـ قالت فارفارا ثم تنهدت ـ وليس هناك من يبحث عنها.. أوه.. هوه.. هو..

ـ لم؟ البحث ممكن.. بسيطة، ممكن.

وحل يوم الزفاف. كان يومًا باردًا من شهر أبريل ولكنه صحو وبهيج. ومنذ الصباح الباكر أخذت عربات الترويكا وعربات الجوادين المزينة بالأشرطة الملونة على أقواسها وأعراف خيولها تطوف بأوكلييفو وهي تصلصل بأجراسها. وصاحت الغربان في أشجار الصفصاف وقد أزعجها مرور العربات، وصدحت الزرازير بلا توقف وبإجهاد، وكأنما أسعدها أن لدى آل تسيبوكين عرسًا.

وفي المنزل مُدت على الطاولات الأسماك الطويلة ولحم فخذ الخنزير والطيور المحشوة وعلب السردين وشتى المملحات والمخللات وعدد كبير من زجاجات الفودكا والخمر، وفاحت رائحة السجق المدخن والكركند البحري الفاسد. وكان العجوز يتمشى بجوار الموائد وهو يدق بكعبيه ويشحذ سكينًا بسكين. وكانوا ينادون على فارفارا كل حين طالبين منها شيئًا ما فتركض شاردة لاهثة إلى المطبخ حيث يعمل منذ الفجر طاه من عند آل كوستيوكوف وطاهية ماهرة من عند آل خريمين الأصغر. وكانت أكسينيا تركض في الفناء كالأعصار، مجعدة الشعر، بدون فستان بل في الكورسيه فقط، وفي حذاء جديد ذي صرير، فلا تلمح منها سوى ركبتيها العاريتين وصدرها العاري. وعلا الضجيج وتردد السباب والأيمان، وتوقف المارة أمام البوابة المفتوحة على مصراعيها، وبدا محسوسًا في الجو كله أنه سوف يحدث شيء غير عادي.

ـ ذهبوا لإحضار العروس!

ودوت الأجراس ثم صمتت بعيدًا خلف القرية.. وفي الساعة الثالثة

ركض الناس، فقد ترددت الأجراس ثانية، لقد أحضروا العروس! كانت الكنيسة غاصة، واشتعلت ثريا الكنيسة، وغنى المنشدون على النوت الموسيقية حسب رغبة العجوز تسيبوكين. وبهر بريق الأضواء والفساتين الساطعة عينى ليبا، وخيل إليها أن المنشدين يدقون بأصواتهم العالية كالمطارق على رأسها. وضغط عليها الكورسيه، الذى ارتدته لأول مرة فى حياتها، وكذلك الحذاء، وارتسم على وجهها تعبير، كأنما أفاقت لتوها من إغماءة.. كانت تحدق ولا تفهم. أما أنيسيم، الذى كان فى حلة سوداء وخيط أحمر بدلاً من رباط العنق، فقد استغرق فى التفكير وهو يحدق فى نقطة واحدة، وعندما يصرخ المنشدون عاليًا كان يرسم علامة الصليب بسرعة. كان يشعر بالتأثر وبالرغبة فى البكاء. كانت هذه الكنيسة مألوفة لديه منذ الصغر. ففى وقت ما جاءت به المرحومة أمه لمناولته، وفى وقت ما غنى مع الصبيان فى جوقة المنشدين. إنه يذكر جيدًا كل ركن هنا وكل أيقونة. وها هم أولاء يزفونه، ها هم يزوجونه كما تقتضى الأصول، ولكنه لم يعد يفكر فى ذلك أو يذكر بل نسى العرس تمامًا. كانت دموعه تعوقه عن تأمل الأيقونات، وثمة شىء كان يضغط على قلبه. راح يصلى ويدعو الله أن يجنبه المصائب المحتومة المتأهبة للانقضاض عليه اليوم أو غدا، أن تتخطاه بصورة ما كما تتخطى العواصف الممطرة القرية فى وقت الجفاف دون أن تلقى إليها بقطرة مطر واحدة. وما أكثر الذنوب التى ارتكبت فى الماضى، ما أكثر الذنوب، وما أعمق التردى والتخبط حتى ليبدو طلب الغفران غير مناسب. لكنه طلب الغفران بل أفلتت منه شهقة عالية، إلا أن أحدا لم يلتفت إلى ذلك، إذ ظنوا أنه سكران.

وتردد بكاء طفل مضطرب:

ـ خذينى من هنا يا أمى يا حبيبتى!

فصاح القس:

ـ صمتا هناك!

عند عودتهم من الكنيسة جرى الناس خلف موكب العرس. وبجوار الدكان،

وحول البوابة وفى الفناء تحت النوافذ تجمهر حشد. وجاءت المادحات لتحية العروسين. وما أن عبر العروسان العتبة حتى رفع المغنون عقيرتهم بالغناء وكانوا واقفين فى المدخل مع نوتهم الموسيقية، وعزفت الفرقة الموسيقية المستأجرة خصيصًا من المدينة. وحملوا خمر الدون الفوارة فى كؤوس طويلة، وقال المقاول النجار يليزاروف، وهو عجوز طويل نحيف، بحاجبين غزيرين حتى لا تكاد عيناه تظهران، مخاطبًا العروسين:

ـ أنت يا أنيسيم وأنت يا بنيتى، تحابا، عيشا يا أبنائى بما يُرضى الله، وسترعاكما السيدة العذراء ـ ومال على كتف العجوز وانتحب ـ يا جويجورى بتروف، هيا نبكى، لنبك من السعادة! ـ قال بصوت رفيع وعلى الفور قهقه فجأة واستطرد بصوت عال غليظ: ها.. ها.. ها! وهذه العروس أيضًا حلوة! كل شىء فيها، يعنى، فى محله، كل شىء فيها ناعم، لن يقرقع، كل عددها سليمة مضبوطة، والبراغى كثيرة.

كان أصله من إقليم يجوريفسك، ولكنه عمل منذ الصبا فى فبارك أوكلييفو وفى الإقليم واستقر هنا. وعرفوه منذ زمن طويل عجوزًا هكذا ونحيفًا وطويلاً على هذا النحو، ومنذ زمن طويل سموه بالعكاز. وربما لأنه ظل يعمل فى الفبارك أكثر من أربعين عامًا فى تصليح الآلات فقط، لذلك كان يحكم على كل إنسان أو جماد من زاوية متانته فحسب: ألا يحتاج إلى تصليح؟ وقبل أن يجلس إلى المائدة جرّب عدة مقاعد، هل هى متينة، وجس السمك المملح أيضًا.

بعد تناول الخمر الفوارة بدأوا يجلسون وأخذ الضيوف يتحدثون ويحركون المقاعد. وفى المدخل غنى المغنون وعزفت الموسيقى، وفى تلك الأثناء غنت المادحات فى الفناء بصوت واحد، وتعالى خليط أصوات فظيع رهيب يصدع الرؤوس. كان العكاز يتلوى على مقعده ويدفع جيرانه بمرفقيه ويشوش على الكلام، وتارة يبكى وتارة يقهقة.

ودمدم بسرعة:

ـ يا أبنائى، يا أبنائى، يا أبنائى.. أكسينيوشكا يا عزيزتى، يا فارفاروشكا، سنعيش جميعًا فى وئام وسلام، يا فؤوسى الغالية..

كان قليلاً ما يشرب فسكر الآن من كأس فودكا إنجليزية واحدة. أدارت هذه الفودكا الفظيعة، التى لا يُعرف من أى شىء صنعت، رؤوس كل من شربها كأنما أهوت عليها بضربة. وتلعثمت الألسنة.

خضر الحفل رجال الدين والوكلاء فى الفبارك مع زوجاتهم، والتجار، وأصحاب الحانات من القرى الأخرى. وجلس شيخ الناحية وكاتب الناحية اللذان يعملان معا منذ أربعة عشر عاما ولم يوقعا طوال هذه المدة ورقة واحدة، ولم يتركا أحدًا يخرج من مقر إدارة الناحية دون أن يخدعاه ويهيناه، جلسا الآن متجاورين، كلاهما بدينان، شبعانان، وبدا أنهما تشبعا بالكذب إلى درجة أن بشرة وجهيهما كانت من طينة خاصة، بشرة نصّابة. وجاءت زوجة الكاتب، وكانت امرأة هزيلة، حولاء، بجميع أولادها معها، وأخذت تنظر شزرا، كالطير الجارح، إلى الأطباق وتخطف كل ما تقع عليه يدها، وتدسه فى جيوبها وجيوب الأطفال.

جلست ليبا جامدة، بنفس التعبير الذى ارتسم على وجهها فى الكنيسة. ومنذ أن تعرف بها أنيسيم لم يتبادل معها كلمة واحدة، حتى إنه لم يعرف إلى الآن ما صوتها. وقد جلس الآن بجوارها صامتًا أيضًا، يشرب الفودكا الإنجليزية، وعندما ثمل تحدث مخاطبًا خالتها الجالسة قبالته:

ـ لدىَّ صديق اسمه ساموردوف. رجل مخصوص. مواطن فخرى خاص ويستطيع أن يتحدث. ولكنى يا خالة أعرف خباياه، وهو يشعر بذلك. اسمحى لى أن أشرب معك فى صحة ساموردوف يا خالة!

ودارت فارفارا حول الموائد وهى تضيف المدعوين. مرهقة، شاردة، وكانت فيما يبدو سعيدة لكثرة المأكولات وفخامة المائدة، إذن فلن يعتب أحد الآن. وغربت الشمس ولكن الغداء استمر، ولم يعد أحد يدرك ماذا يأكل أو

يشرب، ولم يعد مسموعًا ماذا يقال. وأحيانًا، وفقط عندما تصمت الموسيقى، كان يسمع بوضوح صوت امرأة تصيح فى الفناء:

ـ مصوا دماءنا الملاعين، فلتبلعكم جهنم!

وفى المساء رقصوا بمصاحبة الموسيقى. وجاء آل خريمين الأصغر بخمورهم، ورقص أحدهم الكادريل ممسكا فى كل يد بزجاجة وبكأس فى فمه فأضحك ذلك الجميع. وفى أثناء رقصة الكادريل بدأوا فجأة يرقصون قرفصاء وكانت أكسينيا الخضراء تمرق فقط فتثير الهواء بذيل فستانها. وداس أحد ما على كورنيش ذيلها الأسفل فصاح العكاز:

ـ هيه، خلعوا لك الأفريز! يا أبنائى!

كانت عينا أكسينيا رماديتين، ساذجتين، نادرًا ما تطرفان، وارتسمت على وجهها دائمًا ابتسامة ساذجة. وكان فى هاتين العينين اللتين لا تطرفان، وفى رأسها الصغير فوق عنقها الطويل، وفى قدها الرشيق كله ثمة شيء ثعبانى. كانت تنظر، بجسمها الأخضر وصدرها الأصفر وابتسامتها، كما تنظر الأفعى فى حقل الجودار الفتىّ فى الربيع إلى شخص عابر، وقد تمددت ورفعت رأسها. وكان الإخوة خريمين يعاملونها بلا تحفظ، وظهر واضحًا تماما أنها على علاقة غرامية بأخيهم الأكبر منذ فترة طويلة. ولكن الأطرش لم يفهم شيئًا ولم ينظر إليها. كان جالسًا، وقد وضع ساقًا على ساق، يأكل الجوز ويكسره بفرقعة عالية، حتى بدا كأنه يطلق النار من مسدس.

وها هو ذا العجوز تسيبوكين نفسه يخرج إلى وسط الحلبة ويلوح بمنديله مشيرًا إلى أنه هو أيضًا يريد أن يرقص الرقصة الروسية، فانداح فى المنزل كله وفى الفناء وسط الحشد هدير استحسان:

ـ هو ذاته خرج! ذاته!

فارفارا هى التى رقصت، أما العجوز فكان يلوح بالمنديل فحسب ويحرك كعبيه، ولكن أولئك الذين جثم بعضهم فوق بعض فى الفناء وهم يطلون فى

النوافذ كانوا فى غاية الإعجاب، وللحظة غفروا له كل شىء: ثراءه وإهاناته لهم.

وسمعت أصوات فى الحشد:

ـ جدع يا جريجورى بتروف! هكذا، اجتهد! إذن فما زلت قادرًا بعد! ها.. ها!

وانتهى كل ذلك فى وقت متأخر، والساعة تدور فى الثانية. ومّر أنيسيم على المنشدين والعازفين مودعا وهو يترنح وأهدى كلا منهم نصف روبل جديدًا. أما العجوز فلم يكن يترنح، ولكنه كان يخطو على ساق واحدة وهو يودع الضيوف ويقول لكل منهم:

ـ العرس تكلف ألفين.

وبينما كانوا ينصرفون أخذ شخص ما معطف صاحب حانة شيكالوفو الجديد وترك له معطفه القديم فانفجر أنيسيم فجأة وراح يصرخ:

ـ قف! سأجده حالاً! أنا أعرف من سرق! قف!

واندفع إلى الخارج وطارد شخصًا ما. ولكنهم أمسكوا به واقتادوه من إبطيه إلى المنزل ودفعوه ثملاً، متضرجا من الغضب، مبللا، إلى الغرفة التى كانت الخالة تنزع فيها الثياب عن ليبا، وأوصدوا الباب.

٤

مرت خمسة أيام. وصعد أنيسيم، الذى كان يستعد للسفر، إلى غرفة فارفارا لكى يودعها. كانت جميع القناديل لديها مشتعلة، وفاحت رائحة البخور، أما هى فكانت جالسة بجوار النافذة تحوك جوربا من صوف أحمر.

وقالت:

ـ لم تبق معنا كثيرًا. تراك مللت؟ أوه.. هوه.. هو.. إننا نعيش عيشة طيبة، كل شيء لدينا كثير، وأقمنا عرسك كما يجب، مضبوط. قال العجوز تكلف ألفين. وباختصار نعيش كالتجار لكن الحياة مملة عندنا. وكم نؤذى الناس. قلبى يؤلمنى يا صاحبى، من أذيتنا للناس، يا إلهى! وسواء استبدلنا حصانًا، أو اشترينا شيئًا، أو استأجرنا عاملاً.. فكله قائم على الخداع. الخداع ثم الخداع. الزيت فى الدكان مر، عطن، حتى القطران عند الناس أفضل منه. هلا قلت لى من فضلك، ألا يمكن أن نبيع زيتا جيدًا؟

ـ كل واحد وله وظيفته يا نينة.

ـ ولكن الموت قريب! آه، آه! هلا تحدثت مع أبيك!

ـ هلا تحدثت أنت معه.

ـ طيب، طيب. أقول له ذلك فيجيبنى مثلما تقول بالحرف: كل واحد وله وظيفته. أتظن أنهم سيبحثون يوم القيامة فى وظيفة كل واحد؟ إن حساب الله عادل.

ـ بالطبع لن يبحث أحد فى شيء قال أنيسيم وتنهد ـ الله على أى حال غير موجود يا نينة. فأى بحث إذن!

تطلعت إليه فارفارا بدهشة، ثم ضحكت وأشاحت بيديها. ولأنها أبدت هذه الدهشة الصادقة من كلماته وتطلعت إليه وكأنه شاذ الأطوار، فقد أحس بالخجل.

وقال:

ـ ربما كان الله موجودًا، ولكن ليس هناك إيمان. عندما كللونى فى الكنيسة تملكنى انقباض شديد. مثلما تمد يدك أحيانًا لتأخذ بيضة من تحت الدجاجة فإذا فيها كتكوت يصيح، هكذا صاح ضميرى فجأة، وطوال فترة التكليل كنت أفكر: الله موجود! ثم خرجت من الكنيسة وإذا لا شيء. ومن أين لى أن أعرف هل الله موجود أو لا؟ علمونا غير ذلك منذ الصغر. الصغير وهو لا

يزال يرضع أمه يعلمونه شيئًا واحدًا: كل واحد وله وظيفته. أبى أيضًا لا يؤمن بالله. لقد قلت لى ذات مرة أنهم سرقوا خرفان آل جونتوريف.. لقد وجدت السارق. سرقها فلاح من شيكالوفو. الفلاح سرقها أما جلودها فعند أبى.. أرأيت إذن الإيمان!

غمز أنيسيم بعينه وهز رأسه. ومضى يقول:

ـ وشيخ الناحية أيضًا لا يؤمن بالله، والكاتب أيضًا، والشماس أيضًا. وإذا كانوا يترددون على الكنيسة ويصومون فما ذلك إلا لكى لا يقول عليهم الناس بسوء، وتحوطا، إذ ربما يأتى حقا يوم الحساب. والآن يقال إن يوم القيامة قد جاء لأن الناس ضعفوا ولا يحترمون آباءهم وخلافه. هذا كلام فارغ. أما أنا، يا نينة، فأرى أن البلوى كلها سببها قلة الضمير عند الناس. أنا أرى خبايا الأمور، يا نينة، وأفهم. إذا كان الشخص يرتدى قميصًا مسروقًا، أرى ذلك. يجلس الشخص فى الحانة فيخيل إليك أنه يشرب الشاى فقط، أما أنا فأرى، غير الشاى، إنه عديم الضمير. وهكذا تسير طوال اليوم فلا ترى إنسانًا ذا ضمير. والسبب كله أنهم لا يعرفون هل الله موجود أو لا.. حسنًا يا نينة، الوداع. عيشى طويلاً وفى عافية. ولا تذكرينى بسوء.

وانحنى أنيسيم لفارفارا حتى الأرض. وقال:

ـ نشكرك على كل شىء. أنت تعودين على أسرتنا بفائدة كبيرة. أنت امرأة محترمة جدًا. أنا ممتن لك كثيرًا. وخرج أنيسيم المتأثر، ولكنه عاد ثانية وقال:

ـ لقد ورطنى سامورودوف فى أحد الأعمال، فإما أن أصبح غنيًا وإما أن أهلك. فإذا حدث لى شىء فأرجوك يا نينة أن تعزى أبى.

ـ لا تقل ذلك! ما هذا! أوه!، هوه!، هو.. رحمة الله عليك. ولكن هلا لاطفت زوجتك يا أنيسيم، أوه!، هو، فإنى أراكما دائمًا عابسين. حقا، اضحكا مرة على الأقل.

فقال أنيسيم متنهدًا:

ـ نعم، إنها غريبة.. لا تفهم شيئًا وتصمت طول الوقت. ما زالت صغيرة جدًا، فلتكبر.

إلى جوار الدرج كان يقف مهر عال، شبعان، أبيض، مشدود إلى العربة.

وركض العجوز تسيبوكين وقفز بفتوة وأمسك باللجام. وتبادل أنيسيم القبلات مع فارفارا وأكسينيا وأخيه. وعلى الدرج وقفت ليبا أيضًا، وقفت جامدة، تحدق جانبًا، كأنما لم تخرج للوداع بل هكذا لسبب غير معروف. اقترب منها أنيسيم ومس بشفتيه خدها مسًا خفيفًا. وقال:

ـ وداعًا.

فابتسمت ابتسامة غريبة دون أن تنظر إليه. وارتعش وجهها، ولسبب ما أحس الجميع بالرثاء لها. وقفز أنيسيم أيضًا إلى العربة وذراعه فى خصره إذ كان يعتبر نفسه جميلاً.

حين صعدا من الخور إلى أعلى كان أنيسيم يتلفت إلى الوراء، إلى القرية. كان يومًا دافئًا صحوا. ولأول مرة بعد الشتاء أخرجوا الماشية من الحظائر، فسارت الفتيات والنساء بجوار القطيع مرتديات ثياب العيد. وخار ثور بنى فرحا بالحرية وحفر الأرض بقائمتيه الأماميتين. وفى كل مكان، فى الأعلى وفى الأسفل، صدحت القبرات. وتطلع أنيسيم إلى الكنيسة الممشوقة البيضاء ـ فقد بيضوها حديثًا ـ وتذكر كيف صلى فيها منذ خمسة أيام. وتطلع إلى المدرسة ذات السطح الأخضر، وإلى النهر، الذى سبح فيه فى وقت ما واصطاد السمك، فتحركت الفرحة فى قلبه، وود لو برز حائط من سطح الأرض فجأة ومنعه من المضى قدمًا، فبقى مع الماضى وحده.

فى المحطة ذهبا إلى البوفيه وشرب كل منهما كأس «خيريس». ومد العجوز يده فى جيبه ليخرج المحفظة كى يدفع الحساب.

فقال أنيسيم:

ـ أنت ضيفى!

فربت العجوز على كتفه بتأثر وغمز بعينه لعامل البوفيه:

انظر أى ابن لدّى!

وقال له:

ـ لو بقيت يا أنيسيم لدينا تمارس عملنا لما كان لك نظير! ولأغرقتك ذهبًا من رأسك إلى قدميك.

ـ مستحيل يا أبَت.

كان النبيذ حامضًا قليلاً وفاحت منه رائحة شمع التغليف، ولكنهما شربا كأسًا أخرى.

عندما عاد العجوز من المحطة لم يتعرف للوهلة الأولى على كنته الصغرى. فما إن رحل أنيسيم عن الفناء حتى تغيرت ليبا، وأصبحت فجأة مرحة. كانت تغسل درج المدخل، حافية، فى جونلة قديمة، مشمرة عن ساعديها، وهى تغنى بصوت فضى رفيع، وعندما حملت وعاء الماء القذر الكبير إلى الخارج ونظرت إلى الشمس وهى تبتسم ابتسامتها الطفولية بدا وكأنها هى أيضًا قبرة.

وهز عامل عجوز كان مارًا بجوار الدرج رأسه وتنحنح، وقال:

ـ يا لهن من كنات رزقك الله بهن يا جريجورى بتروف! لسن نساء بل كنوزًا حقيقية!

٥

فى الثامن من يوليو، يوم الجمعة، كان يليزاروف، الشهير بالعكاز، وليبا عائدين من قرية كازانسكويه، التى ذهبا إليها للزيارة بمناسبة عيد راعية المعبد

عذراء كازان. وعلى مسافة بعيدة خلفهما سارت براسكوفيا، أم ليبا، التى كانت تتخلف دائمًا لمرضها ولهاثها. كان الوقت يقترب من المساء.

وقال العكاز بدهشة وهو يستمع إلى ليبا:

ـ آه! .. آ ـ آ.. وبعدين؟

فمضت ليبا تقول:

ـ إننى يا إيليا مكاريتش أحب المربى جدًا. أجلس وحدى فى الركن وأظل أشرب الشاى بالمربى. أو أشرب مع فارفارا نيكولايفنا وهى تحكى لى شيئًا مؤثرًا. عندها مربى كثيرة، أربعة برطمانات. تقول لى: «كلى يا ليبا ولا يهمك».

ـ آه! .. أربعة برطمانات!

ـ يعيشون فى رغد. شاى بالخبز الأبيض. ولحم البقر أيضًا بقدر ما تريد. يعيشون فى رغد، ولكن الحياة مخيفة بينهم يا أيليا مكاريتش، مخيفة جدًا!

ـ ما الذى يخيفك يا بنيتى؟

ـ سأل العكاز ونظر إلى الوراء ليرى هل تخلفت براسكوفيا كثيرًا.

ـ فى البداية، بعد حفلة العرس، خفت من أنيسيم جريجوريتش. لم يفعل بى شيئًا، لم يؤذنى، ولكن ما إن يقترب منى حتى يقشعر جلدى، وعظامى كلها تقشعر. لم أنم ليلة واحدة، كنت طوال الوقت أرتعش وأصلى للرب. والآن أخاف من أكسينيا يا إيليا مكاريتش. لم تفعل بى شيئًا، فقط تضحك منى، ولكن أحيانًا تطل من النافذة، وعيناها غاضبتان، خضراوان تلمعان، كعينى النعجة فى المعلف. آل خريمين الأصغر يغوونها. يقولون لها: «عند عجوزكم قطعة أرض فى بوتيوكينو، حوالى أربعين ديساتينا، فيها رمل وماء، هيا يا أكسيوشا ابنى لك مصنع طوب وسنشاركك فيه». الطوب الآن الألف بعشرين روبلا. عمل رائج. وبالأمس قالت أكسنيا للعجوز أثناء الغداء: «أنا أريد أن أبنى مصنع

طوب فى بوتيوكينو، أريد أن أصبح تاجرة مستقلة». قالت ذلك وضحكت. أما جريجورى بتروفتش فقد اربد وجهه، يبدو أن ذلك لم يعجبه. وقال لها: «طالما أنا حى فلا يصح أن نفترق، ينبغى أن نكون معًا».

فلمعت عيناها كالبرق، وصرت أسنانها.. وعندما قدموا الرقيق المقلى لم تأكل!

ـ آه!..

ـ دهش العكاز.

ـ لم تأكل!

فاستطردت ليبا:

ـ وهل تقول لى لو تكرمت متى تنام! تنام نصف ساعة ثم تقفز ناهضة، وتروح وتجىء، وتتلصص: ألم يحرق الفلاحون شيئًا؟ ألم يسرقوا شيئًا.. العيشة معها رهيبة يا إيليا مكاريتش! أما آل خريمين الأصغر فلم يناموا بعد العرس، بل ذهبوا إلى المدينة ليتقاضوا. والناس يثرثرون بأن ذلك من تحت رأس أكسينيا. اثنان من الإخوة وعداها ببناء المصنع، ولكن الثالث غضب. والفابريكة توقفت شهرا، وخاليبروخور، المتعطل عن العمل، كان يجمع الفتات من الأفنية. أقول له هلا ذهبت يا خالى فحرثت الأرض أو قطعت الحطب مؤقتًا، لا داعى للفضيحة! فيقول لى: «بعدت أنا عن العمل الفلاحى، لم أعد أجيد شيئًا يا ليبنكا!..»

وتوقفا بجوار غيضة حور رجراج فتى ليستريحا وينتظرا براسكوفيا. كان يليزاروف مقاولاً منذ زمن طويل، ولكن لم يكن لديه حصان فكان يجوب الإقليم سيرًا على الأقدام وليس معه إلا كيس فيه خبز وبصل. فكان يسير بخطوات واسعة ويلوح بذراعيه. وكان من الصعب مجاراته فى السير.

عند مدخل الغيضة انتصب عمود حدود الأراضى. فتحسسه يليزاروف

ليختبر متانته. وجاءت براسكوفيا وهى تلهث. وتهلل بالسعادة وجهها المغضن، المذعور دومًا: لقد كانت اليوم فى الكنيسة مثل الناس، ثم ذهبت إلى السوق، وشربت هناك منقوع الكمثرى! كان نادرًا ما يقع لها ذلك حتى إنه خيل إليها الآن أنها تستمتع بحياتها لأول مرة هذا اليوم. ونهضوا ثلاثتهم بعد أن استراحوا وساروا متجاورين. كانت الشمس قد أوشكت على الغروب، وتسللت أشعتها عبر الغيضة وأضاءت جذوع الأشجار. وفى الأمام ترددت أصوات داوية. كانت فتيات أوكلييفو قد سبقن منذ وقت طويل ولكنهن توقفن هنا فى الغيضة، يبدو لجمع الفطر.

وصاح يليزاروف:

ـ هيه يا بنـ... ات! هيه يا حلوات!

وسمعوا ضحكًا:

ـ العكاز قادم! العكاز! الشيطان العجوز!

وضحك الصدى أيضًا. وها هى ذى الغيضة قد أصبحت خلفهم. وظهرت قمم مداخن الفبارك، ولمع الصليب على برج الكنيسة. كانت تلك هى القرية، «نفس القرية التى أكل فيها الشماس فى المأتم كل الكافيار». هاهم أولاء قد وصلوا تقريبًا.. لم يبق إلا النزول إلى ذلك الخور الكبير. جلست ليبا وبراسكوفيا، اللتان كانتا تسيران حافيتين، على العشب لارتداء الأحذية. وجلس معهما المقاول. ولو نظرت من أعلى لبدت أوكلييفو بصفصافها وكنيستها البيضاء ونهرها جميلة هادئة لا يفسدها إلا أسقف الفبارك المطلية بلون قاتم فظيع من باب التوفير. وعلى الجانب الآخر، عند المنحدر ظهر الجودار أكواما وأجرانا هنا وهناك، وكأنما بعثرته العاصفة، وكذلك الجودار المحصود لتوه صفوفًا. ونضج الشوفان أيضًا فأصبح الآن يتموج بالألوان فى ضوء الشمس كالصدف. كان أوان موسم الحصاد. اليوم عيد، وغدًا، السبت سيجمعون الجودار وينقلون الدريس، وبعد ذلك الأحد، سيكون عيد مرة

أخرى. كان الرعد البعيد يقرقع كل يوم، وكان الجو حارًا رطبًا، وبدا أن المطر سيسقط، وكان كل من ينظر إلى الحقل الآن يفكر فى أن يهبهم الله الفرصة لجمع المحصول، وكانت النفوس مبتهجة فرحة بل وقلقة.

وقالت براسكوفيا:

ـ الحصادون الآن أسعارهم عالية. بروبل وأربعين كوبيكا فى اليوم!

وكان الناس يتقاطرون بلا انقطاع قادمين من سوق كازانسكويه. نساء، وعمال مصانع فى عمرات جديدة، وشحاذون وأطفال.. وتارة تمر عربة مثيرة الغبار، ومن خلفها يجرى حصان لم يُبع وكأنه سعيد لأنهم لم يبيعوه، وتارة يسحبون بقرة من قرونها، بينما تحرن، وتارة عربة أخرى وفيها فلاحون سكارى يدلون منها سيقانهم. وقادت امرأة عجوز صبيًا فى طاقية كبيرة وحذاء كبير. وكان الصبى مرهقًا من الحر والحذاء الثقيل الذى كان يمنع ساقيه من الانثناء عند الركبتين، ولكنه سار، وهو ينفخ بكل قواه ودون انقطاع فى بوق صغير. وهبطوا إلى أسفل وانعطفوا إلى الشارع بينما كان صوت البوق لا يزال مسموعًا.

وقال يليزاروف:

ـ صناعونا ثائرون لسبب ما. يا للمصيبة! غضب كوستيو كـوف منى. قال: «استهلكتم ألواحا كثيرة فى عمل الأفاريز». ما معنى كثيرة؟ ـ قلت له ـ استهلكنا يا فاسيلى دانيليتش بالقدر المطلوب. إننى لا آكلهـا مع العصيـدة، هذه الألواح. فقال: «كيف تجرؤ على توجيه هذه الكلمات لى؟ يا مغفل، يا بليد! اعرف قدرك! ـ وصرخ ـ أنا الذى جعلت منك مقاولاً!» فقلت له: يا سـلام، شىء عظيم! عندما لم أكن مقاولاً كنت مع ذلـك أشرب الشاى كل يوم. فقال: «كلكم محتالون» .. فسكت. وقلت لنفسى: نحن محتالون فى هذه الدنيا، وأنتم ستكونون محتالين فى الآخرة. ها.. ها.. ها! وفى اليوم التالى هدأت ثائرته. قال لى: «لا تغضب منى يا مكاريتش على ما قلته لك. لو كنت

قلت شيئًا زائدًا فلا بأس، أنا تاجر من الطبقة الأولى، أكبر منك، ومن واجبك أن تسكت». فقلت له: أنت تاجر من الطبقة الأولى وأنا نجار، هذا مضبوط. ويوسف القديس كان أيضًا نجارًا. إن عملنا ورع، يرضى عنه الله، أما إذا كنت تريد أن تكون أكبر فتفضل يا فاسيلى دانيليتش. وبعد ذلك، بعد هذا الحديث يعنى فكرت:

من الأكبر؟ التاجر من الطبقة الأولى أم النجار؟ هو النجار يا أبنائى!

وفكر العكاز ثم أضاف:

ـ هو كذلك يا أبنائى. من يعمل، من يتحمل فهو الأكبر.

غربت الشمس، وتصاعد ضباب كثيف أبيض كاللبن فوق النهر وفى باحة الكنيسة وفى الفسحات المحيطة بالفبارك. والآن، عندما زحفت الظلمة بسرعة، وومضت الأضواء فى الأسفل، وعندما بدا أن الضباب يخفى تحته هوة سحيقة، ربما خيل لليبا وأمها، اللتين ولدتا شحاذتين وكانتا على استعداد للعيش هكذا حتى النهاية، ولتقديم كل ما لديهما للغير ما عدا روحيهما المذعورتين الوديعتين.. ربما خيل إليهما للحظة أنهما هما أيضًا قوة فى هذا العالم الهائل الغامض، ضمن الأعداد اللانهائية من الأرواح، وأنهما أكبر من أشخاص ما. كانتا تشعران بالراحة وهما جالستان هنا فى الأعلى، وابتسمتا بسعادة، ونسيتا أنه لا بد مع ذلك من العودة إلى أسفل.

وأخيرًا عادوا إلى البيت. كان الحصادون جالسين على الأرض عند البوابة وقرب الدكان. وفى العادة لم يكن حصادو أوكلييفو يذهبون للعمل عند تسيبوكين، فيضطر إلى استئجار الغرباء، فبدا الآن فى العتمة أن الجالسين مجرد أشخاص ذوى لحى طويلة سوداء. كان الدكان مفتوحًا وظهر الأطرش من الباب وهو يلاعب صبيًا الضامة. وغنى الحصادون بصوت خافت لا يكاد يسمع أو كانوا يطالبون عاليًا بنقدهم أجرهم عن يوم الأمس ولكن لم يدفعوا لهم حتى لا ينصرفوا قبل الغد. وكان العجوز تسيبوكين بلا سترة، فى

الصديرى، يشرب الشاى مع أكسينيا قرب المدخل تحت شجرة بتولا. وعلى المائدة اشتعل مصباح.

ونادى حصاد من وراء البوابة وكأنه يشاكسه:

ـ يا جدو. ادفع ولو النصف. يا جدو.

وعلى الفور تردد ضحك، ثم عادوا يغنون بصوت لا يكاد يسمع.. وجلس العكاز ليشرب الشاى أيضًا.

وشرع يتحدث:

ـ ذهبنا إذن للسوق. تفسحنا يا أبنائى، تفسحنا جيدا جدًا، الحمد لك يا رب. ووقعت حادثة سيئة. اشترى الحداد ساشكا تبغًا وأعطى للتاجر نصف روبل. وإذا بنصف الروبل مزيف ـ قال العكاز وتلفت حوله. كان يريد أن يتحدث همسًا ولكنه تحدث بصوت مكتوم مبحوح سمعه الجميع: وإذا بنصف الروبل مزيف. سألوه: من أين أخذته؟ فقال: أعطاه لى أنيسيم تسيبوكين. عندما حضرت حفل زواجه.. واستدعوا الشرطى، وأخذوه.. احذر يا بتروفيتش وإلا وقع سوء..

وتردد ثانية نفس الصوت المشاكس:

ـ يا جدو! يا جدو!

وساد الصمت.

ـ آه يا أبنائى، يا أبنائى، يا أبنائى.. ـ دمدم العكاز بسرعة ثم نهض، فقد تملكه النعاس.. طيب، شكرًا على الشاى والسكر يا أبنائى. حان وقت النوم. أصبحت خائرًا، نخر السوس كل عوارضى. ها.. ها.. ها!

وقال وهو ينصرف:

ـ يبدو أنه آن أن أموت!

وشهق. أما العجوز تسيبو كين فلم يكمل شرب الشاى، ولكنه ظل جالسًا يفكر. وبدا على وجهه كأنما كان ينصت لخطوات العكاز الذى أصبح بعيدًا.

وقالت أكسينيا وقد فطنت إلى ما يفكر فيه:

ـ ربما كان ساشكا الحداد كاذبًا.

دخل العجوز الدار ثم عاد بعد قليل بصرة. وعندما فكها برقت روبلات جديدة تمامًا. وأخذ واحدًا منها واختبره بأسنانه ثم ألقاه على الصينية. ثم ألقى بآخر..

ـ الروبلات فعلاً مزيفة ـ دمدم وهو ينظر إلى أكسينيا كأنما متعجبًا ـ إنها تلك.. التى أحضرها أنيسيم آنذاك، هديته ـ ثم قال هامسًا وهو يدس الصرة فى يديها ـ خذيها يا بنتى، خذيها وارميها فى البئر.. فى داهية! واحذرى أن يعلم أحد. وإلا وقع سوء.. احملى السماور، أطفئى النور..

رأت ليبا وبراسكوفيا الجالستان فى الحظيرة كيف انطفأت الأنوار واحدًا تلو الآخر، ولم تشتعل إلا القناديل الزرقاء والحمراء عند فارفارا فى الطابق العلوى، وتناهت من هناك السكينة والرضا واللامعرفة. لم تستطع براسكوفيا أبدا أن تتعود على فكرة أن ابنتها متزوجة من غنى، وعندما كانت تأتى لزيارتها تنكمش بوجل فى المدخل وتبتسم باستجداء فيرسلون إليها الشاى والسكر. ولم تستطع ليبا أيضًا أن تتعود، وبعد أن سافر زوجها لم تعد تنام فى سريرها بل حيثما كان، فى المطبخ أو فى الحظيرة، وكل يوم تمسح الأرضية أو تغسل الملابس، وخيل إليها أنها تعمل بالمياومة. والآن، بعد عودتهما من الزيارة جلستا فى المطبخ تشربان الشاى مع الطاهية، ثم ذهبتا إلى الحظيرة ورقدتا على الأرض بين الزحافة والحائط. كان المكان هنا مظلمًا وفاحت رائحة النيور. وانطفأت الأنوار بقرب المنزل، ثم ترددت جلبة الأطرش وهو يغلق الدكان وهسيس الحصادين وهم يستعدون للنوم على

أرض الفناء. وبعيدًا عند آل خريمين الأصغر عزفوا على أكورديون ثمين.. ونعست براسكوفيا وليبا..

وعندما أيقظتهما خطوات ما كان المكان مضيئًا من نور القمر. كانت أكسينيا واقفة فى الباب وفى يديها فراش.

ـ أظن هنا أبرد.. ـ دمدمت ثم دخلت فرقدت قرب العتبة تمامًا، وأضاءها القمر كلها ـ

لم تنم وظلت تزفر زفرات ثقيلة وهى تتململ من الحر، وطوحت عن جسدها كل شىء تقريبًا.. وفى ضوء القمر الساحر كم كان جميلاً وأبيًا هذا الحيوان! ومر بعض الوقت ثم ترددت خطوات مرة أخرى. كان العجوز يقف فى الباب، أبيض كله.

ونادى:

ـ أكسينيا، هل أنت هنا؟

فأجابت بغضب:

ـ وماذا؟

ـ لقد قلت لك من فترة أن ترمى النقود فى البئر. هل رميتها؟

ـ وهل تريدنى أن أرمى الخير فى الماء! لقد أعطيتها للحصادين..

ـ يا إلهى، يا إلهى! ـ دمدم العجوز فى ذهول ورعب ـ يا لك من امرأة شقية.. آه يا إلهى!

أشاح بيديه وانصرف وظل طوال ابتعاده يدمدم بشىء ما. وبعد ذلك بفترة نهضت أكسينيا فجلست وزفرت زفرة ثقيلة وبأسى، ثم قامت وجمعت الفراش تحت إبطها وذهبت.

وتمتمت ليبا:

ـ لماذا زوجتنى هنا يا أماه!

ـ الزواج ضرورى يا بنتى. ولسنا نحن الذين ابتدعنا هذه الأمور.

كان الإحساس بالأسى الذى لا عزاء له على وشك أن يستولى عليهما. ولكن خيل إليهما أن أحدًا ينظر إليهما من علياء السماء، من زرقتها، من هناك حيث النجوم، ويرى كل ما يحدث فى أوكلييفو ويراقب. ومهما كان الشر عظيمًا فالليلة مع ذلك هادئة رائعة، والحقيقة فى دنيا الله رغم ذلك موجودة وستبقى موجودة، بهذا الهدوء والجمال، وكل ما على الأرض فى انتظار أن يتحد بالحقيقة كما تتحد أشعة القمر بالليل.

وإذ هدأتا نامتا، وقد التصقت إحداهما بالأخرى.

٦

علموا منذ فترة طويلة بنبأ القبض على أنيسيم وسجنه بتهمة تزييف النقود وترويج العملات المزيفة. ومرت أشهر، مر أكثر من نصف عام، وانقضى الشتاء الطويل وحل الربيع وتعود الجميع، فى المنزل وفى القرية على وجود أنيسيم فى السجن. وعندما كان أحد ما يمر ليلاً بجوار المنزل أو الدكان كانوا يتذكرون أن أنيسيم فى السجن. وعندما يتردد رنين الأجراس عند المدافن كانوا أيضًا لسبب ما يتذكرون أنه فى السجن ينتظر المحاكمة.

وبدا كأن ظلاً ارتمى على الدار. فقد أصبح المنزل داكنًا، وصدئ السطح، أما باب الدكان المصفح بالحديد الثقيل والمطلى باللون الأخضر فقد تجعد أو كما قال الأطرش: «تكرمش». وحتى العجوز تسيبوكين نفسه بدا كأنما أصبح داكنًا. كف منذ وقت طويل عن قص شعره ولحيته فاستطالت، ولم يعد يجلس فى العربة قفزًا، ولا يصرخ بالشحاذين:

«الله يسهل لك!» وأخذت قوته تتدهور، وظهر ذلك واضحًا فى كل شىء.

وأصبح الناس يخشونه أقل من ذى قبل، وحرر له الشرطى محضرًا فى الدكان رغم أنه كان يتلقى نصيبه كما فى السابق. واستدعوه ثلاث مرات إلى المدينة لمحاكمته على الاتجار سرًا فى الخمور، فكانت القضية تتأجل باستمرار لعدم حضور الشهود، وأرهق العجوز.

كان يسافر إلى ابنه كثيرًا، ويستأجر أشخاصًا ما، ويرفع التماسات لأشخاص ما، وتبرع بقماش بيرق لكنيسة ما. وقدم لحارس السجن الذى كان فيه أنيسيم حاملاً فضيًا لكوب منقوشًا عليه «الروح تعرف حدودها» وملعقة طويلة.

وكانت فارفارا تقول:

ـ لا يوجد من يسعى من أجله بحق، أوه.. هوه.. هو.. لو تطلب من أحد السادة أن يكتب إلى المسؤولين الكبار.. لو يطلقوا سراحه لحين المحاكمة على الأقل!

ما الداعى لتعذيب الفتى!

كانت هى أيضًا حزينة، لكنها سمنت وابيضت، وكانت تشعل القناديل فى غرفتها كما فى السابق وتراعى أن يكون كل شىء فى المنزل نظيفًا، وتقدم للضيوف المربى وباستيليا التفاح. وكان الأطرش وأكسينيا يعملان فى الدكان. وافتتحوا مشروعًا جديدًا ـ مصنعًا للطوب فى بوتيوكينو، فكانت أكسينيا تسافر إلى هناك كل يوم تقريبًا بالعربة. كانت تقودها بنفسها، وعندما تقابل أحد المعارف تمط عنقها، كالأفعى فى الجودار الفتى، وتبتسم بسذاجة وغموض، أما ليبا فكانت تلعب طول الوقت مع ابنها الذى ولد قبيل الصيام. كان طفلاً صغيرًا، هزيلاً، يثير الشفقة، وكان من الغريب أنه يصرخ وينظر وأنهم يعتبرونه إنسانًا، بل يسمونه نيكيفور. كان يرقد فى مهده، بينما تمضى ليبا إلى الباب ثم تقول من هناك وهى تنحنى:

ـ مرحبًا يا نيكيفور أنيسيميتش ! .

ثم تركض نحوه باندفاع وتقبله. وتعود إلى الباب وتنحنى وتقول مرة أخرى:

ـ مرحبًا يا نيكيفور أنيسيميتش!

فكان يرفع ساقيه الحمراوين ويختلط بكاؤه بالضحك مثل النجار يليزاروف.

وأخيرًا تحدد يوم المحاكمة. وسافر العجوز قبل ذلك بخمسة أيام. ثم قيل إن الفلاحين قد سيقوا من القرية للإدلاء بالشهادة. ورحل أيضًا العامل العجوز الذى تلقى هو الآخر استدعاء.

كانت المحاكمة يوم الخميس، ولكن مر الأحد ولم يعد العجوز ولم تصلهم عنه أية أخبار. وفى يوم الثلاثاء، قبيل المساء، جلست فارفارا أمام النافذة المفتوحة تصيخ إذ ربما يأتى العجوز. وفى الغرفة المجاورة كانت ليبا تلعب مع ابنها. كانت تقذف به وتتلقاه على ذراعيها وتقول بإعجاب:

ـ ستكبر وتصبح كبيرًا كبيرًا. وستصبح فلاحًا ونذهب معًا للمياومة! سنذهب للمياومة!

فقالت فارفارا باحتجاج:

ـ إخص! ما هذه المياومة التى تفكرين فيها يا مغفلة؟ سيصبح ابننا تاجرًا!..

وغنّت ليبا بصوت خافت، ولكنها نسيت نفسها بعد قليل وقالت ثانية:

ـ ستكبر وتصبح كبيرًا كبيرًا، ستصبح فلاحًا، وسنذهب معًا إلى المياومة.

ـ إخص، كفاك!

فوقفت ليبا فى الباب ونيكيفور على ذراعيها وسألت:

ـ لماذا أحبه هكذا يا نينة؟ لماذا أشفق عليه هكذا؟ ـ واستطردت تقول

بصوت متهدج واغرورقت عيناها بالدموع ـ من هو؟ وكيف يبدو؟ إنه خفيف كالريشة، كالوبرة، ولكنى أحبه، أحبه كأنه إنسان حقيقى. ها هو ذا لا يقدر على شىء، ولا يتكلم، ولكنى أفهم من عينيه الصغيرتين كل ما يريد.

وأصاخت فارفارا السمع، فقد تناهى دوى قطار المساء القادم إلى المحطة. ألم يصل العجوز؟ ولم تعد تسمع أو تفهم ما تقوله ليبا، ولا تذكر كيف يمضى الوقت، بل كانت ترتعش كلها، لا بسبب الخوف بل من شدة الفضول. ورأت عربة تمر بسرعة وجلبة، محملة بالفلاحين. كانوا الشهود العائدين من المحطة. وعندما مرت العربة أمام الدكان قفز منها العامل العجوز وتوجه إلى الدار. وتناهت من الفناء أصوات تسلم عليه وتسأله عن شىء ما..

فقال بصوت عال:ـ مصادرة الحقوق وجميع الأملاك، ثم النفى إلى سيبيريا، أشغال شاقة لست سنوات.

وظهرت أكسينيا وهى تخرج من الباب الخلفى للدكان. فرغت لتوها من صب الكيروسين فكانت ممسكة فى إحدى يديها بزجاجة وفى الأخرى بقمع، وفى فمها بنقود فضية.

وسألت بتأتأة:

ـ وأين بابا؟

فأجاب العامل:

ـ فى المحطة. قال: «سأعود عندما تظلم الدنيا». وعندما علموا فى الدار أن أنيسيم قد حكم عليه بالأشغال الشاقة أعولت الطاهية فى المطبخ فجأة كأنما على ميت، معتقدة أن ذلك ما تقتضيه الأصول:

ـ لمن تركتنا يا أنيسيم جريجوريتش، يا صقرنا الغالى..

ونبحت الكلاب المنزعجة. وهرعت فارفارا إلى النافذة وقد تملكتها الوحشة وأخذت تصرخ فى الطاهية مستجمعة صوتها بكل قواها:

ـ كفاك يا ستيبانيدا، كفاك! لا تعذبينى بحق المسيح!

ونسوا إشعال السماور، ولم تعد لديهم قدرة على التفكير. ليبا وحدها هى التى لم تستطع أبدا أن تفهم ماذا حدث وواصلت لهوها مع الطفل.

وعندما جاء العجوز من المحطة لم يسأله أحد عن شىء. سلّم، ثم طاف بجميع الغرف فى صمت، ولم يتناول العشاء.

ولما جلسا معا بدأت فارفارا تقول:

ـ ليس هناك من يسعى.. ألم أقل لك أن تطلب من السادة، ولكنك لم تطاوعنى؟.. لو التماس..

ـ بل سعيت! ـ قال العجوز ثم أشاح بيده ـ ما إن حكموا على أنيسيم حتى هرعت إلى ذلك السيد الذى كان يحامى عنه، فقال: «لا أستطيع أن أفعل شيئًا الآن، تأخرت». وأنيسيم أيضًا قال: تأخرت. ومع ذلك فما إن خرجت من المحكمة حتى اتفقت مع أحد المحامين، وأعطيته عربونًا.. سأنتظر أسبوعًا ثم أسافر ثانية. الله على كل شىء قدير.

وطاف العجوز ثانية بجميع الغرف فى صمت، وعندما عاد إلى فارفارا قال:

ـ يبدو أننى مريض. فى رأسى هذا ضباب. أفكارى مشوشة.

وأغلق الباب حتى لا تسمعه ليبا واستطرد بصوت خافت:

ـ أمورى سيئة مع النقود. أتذكرين عندما أعطانى أنيسيم قبيل العرس، فى عيد الفصح، روبلات وأنصاف روبلات جديدة؟ ساعتها خبأت صرة، أما بقية النقود فخلطتها بنقودى.. عندما كان عمى دميترى فيلاتيتش، عليه الرحمة، على قيد الحياة، كان يسافر كثيرًا تارة إلى موسكو وتارة إلى القرم لشراء البضائع. وكانت لدية زوجه، وعندما كان يسافر لشراء البضائع كانت هذه الزوجة يعنى، تخونه مع الآخرين.

وأنجبت ستة أبناء. وحين يسكر عمى كان يضحك ويقول:

«لا أعرف أبدا أين أبنائى فى هؤلاء وأين أبناء الآخرين». كان دمث الطباع يعنى. وهكذا أنا الآن لا أعرف أى نقودى الحقيقى وأيها المزيف. ويخيل لى أنها كلها مزيفة.

ـ لماذا تقول، اتق الله!

ـ وأنا أشترى التذكرة فى المحطة دفعت ثلاثة روبلات، وخيل إلّى أنها مزيفة. كم شعرت بالرعب. يبدو أننى مريض ـ ما العمل، الأعمار بيد الله.. أوه.. هوه.. هو.. ـ دمدمت فارفارا وهزت رأسها ـ ينبغى أن تفكر فى ذلك يا بتروتش.. قد يحدث شىء بين يوم وليلة، فأنت لست شابًا. وإذا مت فربما آذوا حفيدك من بعدك. آه كم أخشى أن يؤذوا نيكيفور! طبعًا، أبوه اعتبره انتهى، وأمه صغيرة، عبيطة.. سجل له ولو قطعة الأرض فى بوتيوكينو يا بتروفتش حقًا.. سجلها باسمه. فكر فى ذلك ـ مضت فارفارا تقنعه ـ الصبى لطيف، مسكين! اذهب غدًا واكتب الورقة. فيم الانتظار؟

فقال تسيبوكين:

ـ حقًا لقد نسيت الحفيد.. ينبغى أن أسلّم عليه. تقولين إنه صبى لا بأس به؟ حسنًا، فليكبر. على بركة الله.

وفتح الباب وثنى أصبعه داعيًا ليبا. فاقتربت منه والصبى على ذراعيها.

وقال لها:

ـ إذا احتجت شيئًا يا ليبا قولى. كلى ما تشائين، نحن لا نبخل بشىء، المهم أن تكونى بخير.. ـ ورسم علامة الصليب على الصبى ـ حافظى على الحفيد. لم يعد لدى ابن، فليبق لى الحفيد.

وانحدرت الدموع على خديه. وشهق وابتعد. وبعد ذلك بقليل أوى إلى الفراش فنام نوما عميقًا بعد سبع ليال من السهاد.

سافر العجوز إلى المدينة لمدة قصيرة وعاد. وأخبر شخص ما أكسينيا أنه ذهب إلى مكتب التسجيل ليكتب وصية، وأنه أوصى لحفيده نيكيفور بوتيوكينو، التى كانت أكسينيا تصنع فيها قوالب الطوب المحروق. أخبروها بذلك صباحًا، عندما كان العجوز وفارفارا جالسين قرب الدرج، تحت شجرة البتولا، يشربان الشاى. فأوصدت الدكان من جهة الشارع ومن جهة الفناء، وجمعت كل ما كان لديها من مفاتيح، وقذفت بها تحت قدمى العجوز.

ـ لن أعمل بعد الآن فى خدمتكم! ـ صاحت بصوت عال وانفجرت فى البكاء فجأة ـ وإذن فأنا لست كنّة عندكم بل عاملة! الناس كلهم يضحكون منى. يقولون «انظروا أية عاملة وجدها آل تسيبو كين!» أنتم لم تستأجرونى! أنا لست شحاذة ولا وضيعة الأصل، أنا بنت ناس.

ودون أن تمسح دموعها سددت إلى العجوز عينين مليئتين بالدموع، حاقدتين، حولاوين من الغضب. وكان وجهها ورقبتها أحمرين متوترين إذ كانت تصرخ بكل قواها.

ومضت تقول:

ـ لا أريد أن أخدمكم أكثر! انهد حيلى! العمل، والجلوس فى الدكان طول النهار، والخروج ليلاً لبيع الفودكا.. هذا لى، أما إهداء الأرض.. فلهذه الشقية زوجة المجرم وشيطانها الصغير! هى هنا السيدة، المالكة، وأنا خادمتها! أعطها كل شىء، زوجة المجرم هذه، فلتغص به، أما أنا فسأذهب إلى بيتنا! هاتوا لكم حمقاء غيرى أيها السفاحون الملاعين!

لم يحدث أبدا أن سب العجوز فى حياته أو عاقب أولاده، بل لم تخطر حتى بذهنه فكرة أن يجرؤ أحد من أفراد أسرته على توجيه هذه الكلمات النابية إليه أو معاملته بعدم احترام. ولذلك قد خاف جدًا، وهرول إلى الدار، واختبأ

خلف الصوان. أما فارفارا فاستولى عليها الذهول حتى إنها لم تستطع أن تنهض من مكانها، بل أخذت تشيح بكلتا يديها كأنما تحمى نفسها من نحلة ستلدغها.

ودمدمت فى رعب:

ـ آى، يا ربى ما هذا؟ ما لها تصرخ؟ أوه.. هوه.. هو.. سيسمع الناس! اخفضى صوتك.. اخفضى صوتك!

وواصلت أكسينيا صياحها:

ـ أعطيتم زوجة المجرم بوتيوكينو، ولتعطوها إذن كل شئ، لا أريد منكم شيئًا! فلتذهبوا فى داهية! كلكم عصابة واحدة. كفانى ما رأيته عندكم! نهبتم السائرين والراكبين أيها الأشقياء، نهبتم الصغير والكبير! ومن الذى كان يبيع الفودكا بدون ترخيص؟ والنقود المزيفة؟

ملأتم صناديقكم نقودًا مزيفة، والآن لم تعودوا بحاجة إلىَّ!

تجمع حشد من الناس أمام البوابة المفتوحة على مصراعيها وأخذوا يطلون فى الفناء.

وصاحت أكسينيا:

ـ فلينظر الناس! سأفضحكم! سأجعلكم تحرقون خزيًا! ستركعون تحت قدمى ـ ونادت الأطرش ـ اسمع يا ستيبان! لنذهب حالاً إلى دارنا! لنذهب إلى أبى وأمى، لا أريد أن أعيش مع المجرمين! هيا!

كان الغسيل معلقًا على حبال مشدودة فى الفناء. فراحت تنزع جونلاتها وبلوزاتها، المبللة بعد، وتلقى بها إلى يدى الأطرش. ثم جن جنونها فأخذت تدور فى الفناء حول الغسيل وتنزع كل شىء، وتلقى بما ليس لها على الأرض وتدوسه بقدميها.

وتأوهت فارفارا:

ـ آه يا ربى ، أمسكوها! ما هذا الذى تفعله؟ أعطوها بوتيوكينو، أعطوها بحق المسيح فى السماء!

وقال الواقفون عند البوابة:

ـ يا لها من امرأة! أيما امرأة! ما أعنف ثورتها!

واندفعت أكسينيا إلى المطبخ حيث كانوا يغسلون فى تلك اللحظة. كانت ليبا هى التى تغسل وحدها، أما الطاهية فذهبت إلى النهر لتشطف الغسيل. وتصاعد البخار من الطست والقدر بجوار الموقد، وكان الجو فى المطبخ خانقًا وكابيا من الضباب. وكانت كومة من الملابس القذرة ما تزال على الأرض، ورقد نيكيفور رافعا ساقية الحمراوين على أريكة بجوارها حتى لا يصاب بسوء لو وقع. وفى اللحظة التى دخلت فيها أكسينيا كانت ليبا قد استخرجت من الكومة قميص أكسينيا ووضعته فى الطست، ومدت يدها إلى الإبريق الكبير الموضوع على الطاولة والذى كان به ماء يغلى..

ـ هاتى! ـ قالت أكسينيا وهى تنظر إليها بكراهية، وشدت القميص من الطست: لا شأن لك بملابسى حتى تلمسيها! أنت زوجة مجرم ويجب أن تعرفى مكانك ومركزك!

نظرت إليها ليبا بذهول وعدم فهم، ولكنها لمحت فجأة تلك النظرة التى صوبتها أكسينيا إلى الطفل، وأدركت على الفور معناها فشحبت وتثلجت أطرافها..

ـ أخذت أرضى، فلتأخذى جزاءك!

قالت أكسينيا ذلك والتقطت الإبريق بالماء المغلى ورمت بالماء على نيكيفور.

دوت أثر ذلك صرخة لم تسمع أوكلييفو لها مثيلاً من قبل، وكان أمرا لا

يصدق أن مخلوقًا صغيرًا وضعيفًا مثل ليبا يمكن أن يصرخ هكذا. وفجأة شمل السكون الفناء.

وذهبت أكسينيا إلى البيت فى صمت، بنفس ابتسامتها الساذجة المعهودة.. وظل الأطرش يتمشى فى الفناء ضامًا الغسيل إلى صدره، ثم أخذ يعلقه ثانية فى صمت وعلى مهل. وإلى أن عادت الطاهية من النهر لم يجرؤ أحد على دخول المطبخ لمعرفة ماذا هناك.

٨

ذهبوا بنيكيفور إلى مستشفى الإقليم، وفى المساء توفى هناك. ولم تنتظر ليبا حتى يحضروا ليأخذوها، بل لفت الميت فى بطانية صغيرة وحملته عائدة إلى البيت.

كان المستشفى، الجديد، المبنى مؤخرًا، بنوافذ كبيرة، يقوم فوق تل عال. ولمعت نوافذه كلها فى ضوء الشمس الغاربة فبدا كأنه يشتعل فى الداخل. وفى الأسفل كانت قرية. هبطت ليبا على الطريق، وقبل أن تبلغ القرية جلست عند بركة صغيرة. وجاءت امرأة ما بحصان لتسقيه، ولكنه لم يشرب.

فقالت المرأة بصوت خافت مستغربة:

ـ ماذا تريد أيضًا؟ ماذا تريد؟

وجلس صبى فى قميص أحمر قرب الماء يغسل حذاء أبيه. ولم يظهر سواه أحد بتاتا لا فى القرية ولا على التل.

وقالت ليبا وهى تنظر إلى الحصان:

ـ لا يشرب..

وهاهى ذى المرأة والصبى بالحذاء فى يديه قد انصرفا ولم يعد يرى أحد.

وأوت الشمس إلى النوم وتغطت بوشاح أحمر موشى بالذهب، وامتدت فى السماء سحب طويلة، حمراء وبنفسجية تحرس سكينتها. وفى جهة بعيدة، غير معروفة، صاحت واقة بصوت كئيب أصم مثل بقرة محبوسة فى حظيرة. كان صياح هذا الطائر الغامض يسمع كل ربيع، ولكن أحدًا لم يعرف كيف يبدو وأين يعيش. وصدحت البلابل عند المستشفى فى الأعلى، وفى الخمائل بجوار البركة تمامًا ووراء القرية وفى جميع أنحاء الحقل. ونعق الوقوق وهو يعد سنوات عمر شخص ما ويخطئ فى الحساب فيبدأ من جديد. ونقّت الضفادع فى البركة بغضب وجهد وهى تتنادى، بل كان يمكن تمييز كلمات: «أنت كذلك! أنت كذلك!» فى نقيقها. يا لها من ضجة! بدا أن كل هذه الدواب تصرخ وتصدح عمدا، لكى لا ينام أحد فى هذا المساء الربيعى، يتشبث الجميع، حتى الضفادع الغاضبة، ويستمتعوا بكل دقيقة: فالحياة لا تعطى إلا مرة واحدة!

وأضاء فى السماء هلال فضى، وكان هناك الكثير من النجوم ولم تذكر ليبا كم من الزمن جلست بجوار البركة، ولكن عندما نهضت ومضت كان الجميع نياما فى القرية ولم يلح ضوء واحد. كانت المسافة إلى الدار حوالى اثنى عشر فرسخًا فى الغالب، ولكن قواها خارت ولم تعرف إلى أين تمضى. وكان الهلال يلمح تارة أمامها وتارة إلى يمينها، وصاح ذلك الوقوق ولكن بصوت أصبح مبحوحًا وضاحكا وكأنه يغيظها: احذرى، ستضلين الطريق! سارت ليبا بسرعة، وفقدت منديل رأسها.. وتطلعت إلى السماء وفكرت: ترى أين روح ابنها الآن؟ هل تتبعها أم تحلق هناك فى الأعلى، قرب النجوم ولا تفكر بعد فى أمها؟ أوه، ما أشد الوحدة فى الحقل ليلاً، وسط هذا الغناء! بينما لا تستطيع أن تغنى، ووسط صيحات الفرح المتصلة، بينما لا تستطيع أن تفرح، وبينما يطل الهلال من السماء، وأيضًا وحيدًا، سيان لديه أربيع الآن أم شتاء، وأحياء الناس أم أموات.. عندما تحل بالنفس فاجعة يصبح الأمر قاسيًا بدون الناس. لو كانت معها أمها براسكوفيا، أو العكاز، أو الطاهية، أو أى فلاح!

وصاحت الواقة:

ـ بو.. و.. بو.. و..

وفجأة ترددت بوضوح كلمات بشرية:

ـ سرّج يا فافيلا!

فى الأمام، بجوار الطريق تمامًا اشتعلت نار.. لم يعد هناك لهب بل أضاءت الجمرات الحمراء وحدها. وتردد مضغ خيول. وفى الظلام لاحت عربتان، واحدة تحمل برميلاً، والأخرى أقل ارتفاعًا، عليها زكائب، وظهر شخصان: أحدهما ساق حصانًا ليسرجه، بينما وقف الآخر بجوار النار جامدًا، عاقدًا يديه خلف ظهره. وزمجر كلب بجوار العربة، فتوقف الذى كان يسوق الحصان وقال:

ـ يبدو أن أحدا يسير على الطريق.

وصاح الآخر بالكلب:

ـ اسكت يا «شاريك»!

ومن الصوت كان من الممكن إدراك أن هذا الشخص الآخر كان عجوزًا. وتوقفت ليبا وقالت:

ـ الله يساعد.

فاقترب منها العجوز وأجاب بعد فترة:

ـ مرحبًا.

ـ ألن يعضنى كلبك يا جدى؟

ـ لا تخافى، مرى، لن يمسك.

فصمتت ليبا قليلاً ثم قالت:

ـ أنا كنت فى المستشفى. ولدى مات هناك. وها أناذا أعود به إلى البيت.

يبدو أن العجوز انزعج من سماع ذلك فقد ابتعد عنها وتمتم بعجلة:

ـ لا بأس يا بنيتى. مشيئة الله ـ وقال ملتفتًا إلى رفيقه ـ تتباطأ يا فتى، هيا أسرع!

فقال الفتى:

ـ قوس عربتك غير موجود. لا آراه.

ـ ما أقل حيلتك يا فافيلا!

ورفع العجوز جمرة ونفخ فيها فلم تضئ إلا عينيه وأنفه، وبعد أن وجدا القوس اقترب بالنار من ليبا وتطلع إليها. وكانت نظرته تعبر عن الشفقة والرقة.

وقال لها:

ـ أنت أم، وكل أم يعز عليها ولدها.

وزفر وهز رأسه إذ قال ذلك. وألقى فافيلا بشىء ما على النار وداسها بقدميه، وعلى الفور أطبقت ظلمة حالكة. اختفت المرئيات، ولم يعد هناك إلا الحقل والسماء كما فى السابق، وضجت الطيور وهى تعوق بعضها بعضا عن النوم. وبدا كأن السمان يصيح فى ذلك المكان الذى كانت فيه النار.

ولم تمر دقيقة إلا وأصبح من الممكن رؤية العربتين والعجوز وفافيلا الطويل. وصرت العربتان وهما تصعدان إلى الطريق.

وسألت ليبا العجوز:

ـ هل أنتم قديسون؟

ـ كلا. نحن من فرسانوفو.

ـ عندما نظرت إليّ منذ قليل لان قلبى. والفتى هادئ. ولهذا فكرت: لابد أنكم قديسون.

ـ هل تقصدين بعيدا؟

ـ إلى أوكلينيفو.

ـ اركبى، سنوصلك إلى كوزمنكى. من هناك تمضين إلى الأمام، أما نحن فإلى الشمال.

وجلس فافيلا فى العربة ذات البرميل، وجلس العجوز وليبا فى العربة الأخرى. وسارت الخيول بالخطوة العادية وفافيلا فى المقدمة.

وقالت ليبا:

ـ ولدى تعذب طول النهار، كان يحدق بعينيه صامتا، يريد أن يتكلم ولا يستطيع. يا إلهى، أيتها العذراء! كنت أسقط وأسقط على الأرض من الفجيعة. أقف بجوار سريره وإذا بى أسقط. هلا قلت لى يا جدى لماذا يتعذب طفل صغير قبيل الموت؟ عندما يتعذب رجل كبير، فلاح أو امرأة، فذلك تكفيرا عن ذنوبه، فلماذا يتعذب الصغير وهو بلا ذنوب؟ لماذا؟

فأجاب العجوز:

ـ من ذا يعلم!

وساروا نصف ساعة فى صمت. ثم قال العجوز:

ـ لا يمكن معرفة كل شىء، وكيف ولماذا. الطير مسموح له بجناحين، لا أربعة، لأنه يستطيع أن يطير بانطلاق بجناحين اثنين. وكذلك الإنسان، مسموح له أن يعرف ولكن ليس كل شىء، بل فقط النصف أو الربع. يعرف بالقدر الذى يكفيه لكى يعيش.

ـ من الأفضل لى يا جدى أن أسير على قدمى. قلبى الآن يتهزهز.

ـ لا بأس، ابقى راكبة.

وتثاءب العجوز ورسم علامة الصليب على فمه وردد:

ـ لا بأس.. بلواك نصف بلواى. الحياة طويلة وسيكون فيها الطيب والخبيث، سيكون كل شىء. أمنا روسيا واسعة! ـ قال العجوز وتلفت إلى كلا الجانبين ـ أنا كنت فى كل مكان فى روسيا، ورأيت كل شىء فيها، فصدقى ما أقول يا عزيزتى. سيكون الطيب وسيكون الخبيث. أنا ذهبت إلى سيبيريا سيرا على الأقدام وكنت على ضفاف آمور، وفى الطاى، وهاجرت إلى سيبيريا، وحرثت الأرض هناك، ثم أوحشتنى أمنا روسيا فعدت أدراجى إلى قريتنا. عدنا إلى روسيا سيرا على الأقدام. وأذكر، كنا نركب المعدية، وكنت نحيلا، ممزق الملابس تماما حافى القدمين، أرتعش من البرد وأمضغ كسرة. وكان فى المعدية أيضا سيد عابر ـ عليه الرحمة إن كان قد مات ـ كان ينظر إلىّ برثاء ودموعه تسيل. وقال لى: «إيه، خبزك أسود، وأيامك سوداء..». وعندما رجعت إلى البيت كنت كما يقولون «على الحديدة». كانت عندى زوجة فبقيت فى سيبيريا، دفناها هناك. وهكذا أعيش أجيرا. وماذا؟ سأقول ذلك: بعد ذلك كان هناك الخبيث وكان هناك الطيب. والآن لا أريد ياعزيزتى أن أموت أود لو عشت عشرين عاما أخرى. وإذن فالطيب كان أكثر. ما أوسع أمنا روسيا! ـ قال ونظر مرة أخرى إلى كلا الجانبين والتفت إلى الوراء.

فسألته ليبا:

ـ يا جدى، عندما يموت الإنسان، كم يومًا تظل روحه تسير على الأرض؟

ـ ومن ذا يعلم! لنسأل فافيلا، فهو قد تعلم فى المدرسة. الآن يعلمونهم كل شىء ـ ونادى العجوز ـ يا فافيلا!

ـ آه!

ـ عندما يموت الإنسان، كم يوما تظل روحه تسير على الأرض؟

أوقف فافيلا الحصان وبعد ذلك فقط قال:

ـ تسعة أيام. عندما مات عمى كيريل عاشت روحه عندنا فى الدار بعد موته ثلاثة عشر يوما.

ـ وكيف عرفت؟

ـ طوال ثلاثة عشر يوما كنا نسمع طرقا فى الفرن.

ـ طيب، تحرك ـ قال العجوز وكان واضحا أنه لا يصدق شيئا من ذلك.

بالقرب من كوزمنكى انعطفت العربتان إلى الطريق الرئيسى، بينما مضت ليبا إلى الأمام. كان الضوء لاح. وعندما أخذت تهبط إلى الخور اختفت دور أوكلييفو وكنيستها فى الضباب. وكان الجو باردا، وخيل إليها أن ذلك الوقوق ما زال يصيح.

وعندما عادت ليبا لم تكن الماشية قد أخرجت من الحظائر بعد. كان الجميع نياما. فجلست على الدرج تنتظر. وكان العجوز أول من خرج. وأدرك على الفور ومن أول نظرة ماذا حدث، فوقف مدة طويلة عاجزا عن التفوه بكلمة وهو يطقطق فقط بشفتيه.

وأخيرا تمتم:

ـ إيه يا ليبا، لم تحافظى على الحفيد..

وأيقظوا فارفارا، فلوت ذراعيها وأجهشت بالبكاء وشرعت على الفور تكفن الطفل.

ومضت تقول:

ـ كم كان صبيًا طيبا.. أوه.. هوه.. هو.. صبى واحد، ومع ذلك لم تحافظى عليه يا عبيطة..

وأقاموا صلاة التأبين صباحا ومساء، وفى اليوم التالى دفنوه، وبعد الدفن أكل الضيوف ورجال الكنيسة كثيرا وبشراهة، كأنما لم يأكلوا منذ زمن طويل. وقامت ليبا بخدمة الضيوف، وقال لها القس وقد رفع شوكة عليها فطر مملح:

ـ لا تحزنى على الوليد. أمثاله فى ملكوت السماوات.

لم تدرك ليبا جيدا، إلا بعد انصراف الجميع، أن نيكيفور لم يعد موجودا ولن يعود، وإذ أدركت ذلك أجهشت بالبكاء. ولم تدر إلى أية غرفة تذهب لكى تنتحب، فقد أحست أنه لم يعد لها مكان فى هذا المنزل بعد وفاة الصبى، وأنها هنا بلا داع، زائدة على الحاجة. وأحس الآخرون بذلك أيضا.

ـ ما لك تجأرين هناك؟ ـ صاحت أكسينيا فجأة وقد ظهرت فى الباب. وكانت ترتدى ثيابا جديدة بمناسبة الجنازة وقد وضعت البودرة ـ اخرسى!

أرادت ليبا أن تكف عن البكاء فلم تستطع، بل أعولت بصوت أعلى.

ـ أتسمعين؟ ـ صاحت أكسينيا فى ثورة الغضب ودقت بقدمها ـ لمن أقول؟ غورى من هنا، وإياك أن تخطو قدمك هنا ثانية! غورى!

فقال العجوز مضطربا:

ـ طيب، طيب، طيب، اهدئى يا أكسيوتا، يا بنيتى.. إنها تبكى، شىء مفهوم.. وليدها مات..

ـ شىء مفهوم.. ـ قلدته أكسينيا مشاكسة ـ فلتبت الليلة هنا، ولكن إياك أن أراها غدا! شىء مفهوم! ـ قلدته مرة أخرى ثم ضحكت وذهبت إلى الدكان.

وفى صباح اليوم التالى مبكرا رحلت ليبا إلى أمها فى تورجويفو.

٩

أصبح سقف الدكان وبابه الآن مطليين يلمعان كأنهما جديدان، وعلى النوافذ تزهر كما فى السابق زهور الجيرانيوم المرحة، وأصبح ما حدث منذ ثلاث سنوات فى منزل فناء تسيبوكين منسيا تقريبا.

وما زال العجوز جريجورى بتروفتش يعتبر هو السيد كما فى السابق لكن كل شيء فى الواقع انتقل إلى يدى أكسينيا. فهى التى تبيع وتشترى، وبدون موافقتها لا يمكن عمل شيء. ومصنع الطوب يعمل جيدا، ونظرا لازدياد الطلب على الطوب فى السكة الحديدية فقد بلغ ثمنه أربعة وعشرين روبلا للألف. وتقوم النساء والفتيات بنقل الطوب إلى المحطة ثم شحنه فى العربات، وتصل الواحدة منهن لقاء ذلك على ربع روبل فى اليوم.

وشاركت أكسينيا آل خريمين، فأصبحت الفابريكة تسمى الآن: «آل خريمين الأصغر وشركاه». وافتتحوا حانة جديدة بقرب المحطة، ولم يعد العزف على الأكورديون الثمين يسمع فى الفابريكة، بل فى هذه الحانة، وكثيرا ما يتردد عليها رئيس قسم البريد، الذى أصبحت لديه هو أيضا تجارة ما، وكذلك رئيس المحطة. وأهدى آل خريمين الأصغر إلى الأطرش ساعة ذهبية، فصار يخرجها من جيبه بين الحين والحين ويقربها من أذنه.

ويقولون عن أكسينيا فى القرية إنها اكتسبت قوة كبيرة. وبالفعل، فعندما تركب العربة فى الصباح ذاهبة إلى المصنع، جميلة، سعيدة، بابتسامتها الساذجة، وعندما تصدر تعليماتها هناك فى المصنع، تحس فيها بقوة كبيرة. ويخشاها الجميع فى البيت وفى القرية وفى المصنع. وحين تذهب إلى البريد يقفز رئيس قسم البريد ناهضا ويقول لها:

ـ أرجو أن تتكرمى بالجلوس يا أكسينيا أبراموفنا!

وذات مرة كان أحد الإقطاعيين، وهو رجل غندور، كهل، فى معطف من

الجوخ الخفيف، وفى حذاء عال لامع، يبيعها حصانا، فجذبه الحديث معها حتى أنه تنازل لها فى الثمن بقدر ما شاءت. وظل ممسكا بيدها فترة طويلة قائلا وهو يحدق فى عينيها المشرقتين الماكرتين الساذجتين:

ـ لامرأة مثلك يا أكسينيا أبراموفنا أنا مستعد أن أفعل كل ما يسر.. فقط قولى متى نستطيع أن نتقابل بحيث لا يزعجنا أحد؟

ـ فى أى وقت تشاء!

وبعد ذلك أصبح الغندور الكهل يأتى إلى الدكان كل يوم تقريبا ليشرب البيرة. وهى بيرة فظيعة، مرة كالحنظل. وينفض الإقطاعى رأسه بشدة، ولكنه يشرب.

لم يعد العجوز تسيبوكين يتدخل فى الأعمال. ولا يحتفظ لديه بنقود لأنه لا يستطيع أبدا أن يميز النقود الحقيقية عن المزيفة، ولكنه ساكت، لا يخبر أحدا بعجزه هذا. أصبح ضعيف الذاكرة بصفة خاصة، وإذا لم يطعموه فلن يطلب من تلقاء نفسه. وقد تعودوا على الغداء بدونه. وكثيرا ما تقول فارفارا:

ـ عجوزنا نام أمس ثانية دون عشاء.

تقول ذلك بعدم اكتراث لأنها تعودت. ولسبب ما يرتدى المعطف الثقيل صيفا وشتاء. وفى الأيام الحارة جدا فقط لا يخرج ويبقى فى البيت. وفى العادة، وبعد أن يرتدى المعطف الثقيل ويرفع ياقته ويزرر كل الأزرار، يتجول فى القرية، وفى طريق المحطة، أو يجلس من الصباح إلى المساء على أريكة بجوار بوابة الكنيسة. يجلس بلا حراك. ويحييه المارة برؤوسهم ولكنه لا يرد لأنه، كسابق العهد، لا يحب الفلاحين. وعندما يسألونه عن شىء ما فإنه يجيب إجابة عاقلة تماما، وبلهجة مهذبة، ولكن باقتضاب.

وتتردد الأقاويل فى القرية بأن كنّته طردته من بيته وتحرمه من الطعام، وأنه يأكل من الصدقات. والبعض سعيد لذلك والبعض الآخر يرثى له.

وازدادت فارفارا امتلاء وبياضا، وما زالت تقوم بأعمال الخير كما فى السابق، وأكسينيا لا تمنعها من ذلك. وأصبحت المربى الآن كثيرة إلى درجة أنهم لا يتمكنون من أكلها كلها حتى موسم الثمار التالى، ولذلك تتكلس فتكاد فارفارا تبكى ولا تعرف ماذا تفعل بها.

وأخذوا ينسون أنيسيم. وذات مرة وصلتهم رسالة منه مكتوبة شعرا، على ورقة كبيرة فى صورة التماس، بنفس ذلك الخط الرائع. الظاهر أن صديقه سامورودوف كان يقضى فترة العقوبة معه. وتحت الأشعار كتب سطر واحد بخط قبيح غير واضح: «أنا هنا مريض دائما، حالتى صعبة، ساعدونى بحق المسيح».

وذات مرة ـ وكان ذلك قبيل المساء فى يوم خريفى صحو ـ كان العجوز تسيبوكين جالسا بجوار بوابة الكنيسة، وقد رفع ياقة معطفة، فلم يُرى إلا أنفه ومقدمة عمرته. وعلى طرف الأريكة الطويلة الآخر جلس المقاول يليزاروف وبجواره حارس المدرسة ياكوف، وهو عجوز فى حوالى السبعين، بفم خال من الأسنان. وكان العكاز والحارس يتحدثان.

قال ياكوف بعصبية:

ـ الأولاد ينبغى أن يطعموا آباءهم.. احترم أباك وأمك. أما وهى، الكنة أقصد، فقد طردت حماها من بيته الملْك. والعجوز لا يجد الطعام والشراب، فإلى أين يذهب؟ لليوم الثالث لم يأكل.

ـ لليوم الثالث! ـ دهش العكاز.

ـ يجلس هكذا ويصمت. ضعف. ولماذا الصمت؟ فليرفع قضية، وفى المحكمة لن يمتدحوها.

فسأل العكاز إذ لم يسمع جيدا:

ـ من الذى امتدحوه فى المحكمة؟

ـ ماذا؟

ـ إنها امرأة لا بأس بها، مجتهدة. بدون ذلك لا تسير أمورهن.. أقصد بدون الحرام..

فاستطرد ياكوف بعصبية:

ـ من بيته الملك. حسنا، اقتنى لك بيتا أولا، ثم اطرديه. انظر أية سيدة.. الملعونة!

كان تسيبوكين يسمع ولا يتحرك.

ـ بيت ملك أم بيت غيرك، سيان، المهم أن يكون دافئًا وألا تتشاجر فيه النساء.. قال العكاز وضحك ـ عندما كنت شابا كنت أشفق على زوجتى ناستاسيا جدا. كانت امرأة هادئة. وكانت تقول لى دائما: «اشتر بيتا يا مكاريتش! اشتر بيتا يا مكاريتش! اشتر حصانا يا مكاريتش» حتى وهى تموت قالت: «اشتر يا مكاريتش عربة حتى لا تسير على قدميك». أما أنا فلم أكن اشترى لها غير الكعك، ولا شيء أكثر.

ومضى ياكوف يقول وهو لا يصغى إلى العكاز:

ـ زوجها الأطرش غبى، أحمق تماما مثل ذكر الوز. فهل هو يستطيع أن يفهم؟ لو ضربت ذكر الوز على رأسه بالعصى فلن يفهم.

ونهض العكاز ليعود إلى البيت. ونهض ياكوف أيضا، وسار الاثنان معا وواصلا الحديث. وعندما ابتعدا حوالى خمسين خطوة نهض العجوز تسيبوكين أيضا وجر ساقيه فى أثرهما بتردد وكأنه يخطو فوق جليد زلق.

غرقت القرية فى غسق المغيب، ولم تلمع الشمس إلا فى الأعلى على الطريق الذى كان يصعد من أسفل متلويا كالثعبان. وكانت العجائز عائدات من الغابة ومعهن الأولاد يحملون سلالا مملوءة بالفطر. وسار جمع من النساء والفتيات العائدات من المحطة حيث كن يشحنّ العربات بالطوب، وكانت

أنوفهن وخدودهن تحت عيونهن مغطاة بطبقة رقيقة حمراء من غبار الطوب. كن يغنين. وفى مقدمة الجميع سارت ليبا وهى تنظر إلى السماء وتغنى بصوت رفيع رنان، كأنما تشعر بالفرحة والظفر لأن النهار انتهى والحمد لله، وأصبح من الممكن أن تستريح. وسارت فى الجمع أمها، المياومة براسكوفيا، ومعها صرة فى يدها، وكانت تلهث كالعادة.

ـ مرحبا يا مكاريتش! ـ قالت ليبا عندما رأت العكاز ـ مرحبا يا عمى!

ففرح العكاز وقال:

ـ مرحبا يا ليبنكا! يا نسوان، يا بنات، أحببن نجارا غنيا! ها ـ ها! يا أبنائى، يا أبنائى (وشهق العكاز باكيا). يا فؤوسى الغالية.

ومضى العكاز وياكوف فى طريقهما، وسمع صوتهما وهما يتحدثان. ومن بعدهما التقى الجمع بالعجوز تسيبوكين، وفجأة ساد السكون. تخلفت ليبا وبراسكوفيا قليلا، وعندما حاذاهما العجوز انحنت ليبا بشدة وقالت:

ـ مرحبا يا جريجورى بتروفتش!

وانحنت أمها أيضا. فتوقف العجوز ونظر إليهما دون أن ينطق بكلمة. كانت شفتاه ترتعشان وعيناه مليئتان بالدموع. وأخرجت ليبا من صرة أمها قطعة فطيرة بالعصيدة ومدتها إليه، فأخذها وراح يأكل.

غربت الشمس تماما. وانطفأ بريقها فى الأعلى، على الطريق. وأصبح الجو مظلما وباردا. ومضت ليبا وبراسكوفيا فى طريقهما، ولفترة طويلة ظلتا ترسمان علامة الصليب.

كاشتانكا

الفصل الأول

سلوك مشين

أخذت كلبة حمراء شابة ـ خليط من فصيلة الهجين والدشهند ـ سحنتها قريبة الشبه جدًا بسحنة الثعلب، تجرى إلى الأمام وإلى الخلف على الرصيف وتتلفت حولها بقلق، وأحيانًا كانت تتوقف، وترفع باكية تارة هذه الكف المقرورة وتارة تلك، وهى تحاول أن تفهم: كيف حدث أن ضلت الطريق؟

كانت تذكر جيدًا كيف قضت النهار، وكيف أصبحت أخيرًا على هذا الرصيف المجهول.

بدأ النهار بأن ارتدى سيدها، صانع الأثاث لوقا ألكسندريتش، الطاقية الفراء، وأخذ تحت إبطه قطعة خشبية ما، ملفوفة فى منديل أحمر، وصاح:

ـ كاشتانكا، هيا!

وعندما سمعت الكلبة الخليط من فصيلة الهجين والدشهند اسمها، خرجت من تحت نضد النجارة حيث كانت ترقد على نشارة الخشب، وتمطت بتلذذ وركضت خلف سيدها. كان زبائن لوقا ألكسندريتش يعيشون بعيدًا جدًا، حتى إنه كان على صانع الأثاث قبل أن يصل إليهم، أن يعرج عدة مرات على الحانة ليتناول ما ينعش به نفسه. وكانت كاشتانكا تذكر أن سلوكها أثناء الطريق كان

غير لائق أبدا. فقد راحت تقفز، إذ سرها أن سيدها أخذها للتريض، وتنقض على عربات ترام الخيول بالنباح، وتعرج على الأفنية وتطارد الكلاب. وكانت بين الحين والحين تغيب عن أنظار صانع الأثاث فيتوقف ويصرخ فيها بغضب. بل إنه ذات مرة ضم أذنها الثعلبية فى قبضته بينما ارتسم على وجهه تعبير نهم، وهزها وقال وهو يشدد على مقاطع الكلمات:

ـ إن شا ـ الله ـ تأ.. خذك بلوى.. يا.. ملعو.. نة!

وبعد أن زار لوقا ألكسندريتش زبائنه، عرج لحظة على أخته حيث شرب عندها وأكل. ومن أخته توجه إلى عامل تجليد من معارفه، ومن عامل التجليد إلى الحانة، ومن الحانة إلى الأشبين وهكذا.. وباختصار، عندما أصبحت كاشتانكا على هذا الرصيف المجهول كان المساء قد حل، وأصبح عامل الأثاث ثملاً كحوذى. وأخذ يلوح بذراعيه، ويزفر بعمق، ويدمدم:

ـ ولدتنى أمى فى رحم الذنوب! آه، الذنوب، الذنوب! اليوم نسير فى الشوارع وننظر إلى المصابيح، فإذا متنا فسنصلى عذاب السعير..

أو كانت تداهمه نوبة طيبة، فيدعو إليه كاشتانكا ويقول لها:

ـ أنت يا كاشتانكا لست سوى حشرة وليس أكثر من ذلك. أنت بالمقارنة مع الإنسان مثلك مثل النجار بالمقارنة مع صانع الأثاث..

وبينما كان يتكلم معها بهذه الطريقة دوت الموسيقى فجأة. والتفتت كاشتانكا فرأت فوج جنود يسير فى الشارع نحوها مباشرة. ولما كانت لا تطيق سماع الموسيقى التى تثير أعصابها، فقد اندفعت جانبًا وهى تعوى. ولدهشتها البالغة رأت صانع الأثاث، بدلاً من أن يفزع ويصرخ وينبح، يبتسم ابتسامة عريضة، وينتصب شادا قامته، ويرفع أصابعه الخمس مؤديًا التحية. وعندما رأت كاشتانكا أن سيدها لا يحتج، عوت بصوت أعلى، وانطلقت عبر الشارع إلى الرصيف الآخر وهى لا تعى شيئًا.

وعندما أفاقت لم تعد الموسيقى تصدح، واختفى الفوج. فركضت عبر الطريق إلى المكان الذى تركت فيه سيدها، ولكن هيهات! لم يكن صانع الأثاث هناك. فاندفعت إلى الأمام، ثم إلى الخلف، وعبرت الطريق ثانية، ولكن لم يكن هناك أثر لصانع الأثاث، وكأنما ابتلعته الأرض.. وأخذت كاشتانكا تتشمم الرصيف، على أمل أن تعثر على سيدها عن طريق آثاره، ولكن أحد الأوغاد كان قد مر فى خف جديد من المطاط، فاختلطت الآن كل الروائح الرهيفة برائحة الكاوتشوك القوية الكريهة، بحيث لم يعد من الممكن تمييز شىء.

ركضت كاشتانكا إلى الامام وإلى الخلف دون أن تعثر على سيدها، وفى تلك الأثناء أظلمت الدنيا. وعلى جانبى الشارع أضيئت المصابيح، وظهرت الأنوار فى نوافذ المنازل. وتساقط الثلج ندفا كبيرة زغبية، فطلى باللون الأبيض أرض الشارع وظهور الخيول وطواقى الحوذية، وكلما ازداد الجو ظلامًا تبدت الأشياء أكثر بياضًا. ومر بجوار كاشتانكا بلا توقف، إلى الأمام وإلى الخلف، زبائن مجهولون، وهم يحجبون عنها الرؤية ويدفعونها بأقدامهم. (كانت كاشتانكا تقسم البشر إلى قسمين غير متساويين أبدا: إلى سادة وزبائن. وكان هناك فرق جوهرى بين هؤلاء وأولئك: فقد كان من حق الفريق الأول أن يضربوها، أما الفريق الثانى فكان من حقها هى أن تطبق على سمانات سيقانهم). وكان الزبائن يسرعون إلى جهة ما، دون أن يعيروها أى انتباه.

وعندما أطبق الظلام تمامًا استولى اليأس والرعب على كاشتانكا. فانزوت عند مدخل أحد المنازل وراحت تبكى بمرارة. لقد هدها التعب من التجوال مع لوقا ألكسندريتش طول النهار، وبردت أذناها وأكفها، وعلاوة على ذلك كانت جائعة إلى درجة رهيبة. فلم تمضغ طوال النهار سوى مرتين: عند عامل التجليد أكلت قليلاً من الصمغ، وفى إحدى الحانات وجدت بجوار النضد قشر سجق.. وهذا كل ما هناك. ولو كانت إنسانًا لفكرت على الأرجح:

«كلا، هذه حياة لا تطاق! ينبغى أن أنتحر!»

الفصل الثانى

الرجل الغريب الغامض

ولكنها لم تفكر فى شىء بل كانت تبكى فحسب. وعندما غطى الثلج الزغبى الناعم ظهرها ورأسها تمامًا وغابت فى نعاس ثقيل بسبب الإرهاق فرقع باب المدخل فجأة وتحشرج ولطمها فى جنبها، فقفزت. ومن الباب المفتوح خرج رجل ما، ينتمى إلى فريق الزبائن. ولما كانت كاشتانكا قد عوت واصطدمت بقدمه فلم يكن من الممكن إلا أن تلفت انتباهه. فانحنى عليها وسألها:

ـ من أين أنت أيتها الكلبة؟ هل آذيتك؟ آه يا مسكينة.. حسنًا، لا تغضبى، لا تغضبى.. أنا آسف.

ونظرت كاشتانكا إلى الرجل الغريب من خلال ندف الثلج العالقة برموشها، فرأت أمامها رجلاً قصيرًا وبدينًا، بوجه حليق مكتنز، وبقبعة أسطوانية ومعطف فراء مفتوح.

ومضى يقول وهو ينفض الثلج عن ظهرها بإصبعه:

ـ لماذا تعولين؟ أين سيدك؟ يبدو أنك فقدت؟ آه، يا للكلب المسكين! وماذا سنفعل الآن؟

وعندما أحست كاشتانكا فى صوت الرجل الغريب بنبرة دافئة قلبية، لعقت يده، وأعولت بصوت أكثر شكاية.

فقال الرجل الغريب:

ـ ولكنك لطيفة، مضحكة! كالثعلب تمامًا! طيب، ما العمل، هيا معى! ربما تنفعين فى شىء ما.. هيا، فويت!

ومصمص بشفتيه ولوح لكاشتانكا بذراعه بحركة لا يمكن إلا أن تعنى شيئًا واحدًا: «هيا!». فمضت كاشتانكا. ولم يمر أكثر من نصف ساعة حتى كانت جالسة على الأرض فى غرفة كبيرة مضيئة، تنظر بتأثر وفضول، وقد أمالت رأسها جانبًا، إلى هذا الرجل الغريب، الذى كان جالسًا إلى الطاولة يتناول طعامه. كان يأكل ويلقى إليها بقطع.. فى البداية أعطاها قطعة خبز وقشرة جبن خضراء، ثم قطعة لحم، ونصف شطيرة، وعظام دجاج، فأكلت من الجوع كل ذلك بسرعة حتى إنها لم تتمكن من معرفة طعمه. وكلما أكلت أكثر ازداد إحساسها بالجوع.

وقال الغريب وهو يرى بأى نهم وحشى تزدرد القطع دون مضغ:

ـ ولكن أصحابك يطعمونك بصورة سيئة! يا لك من نحيلة! جلد على عظم..

أكلت كاشتانكا كثيرًا ولكنها لم تشبع، بل ثملت فقط من الطعام. وبعد الأكل تمددت فى وسط الغرفة ومدت قوائمها، وهزت ذيلها وقد أحست بضعف لذيذ فى جسدها كله. وبينما كان سيدها الجديد مضطجعًا فى الفوتيل يدخن السيجار، مضت تهز ذيلها وتقرر مسألة: أين الأفضل، عند الرجل الغريب أم عند صانع الأثاث؟ كان الفرش عند الرجل الغريب فقيرًا وقبيحًا. فبخلاف الفوتيلات والكنبة والمصباح والسجاجيد لم يكن لديه شىء وبدت الغرفة خاوية. أما لدى صانع الأثاث فالشقة كلها غاصة بالأشياء. فلديه طاولة، ونضد نجارة وكوم من النشارة، ومساحيج وأزاميل ومناشير وقفص به عصفور، وبرميل.. ولا تنبعث لدى الغريب أية روائح، أما لدى صانع الأثاث فالضباب يملأ دائمًا شقته وتفوح رائحة رائعة من الصمغ وورنيش اللّك والنشارة. ولكن لدى الغريب ميزة مهمة للغاية، فهو يقدم طعامًا كثيرًا، وهو وللإنصاف، عندما

كانت كاشتانكا جالسة أمام الطاولة تتطلع إليه بتأثر، لم يركلها مرة واحدة، ولم يدق بقدمه مرة ولم يصرخ: «غورى من هنا يا ملعونة!».

وبعد أن فرغ السيد الجديد من تدخين سيجارة خرج، ثم عاد بعد دقيقة ممسكًا فى يده بفرشة.

وقال وهو يضع الفرشة فى الركن بجوار الكنبة:

ـ تعال هنا يا كلب. ارقد هنا ونم!

ثم أطفأ المصباح وخرج. وتمددت كاشتانكا على الفرشة وأغمضت عينيها. وتناهى نباح من الشارع فأرادت أن ترد عليه، ولكن الحزن داهمها فجأة. تذكرت لوقا ألكسندريتش وابنه فيدوشكا، ومكانها المريح تحت نضد النجارة.. وتذكرت أنه فى أمسيات الشتاء الطويلة، عندما كان سيدها ينجر أو يقرأ الصحف بصوت مسموع، كان فيدوشكا يلعب معها عادة.. كان يسحبها من قائمتيها الخلفيتين من تحت النضد ويصنع بها من الألاعيب ما يجعل عينيها تغيمان ومفاصلها كلها تؤلمها. كان يجعلها تسير على قائمتيها الخلفيتين، ويلعب بها لعبة الناقوس، أى يشدها بقوة من ذيلها فتصرخ لذلك وتنبح، ويدس فى أنفها التبغ.. وكانت اللعبة التالية أشدها تعذيبًا: كان فيدوشكا يربط قطعة لحم بخيط ويلقى بها إلى كاشتانكا، وبعد أن تبتلعها يسحب القطعة فيخرجها من معدتها وهو يقهقه عاليًا. وكلما توهجت الذكريات ازداد نحيب كاشتانكا ارتفاعًا ووحشة.

ولكن سرعان ما تغلب الإرهاق والدفء على الحزن.. وبدأت تنعس. وفى خيالها ركضت كلاب. وركض بالمناسبة ذلك البودل العجوز الأشعث الذى رأته اليوم فى الشارع، ذو السحابة على عينه وخصل الشعر حول أنفه. وطارد فيدوشكا البودل بمعول فى يده، وفجأة اكتسى هو بشعر أشعث، ونبح بمرح وظهر بجوار كاشتانكا. وتشمم كل منهما أنف الآخر بمودة وركضا إلى الشارع..

الفصل الثالث

تعارف جديد سار جدا

عندما استيقظت كاشتانكا كان النور قد انتشر، وتناهى من الشارع ضجيج النهار المميز. ولم يكن هناك أحد فى الغرفة. وتمطت كاشتانكا وتثاءبت وأخذت تطوف بالغرفة غاضبة متجهمة. وتشممت الأركان والأثاث وأطلت فى المدخل، فلم تجد أى شيء طريف. وكان هناك باب آخر بخلاف الباب المفضى إلى المدخل. وفكرت كاشتانكا قليلاً ثم مضت تخمشه بأظافر كفيها دفعة واحدة ففتحته، ودلفت إلى الغرفة التالية. وهنا، على السرير، كان الزبون، ذلك الرجل الغريب الذى رأته بالأمس نائمًا وقد تغطى ببطانية.

ـ هر.. ر.. ر...، زمجرت، ثم تذكرت غداء الأمس فهزت ذيلها وبدأت تتشممه.

تشممت ملابس الرجل الغريب وحذاءه، فوجدت أنه تفوح منها بشدة رائحة خيول. وفى غرفة النوم أيضًا كان ثمة باب يفضى إلى مكان ما، وكان أيضًا مغلقًا. وخمشت كاشتانكا هذا الباب، واتكأت عليه بصدرها ففتحته، وعلى الفور أحست برائحة غريبة جدًا. وتوقعت كاشتانكا لقاء غير سار فزمجرت وتلفتت وهى تدلف إلى غرفة صغيرة، بورق جدران قذر، ثم تقهقرت مذعورة. فقد رأت شيئًا غير متوقع ومخيفًا. فنحوها مباشرة تقدم ذكر أوز رمادى وهو يفح، وقد أمال رأسه وعنقه إلى الأرض ونشر جناحيه. وغير بعيد عنه تمدد قط أبيض على فرشة. وعندما رأى كاشتانكا قفز من مكانه، وقوس ظهره،

ورفع ذيله ونفش شعره وفح هو الآخر. وخافت الكلبة عن حق، ولكنها لم تشأ أن تفصح عن خوفها فنبحت بصوت عال وانقضت على القط.. وقوس القط ظهره أكثر وفح، وضرب كاشتانكا بكفه على رأسها. وقفزت كاشتانكا مرتدة، وجلست على أكفها الأربع، ومدت بوزها نحو القط وانفجرت فى نباح عال حاد. وفى تلك الأثناء اقترب ذكر الأوز من الخلف، ونقرها بمنقاره فى ظهرها بقوة. فهبت كاشتانكا وانقضت على ذكر الأوز..

ـ ما هذا؟ ـ تردد صوت عال غاضب، ودخل الرجل الغريب إلى الغرفة مرتديًا روبا وبين أسنانه سيجار. ـ ما معنى هذا؟ الزم مكانك!

اقترب من القط، ولكزه فى ظهره المقوس قائلاً:

ـ ما معنى هذا يا فيودور تيموفييتش؟ تثيرون شجارًا؟ يا لك من محتال عجوز! نم!

واستدار نحو ذكر الأوز وصاح:

ـ إيفان إيفانيتش، الزم مكانك!

رقد القط بإذعان على فرشته وأغمض عينيه. وبدا من تعبير سحنته وشواربه أنه هو نفسه لم يكن راضيًا عن احتداده واشتراكه فى المشاجرة. وعوت كاشتانكا بإحساس بالإهانة، أما ذكر الأوز فقد مد عنقه وانطلق متحدثًا عن شىء ما بسرعة وحرارة ووضوح، ولكن بصورة غير مفهومة أبدا. فقال رب الدار متثائبًا:

ـ حسنا، حسنا! ينبغى أن تعيشوا فى سلام ومودة، وربت ظهر كاشتانكا واستطرد: أما أنت أيتها الحمراء فلا تخافى.. هذه جماعة طيبة، لن تمسك بسوء. ولكن مهلا، كيف سنسميك؟ لا يليق أن تظلى بلا اسم يا أختاه.

وفكر الغريب قليلاً ثم قال:

ـ اسمعى.. سيكون اسمك: خالة.. مفهوم؟ خالة!

وبعد أن كرر كلمة «خالة» عدة مرات خرج. وجلست كاشتانكا وراحت تراقب الموقف. كان القط جالسًا على الفرشة بلا حراك، متظاهرًا بالنوم. ومضى ذكر الأوز يتحدث عن شيء ما بسرعة وحرارة، وهو يمد عنقه ويراوح فى مكانه.

ويبدو أنه كان ذكر أوز ذكيًا جدًا. فبعد كل عبارة من عباراته الطويلة كان يتراجع إلى الخلف بدهشة، ويتظاهر أنه يعجب بكلامه.. وبعد أن استمعت كاشتانكا إليه وأجابته بـ «هر.. ر.. ر» أخذت تتشمم الأركان. كان فى أحد الأركان طست صغير رأت فيه حمصًا منقوعًا وكسرات مبلولة من خبز الجودار. وتذوقت الحمص فلم تجده لذيذًا، وتذوقت الكسرات وبدأت تأكل. ولم يغضب ذكر الأوز على الإطلاق من أن كلبة غريبة تأكل طعامه، بالعكس، تحدث بحرارة أكثر، ولكى يظهر لها ثقته، تقدم إلى الطست وأكل عدة حمصات.

الفصل الرابع

عجائب مذهلة

بعد فترة قصيرة عاد رب الدار حاملاً معه شيئًا غريبًا يشبه البوابة أو حرف II. وتدلى من عارضة هذا الحرف الخشبى السيئ الصنع ناقوس وشد إليها مسدس. ومن لسان الناقوس وحرك المسدس امتدت خيوط. وضع الغريب حرف II فى وسط الغرفة، وأمضى وقتًا طويلاً فى فك وربط أشياء ما، ثم نظر إلى ذكر الأوز وقال:

ـ تفضل يا إيفان إيفانيتش!

فاقترب منه ذكر الأوز ووقف فى وضع ترقب.

فقال الغريب:

ـ حسنًا.. فلنبدأ من البداية. قبل كل شيء يجب أن تحيى الجمهور وتنحنى احترامًا. بسرعة!

فمد إيفان إيفانيتش عنقه، وأومأ فى جميع الجهات، وحك الأرض بساقه.

ـ حسنا، شاطر.. والآن مُت!

فرقد ذكر الأوز على ظهره ورفع ساقيه عاليًا. وبعد أن قام الغريب بعدة نمر تافهة كهذه، أمسك برأسه فجأة، راسما على وجهه الرعب، وصاح:

ـ النجدة! حريق! النار!

فركض إيفان إيفانيتش نحو حرف II، وأمسك بمنقاره الخيط وقرع الناقوس.

وأحس الغريب بالرضى تمامًا، فمسد عنق ذكر الأوز وقال:

ـ شاطر يا إيفان إيفانيتش! والآن تصور أنك مجوهراتى تبيع الذهب والماسات. وتصور الآن أنك ذهبت إلى متجرك فوجدت فيه لصوصًا. فكيف تتصرف فى هذه الحالة؟

فأمسك ذكر الأوز فى منقاره بخيط آخر وشده، فدوت على الفور طلقة تصم الآذان. وأعجبت كاشتانكا جدا بالرنين، أما الطلقة فسلبت لبها حتى أنها دارت حول حرف II ونبحت. فصاح بها الرجل الغريب:

ـ يا خالة، الزمى مكانك! صمتا!

ولم ينته عمل إيفان إيفانيتش عند حد إطلاق النار.

فقد ظل الرجل الغريب يديره حوله ساعة كاملة وقد ربطه إليه بحبل، وهو يفرقع بالسوط، وكان على ذكر الأوز أثناء ذلك أن يقفز فوق حاجز وعبر حلقة، ويشب على أطرافه، أى يقعى على مؤخرته ويلوح بساقيه. ولم تحول كاشتانكا نظرها عن إيفان إيفانيتش، وعوت من شدة الإعجاب، وركضت خلفه عدة مرات وهى تطلق نباحًا رنانًا. وبعد أن أرهق الغريب ذكر الأوز وأرهق نفسه، مسح العرق عن جبينه وصاح:

ـ يا ماريا، هاتى خفرونيا إيفانوفنا إلى هنا!

وبعد لحظات تردد نخير.. فزمجرت كاشتانكا، واتخذت مظهر الشجاعة الفائقة، وتحوطا للأمر، اقتربت أكثر من الرجل الغريب. وفتح الباب، وأطلت امرأة عجوز، وقالت شيئًا ما، ثم دفعت إلى الداخل بخنزيرة سوداء قبيحة للغاية. ودون أن تعير الخنزيرة أى اهتمام لزمجرة كاشتانكا، رفعت نخرتها إلى

أعلى ونخرت بصوت مرح. يبدو أنها كانت مسرورة جدًا برؤية سيدها والقط وإيفان إيفانيتش. وعندما اقتربت من القط ودفعته بنخرتها برفق فى بطنه، ثم تحدثت عن شىء ما مع ذكر الأوز، تجلى فى حركاتها وصوتها وفى ارتعاش ذيلها الكثير من الطيبة. وأدركت كاشتانكا على الفور أنه لا جدوى من النباح والزمجرة مع مخلوقات كهذه.

ونحى السيد حرف II وصاح:

ـ تفضل يا فيودور تيموفييتش.

فنهض القط، وتمطى بكسل، واقترب من الخنزيرة بلا رغبة كأنما يصنع معروفًا.

وقال السيد:

ـ فلنبدأ بالهرم المصرى.

ومضى يوضح شيئًا ما مدة طويلة، ثم أمر: «واحد.. اثنان.. ثلاثة!». ولدى سماع إيفان إيفانيتش كلمة «ثلاثة» خفق بجناحيه وقفز على ظهر الخنزيرة.. وعندما استقر على الظهر الأهلب وهو يحفظ توازنه بجناحيه وعنقه، صعد فيودور تيموفيتش إلى ظهر الخنزيرة بتراخ وكسل، وباستهتار واضح، وبدا كأنما يحتقر فنه ولا يكن له أدنى تقدير، ثم تسلق بلا رغبة ظهر ذكر الأوز ووقف على قائمتيه الخلفيتين. وتكوّن ما سماه الرجل الغريب بالهرم المصرى. وعوت كاشتانكا من شدة الإعجاب، ولكن فى تلك اللحظة تثاءب القط العجوز فاختل توازنه وسقط من فوق ظهر ذكر الأوز. وترنح إيفان إيفانيتش وسقط هو الآخر. وصرخ الرجل الغريب، ولوح بيديه، وعاد يشرح شيئًا ما. وبعد أن أنفق ساعة كاملة فى نمرة الهرم، بدأ رب الدار الذى لا يكل فى تعليم إيفان إيفانيتش كيف يمتطى صهوة القط، ثم بدأ فى تعليم القط كيف يدخن وما إلى ذلك.

وانتهى التعليم بأن مسح الرجل الغريب العرق عن جبينه وخرج. ونفخ فيودور تيموفييتش بأنفه فى اشمئزاز، ورقد على الفرشة وأغمض عينيه، وتوجه إيفان إيفانيتش إلى الطست، أما الخنزيرة فساقتها المرأة العجوز. وبفضل هذه الكثرة من الانطباعات الجديدة انقضى النهار بسرعة بالنسبة لكاشتانكا، وفى المساء أنزلت مع فرشتها فى الغرفة ذات ورق الجدران القذر، وباتت فى صحبة فيودور تيموفييتش وذكر الأوز.

.

الفصل الخامس

موهبة! موهبة!

ومر شهر.

وتعودت كاشتانكا على أنهم كل مساء يطعمونها عشاء لذيذًا وينادونها بـ «الخالة». وتعودت أيضًا على الرجل الغريب وعلى شركائها فى المسكن. ومضت الحياة فى يسر وسهولة.

كانت الأيام كلها تبدأ بداية متشابهة. وكان إيفان إيفانيتش يستيقظ عادة قبل الجميع، وعلى الفور يتوجه إلى الخالة أو إلى القط، ويلوى عنقة ويبدأ فى الحديث عن شىء ما بحرارة ويقين، ولكن بصورة غير مفهومة كما فى السابق.

وأحيانًا كان يرفع رأسه ويلقى منولوجات طويلة. وفى الأيام الأولى لتعارفهما ظنت كاشتانكا أنه يتحدث كثيرًا لأنه ذكى جدا، ولكن ما إن مرت فترة قصيرة حتى فقدت كل احترام له وعندما كان يتوجه إليها بحديثه الطويل لم تعد تهز ذيلها، بل كانت تزدريه باعتباره ثرثارا مملا يزعج نوم الآخرين، ودون أدنى كلفة كانت تجيبه بـ «هر.. ر.. ر»..

أما فيودور تيموفييتش فكان سيدا من طراز آخر. فعندما يستيقظ لا يصدر أى صوت، ولا يتحرك، بل حتى لم يكن يفتح عينيه. ولو كان بمستطاعه لما استيقظ، لأنه كما يبدو لم يكن يحب الحياة. لم يكن ثمة ما يثير اهتمامه، وكان

ينظر إلى كل شيء بتراخ واستخفاف ويحتقر كل شيء، وحتى حينما يتناول طعامه اللذيذ ينفخ بأنفه فى اشمئزاز. وكانت كاشتانكا عندما تستيقظ تبدأ فى الطواف على الغرف وتشمم الأركان. ولم يكن مسموحًا إلا لها وللقط فقط بالطواف فى الشقة، أما ذكر الأوز فلم يكن يحق له أن يتخطى عتبه الغرفة ذات ورق الجدران القذر، بينما كانت خفرونيا إيفانوفنا تقطن حظيرة فى مكان ما فى الفناء ولا تظهر إلا فترة التدريب. وكان السيد يستيقظ متأخرا، وما إن يشرب الشاى حتى يشرع على الفور فى شعوذته. وكل يوم يحمل إلى الغرفة حرف II والسوط، والحلقات، وكل يوم تجرى نفس التدريبات تقريبا. كان التدريب يستمر ثلاث أو أربع ساعات، حتى أن فيودور تيموفييتش كان يترنح أحيانا كالثمل من شدة الإرهاق، ويفتح إيفان إيفانيتش منقاره لاهثا، أما السيد فيصبح أحمر الوجه ولا يتمكن أبدا من مسح العرق عن جبينه.

كان التدريب والطعام يجعلان أوقات النهار شيقة جدا، ولكن الأمسيات كانت تمضى فى ملل. وفى العادة كان رب الدار يرحل كل مساء الى مكان ما ويأخذ معه ذكر الأوز والقط. وحينما تصبح الخالة وحدها ترقد على الفرشة ويتولاها الحزن.. كان الحزن يتسلل إليها بصورة لا تلحظ، ويشملها تدريجيًا، كما تشمل العتمة الغرفة. ويبدأ ذلك بأن تفقد الكلبة أية رغبة فى النباح أو الأكل أو الركض فى الغرف أو حتى التطلع، ثم تلوح فى مخيلتها صورتان غير واضحتين لكلاب أو بشر، بوجهين لطيفين رقيقين ولكن غير مفهومين. وعند ظهورهما تهز الخالة ذيلها، ويخيل إليها أنها رأتهما فى وقت ما وفى مكان ما وأحبتهما.. وعندما يداعبها النعاس كانت تشعر برائحة الصمغ ونشارة الخشب وورنيش اللَّك تفوح من هاتين الصورتين.

وعندما ألفت تمامًا حياتها الجديدة وتحولت من كلبة نحيلة معروقة إلى كلبة شبعانة معتنى بها، ربت السيد على ظهرها ذات مرة قبل بدء التدريب وقال:

ـ آن الأوان يا خالة أن تزاولى عملاً. كفاك تسكعًا. أريد أن أجعل منك فنانة.. أتريدين أن تصبحى فنانة؟

وبدأ يعلمها شتى العلوم. فى الدرس الأول تعلمت كيف تقف وتمشى على قائمتيها الخلفيتين، الأمر الذى أعجبها للغاية. وفى الدرس الثانى كان عليها أن تقفز على قائمتيها الخلفيتين وتخطف السكر الذى كان معلمها يمسك به عاليًا فوق رأسها. وفى الدروس التالية رقصت، ودارت وهى مربوطة بحبل، وعوت على أنغام الموسيقى، وقرعت الناقوس وأطلقت النار، وبعد شهر أصبح بوسعها أن تحل باقتدار محل فيودور تيموفييتش فى «الهرم المصرى». كانت تقبل على التعليم عن طيب خاطر، وأرضاها نجاحها. أما الدوران بالحبل بلسان مدلى، والقفز عبر الحلقة، وامتطاء صهوة فيودور تيموفييتش العجوز، فكان يجلب لها متعة عظيمة. وكانت تصاحب كل نمرة ناجحة بنباح رنان حماسى، أما المعلم فيدهش، ويتولاه الحماس هو أيضًا فيفرك راحتيه قائلاً:

ـ موهبة! موهبة! موهبة حقيقية! بالتأكيد ستحظين بالنجاح!

وتعودت الخالة على كلمة «موهبة» حتى أنها كانت تقفز، كلما سمعت السيد يرددها وتتلفت حولها، كأنما كانت هذه الكلمة اسمها.

الفصل السادس

ليلة مزعجة

رأت الخالة فى المنام حلمًا كلابيًا، إذ طاردها البواب بمكنسة، فاستيقظت من الخوف.

كانت الغرفة مظلمة، ساكنة وخانقة جدًا. وكانت البراغيث تلدغ. ولم يسبق للخالة أن شعرت بالخوف من الظلام ولكنها الآن أحست لسبب ما بالرعب وأرادت أن تنبح. وفى الغرفة المجاورة زفر رب الدار عاليًا. وبعد ذلك بقليل نخرت الخنزيرة فى حظيرتها، ثم لف الصمت كل شىء. عندما تفكر فى الطعام تشعر فى نفسك بالراحة، ومن ثم أخذت الخالة تفكر فى أنها سرقت من فيودور تيموفييتش اليوم ورك دجاجة وخبأتها فى غرفة الجلوس بين الصوان والحائط، حيث تتراكم خيوط عنكبوت وغبار كثير جدًا. ولا بأس لو مضت الآن لتنظر هل هذا الورك بخير أو لا؟ من المحتمل جدًا أن يكون رب الدار قد عثر عليها وأكلها. ولكنها، حسب القواعد، لا تستطيع الخروج من الغرفة قبل الصباح. وأغمضت الخالة عينيها لتنعس بسرعة، إذ كانت تعرف بخبرتها أنه كلما أسرعت فى النوم أسرع الصباح بالمجىء. ولكن دوت فجأة بجوارها صرخة غريبة جعلتها تنتفض وتقفز واقفة على سيقانها الأربع. كانت تلك صرخة إيفان إيفانيتش، ولم تكن صرخته ثرثارة ومقنعة كالعادة، بل رهيبة، ثاقبة غير طبيعية، تشبه صرير بوابة تفتح. وعندما لم تميز الخالة أو تفقه شيئًا فى الظلام، أحست بمزيد من الخوف فزمجرت:

ـ هر.. ر.. ر..

ومر بعض الوقت، بقدر ما يكفى للعق عظمة طيبة.

ولم تتكرر الصرخة، وشيئًا فشيئا هدأت الخالة وأدركها النعاس. ورأت في المنام كلبين أسودين كبيرين بخصائل من شعر العام الماضي على أفخاذهما وأجنابهما. كانا يأكلان بشراهة من برميل كبير فضلات طعام تصاعد منها بخار أبيض ورائحة لذيذة جدًا. وأحيانًا يتطلعان إلى الخالة ويكشران عن أنيابهما ويزمجران: «لن نعطيك شيئًا!». ولكن رجلاً ارتدى معطف فراء خرج من البيت ركضًا وطردهما بالسوط. عندئذ ذهبت الخالة إلى البرميل وشرعت تأكل. ولكن ما إن غاب الرجل وراء البوابة حتى انقض الكلبان الأسودان على الخالة وهما يزأران، وفجأة دوت من جديد الصرخة الثاقبة.

صرخ إيفان إيفانيتش:

ـ كيك.. كيكى.. ى.. ى!

واستيقظت الخالة وقفزت واقفة، ودون أن تغادر الفرشة انفجرت في نباح معول. أصبح يخيل إليها أن من يصرخ ليس إيفان إيفانيتش بل أحد آخر غريب. ولسبب ما نخرت الخنزيرة مرة أخرى في الحظيرة.

ولكن ها هي ذى تتردد خشخشة حذاء، ودلف السيد إلى الغرفة مرتديًا روبا وفي يده شمعة. وتراقص النور المتذبذب على ورق الجدران القذر وعلى السقف وطرد الظلمة. ورأت الخالة أنه لا يوجد أحد غريب في الغرفة. كان إيفان إيفانيتش جالسًا على الأرض، ولم يكن نائمًا. وكان جناحاه ممدودين ومنقاره مفتوحًا، وعمومًا بدا كأنه متعب جدًا ويريد أن يشرب. ولم يكن فيودور تيموفييتش العجوز نائمًا هو الآخر. يبدو أن الصرخة أيقظته هو أيضًا.

وسأل السيد ذكر الأوز:

ـ إيفان إيفانيتش، ماذا بك؟ لماذا تصرخ؟ هل أنت مريض؟

وصمت ذكر الأوز. وتحسس السيد عنقه، وربت على ظهره وقال:

ـ يا لك من غريب الأطوار. لا تنام ولا تدع الآخرين ينامون.

وعندما خرج السيد وأخذ معه الضوء حل الظلام ثانية. وأحست الخالة بالخوف. ولم يصرخ ذكر الأوز، ولكن عاد يخيل إليها أن أحدًا غريبًا يقف فى الظلام. وكان أفظع شىء أنها لا تستطيع أن تعض هذا الغريب، لأنه لم يكن مرئيًا وليس له شكل محدد. ولسبب ما فكرت أنه فى هذه الليلة حتما سيحدث شىء ما سيئ جدًا.

وكان فيودور تيموفييتش هو الآخر قلقًا. فقد سمعته الخالة يتقلب فى مرقده ويتثاءب وينفض رأسه.

وفى مكان ما فى الخارج تردد طرق على بوابة، ونخرت الخنزيرة فى الحظيرة. وعوت الخالة، ومدت قائمتيها الأماميتين وأسندت إليهما رأسها. وخيل إليها أن ثمة فى الطرق على البوابة، وفى نخير الخنزيرة المستيقظة لسبب ما، وفى الظلام والسكون، شيئًا موحشًا ورهيبًا كما فى صرخة إيفان إيفانيتش. كان كل شىء فى اضطراب وقلق، ولكن ما السبب؟ ومن هو ذلك الغريب الذى لم يكن مرئيًا؟ وها هى ذى تومض بجوار الخالة للحظة شرارتان خضراوان كابيتان. كانت تلك أول مرة يقترب منها فيودور تيمو فييتش طوال فترة تعارفهما. ترى ماذا يريد؟ ولعقت الخالة كفه، ودون أن تسأله عن سبب مجيئه، أعولت بصوت خافت وبنغمات متنوعة.

وصرخ إيفان إيفانيتش:

ـ كيكى.. ى! كيكى.. كى!

وفتح الباب مرة أخرى ودخل السيد بالشمعة. كان ذكر الأوز جالسًا فى وضعه السابق بمنقار مفتوح وجناحين ممدودين. وكانت عيناه مغمضتين.

وناداه السيد:

ـ إيفان إيفانيتش!

فلم يتحرك ذكر الأوز. وجلس السيد أمامه على الأرض، ونظر إليه دقيقة فى صمت ثم قال:

ـ يا إيفان إيفانيتش! ماذا جرى لك؟ هل نويت أن تموت؟ ـ وصاح وأمسك رأسه بيديه ـ آه، الآن تذكرت، تذكرت! عرفت السبب! هذا لأن الحصان اليوم داسك! يا إلهى، يا إلهى!

لم تفهم الخالة ما قاله سيدها، ولكنها رأت فى وجهه أنه يتوقع شيئًا رهيبًا. فمدت بوزها نحو النافذة المظلمة التى خيل إليها أن شخصًا غريبًا يطل منها، وأعولت.

وقال السيد وهو يشيح بيديه:

ـ إنه يحتضر يا خالة! نعم، نعم، يحتضر!

الموت جاء إلى غرفتكم، فما العمل؟

وعاد السيد الشاحب المنزعج إلى غرفة نومه وهو يتنهد ويهز رأسه. وأحست الخالة بالرعب من البقاء فى الظلام، فتبعته. وجلس على السرير وردد عدة مرات:

ـ يا إلهى، ما العمل؟

ودارت الخالة حول ساقيه وهى لا تفهم سر هذه الوحشة التى تحس بها، ولماذا يسيطر الانزعاج على الجميع، ولكى تفهم راحت تراقب كل حركة تصدر عنه. أما فيودور تيموفييتش، الذى كان نادرًا ما يغادر فرشته، فقد جاء هو الآخر إلى غرفة السيد، وأخذ يتمسح بقدميه. وراح ينفض رأسه، كأنما كان يريد أن ينفض منها الأفكار المزعجة، ويتطلع تحت السرير بارتياب.

وتناول السيد طبقًا صغيرًا وصب فيه ماء من صنبور المغسل، وذهب إلى ذكر الأوز مرة أخرى.

وقال برقة وهو يضع الطبق أمامه:

ـ اشرب يا إيفان إيفانيتش! اشرب يا عزيزى.

ولكن إيفان إيفانيتش لم يتحرك ولم يفتح عينيه. وأحنى السيد رأس ذكر الأوز إلى الطبق ووضع منقاره فى الماء ولكنه لم يشرب، بل بسط جناحيه أكثر، وبقى رأسه ممدًا فى الطبق.

فتنهد السيد قائلاً:

ـ كلا، لم يعد من الممكن عمل شىء! كل شىء انتهى. هلك إيفان إيفانيتش!

وانحدرت على خديه قطرات براقة كتلك التى تسيل على النوافذ أثناء المطر. والتصقت الخالة وفيودور تيموفييتش بسيدهما وهما لا يفهمان شيئًا، وتطلعا إلى ذكر الأوز برعب.

وقال السيد وهو يتنهد بأسى:

ـ مسكين يا إيفان إيفانيتش! كنت أحلم بأن آخذك فى الربيع إلى الدار الريفية وأتجول معك عل العشب الأخضر.

أيها الحيوان العزيز، يا رفيقى الطيب، لقد فقدتك! كيف سأعمل الآن بدونك؟

وخيل للخالة أنه سيحدث لها نفس الشىء، أى أنها هى أيضًا ستغمض عينيها هكذا، لسبب غير معروف، وتمد قوائمها، وتكشر عن أنيابها، وسوف ينظر إليها الجميع برعب.

ويبدو أن مثل هذه الأفكار جالت بخاطر فيودور تيموفييتش أيضًا. ولم

يسبق أن كان القط العجوز مكفهرًا وعبوسًا كما هو الآن..

وبدأ الفجر يلوح، ولم يعد موجودًا فى الغرفة ذلك الغريب الذى أرعب الخالة إلى تلك الدرجة. وعندما طلع الفجر تمامًا جاء البواب فرفع ذكر الأوز من ساقيه وحمله إلى مكان ما. وبعده بقليل جاءت العجوز فحملت الطست.

وذهبت الخالة إلى غرفة الجلوس وأطلت وراء الصوان:

لم يأكل السيد ورك الدجاجة، وكانت فى مكانها وسط الغبار وخيوط العنكبوت. ولكن الخالة كانت تشعر بالوحشة والحزن وبرغبة فى البكاء. ودخلت تحت الكنبة حتى دون أن تشم الورك، وأخذت تعول هناك بصوت خافت رفيع:

ـ عو عو، ..

الفصل السابع

بداية غير موفقة

ذات مساء دلف السيد إلى الغرفة ذات ورق الجدران القذر وقال وهو يفرك يديه:

ـ حسنًا..

كان يريد أن يقول شيئًا آخر ولكنه لم يقل وخرج. وخمنت الخالة، التى درست جيدًا وجهه ونبراته أثناء التدريبات، أنه منفعل ومهموم، بل على ما يبدو، غاضب. وعاد بعد قليل وقال:

ـ اليوم سآخذ معى الخالة وفيودور تيموفييتش. أنت يا خالة ستحلين اليوم محل المرحوم إيفان إيفانيتش فى الهرم المصرى. الشيطان يعلم ما هذا! لم نستعد أبدا، ولم نحفظ شيئًا، والتدريبات كانت قليلة! سننفضح ونفشل! ثم خرج مرة أخرى وعاد بعد دقيقة فى معطف الفراء والقبعة الأسطوانية. واقترب من القط فرفعه من ساقيه الأماميتين وخبأه فى صدره تحت المعطف، بينما بدا فيودور تيموفييتش غير مبال أبدا، وحتى لم يكلف نفسه عناء فتح عينيه. والظاهر أنه كان يستوى عنده تمامًا سواء رقد أو رفع من ساقيه، أو تمدد على الفرشة، أو استقر على صدر سيده تحت المعطف..

وقال السيد:

ـ يا خالة، هيا بنا.

وسارت الخالة خلفه وهى لا تفهم شيئًا وتهز ذيلها. وبعد دقيقة كانت جالسة فى الزحافة عند قدمى سيدها تصغى إلى دمدمته وهو ينكمش من البرد والقلق:

ـ سنفضح! سنفشل!

توقفت الزحافة أمام بيت كبير غريب، يشبه قصعة حساء مقلوبة. وكان المدخل الطويل لهذا المنزل، ذو الأبواب الزجاجية الثلاثة، مضاء بدستة مصابيح قوية. وكانت الأبواب تفتح برنين، وكالأشداق تبتلع الناس الذين كانوا يتزاحمون عند المدخل. كان الناس كثيرين جدًا، والخيول أيضًا كثيرًا ما كانت تفد راكضة إلى المدخل، ولكن لم يبد أثر للكلاب.

وحمل السيد الخالة على يديه ودسها فى صدره تحت المعطف حيث كان فيودور تيموفييتش. وكان المكان هنا مظلمًا خانقًا ولكنه دافئ. وللحظة توهجت شرارتان خضراوان كابيتان، إذ فتح القط عينيه وقد أزعجته أكف جارته الباردة الصلبة. ولعقت الخالة أذنه، وأرادت أن تتخذ وضعًا مريحًا فتحركت بقلق وداسته تحتها بأكفها الباردة، وأطلت برأسها عفوًا من فتحة المعطف، ولكنها زمجرت على الفور بغضب وغاصت تحت المعطف. وخيل إليها أنها رأت غرفة ضخمة، سيئة الإضاءة، مليئة بالكائنات الخرافية المخيفة. ومن وراء الحواجز والشباك التى امتدت على جانبى الغرفة أطلت سحن رهيبة:

سحن خيول، وسحن بقرون، وبآذان طويلة، وسحنة ضخمة سمينة بذيل فى مكان الأنف، وبعظمتين طويلتين معروقتين تبرزان من فمها.

وماء القط بصوت أبح تحت أكف الخالة، ولكن المعطف انفتح فى تلك اللحظة، وقال السيد «هوب!» فقفز فيودور تيموفييتش والخالة إلى الأرض. كانوا الآن فى غرفة صغيرة بجدران رمادية من ألواح الخشب. ولم يكن هنا، بخلاف طاولة صغيرة بمرآة ومقعد بلا ظهر، وخرق معلقة فى الأركان، أى

أثاث آخر، وبدلاً من المصباح أو الشمعة توهج نور ساطع على شكل مروحة كان موضوعًا فى أنبوب مدقوق فى الحائط. ولعق فيودور تيموفييتش فروته التى جعدتها الخالة، ومضى فرقد تحت المقعد. وبدأ السيد يخلع ملابسه وهو لايزال مضطربًا يفرك يديه.. خلع ملابسه كما يفعل عادة فى البيت عندما يستعد للنوم تحت البطانية الخفيفة، أى نزع عنه كل شىء عدا الملابس الداخلية، ثم جلس على المقعد، وراح يصنع بنفسه أشياء عجيبة وهو يتطلع إلى المرآة. قبل كل شىء وضع على رأسه باروكة بمفرق وقصتين تشبهان القرنين، ثم طلى وجهه بطبقة كثيفة من مادة بيضاء، ورسم فوق الطلاء الأبيض حاجبين وشوارب ووجنتين حمراوين. ولم تنته أفعاله عند هذا الحد. فبعد أن لوث وجهه وعنقه بدأ يرتدى حلة غير عادية لا يمكن مقارنتها بشىء، حلة لم ترها الخالة من قبل أبدا لا فى البيوت ولا فى الشوارع. تصوروا مثلاً سروالاً واسعًا للغاية محاكًا من قماش الشيت المنقوش بالأزهار، من ذلك النوع المستخدم فى بيوت صغار البرجوازيين للستائر وتنجيد الأثاث، سروالاً يزرر عند الأبطين تمامًا. وإحدى ساقى السروال محاكة من شيت بنى والأخرى من شيت أصفر فاقع. وغرق السيد فى هذا السروال، ثم ارتدى أيضًا سترة من الشيت بياقة كبيرة مسننة ونجمة ذهبية على الظهر، وجوربا مختلف الألوان وحذاء أخضر..

ومن كثرة الألوان زاغ بصر الخالة وقلبها. وانبعثت من هذا الجسد المترهل الأبيض الوجه رائحة السيد، وكان صوته أيضًا مألوفًا، صوت السيد، ولكن الشكوك كانت تعذب الخالة أحيانًا، وعندئذ كانت على استعداد لأن تهرب بعيدًا عن هذا الجسد المزركش وتنبح. فالمكان الجديد، والنور المروحى، والرائحة، والتحول الذى طرأ على السيد.. كل ذلك بعث فى نفسها خوفًا مبهمًا وإحساسًا بأنها سوف تقابل حتمًا شيئًا مرعبًا، مثل تلك السحنة السمينة ذات الذيل فى مكان الأنف. وعلاوة على ذلك فقد دوت الموسيقى الكريهة فى مكان ما بعيدًا خلف الجدار، وتناهى أحيانًا زئير غير مفهوم. شىء واحد فقط هدأ من روعها: برود فيودور تيموفييتش. فقد كان نائمًا فى هدوء تحت المقعد، ولم يفتح عينيه حتى عندما كانوا يزحزحون المقعد.

وأطل فى الغرفة شخص ما يرتدى حلة الفراك وصديريا أبيض وقال:

ـ الآن نمرة ميس أرابيللا، وأنتم بعدها.

فلم يرد السيد بشىء. وأخرج من تحت الطاولة حقيبة غير كبيرة، وجلس، وراح ينتظر. وكان واضحًا من شفتيه ويديه أنه منفعل، وسمعت الخالة تهدج أنفاسه.

وصاح أحد ما وراء الباب:

ـ مسيو جورج، تفضل!

ونهض السيد، ورسم علامة الصليب ثلاث مرات، ثم أخرج القط من تحت المقعد ودسه فى الحقيبة. وقال بصوت خافت:

ـ هيا يا خالة!

واقتربت الخالة من يديه وهى لا تفهم شيئًا، فقبلها فى رأسها ووضعها بجوار فيودور تيموفييتش. ثم حل الظلام.. وداست الخالة على القط، وخدشت جدران الحقيبة ولم تستطع من الرعب أن تتفوه بصوت، بينما كانت الحقيبة تتأرجح كأنها فوق موج وترتعش..

وصاح السيد بصوت عال:

ـ أنا هنا! أنا هنا!

وشعرت الخالة بعد هذه الصيحة بالحقيبة تصطدم بشىء صلب وتكف عن التأرجح. وتردد زئير عال غليظ، وربت أحدهم على شخص ما، فزأر هذا الشخص، الذى كان فى الغالب تلك السحنة ذات الذيل فى مكان الأنف، وقهقه بصوت عال حتى أن أقفال الحقيبة ارتعشت. ورد السيد على الزئير بضحك رفيع ثاقب، لم يضحك مثله أبدا فى البيت.

وصاح محاولاً أن يطغى على الزئير:

ـ ها! حضرة الجمهور المحترم! أنا وصلت حالاً من المحطة! جدتى ماتت فى داهية وتركت لى ميراثًا! فى الحقيبة شىء ثقيل.. يبدو أنه ذهب.. ها.. ها! ربما فيها مليون! سنفتحها الآن ونرى.. وفرقع قفل الحقيبة. وتسلط ضوء ساطع على عينى الخالة، فقفزت من الحقيبة وتراكضت حول سيدها بكل ما فى وسعها من سرعة، وقد أصمها الزئير، وانفجرت فى نباح رنان.

فصاح السيد:

ـ ها! خالى فيودور تيموفييتش! خالتى العزيزة!

أقربائى الأعزاء، فلتخطفكم الأبالسة!

وارتمى على بطنه فوق الرمل، وأمسك بالقط والخالة وراح يحضنهما. وبينما كان السيد يعصر الخالة فى أحضانه نظرت هى بطرف عينها إلى ذلك العالم الذى ألقاها فيه القدر، وأذهلتها ضخامته، فتسمرت لحظة من الدهشة والإعجاب، ثم أفلتت من أحضان سيدها، ودارت كالخذروف فى مكانها من قوة الانطباع. كان العالم الجديد كبيرًا ومليئًا بالأضواء الساطعة. وأينما نظرت بدت فى كل مكان، من الأرض حتى السقف، وجوه، ووجوه فقط، ولا شىء آخر.

وصاح السيد:

ـ يا خالة، اجلسى أرجوك.

ولما كانت الخالة تذكر ما معنى هذا فقد قفزت على الكرسى وجلست. ونظرت إلى سيدها. كانت نظرة عينيه جادة ورقيقة كالعادة، ولكن وجهه، وخاصة فمه وأسنانه، كانت تشوهها ابتسامة واسعة جامدة. أما هو نفسه فكان يقهقه ويقفز ويهز كتفيه، ويتظاهر بأنه مسرور للغاية فى حضرة آلاف الوجوه. وصدقت الخالة سروره، وفجأة أحست بكل كيانها أن آلاف الوجوه هذه تحدق فيها، فرفعت بوزها الثعلبى إلى أعلى وعوت بمرح.

فقال لها السيد:

ـ اجلسى أنت يا خالة أما أنا وخالى فسنرقص كمارينسكى[1].

كان فيودور تيموفييتش واقفًا وهو يتطلع حوله بلا اكتراث، فى انتظار اللحظة التى سيجبرونه فيها على القيام بأشياء حمقاء. ورقص بفتور، وباستهتار وعبوس، وبدا واضحًا من حركاته، ومن ذيله وشواربه، أنه يحتقر إلى حد بعيد هذا الجمهور، والضوء الساطع، وسيدة، ونفسه.. وبعد أن أدى دوره تثاءب وجلس.

وقال السيد:

ـ طيب يا خالة. فى البداية سنغنى معًا، وبعد ذلك سنرقص. حسنًا؟

وأخرج من جيبه مزمارًا وعزف عليه. وتململت الخالة، التى لم تكن تطيق الموسيقى، على الكرسى بقلق وعوت.

وتناهى الزئير والتصفيق من كل مكان. فانحنى السيد محييًا، وبعد أن سكن كل شىء استأنف العزف.. وأثناء عزفه نوتة عالية جدًا ندت عن أحد المتفرجين فى أعلى الصالة آهة عالية.

وصاح صوت طفولى:

ـ بابا! هذه كاشتانكا!

فأكد صوت «تينور» ثمل مرتعش:

ـ بالضبط كاشتانكا! كاشتانكا! يافيدوشكا فليعاقبنى الله إن لم تكن كاشتانكا! فويت!

وصفر أحد ما فى أعلى الصالة، وصاح صوتان عاليان، أحدهما طفولى والآخر لرجل:

كاشتانكا! كاشتانكا!

---

(١) رقصة شعبية روسية بطلها فلاح ثمل. (المعرب).

وانتفضت الخالة ونظرت إلى الموضع الذى تردد منه الصياح. كان هناك وجهان، أحدهما أشعر، ثمل، ضاحك باستهزاء، وآخر مكتنز أحمر الخدين ومذعور تسلطا على عينى الخالة كما تسلط الضوء الساطع من قبل.. فتذكرت، وسقطت من الكرسى وتقلبت على الرمل، ثم قفزت واقفة واندفعت نحو هذين الوجهين وهى تعوى بفرح. ودوى زئير يصم الآذان تخلله الصفير وصيحة طفل ثاقبة:

ـ كاشتانكا! كاشتانكا!

وقفزت الخالة عبر الحاجز، ثم فوق كتف ما، وأصبحت فى المقصورة. ولكى تبلغ الطابق التالى كان عليها أن تقفز من فوق جدار مرتفع. وقفزت الخالة ولكنها لم تصل فانزلقت عن الجدار إلى أسفل. ثم انتقلت بعد ذلك من يد إلى يد، وهى تلعق أيدى ورؤوس أشخاص ما، وتقدمت صاعدة أعلى فأعلى، حتى وصلت أخيرًا إلى أعلى الصالة..

بعد نصف ساعة كانت كاشتانكا تسير فى الشارع خلف شخصين تفوح منهما رائحة الصمغ وورنيش اللّك. وكان لوقا ألكسندريتش يترنح، ويحاول غريزيًا، وقد علمته الخبرة، أن يسير بعيدًا عن خندق الطريق.

ومضى يدمدم:

ـ فى رحم الذنوب السحيق أتمرغ.. أما أنت يا كاشتانكا فأمرك عجب. أنت، بالمقارنة مع الإنسان، مثلك مثل النجار بالمقارنة مع صانع الأثاث. وبجوارهما سار فيدوشكا مرتديًا عمرة أبيه. ونظرت كاشتانكا إلى ظهريهما وخيل إليها أنها تسير خلفهما منذ زمن بعيد وتشعر بالفرحة لأن حياتها لم تتوقف لحظة واحدة.

وتذكرت الغرفة ذات ورق الجدران القذر، وذكر الأوز، وفيودور تيموفييتش، والطعام اللذيذ، والتدريب، والسيرك، ولكن ذلك كله بدا لها الآن كحلم طويل مشوش مرهق..

القبلة

فى ٢٠ مايو، وفى الساعة الثامنة مساء توقفت جميع البطاريات الست من لواء «س» المدفعية الاحتياطى، التى كانت متجهة إلى المعسكر، للمبيت فى قرية ميستيتشكى.وفى أوار الهرج، عندما كان بعض الضباط يروحون ويجيئون قرب المدافع، بينما كان البعض الآخر، وقد تجمعوا فى الميدان قرب سور الكنيسة، يستمعون إلى تقارير مسئولى الإيواء، ظهر من وراء الكنيسة فارس فى زى مدنى وعلى متن حصان غريب. كان حصانًا كميتًا، صغيرًا، بعنق جميل وذيل قصير، ولم يكن يسير فى خط مستقيم، بل منحرف، ويأتى بحركات قصيرة راقصة بقوائمه، كأنما كان أحد ما يضربه بالسوط عليها. وعندما اقترب الفارس من الضباط رفع قبعته وقال:

ـ صاحب السعادة اللفتنانت جنرال فون.. رابيك، الإقطاعى المحلى، يدعو السادة الضباط للحضور إليه حالاً لتناول الشاى..

وانحنى الحصان، ورقص، وتراجع بجنبه إلى الخلف، ورفع الفارس قبعته مرة أخرى، وبعد لحظة كان قد اختفى مع حصانه الغريب وراء الكنيسة.

ودمدم بعض الضباط بتذمر وهم ينصرفون إلى مساكنهم:

ـ الشيطان يعلم ما هذا! نريد أن ننام، بينما يأتينا هذا الفون.. رابيك بشايه! ما الداعى؟ وأى شاى الآن!

وتذكر ضباط البطاريات الست.على الفور حادث العام الماضى، عندما

وجهت إليهم الدعوة أثناء المناورات، هم وضباط أحد ألوية القوزاق، بمثل هذه الطريقة، لتناول الشاى عند إقطاعى كونت، عسكرى سابق. واستقبلهم الكونت المضياف البشوش برقة، وأطعمهم وسقاهم، ولم يدعهم يذهبون إلى القرية للنوم بل استبقاهم للمبيت فى داره. وكان كل هذا بالطبع حسنًا، بل وليس هناك أفضل من ذلك، ولكن المصيبة أن فرحة العسكرى المتقاعد بالضباط الشبان فاقت كل الحدود. فظل حتى الفجر يروى للضباط مشاهد من ماضيه الطيب، وطاف بهم على الغرف وهو يعرض عليهم لوحاته الثمينة والرسوم القديمة والأسلحة النادرة، وقرأ لهم رسائل خطية من شخصيات كبيرة، أما الضباط المعذبون المنهكون فكانوا يستمعون إليه وينظرون إلى معروضاته وهم يتحرقون شوقًا إلى الأسرة، ويخفون بحذر تثاؤباتهم فى أكمامهم. وعندما أطلق المضيف سراحهم أخيرا لم يكن هناك وقت للنوم.

ترى أيكون هذا الفون.. رابيك مثله؟ وسواء كان مثله أم لم يكن، فليس ثمة حيلة. بدل الضباط ملابسهم، ورتبوا هندامهم، وانطلقوا جميعًا يبحثون عن دار الإقطاعى. وفى الميدان أمام الكنيسة قيل لهم إنه يمكن الذهاب إلى دار السادة من الأسفل.. أن يهبطوا من خلف الكنيسة إلى النهر ويسيروا على الشاطئ حتى يبلغوا بستان الدار، وهناك ستقودهم دروبها إلى حيث يريدون. أو أن يذهبوا من أعلى.. من الكنيسة مباشرة، على الطريق الذى يفضى بعد نصف فرسخ من القرية إلى مخازن السادة مباشرة. وقرر الضباط أن يتبعوا الطريق العلوى.

وتساءلوا أثناء الطريق:

ـ من هو فون.. رابيك هذا؟ أليس هو الذى كان يقود فرقة الخيالة (س) قرب بليفيا؟

ـ كلا، لم يكن فون.. رابيك، بل رابى، وبدون فون.

ـ ما أروع الطقس!

وتفرع الطريق عند أول مخزن من مخازن السادة، فاتجه فرع منه إلى الأمام مباشرة حيث اختفى فى ظلام المساء، بينما انعطف الفرع الثانى إلى اليمين نحو منزل السادة. ومضى الضباط يمينا وراحوا يتحدثون بصوت خافت.. وعلى جانبى الطريق امتدت مخازن حجرية بأسقف حمراء، وكانت جهمة ثقيلة، تشبه كثيرا ثكنات مدينة ريفية. وفى الأمام لاحت أضواء نوافذ بيت السادة.

وقال أحد الضباط:

ـ يا سادة هذا فأل حسن! إن كلب صيدنا يسير فى مقدمة الجميع، إذن فهو يشم رائحة فريسة!

سار الملازم لوبيتكو فى المقدمة، وكان طويلا وممتلئ الجسم، ولكنه بلا شوارب على الإطلاق (كان قد جاوز الخامسة والعشرين، ولكن لسبب ما لم ينبت فى وجهه المستدير الشبعان أى شعر) وكان مشهورا فى اللواء بحدسه وقدرته على التكهن بوجود نساء عن بعد. فاستدار قائلا:

ـ نعم، هنا ينبغى أن توجد نساء. إننى أدرك ذلك بغريزتى.

واستقبل الضباط عند عتبة الدار فون.. رابيك نفسه، وهو شيخ بهى، فى حوالى الستين، فى حلة مدنية. وقال وهو يصافح الضيوف إنه مسرور جدا وسعيد، ولكنه يرجو السادة الضباط بشدة ويستحلفهم بالله أن يعذروه على عدم دعوته لهم للمبيت.. فقد حضرت إليه شقيقتاه وأبناؤهما وإخوته وجيرانه، بحيث لم تبق لديه غرفة واحدة خالية.

صافح الجنرال أيدى الجميع وهو يرجو المعذرة ويبتسم، ولكن بدا على وجهه أنه لم يكن أبدا مسرورا إلى هذا الحد بهؤلاء الضيوف، مثلما كان ذلك الكونت فى العام الماضى، وأنه لم يدع إليه الضباط إلا لأن اللياقة، حسب رأيه، تقتضى ذلك. وأدرك الضباط أنفسهم، وهم يصعدون الدرج اللين ويصغون إلى الكونت أنهم لم يدعوا إلى هذا البيت إلا لأن عدم دعوتهم أمر محرج،

وعندما رأوا الخدم يسارعون إلى إشعال المصابيح عند المدخل فى الأسفل، وفى البهو فى الأعلى، خيل إليهم أنهم حملوا معهم إلى هذا البيت الإزعاج والقلق. فهل يمكن أن يكون وجود تسعة عشر ضابطًا غرباء أمرا محببا فى مكان اجتمع فيه، ربما لمناسبة عائلية أو لاحتفال ما، شقيقتان مع أبنائهما وأخوة وجيران؟

وفى الأعلى، عند مدخل القاعة، استقبلت الضيوف عجوز طويلة ممشوقة، ذات وجه طويل وحاجبين أسودين، شديدة الشبه بالإمبراطورة أوجين. قالت وهى تبتسم بترحاب ومهابة إنها مسرورة وسعيدة برؤية الضيوف فى بيتها، واعتذرت لعدم تمكنها هى وزوجها فى هذه المرة من دعوة السادة الضباط للمبيت. وبدا من ابتسامتها الجميلة المهيبة، التى كانت تختفى من وجهها على الفور كلما حولته عن الضيوف لأمر ما، أنها رأت فى حياتها الطويلة كثيرا من السادة الضباط، وأنها فى شغل عنهم الآن، وإذا كانت قد دعتهم إلى دارها ومضت تعتذر لهم، فإنما تفعل ذلك فقط لأن ترتيبها ووضعها فى المجتمع يقتضيان هذا.

وفى غرفة الطعام الكبيرة التى دلف إليها الضباط، جلس إلى أحد جانبى مائدة طويلة حوالى عشرة رجال ونساء. كبار وشبان، يشربون الشاى. ومن خلف مقاعدهم بدت مجموعة من الرجال تغلفهم سحب دخان السيجار الخفيفة. وفى وسطهم وقف شاب نحيل بسالفين صغيرين أحمرين يتحدث عن شىء ما بصوت عال وبالإنجليزية وهو يلثغ. ومن خلف المجموعة بدت من خلال الباب غرفة مضيئة بأثاث أزرق.

وقال الجنرال بصوت عال محاولا أن يبدو مرحا جدا:

ـ أيها السادة، إنكم من الكثرة بحيث يستحيل تقديمكم. فلتتعارفوا بأنفسكم يا سادة، دون كلفة!

وانحنى الضباط محيين كيفما كان، بعضهم بوجوه جادة للغاية، بل وحتى

صارمة، والبعض الآخر بابتسامات متكلفة، وهم يشعرون جميعا بالحرج الشديد، وجلسوا لتناول الشاى.

كان أكثر الجميع شعورا بالحرج النقيب ريابوفتش، وهو ضابط صغير الجسم، محنى القامة، يضع نظارة، وذو سوالف كسوالف الوشق. وبينما كان بعض زملائه يكسبون وجوههم ملامح الجد، والبعض الآخر يتكلف الابتسام، كان وجهه هو، وسوالفه الوشقية ونظارته، كأنما تقول: «أنا أكثر ضباط اللواء كله خجلا، وتواضعا، وأقلهم تميزا!». وفى اللحظات الأولى، عندما دخل غرفة الطعام، ثم بعد ذلك، وهو جالس يتناول الشاى، لم يستطع أبدا أن يركز انتباهه على وجه واحد أو شىء واحد. فقد امتزجت الوجوه والملابس وأباريق الكونياك المضلعة، والبخار المتصاعد من أكواب الشاى، والسلال الخزفية، امتزج ذلك كله فى انطباع واحد هائل ألقى فى قلب ريابوفتش بالجزع والرغبة فى إخفاء رأسه. وكالممثل الذى يواجه الجمهور لأول مرة، كان يرى كل شىء أمام عينيه، إلا أن ما رآه كان عسير الفهم (تسمى هذه الحالة لدى الفسيولوجيين بـ«العمى السيكولوجى» وذلك عندما يرى الشخص ولا يفهم ما يراه). ولكن بعد مضى بعض الوقت تأقلم ريابوفتش فعاد إليه بصره وراح يراقب. وكان أول ما أثار انتباهه، كشخص خجول منطو ذلك الشىء الذى كان يفتقده دائما، أى تلك الجرأة الفائقة للمعارف الجدد. إذ أن فون.. رابيك، وزوجته، والسيدتين الكبيرتين، وتلك الفتاة ذات الثوب البنفسجى، والشاب ذا السوالف الحمراء، والذى اتضح أنه الابن الأصغر لرابيك، قد توزعوا بين الضباط ببراعة شديدة وكأنما تدربوا على ذلك من قبل، وعلى الفور أثاروا نقاشا حاميا لم يكن بوسع الضيوف إلا أن يشاركوا فيه. وراحت الفتاة البنفسجية تؤكد بحرارة أن حياة رجال المدفعية أسهل بكثير من حياة الخيالة أو المشاة، أما رابيك والسيدتان الكبيرتان فكانوا يؤكدون العكس. وبدأ حديث متقاطع. ونظر ريابوفتش إلى الفتاة البنفسجية التى كانت تجادل بحرارة فى أمر غريب عنها وغير مثير لاهتمامها أبدا، وراقب كيف كانت الابتسامات غير الصادقة تظهر على وجهها ثم تختفى.

وجذب فون.. رابيك وأسرته الضباط إلى الجدال بمهارة، بينما مضوا فى نفس الوقت يراقبون بيقظة أكواب الضباط وأفواههم، وهل يشربون جميعا، وهل شايهم حلو، ولماذا لا يتناول الضابط الفلانى البسكويت أو لا يشرب الكونياك. وكلما أطال ريابوفتش النظر وأصاخ السمع ازداد إعجابه بهذه الأسرة التى وإن كانت غير صادقة المشاعر إلا أنها رائعة الانضباط.

وبعد الفراغ من تناول الشاى اتجه الضباط إلى الصالة. ولم يخب حدس الملازم لوبيتكو.. فقد كان فى الصالة كثير من السيدات والنساء الشابات. وكان الملازم ـ كلب الصيد ـ واقفًا بالفعل بجوار شقراء شابة جدًا ترتدى فستانًا أسود، وقد انحنى بجسارة كأنما كان يعتمد على سيف غير مرئى، وهو يبتسم ويلعب كتفيه بدلال. كان فى الغالب يقول هراء ما طريفًا للغاية، لأن الشقراء كانت تنظر بتسامح إلى وجهه الشبعان وتتساءل بلا اكتراث: «حقا؟». ولو كان كلب الصيد ذكيًا لما توقع من هذه الـ «حقا» اللامبالية أن يقولوا له: «خذها!».

ودوت أنغام المعزف. وانطلق فالس حزين من الصالة عبر النوافذ المفتوحة، ولسبب ما تذكر الجميع أن الربيع الآن وراء النوافذ، وأن الليلة أمسية من شهر مايو. وأحس الجميع فى الجو برائحة أوراق الحور الشابة والورود والبنفسج. أما ريابوفتش الذى أفصح فيه الكونياك المشروب عن نفسه تحت تأثير الموسيقى، فقد حول بصره إلى النافذة وابتسم، ثم راح يتابع حركات النساء، وبدا له الآن أن رائحة الورود والحور والبنفسج لا تنبعث من البستان بل من وجوه النساء وفساتينهن.

ودعا ابن رابيك فتاة ما نحيلة إلى الرقص ودار معها دورتين. أما لوبيتكو فقد هرول، وهو ينزلق على الباركيه، إلى الفتاة البنفسجية وحلق معها فى الصالة. وبدأ الرقص..

ووقف ريابوفتش بجوار الباب وسط جمهور غير الراقصين وأخذ يراقب. لم يرقص فى حياته كلها مرة واحدة، ولم يتسن له فى حياته كلها أن يحتضن خصر سيدة محترمة. كان يعجبه جدًا أن يمسك الشخص بخصر فتاة لا يعرفها

على مرأى من الجميع ويقدم لها كتفه لتضع عليها يدها، إلا أنه لم يستطع أبدا أن يتصور نفسه فى مكان هذا الشخص. وفى وقت ما كان يحسد شجاعة زملائه وشطارتهم ويحز ذلك فى نفسه.

وكان إدراكه بأنه خجول، محنى القامة وباهت، وأنه طويل الخصر ووشقى السوالف يترك فى نفسه إحساسًا عميقًا بالمهانة، ولكن بمضى الزمن أصبح هذا الإحساس مألوفًا، ولم يعد الآن، وهو ينظر إلى الراقصين أو المتحدثين بصوت عال، يشعر بالحسد، بل بإعجاب حزين.

وعندما بدأت رقصة الكادريل اقترب ابن فون.. رابيك الشاب من غير الراقصين ودعا اثنين من الضباط إلى لعب البلياردو. ووافق الضابطان وخرجا معه من الصالة. ولما لم يكن لدى ريابوفتش ما يفعله، وبدافع الرغبة فى المشاركة بأى شيء فى الحركة العامة، فقد مضى فى أثرهم. خرجوا من الصالة إلى غرفة الاستقبال، ثم إلى ممر زجاجى ضيق، ومنها دلفوا إلى غرفة، حيث قفز لدى ظهورهم ثلاثة من الخدم الناعسين من على الكنبة بسرعة. وأخيرًا، وبعد عبور عدد كبير من الغرف، دخل رابيك الشاب والضباط غرفة غير كبيرة، امتدت فيها طاولة البلياردو. وبدأ اللعب.

وقف ريابوفتش، الذى لم يمارس فى حياته أية لعبة سوى الورق، بجوار الطاولة وراح ينظر بلا اكتراث إلى اللاعبين، أما هم فكانوا يدورون، بسترات مفكوكة الأزرار وبالعصى فى أيديهم، وهم يتبادلون القفشات ويصيحون بكلمات غير مفهومة. لم يلحظه أحد من اللاعبين، وأحيانًا فقط، عندما كان أحدهم يضربه بكوعه أو تشتبك عصاه به عفوا، يستدير إليه ويقول « pardon». وقبل أن ينتهى الدور الأول كان قد أحس بالملل، وبدأ يتخيل أنه زائد على الحاجة ويعوقهم.. وراودته رغبة فى العودة إلى الصالة فخرج.

وفى طريق العودة تعرض لمغامرة صغيرة. فقد انتبه فى وسط الطريق إلى أنه يسير إلى غير الجهة التى يقصدها. فقد كان يذكر جيدًا أنه ينبغى أن يقابل

فى الطريق ثلاثة خدم ناعسين، ولكنه عبر خمس أو ست غرف، ولم يقابل الخدم وكأنما انشقت الأرض وابتلعتهم. وعندما أدرك خطأه عاد قليلاً إلى الوراء وانعطف يمينًا، فوجد نفسه فى غرفة مكتب شبه مظلمة لم يمر بها فى طريقه إلى غرفة البلياردو. وقف هنا حوالى نصف دقيقة، ثم فتح بحزم أول باب وقع عليه بصره، وولج غرفة مظلمة تمامًا. وفى مواجهته مباشرة ظهر فرج باب كان يتسرب منه ضوء ساطع. ومن خلف الباب تناهت نغمات مكتومة لرقصة مازوركا حزينة. وهنا، كما فى الصالة، كانت جميع النوافذ مفتوحة على مصاريعها، وانتشرت رائحة الحور والبنفسج والورود..

توقف ريابوفتش مترددًا.. وفى تلك اللحظة فوجئ بخطوات عجلى وحفيف ثوب، وهمس صوت نسائى مختنق:

«أخيرًا!» وطوقت عنقه ذراعان ناعمتان عطرتان، لا شك أنهما نسائيتان. والتصق خد دافئ بخده، وفى نفس اللحظة تردد صوت قبلة. وعلى الفور ندت عن صاحبة القبلة صرخة ضعيفة، وارتدت عنه، بتقزز، كما خيل لريابوفتش. وكاد هو أيضًا أن يصرخ، واندفع نحو فرج الباب المضيء.. عندما عاد إلى الصالة كان قلبه يخفق ويداه ترتعشان بصورة ملحوظة حتى أنه سارع بإخفائهما وراء ظهره. وفى البداية عذبه الخجل والخوف من أن كل من فى الصالة يعرفون أن امرأة قد عانقته وقبلته الآن، فانكمش وأخذ يتلفت حوله بقلق، وعندما تأكد أنهم يرقصون ويثرثرون بهدوء فى الصالة كما فى السابق، استسلم تمامًا لهذا الإحساس الجديد الذى لم يمر به فى حياته أبدا. كان شىء غريب يحدث له.. وبدا له أن عنقه الذى طوقته منذ لحظات ذراعان ناعمتان عطرتان قد تلوث بالزيت. وعلى خده، بجوار شاربه الأيسر حيث قبلته تلك المجهولة، سرت برودة راعشة خفيفة كبرودة قطرات النعناع، وكلما أمعن فى حك هذا الموضع ازداد الإحساس بالبرودة، أما هو فكان مفعمًا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بهذا الشعور الجديد الغريب الذى كان يتنامى أكثر فأكثر.. وأحس برغبة فى الرقص والحديث والانطلاق إلى البستان، والضحك بصوت عال.. ونسى

تمامًا أنه محنى القامة، باهت، وأن سوالفه وشقية و «هيئته غير محددة» (كما وصفته إحدى النساء فى حديث سمعه عرضًا). وعندما مرت بجواره زوجة فون.. رابيك ابتسم لها ابتسامة عريضة رقيقة حتى إنها توقفت ونظرت إليه مستفهمة.

فقال وهو يسوى نظارته:

ـ بيتكم يعجبنى جدًا!..

ابتسمت زوجة الجنرال وأخبرته أن هذا البيت كان فى زمانه ملكا لأبيها، ثم سألته هل والداه على قيد الحياة، ومنذ متى وهو فى الخدمة، ولماذا هو نحيل هكذا وغير ذلك من الأسئلة.. وبعد أن تلقت الإجابة على أسئلتها استأنفت سيرها، أما هو، فبعد حديثه معها، أصبح يبتسم بصورة أرق ويفكر فى أنه محاط بأناس رائعين..

وعلى العشاء كان ريابوفتش يأكل آليًا كل ما يقدم له ويشرب، ودون أن يصغى إلى شىء، مضى يحاول أن يفسر لنفسه تلك المغامرة القريبة.. كان لهذه المغامرة طابع غامض ورومانسى، إلا أن تفسيرها كان أمرًا سهلاً. ربما ضربت إحدى الفتيات أو السيدات موعدًا لشخص ما فى تلك الغرفة المظلمة، وانتظرته طويلاً، ولما كانت مستثارة الأعصاب فقد ظنت ريابوفتش بطلها المنشود. ويبدو ذلك أقرب احتمال، خاصة وأن ريابوفتش، عندما مر عبر الغرفة المظلمة، توقف مترددًا، أى أنه كان يبدو كشخص ينتظر أيضًا شيئًا ما.. وهكذا فسر ريابوفتش لنفسه سبب القبلة التى تلقاها.

وفكر وهو يطوف بوجوه النساء: «ولكن من هى؟ ينبغى أن تكون شابة، لأن العجائز لا يذهبن إلى المواعيد الغرامية. ثم إنها مهذبة، فقد ظهر ذلك من حفيف ثوبها، ورائحة عطرها، وصوتها..»

وتوقفت نظراته على الفتاة البنفسجية فأعجبته للغاية. كانت كتفاها وذراعاها

جميلة، ووجهها ذكيًا، وصوتها رائعًا. وشعر ريابوفتش، وهو يتطلع إليها، برغبة فى أن تكون هى بالذات، وليس غيرها، تلك المجهولة.. ولكنها ضحكت ضحكة ما غير صادقة، وقطبت أنفها الطويل الذى بدا له كأنف العجائز. عندئذ حول بصره إلى الشقراء ذات الفستان الأسود.

كانت أكثر شبابًا وبساطة وصدقًا، وكان صدغاها ساحرين، وكانت ترشف الكأس بطريقة جميلة جدًا. وأراد ريابوفتش الآن أن تكون هى تلك المرأة. ولكنه سرعان ما وجد أن وجهها مسطح، فحول بصره إلى جارتها..

وفكر وهو يحلم: «من الصعب أن تخمن. لو أخذنا من البنفسجية كتفيها وذراعيها فقط، وأضفنا إليها صدغى الشقراء، وأخذنا العينين من تلك التى تجلس إلى يسار لوبيتكو، فإن..»

وجمع ذلك فى ذهنه فظهرت لديه صورة الفتاة التى قبلته، تلك الصورة التى أرادها ولكنه لم يستطع أبدا أن يجدها على المائدة..

وبعد العشاء مضى الضيوف وقد شبعوا وانتشوا يودعون ويشكرون. وعاد أصحاب الدار يعتذرون ثانية عن عدم استطاعتهم استبقاءهم للمبيت.

ـ مسرور، مسرور جدًا يا سادة! ـ قال الجنرال بصدق فى هذه المرة (ربما لأن الناس عندما يودعون الضيوف يكونون أكثر صدقًا وطيبة مما عند استقبالهم) ـ سعيد جدًا! شرفونا بالزيارة فى طريق العودة! بلا كلفة! إلى أين؟ تريدون العودة من أعلى؟ كلا، اذهبوا عبر البستان، فى الأسفل، فهناك أقرب.

خرج الضباط إلى البستان. وبعد الضوء الساطع والصخب بدا لهم البستان مظلمًا وهادئًا للغاية. وساروا إلى باب السور فى صمت. كانوا شبه سكارى، مرحين، راضين، ولكن الظلام والسكون جعلاهم يخلدون لحظة إلى التفكير. وتبادرت إلى ذهن كل منهم، كما إلى ذهن ريابوفتش، فى الغالب نفس الفكرة: ترى هل سيأتى ذلك اليوم الذى سيكون لديهم، كما لدى رابيك، منزل كبير، وأسرة، وبستان، ويصبح لديهم أيضًا إمكانية ملاطفة الضيوف،

ولو عن غير صدق، وجعلهم شباعا، سكارى، راضين؟ وعندما خرجوا من باب السور تحدثوا جميعًا على الفور، وراحوا يضحكون بصوت عال دونما سبب. كانوا الآن يسيرون على الدرب الذى ينحدر إلى النهر ثم يمتد بجوار المياه مباشرة ملتفًا حول دغل الشاطئ والخلجان الصغيرة وأشجار الصفصاف ذات الأغصان المهدلة فوق الماء. كان الشاطئ والدرب لا يكادان يلوحان، أما الشاطئ الآخر فغرق كله فى الظلمة. وفى بعض الأماكن انعكست النجوم على سطح المياه المظلمة. كانت ترتعش وتتلاشى، ومن هذا وحده كان يمكن التخمين بأن النهر يتدفق بسرعة. وكان الهدوء يشمل المكان. وعلى الشاطئ الآخر أنّت طيور البكاسين الناعسة، أما على هذا الشاطئ فقد صدح بلبل بصوت عال فى إحدى الخمائل غير عابئ بجمهرة الضباط. وتوقف الضباط بجوار الخميلة، وتحسسوها، بينما ظل البلبل يصدح.

وسمعت صيحات استحسان:

ـ هل رأيتم؟ نحن نقف بجواره وهو لا يعيرنا انتباهًا! يا له من شيطان!

فى نهاية المشوار صعد الدرب إلى أعلى والتقى بالطريق قرب سور الكنيسة. وهنا جلس الضباط وقد أرهقهم الصعود، ودخنوا. وعل الشاطئ الآخر لاح ضوء أحمر كاب، ولما لم يكن لديهم ما يفعلونه أخذوا يخمنون هل هى شعلة نار، أم ضوء فى نافذة، أم شىء آخر.. وتطلع ريابوفتش أيضًا إلى الضوء، وخيل إليه أنه يبتسم له ويغمز بطريقة خاصة وكأنما يعرف أمر القبلة.

وعندما عاد ريابوفيتش إلى مسكنه نزع ملابسه بسرعة وأوى إلى الفراش. وفى نفس المنزل نزل معه لوبيتكو والملازم ميرزلياكوف، وهو فتى هادئ، صموت، يعتبر فى محيطه ضابطًا مثقفًا، يقرأ دائمًا فى كل مكان يمكن فيه القراءة مجلة «بشير أوروبا» التى كان يحملها معه أينما ذهب. ونزع لوبيتكو ملابسه وأخذ يروح ويجىء فى الغرفة طويلاً، وبدا كشخص غير راض، ثم أرسل جندى المراسلة ليحضر بيرة. وأوى ميرزلياكوف إلى الفراش، ووضع بجوار رأسه شمعة، وانهمك فى قراءة «بشير أوروبا».

«ترى من هى؟» ـ فكر ريابوفتش وهو ينظر إلى السقف المسود من الدخان.

كان لا يزال يخيل إليه أن عنقه ملوث بالزيت، وبجوار فمه أحس بالبرودة الخفيفة كبرودة قطرات النعناع. وومضت فى خياله كتفا الفتاة البنفسجية وذراعاها، وصدغا الشقراء ذات الفستان الأسود وعيناها الصادقتان، والخصور والفساتين والبروشات. وحاول أن يركز انتباهه فى هذه الصور، إلا أنها كانت تقفز وتتلاشى وتومض. وعندما كانت هذه الصور تختفى تمامًا على الخلفية السوداء العريضة التى يراها كل من يغمض عينيه، يسمع خطوات عجلى، وحفيف فستان وصوت قبلة، فتتملكه فرحة قوية لا سبب لها.. وسمع وهو مستسلم لهذه الفرحة كيف عاد جندى المراسلة وأبلغ أنه لا توجد بيرة. واستشاط لوبيتكو غضبًا وعاد يروح ويجىء. وقال وهو يتوقف تارة أمام ريابوفتش وتارة أمام ميرزلياكوف:

ـ ما رأيكم فى هذا الأبله؟ أى أحمق وغبى ينبغى أن يكون حتى لا يجد بيرة! هه؟ أليس محتالاً؟

فقال ميرزلياكوف دون أن يرفع عينيه عن «بشير أوروبا»:

ـ بالطبع لا يمكن أن تجد بيرة هنا.

فألح عليه لوبيتكو:

ـ نعم؟ أهكذا تظن؟ يا إلهى، يا ربى، لو ألقيت بى إلى القمر فسأجد لك على الفور بيرة ونساء! حسنًا، سأذهب الآن وأجد.. فلتعتبرنى نذلاً إن لم أجد!

واستغرق وقتًا طويلاً فى ارتداء ملابسه وشد حذائه الطويل الكبير، ثم دخن سيجارة فى صمت ومضى.

ودمدم وهو يتوقف فى المدخل:

ـ رابيك، جرابيك، لابيك. يا للشيطان، لا أشعر برغبة فى الذهاب بمفردى. يا ريابوفتش، ألا تريد أن تتريض قليلاً؟ هه؟

وعندما لم يسمع ردًا عاد، ونزع ملابسه ببطء، وأوى إلى الفراش. وتنهد ميرزلياكوف، ووضع «بشير أوروبا» جانبًا، وأطفأ الشمعة.

ودمدم لوبيتكو وهو يشعل سيجارة فى الظلام:

ـ نعم..

وتغطى ريابوفتش إلى ما فوق رأسه، وانطوى على نفسه كالكعكة وراح يجمع فى خياله الصور الوامضة ويركب منها صورة متكاملة. إلا أنه لم يوفق إلى شىء. وسرعان ما نام، وكانت آخر فكرة طافت بذهنه أن شخصًا ما قد لاطفه وأبهجه، وأن شيئًا ما قد وقع فى حياته، شيئًا أحمق ولكنه حسن وبهيج إلى أقصى حد. ولم تفارقه هذه الفكرة حتى فى المنام.

عندما استيقظ لم يعد يشعر بالزيت على عنقه وبالبرودة النعناعية قرب شفتيه، ولكن الفرحة، مثلما بالأمس، كانت تغمر قلبه كالموجة. وتطلع بإعجاب إلى أطر النوافذ التى ذهّبتها الشمس البازغة، وأصاخ السمع إلى الحركة الدائرة فى الخارج. كان هناك من يتحدث بصوت عال تحت النوافذ مباشرة.

كان قائد بطارية ريابوفتش، ويدعى ليبيديتسكى، الذى لحق بالبطارية لتوه، يتحدث مع رقيبه بصوت عال جدًا لعدم تعوده على الحديث بصوت خافت.

صاح القائد:

ـ وماذا أيضًا؟

ـ عند تغيير الحدوات بالأمس يا صاحب المعالى ركبنا حدوات لـ «عزيز». ووضع الحكيم له طينًا وخلاً. والآن يسحبونه من اللجام بدون حمولة. وبالأمس

أيضًا يا صاحب المعالى شرب الأسطى أرتيمييف حتى السكر، وأمر الملازم بأن نحمله على مقدمة عربة المدفع الاحتياطية.

وأبلغ الرقيب أيضًا أن كاربوف نسى خيوط الأبواق الجديدة وأوتاد الخيام، وأن السادة الضباط كانوا مساء الأمس فى ضيافة الجنرال فون.. رابيك. وخلال الحديث ظهر فى النافذة رأس ليبيديتسكى بلحيته الحمراء. وزر عينيه القصيرتى النظر وهو ينظر إلى الضباط الناعسين وحياهم. ثم سأل:

ـ كل شىء على ما يرام؟

فأجاب لوبيتكو متثائبًا:

ـ فرس السرج الرئيسية جرحت عنقها.. بالنير الجديد.

فتنهد القائد، وفكر قليلاً، ثم قال بصوت عال:

ـ إننى أفكر فى الذهاب إلى ألكساندرا يفجرافوفنا. ينبغى أن أزورها. حسنًا، وداعًا. سألحق بكم فى المساء.

وبعد ربع ساعة تحرك اللواء. وعندما مر فى الطريق بجوار مخازن السادة، نظر ريابوفتش يمينًا إلى البيت. كانت حصر النوافذ مسدلة. يبدو أن أهل البيت ما زالوا نائمين.

وتلك التى قبّلت ريابوفتش بالأمس كانت أيضًا نائمة. وأراد أن يتصورها نائمة. النافذة المفتوحة على مصراعيها فى غرفة النوم، والغصون الخضراء المطلة فى هذه النافذة، وبرودة الصباح المنعشة، وأريج الحور والبنفسج والورود، والسرير، والكرسى وعليه الفستان الذى هفهف بالأمس، والحذاء والساعة على الطاولة.. كل ذلك تخيله بوضوح ودقة، أما ملامح الوجه، والابتسامة الناعسة الرقيقة، أى بالضبط ما كان مهما ومميزًا، فقد انزلق من خيـاله كما ينزلق الزئبق تحت الأصابع. وبعد أن قطعوا نصف فرسخ نظر إلى الوراء: كانت الكنيسة الصفراء، والبيت، والنهر، والبستان مغمورة بالنور.

وكان النهر جميلاً للغاية بشواطئه الخضراء اليانعة وانعكـاس السمـاء الزرقـاء فيه وتموجه الفضى تحت أشعـة الشمـس فى بعـض المواضـع. وتطلـع ريابوفتـش لآخر مرة إلى ميستيتشكى وداهمه الحزن، كأنما كان يفارق شيئًا قريبًا حبيبًا.

وعلى الطريق لم يكن أمام بصره سوى الصور المألوفة من زمان وغير الشيقة.. فعن اليمين وعن اليسار حقول الجودار الفتى والحنطة السـوداء بالغربان القافزة فيها. فإذا نظرت أمامك رأيت الغبار ومؤخـرات الرؤوس، وإذا نظرت إلى الخلف ترى نفس الغبار والوجوه.. وفى مقدمة الجميع يسير أربعة أشخاص بسيوف.. إنهم الطليعة. ومن خلفهـم جمـع المنشـدين، ومن خلف المنشدين نافخو الأبواق على متن الخيول. وكانت الطليعة والمنشدون، مثل حاملى المشاعل فى مواكـب الجـنائـز، ينسـون بين الحيـن والحيـن المسـافة المنصوص عليها فى اللوائح، فيبتعدون كثيرًا إلى الأمام.. وكان ريابوفتش بجوار المدفع الأول فى البطارية الخامسة. ولذلك فهو يرى كل البطاريات الأربع السائرة أمامه. وبالنسبة لشخص غير عسكرى يبدو هذا الطابور الطويل الثقيل الذى يمثله لواء مدفعية متحرك، خليـطًا معقـدًا وصعب الفهـم. فليـس مفهومًا لماذا يتجمهر هذا العدد من الأشخاص حول مدفع واحد، ولماذا يجره كل هذا العدد من الخيول الملفوفة بعدة غريبة، وكأنما هذا المدفع بالفعل رهيب وثقيل إلى هذه الدرجة. أما بالنسبة لريابوفتش فكل شىء مفهوم، ولهذا فهو غير طريف على الإطلاق. إنه يعرف منذ زمن بعيد لماذا يسير فى مقدمة كل بطارية، بجوار الضابط، صف ضابط رزين ولماذا يسمى «الشداد». ومن خلف ظهر هذا الصف ضابط يبدو ساسة خيول الشدة الأولى والوسطى. ويعرف ريابوفتش أن الخيول اليسرى، والتى يركبونها تسمى السروجية، أما الخيول اليمنى فتسمى المقودة، وهذا غير طريف أبدا. ومن وراء السائس تأتى الفرسان الرئيسيتان.

ويمتطى السائس صهوة أحديهما وعلى ظهره غبار الأمس، وعلى ساقة

اليمنى خشبــة خرقاء مضحكة جدًا. ويعرف ريابوفتش الغـرض من هذه الخشبــة، ولا تبدو له مضحكة. وجميع الساسة، عن بكرة أبيهم، يلوحون بالسياط بطريقة آلية وأحيانًا يصيحون. أما المدفع فيبدو قبيحًا. فعلى مقدمة عربته تتكوم أجولة الشعير المغطاة بالمشمع، بينما تتدلى منه غلايات الشاى وأكياس الجنود والصرر الصغيرة، ويبدو كحيوان صغير أليف لا يعرف لأى غرض أحاط به الناس والخيول. وعلى جانبى المدفع يسير ستة من أفراد الطاقم وهم يهزون أذرعتهم. وبعد المدفع يظهر ثانية «شدادون»جدد، وساسة، وخيول رئيسية، ثم يتبعهم مدفع آخر، أيضًا قبيح وغير مهيب كالمدفع الأول. وبعد المدفع الثانى يأتى الثالث، والرابع، وبجوار الرابع ضابط، وهكذا دواليك ويضم اللواء ست بطاريات، فى كل بطارية أربعة مدافع. ويمتد الطابور نصف فرسخ. وينتهى بالحملة، التى تسير بجوارها سحنة لطيفة إلى أقصى حد، وقد طأطأت رأسها مستغرقة.. إنه الحمار «مجار»، الذى أتى به أحد قادة البطاريات من تركيا.

تطلع ريابوفتش بلا اكتراث إلى الأمام وإلى الخلف، إلى مؤخرات الرؤوس وإلى الوجوه. ولو كان فى حال أخـرى لاستسلم للنعاس، ولكنـه الآن غارق فى أفكاره الجديدة السارة. ففى البداية، عندما بدأ اللواء تحركه، أراد أن يقنع نفسه بأن حادث القبلة لا يمكن أن يكون طريفًا إلا باعتباره مغامرة صغيرة غامضة، وأنه فى الواقع حادث تافه، ومن الغباء، على أقل تقدير، التفكير فيه جديًا. إلا أنه سرعان ما ترك عنه المنطق واستسلم للأحلام.. فتارة يتخيل نفسه فى غرفة الجلوس فى دار رابيك، جالسًا بجوار فتاة تشبه الفتاة البنفسجية والشقراء ذات الفستان الأسود، وتارة يغمض عينيه فيرى نفسه مع أخرى، غير معروفة له أبدا، بملامح غير محددة إطلاقًا. وكان يتحدث فى سرة، ويلاطف، ويميل إلى الكتف، ويتخيل الحرب والفراق، ثم اللقاء والعشاء مع الزوجة، والأولاد..

ـ إلى الاستندات[1] ! ـ كانت هذه الصيحة تتردد كلما انحدر الطريق إلى أسفل.

فكان هو أيضًا يصيح «إلى الاستندات!» ويخشى أن تقطع هذه الصيحة عليه أحلامه وتعيده إلى الواقع..

وعندما مروا بجوار ضيعة أحد الإقطاعيين تطلع ريابوفتش عبر الحديقة الصغيرة إلى البستان. ووقعت عيناه على ممر طويل مستقيم كالمسطرة، مفروش بالرمل الأصفر وقد غرست على جانبيه أشجار بتولا فتية.. وبنهم شخص أوغل فى الأحلام تخيل ساقين نسائيتين تخطوان على الرمل الأصفر، ودون أن يتوقع تمامًا ارتسمت فى خياله بوضوح تلك التى قبلته، والتى استطاع أن يتصورها بالأمس أثناء العشاء. وتوقفت هذه الصورة فى ذهنه ولم تبرحه.

وفى منتصف النهار، ترددت صيحة فى المؤخرة، قرب الحملة:

ـ انتباه! إلى الشمال انظر! السادة الضباط!

وفى عربة يجرها زوج من الخيول البيضاء، مر الجنرال قائد اللواء. وتوقف بجوار البطارية الثانية، وصاح بشىء لم يفهمه أحد. وهرول إليه عدة ضباط، ومن بينهم ريابوفتش.

وسأل الجنرال وهو يطرف بعينين حمراوين:

ـ هه، كيف الحال؟ ماذا؟ هل هناك مرضى؟ وبعد أن سمع هذا الجنرال الصغير الرفيع الرد على الأسئلة، مضغ قليلاً، وفكر، ثم قال مخاطبًا أحد الضباط:

ـ سائس الشدة الرئيسية فى المدفع الثالث لديك خلع وقاء الركبة وعلقه، هذا الوغد، على عربة المدفع. وقع عليه جزاء.

---

(١) استندة العربة هى العمود الأفقى المتحرك الذى تشد إليه العربة. (المعرب).

ورفع عينيه إلى ريابوفتش واستطرد:

ـ أما أنت، على ما أظن، فسيور الصدر عندك طويلة..

وبعد أن أبدى الجنرال بعض الملاحظات الأخرى المملة، تطلع إلى لوبيتكو وضحك ضحكة قصيرة.

وقال:

أما أنت يا ملازم لوبيتكو فمنظرك اليوم حزين جدًا.

هل أوحشتك لوبوخوفا؟ هه؟ يا سادة، لقد أوحشته لوبوخوفا!

كانت لوبوخوفا سيدة بدينة، طويلة جدًا، قد تجاوزت الأربعين منذ زمن بعيد. ولما كان الجنرال مولعا بالسيدات ذوات الأجساد الضخمة، مهما كان عمرهن، فقد كان يتوهم فى ضباطه أيضًا هذا الولع. وابتسم الضباط باحترام. وقهقه الجنرال بصوت عال وقد أرضاه أنه قال شيئًا مضحكًا جدًا ولاذعا، ثم لمس ظهر الحوذى ورفع يده بالتحية.

واستأنفت العربة سيرها..

وفكر ريابوفتش وهو ينظر إلى سحب الغبار الراكضة خلف عربة الجنرال: «إن كل ما أحلم به الآن، وما يبدو مستحيلاً وسماويًا، هو فى الواقع عادى جدًا. كل هذا عادى جدًا والجميع يخبرونه.. مثلاً هذا الجنرال.. قد أحب فى زمانه، وهو الآن متزوج ولديه أولاد. والنقيب فاختير متزوج أيضًا ومحبوب، رغم أن قفاه قبيح جدا وأحمر، وليس لديه خصر.. وسلمانوف فظ وتترى جدًا، ولكنه عاش أيضًا قصة غرام انتهت بالزواج.. وأنا مثلى مثل الآخرين، وسأخبر عاجلا أم آجلا ما خبروه..».

وأسعدته ورفعت من معنوياته فكرة أنه شخص عادى وأن حياته عادية. ومضى بجرأة، وكيفما شاء، يرسم حياته وسعادته، ولم يضع أية قيود على خياله..

وعندما بلغ اللواء فى المساء المكان المنشود، وأخلد الضباط إلى الراحة فى الخيام، جلس ريابوفتش ولوبيتكو وميرزلياكوف حول صندوق يتناولون العشاء. كان ميرزلياكوف يأكل على مهل ويمضغ ببطء وهو يقرأ «بشير أوروبا» الموضوعة على ركبتيه. وكان لوبيتكو يتحدث بلا توقف ويملأ كأسه بالبيرة كلما فرغ، أما ريابوفتش الذى امتلأ رأسه بالضباب من الأحلام طوال النهار فكان يشرب فى صمت. وبعد ثلاث أكواب انتشى وخار، واستبدت به رغبة جارفة فى الإفضاء لرفاقه بما يحسه.

وبدأ يحكى محاولاً أن يضفى على صوته نبرة لا مبالية هازئة:

ـ وقعت لى حادثة عند آل رابيك هؤلاء.. فقد توجهت هناك إلى غرفة البلياردو..

وراح يحكى بالتفصيل حادثة القبلة ثم صمت بعد دقيقة.. فقد روى فى هذه الدقيقة كل شىء، وأدهشه للغاية أن الرواية لم تتطلب إلا هذا الوقت القصير. كان يخيل إليه أنه يستطيع أن يحكى عن القبلة حتى الصباح. وبعد أن استمع إليه لوبيتكو، الذى كان يكذب كثيرًا ولهذا لم يكن يصدق أحدا، نظر إليه بارتياب ثم ضحك ضحكة قصيرة.

أما ميرزلياكوف فلعب حاجبيه، ثم قال بهدوء شديد، ودون أن يحول بصره عن «بشير أوروبا»:

ـ الله يعلم ما هذا!.. ترتمى على عنقه قبل أن تناديه.. يبدو أنها مضطربة العقل.

فقال ريابوفتش موافقًا:

ـ نعم، يبدو أنها مضطربة العقل..

وقال لوبيتكو متصنعًا الخوف بعينيه:

ـ وقع لى حادث مماثل ذات مرة.. كنت مسافرًا فى العام الماضى إلى كوفنو.. ابتعت بطاقة الدرجة الثانية فى القطار.. وكانت العربة مزدحمة إلى درجة يستحيل معها أن تجد مكانا للنوم.. فأعطيت للمحصل نصف روبل.. فأخذ حقائبى وقادنى إلى إحدى المقصورات.. وأويت إلى الفراش وتغطيت بالبطانية.. وكانت المقصورة مظلمة. وفجأة وجدت شخصًا يلمس كتفى وأنفاسه تتردد فى وجهى. ومددت ذراعى فلمست مرفق شخص ما.. وفتحت عينى فرأيت امرأة، تصوروا! عينان سوداوان، وشفتان حمراوان كسمكة سلمون طيبة، ومنخاران يتنفسان بشهوة، وصدر نافر.. فقاطعه ميرزلياكوف بهدوء:

ـ عفوًا، بخصوص الصدر أستطيع أن أفهم، ولكن كيف استطعت أن ترى لون شفتيها والمقصورة مظلمة؟

وأخذ لوبيتكو يراوغ ويسخر من عدم فطنة ميرزلياكوف.

وأثار هذا نفور ريابوفتش، فابتعد عن الصندوق، واستلقى، وعاهد نفسه ألا يصارح أحدا بما فى نفسه أبدا.

وبدأت حياة المعسكر.. ومرت الأيام، كل يوم يشبه الآخر كثيرًا. وطوال هذه الأيام كان ريابوفتش يحس ويفكر ويتصرف كشخص عاشق. وكل صباح، عندما كان جندى المراسلة يصب له الماء ليغتسل، كان ريابوفتش يتذكر، وهو يغمر رأسه بالماء البارد، أن فى حياته شيئًا طيبًا ودافئًا.

وفى الأمسيات، عندما يشرع رفاقه فى الحديث عن الحب والنساء، كان يصغى، ويقترب منهم، ويرتسم على وجهه تعبير كالذى يرتسم على وجوه الجنود عندما يسمعون رواية عن معركة شاركوا فيها هم أنفسهم. أما فى الأمسيات التى كان فيها الضباط المنتشون، وعلى رأسهم كلب الصيد لوبيتكو، يقومون بغزوات دون جوانية على «المحلة»، كان ريابوفتش، المشارك فى الغزوات يصبح بعدها حزينًا، ويحس بشعور عميق بالذنب، ويرجو منها

المغفرة فى دخيلته.. وفى ساعات الفراغ، أو فى ليالى الأرق، عندما تواتيه الرغبة فى تذكر طفولته وأبيه وأمه، وعمومًا كل ما هو قريب وعزيز، كان يتذكر حتمًا ميستيتشكى أيضًا، والحصان الغريب، ورابيك، وزوجته التى تشبه الإمبراطورة أوجين، والغرفة المظلمة، وفرج الباب الساطع..

وفى ٣١ أغسطس غادر المعسكر، ولكن ليس مع اللواء كله، بل مع بطاريتين. وظل طوال الطريق يحلم ويشعر بالاضطراب وكأنما كان عائدًا إلى دياره. واستبدت به رغبة جارفة فى رؤية الحصان الغريب، والكنيسة، وأسرة رابيك غير الصادقة، والغرفة المظلمة. ولسبب ما همس له «الصوت الداخلى»، الذى كثيرًا ما يخدع العاشقين، بأنه حتمًا سيراها.. وعذبته الأسئلة: كيف سيلقاها؟ وعم سيتحدث معها؟ ترى ألم تنس القبلة؟ وقال لنفسه إنه إذا حدث على أسوأ الأحوال ولم يقابلها، فيكفيه سرورا أنه سيجوس فى الغرفة المظلمة ويتذكر..

وقبيل المساء لاحت فى الأفق الكنيسة المألوفة والمخازن البيضاء وخفق قلب ريابوفتش.. ولم يسمع ما كان يقوله له الضابط الراكب حصانه إلى جوراه، ونسى كل شىء فى الوجود، وأخذ يحدق بنهم فى النهر اللامع بعيدًا فى الأمام، وفى سقف المنزل، وفى برج الحمام الذى حوّم الحمام فوقه وقد أضاءته أشعة الشمس الغاربة.

وعندما بلغوا الكنيسة، وفيما بعد، وهو يستمع إلى تقرير مسئول الإيواء، كان يتوقع فى كل لحظة أن يظهر الفارس من وراء السور ويدعو الضباط إلى تناول الشاى، ولكن.. انتهى تقرير مسئول الإيواء، وترجل الضباط وتفرقوا فى القرية، بينما لم يظهر الفارس..

«سيعرف رابيك الآن من الفلاحين أننا وصلنا فيرسل من يدعونا» ـ فكر ريابوفتش وهو يدلف إلى مسكنه ولا يفهم لماذا يشعل رفاقه شمعة ويسرع جندى المراسلة إلى تجهيز السماور..

واستولى عليه قلق مقبض. ورقد، ثم نهض، ونظر من النافذة ليرى هل الرسول قادم أم لا. ولكن الرسول لم يظهر. فرقد ثانية، وبعد ساعة نهض، ولم يستطع مغالبة قلقه فخرج من البيت واتجه نحو الكنيسة. كان الميدان بجوار السور مظلمًا ومقفرًا.. ووقف ثلاثة جنود عند المهبط تمامًا وقد لزموا الصمت. وعندما رأوا ريابوفتش انتفضوا وأدوا التحية العسكرية. فرفع يده رادا التحية ومضى يهبط على الدرب المعروف.

كانت السماء كلها فوق الشاطئ الآخر مصبوغة بلون أحمر، فقد بزغ القمر. وكانت ثمة فلاحتان تتحدثان بصوت عال وتسيران فى مزرعة الخضروات وهما تقطفان أوراق الكرنب. ولاحت خلف المزرعة عدة بيوت ريفية متشحة بالسواد.. أما على هذا الشاطئ فكان كل شىء مثلما فى شهر مايو:

الدرب، والخمائل، والصفصاف المتدلى فوق الماء.. إلا أن ذلك البلبل الشجاع لم يكن يصدح، كما لم تنتشر رائحة الحور والعشب الفتى.

وعندما بلغ ريابوفتش البستان أطل من باب السور. كان البستان مظلما وهادئًا.. ولم تظهر إلا جذوع أشجار البتولا البيضاء القريبة وقسم من الممر، أما ما عدا ذلك فقد اختلط بكتلة الظلام. وأصاخ ريابوفتش وحدق بنهم، ولكنه بعد أن وقف حوالى ربع ساعة دون أن يسمع صوتًا أو يرى ضوءًا، عاد أدراجه..

واقترب من النهر. ولاح أمامه مسبح الجنرال وملاءات بيضاء منشورة على حاجز الجسر.. ارتقى الجسر ووقف، ودونما داع لمس ملاءة. كانت الملاءة خشنة وباردة. ونظر إلى الماء فى الأسفل.. كان النهر ينساب بسرعة ويخرخر بصوت لا يكاد يسمع بجوار قوائم المسبح. وانعكس القمر الأحمر قرب الشاطئ الأيسر. وركضت أمواج صغيرة فوق انعكاسه وهى تمطه وتمزقه قطعًا، وبدا أنها تريد أن تجرفه معها..

وفكر ريابوفتش وهو يحدق فى المياه الجارية: «يا للحماقة! يا للحماقة! ما أغبى كل هذا!».

الآن، عندما لم يعد ينتظر شيئًا، تبدت له حادثة القبلة، ولهفته، والآمال الغامضة، وخيبة الأمل، فى ضوء واضح. لم يعد يبدو له غريبًا أن رسول الجنرال لم يأت، وأنه لن يرى أبدا تلك التى قبلته صدفة بدلا من شخص آخر. بالعكس، كان سيكون غريبًا لو رآها..

كانت المياه تتدفق إلى جهة غير معلومة ولغرض غير معروف. وتدفقت بهذه الصورة أيضًا فى شهر مايو. ومن نهير فى مايو تحولت إلى نهر كبير، ومن نهر إلي بحر، ثم تبخرت، وتحولت إلى مطر، وربما كانت الآن، نفس تلك المياه، هى التى تتدفق ثانية أمام عينى ريابوفتش.. فما الداعى؟ ولأى غرض؟

وبدت له الدنيا كلها والحياة كلها مزحة غير مفهومة وبلا معنى.. وعندما حول عينيه عن المياه وتطلع إلى السماء، تذكر ثانية كيف لاطفه القدر عرضًا فى شخص المرأة المجهولة، وتذكر أحلامه الصيفية وصوره، فبدت له حياته شحيحة للغاية وبائسة ولا لون لها..

وعندما عاد إلى مسكنه لم يجد أحدا من زملائه.

وأخبره جندى المراسلة بأنهم قد ذهبوا جميعًا إلى «الجنرال فون ترابكين» الذى بعث رسولاً لدعوتهم.. وللحظة توهجت الفرحة فى قلب ريابوفتش، إلا أنه أخمدها على الفور، واستلقى فى الفراش، وكيدا فى حظه، كأنما كان يبغى أن يغيظه، لم يذهب إلى الجنرال.

الحسناوان

١

أذكر أننى ذات مرة، وأنا بعد تلميذ فى الصف الخامس أو السادس، كنت مسافرًا مع جدى من قرية «بلشايا كريبكايا» فى مقاطعة الدون إلى مدينة روستوف على الدون. كان نهارًا من أيام أغسطس القائظة المملة إلى درجة الإرهاق. والتصقت جفوننا وجفت حلوقنا من الحر والريح الجافة الساخنة التى كانت تدفع فى وجوهنا سحب الغبار. ولم تكن ثمة أية رغبة فى التطلع أو الكلام أو التفكير. وعندما كان سائق العربة النعسان، كاربو الأوكرانى، يلوح بسوطه على الفرس فيقع السوط على عمرتى، لم أكن أحتج أو يند عنى صوت، بل كنت أستيقظ من النعاس فأتطلع بكآبة واستكانة إلى الأفق علّى أرى عبر الغبار قرية. ثم توقفنا لإطعام الخيول فى قرية أرمنية كبيرة تسمى «بخش.. صالى» عند أرمنى ثرى من معارف جدى. لم أر فى حياتى صورة أكثر كاريكاتيرية من مظهر هذا الأرمنى.

تصوروا رأسًا صغيرًا حليقًا، بحاجبين كثيفين مهدلين إلى أسفل كثيرًا، وبأنف طائر، وبشوارب بيضاء طويلة، وفم واسع تمتد منه قصبة تدخين طويلة من خشب الكرز. وكان هذا الرأس ملتصقًا بصورة غير متقنة بجذع نحيل أحدب، يرتدى حلة خيالية: سترة حمراء قصيرة، وسروالاً واسعًا ساطع الزرقة. وكانت هذه القامة تسير مباعدة بين ساقيها وتحك الأرض بحذائها، وتتحدث

دون أن تنزع قصبة التدخين من فمها، وتتصرف بعزة أرمنية أصيلة، فلا تبتسم، وتبحلق بعينيها، وتحاول أن تولى الضيوف أقل قدر من الاهتمام.

ولم يكن فى غرف الأرمنى ريح أو غبار، ولكن جوها كان منفرًا وخانقًا ومملا كما فى السهوب وفى الطريق. وأذكر أننى جلست على صندوق أخضر فى الركن، وقد غطانى التراب وعذبنى القيظ. وانبعثت من الجدران الخشبية غير المطلية ومن الأثاث والأرضية المدهونة بالغراء رائحة خشب جاف أحرقته الشمس.. وذباب، ذباب، ذباب.. حيثما نظرت وجدت ذبابًا. أخذ جدى والأرمنى يتحدثان بصوت خافت عن المراعى والأعشاب والغنم.. وكنت أعرف أنهم سيستغرقون ساعة كاملة فى إعداد السماور، وأن جدى سيظل يشرب الشاى ما لا يقل عن ساعة، ثم يرقد لينام ساعتين أو ثلاث، وأنى سأضيع ربع النهار فى انتظار أعود بعده ثانية إلى القيظ والغبار والطرق الحفرية. وأصغيت لهمهمة الصوتين وبدأ يخيل إلىّ أننى أرى منذ زمن بعيد بعيد هذا الأرمنى، وصوان الآنية، والذباب، والنوافذ التى تلفحها الشمس اللاهبة، وأننى لن أكف عن رؤيتها حتى فى المستقبل البعيد جدًا، فتملكتنى كراهية للسهوب، وللشمس وللذباب..

ودخلت امرأة أوكرانية بمنديل رأس تحمل آنية الشاى، ثم أحضرت السماور. وخرج الأرمنى على مهل إلى ردهة المدخل وصاح:

ـ يا ماشيا! تعالى صبى الشاى! أين أنت؟ يا ماشيا[1] !

وتناهى وقع خطوات عجلى، ودخلت الغرفة فتاة فى حوالى السادسة عشرة، فى فستان بسيط من الشيت، وفى منديل أبيض. وكانت مولية ظهرها إلىَّ وهى تغسل الآنية وتصب الشاى، فلم ألحظ إلا أنها دقيقة الخصر، حافية القدمين، وأن كعبيها الصغيرين العاريين يغطيهما سروال مسدل.

(١) النطق الصحيح هو: ماشا (تدليل لاسم ماريا). أما كتابته «ماشيا» فهى إشارة من المؤلف إلى لكنة العجوز الأرمنى. (المعرب).

ودعانى رب الدار إلى تناول الشاى. وعندما جلست إلى المائدة تطلعت إلى وجه الفتاة التى ناولتنى الكوب، وفجأة أحسست وكأن نسمة هبت على روحى ونفخت عنها كل انطباعات النهار بمللها وغبارها. رأيت قسمات ساحرة لأروع وجه صادفنى من قبل فى اليقظة أو راودنى فى الأحلام. كانت أمامى حسناء، وقد أدركت ذلك من أول نظرة كما أدرك البرق.

إننى مستعد أن أقسم بأن ماشا، أو كما دعاها أبوها ماشيا، كانت حسناء بالفعل، ولكنى لا أستطيع أن أبرهن على ذلك. وقد يحدث أحيانًا أن تتزاحم السحب عند الأفق فى اضطراب، وتحتجب الشمس خلفها فتلونها بشتى الألوان:

بالأحمر القانى، وبالبرتقالى، وبالذهبى، وبالليلكى، وبالوردى الداكن. وتبدو إحدى السحب كالراهب، والأخرى كالسمكة، والثالثة كالتركى المعمم. ويحتل لهب المغيب ثلث صفحة السماء، ويتوهج على صليب الكنيسة وعلى زجاج نوافذ دار السادة، وينعكس فى النهر وفى برك المياه، ويتذبذب على الأشجار. وبعيدًا على صفحة الشفق يحلق سرب من البط البرى ليبيت فى مكان ما.. ويتطلع الراعى الذى يسوق البقر، والمساح العابر فى عربته فوق السد، والسادة المتنزهون.. يتطلعون كلهم إلى الغروب فيجدونه جميعًا فائق الجمال، ولكن أحدًا لا يعرف ولن يخبرنا بسر جماله.

ولم أكن وحدى الذى وجدت الأرمنية جميلة. فقد ظل جدى، العجوز ذو الثمانين عامًا، هذا الرجل الصارم الطباع، اللامبالى بالنساء ومفاتن الطبيعة، يحدق فى ماشا برقة دقيقة كاملة ثم سأل:

ـ هل هذه ابنتك يا أفيت نزاريتش؟

فأجاب رب الدار:

ـ ابنتى. نعم ابنتى.

فامتدحها جدى:

ـ آنسة طيبة.

ولو نظر فنان إلى جمال هذه الفتاة الأرمنية لاعتبره جمالاً كلاسيكيًا صارمًا. كان بالضبط ذلك الجمال الذى يدخل تمليه فى قلبك، من حيث لا تعلم، الثقة بأنك ترى ملامح سوية، وأن الشعر، والعينين، والأنف، والفم والعنق والصدر، وكل حركات هذا الجسد الشاب قد اتحدت كلها فى نغمة هارمونية متكاملة، لم تخطئ الطبيعة فيها خطأ صغيرًا واحدًا. ولسبب ما يخيل إليك أن المرأة المثالية الجمال ينبغى أن يكون لها أنف مثل أنف ماشا بالضبط، أنف مستقيم محدودب قليلاً، ومثل هاتين العينين السوداوين الواسعتين، ومثل هذه الرموش الطويلة، وهذه النظرة الساهمة، وأن شعرها الأسود المتموج وحاجبيها تنسجم أيضًا مع لون جبينها وخديها الأبيض الرقيق، كما تنسجم أعواد القصب الخضراء مع النهير الهادئ. وعنق ماشا الأبيض وصدرها الفتى غير مكتملى التكوين، ولكن يخيل إليك أن تشكيلهما يتطلب موهبة فنية هائلة. وتتطلع إلى ماشا، وشيئًا فشيئًا تحس بالرغبة فى أن تقول لها شيئًا غير عادى، سارا، صادقًا، جميلاً كجمالها.

فى البداية أحسست بالإهانة والخجل من أن ماشا لا تعيرنى أدنى اهتمام، وتنظر طوال الوقت إلى أسفل. وخيل إلى أن هواء خاصًا، سعيدًا ومتعاليًا، يفصلها عنى ويحميها بغيرة من نظراتى.

وفكرت بينى وبين نفسى: «هذا لأننى ملوث بالغبار، وملوح البشرة، وأيضا لأننى ما زلت صبيًا».

ولكنى فيما بعد، وشيئًا فشيئًا، نسيت نفسى واستغرقت تمامًا فى الإحساس بالجمال. لم أعد أذكر ملل السهوب والغبار، ولم أعد أسمع طنين الذباب أو أدرك مذاق الشاى بل كنت أشعر فقط بأنه عبر المائدة تقف أمامى فتاة جميلة.

ولكن إحساسى بالجمال كان غريبًا. لم تثر ماشا فىَّ الرغبة أو الانبهار أو المتعة، بل حزنا ثقيلاً، وإن كان لطيفًا.

كان هذا الحزن مبهما، غامضًا كالحلم. ولسبب ما أحسست بالأسى لنفسى، ولجدى، وللأرمنى، وللأرمنية الصبية ذاتها، وراودنى شعور كأنما فقدنا نحن الأربعة شيئًا مهما وضروريًا للحياة، شيئًا لن نجده بعد ذلك أبدا. وجدى أيضًا بدا محزونا. لم يعد يتحدث عن المراعى والأغنام، بل ركن إلى الصمت وهو يسترق النظر إلى ماشا بين الحين والحين فى تأمل.

وبعد تناول الشاى تمدد جدى لينام، أما أنا فخرجت من البيت وجلست على درج المدخل. كان البيت، ككل البيوت فى «بخشى.. صالى»، يصلى لهب الشمس. لم تكن هناك أشجار أو عرائش أو ظلال. وكان فناء الأرمنى الواسع، المغطى بحشائش رجل الوزة عامرًا بالحركة والمرح رغم القيظ الشديد. فخلف أحد الأسيجة المنخفضة، التى كانت تخترق الفناء الواسع هنا وهناك، كانت تجرى عملية دراس. وحول عمود دق فى وسط البيدر تمامًا دار اثنا عشر حصانًا مسرجين صفا واحدًا ومشكلين نصف قطر دائرة طويلاً. وبجوارها سار فلاح أوكرانى فى صديرى طويل وسروال واسع، وهو يفرقع بالسوط ويصيح بنبرة خاصة، وكأنما يريد أن يغيظ الخيول ويتباهى بسلطانه عليها:

ـ حا ـ ا يا ملاعين! حا .. ا .. ا.. إن شاء الله تأخذكم داهية! خائفون؟

كانت الخيول الشهب والبيض والبلق، وهى لا تفهم لماذا يجبرونها على الدوران فى مكان واحد وهرس سيقان القمح، تركض بلا رغبة، كأنما فقدت قواها، وتهز ذيولها بغضب.

وأثارت الريح من تحت قوائمها سحبًا من التبن الذهبى وحملتها بعيدًا عبر السياج. وبجوار العرمات العالية الجديدة عملت نساء بالمذارى وتحركت عربات، ومن وراء العرمات، فى فناء آخر، ركضت دستة من الخيول المماثلة حول عمود آخر، وفرقع أوكرانى مماثل بالسوط هازئًا بالخيول.

كانت الدرجات التى أجلس عليها ساخنة. ومن الحر ظهرت على عوارض

الدرابزين المخلخلة، وعلى أطر النوافذ هنا وهناك قطرات صمغ الخشب. وتحت الدرجات، وتحت شيش النوافذ، فى خطوط الظل، تلاصقت برغشات حمراء. وكانت الشمس تلهب رأسى وصدرى وظهرى، ولكنى لم أشعر بذلك، بل كنت أشعر فقط بأقدام عارية تخطو من خلفى على ألواح الأرضية الخشبية فى ردهة المدخل وغرف المنزل. وبعد أن جمعت ماشا آنية الشاى ركضت هابطة على الدرج فهبت علىّ دفقة هواء، وحلقت كطائر نحو مبنى صغير مسود، يبدو أنه المطبخ، حيث تصاعدت رائحة الضأن المشوى وتناهت رطانة أرمنية غاضبة. واختفت فى فتحة الباب المظلمة، وظهرت بدلاً منها على العتبة أرمنية عجوز محدودبة، بوجه أحمر وسروال أخضر. كانت العجوز غاضبة تسب أحدًا ما. ثم سرعان ما ظهرت ماشا على العتبة، وقد أحمرت من حرارة المطبخ، حاملة على كتفها رغيفًا كبيرًا من الخبز الأسود. وركضت عبر الفناء نحو البيدر، وهى تنثنى بجمال تحت ثقل الخبز، وانسلّت عبر السياج، وغاصت فى سحابة التبن الذهبى، فاختفت وراء العربات. وأنزل الأوكرانى الذى كان يسوق الخيول سوطه وصمت، وظل ينظر صامتًا حوالى دقيقة نحو العربات، وعندما مرقت الفتاة الأرمنية ثانية بجوار الخيول وقفزت عبر السياج شيعها بنظراته ثم صاح فى الخيول بنبرة كأنما كان فى غاية الكدر:

ـ فلتخطفكم مصيبة، يا أولاد الأبالسة!

وبعد ذلك ظللت أسمع طول الوقت بلا انقطاع وقع أقدامها العارية، وأراها وهى تركض فى الفناء بوجه جاد مهموم. كانت تركض تارة على الدرج فتهب علىَّ دفقة هواء، وتارة إلى المطبخ، وتارة إلى البيدر، وتارة إلى البوابة، فلم أكد ألاحق الدوران برأسى كى أتابعها.

وكلما لاحت أكثر أمام عينى، ازداد حزنى وطأة.

وشعرت بالأسى لنفسى، ولها، وللأوكرانى الذى كان يشيعها بنظراته فى حزن كلما ركضت إلى العربات خلال سحابة التبن. ترى أكان ما أشعر به

غيرة من جمالها، أم أننى كنت آسى لأن هذه الفتاة ليست فتاتى ولن تكون أبدًا، وأننى بالنسبة لها غريب، أم أننى كنت أشعر شعورًا مبهما بأن جمالها النادر شىء عارض، لا حاجة إليه، وككل ما فى الدنيا زائل، أم ربما كان حزنى هو ذلك الإحساس الخاص الذى يثيره فى الإنسان تأمل الجمال الحقيقى.. الله أعلم!

مرت ساعات الانتظار الثلاث دون أن أشعر. وخيل إلىّ أننى لم أكد أشبع من تملى ماشا، حتى كان كاربو قد ذهب إلى النهر وحمم الفرس وبدأ يسرجها. وكانت الفرس المبتلة تنخر من السرور وتضرب العدة بحوافرها. وكاربو يصيح فيها:

«ارجعى! ». واستيقظ جدى. وفتحت لنا ماشا البوابة ذات الصرير، وجلسنا فى العربة وخرجنا من الفناء. وسرنا فى صمت كأنما كان كل منا غاضبًا من الآخر.

وعندما لاحت روستوف وناخيتشيفان بعد ساعتين أو ثلاث، التفت كاربو بسرعة، بعد أن ظل طوال الوقت صامتًا، وقال:

ـ يا لها من فتاة رائعة لدى الأرمنى!

وألهب الفرس بالسوط.

٢

فى مرة أخرى، وقد أصبحت طالبًا، كنت مسافرًا بالقطار إلى الجنوب. كان ذلك فى شهر مايو وفى إحدى المحطات، أظن بين بيلجورود وخاركوف، خرجت من العربة لأتمشى على الرصيف.

كانت ظلال الغروب ترتمى على حديقة المحطة، وعلى الرصيف وعلى

الحقل. وحجب مبنى المحطة المغيب، غير أنه ظهر من قمم سحب الدخان المتصاعدة من القاطرة والمصبوغة بلون وردى رقيق أن الشمس لم تغب بعد.

ولاحظت وأنا أتمشى على الرصيف، أن معظم الركاب المتجولين يتمشون ويتوقفون فقط بجوار عربة واحدة من عربات الدرجة الثانية، ويرتسم على وجوههم تعبير كأنما هناك شخصية شهيرة تجلس فى العربة. وكان بين الفضوليين بجوار هذه العربة أيضًا رفيقى فى الرحلة، وهو ضابط مدفعية، فتى ذكى، دافئ وظريف، ككل من نتعرف بهم فى الطريق صدفة ولفترة قصيرة.

وسألته:

ـ فيم تحدق هنا؟

فلم يرد بشىء بل أشار بعينيه إلى إحدى النساء. كانت فتاة شابة، فى حوالى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، ترتدى تاييرا روسيًا، حاسرة الرأس، تضع على إحدى كتفيها بإهمال مانطو صغيرًا. ولم تكن من الركاب، بل يبدو أنها ابنة ناظر المحطة أو أخته. كانت واقفة بجوار نافذة العربة تتحدث مع راكبة كبيرة السن. وقبل أن أستوعب ما رأته عيناى تملكنى فجأة ذلك الإحساس الذى راودنى فى القرية الأرمنية.

كانت الفتاة حسناء رائعة، ولم يشك فى ذلك أحد، لا أنا، ولا من كانوا يتطلعون معى إليها.

ولو وصفت هيئتها، كما هو متبع، جزءًا جزءًا، فلن تجد فيها جميلاً بالفعل سوى شعرها الأشقر المتموج الغزير المسدل والمعقود على الرأس بشريط أسود، أما عدا ذلك من الملامح فكانت إما غير سوية، وإما عادية للغاية. وربما بسبب طريقتها الخاصة فى التدلل، أو لقصر نظرها كانت عيناها مزرورتين، وأنفها مشرئبًا بتقاعس، وفمها صغيرًا، وكان بروفيلها مرسومًا بخطوط واهنة

متراخية، وكتفاها ضيقتين بما لا يتفق وسنها، ومع ذلك كانت الفتاة تترك انطباعًا بحسناء حقيقية، وتأكدت وأنا أتطلع إليها أن الوجه الروسى، لكى يبدو رائعًا، ليس بحاجة إلى تقاطيع سوية صارمة، بل والأكثر من ذلك أنه لو كان للفتاة، بدلا من أنفها المشرئب، أنف آخر سوىّ وخال من عيوب التكوين، كأنف الفتاة الأرمنية، فربما فقد وجهها بسبب ذلك كل روعته.

كانت الفتاة وهى واقفة بجوار النافذة تتحدث وتنكمش من رطوبة المساء، تلتفت إلينا بين الحين والحين، وتارة تنثنى واضعة يدها فى خصرها، وتارة ترفع يديها إلى رأسها لتسوى شعرها، وكانت تتحدث وتضحك، وترسم على وجهها الدهشة حينًا والرعب حينًا آخر، ولم أذكر لحظة ركن فيها جسدها ووجهها إلى السكون. كان كل سر جمالها وسحره يكمن بالضبط فى هذه الحركات الصغيرة، الرشيقة بلا حدود، وفى ابتسامتها، وفى تعابير وجهها، وفى نظراتها السريعة نحونا، وفى الجمع بين الرشاقة الرهيفة لهذه الحركات وبين الصبا والنضارة ونقاء الروح الذى كان يتجلى فى ضحكها وصوتها، وذلك الضعف الذى نعشقه فى الأطفال، والطيور، والغزلان الصغيرة، والأشجار الوليدة.

كان جمالاً فراشيًا، تنسجم معه تمامًا أنغام الفالس وخفقان الأجنحة فى البستان والضحك والمرح، ولا يمكن تصوره فى ارتباط مع الفكر الجاد أو الحزن أو السكينة. وبدا أنه يكفى أن تهب على الرصيف دفقة ريح نشطة أو يسقط المطر كى يذبل هذا الجسد الهش فجأة ويتناثر هذا الجمال النزق كدقيق الأزهار.

ودمدم الضابط متنهدًا عندما توجهنا إلى عربتنا بعد أن دق الجرس للمرة الثانية:

ـ هكذا..

أما ماذا كانت تعنى «هكذا» هذه فلا أستطيع أن أقرر.

ربما كان يشعر بالحزن ولا يريد أن يمضى عن الحسناء والمساء الربيعى إلى العربة الخانقة، أو ربما كان، مثلى، يشعر بأسى غير مفهوم على الحسناء وعلى نفسه وعلىَّ، وعلى جميع الركاب الذين جروا أقدامهم بتراخ ودون رغبة متوجهين إلى عرباتهم. وعندما مررنا بجوار نافذة المحطة، حيث جلس وراءها إلى جوار جهازه عامل تليغراف شاحب أحمر الشعر، بخصلات عالية ووجه باهت ناتئ الوجنتين، تنهد الضابط قائلاً:

ـ أراهن على أن عامل التليغراف هذا يعشق تلك الحسناء. فأن تعيش فى حقل، تحت سقف واحد مع هذا المخلوق الهفهاف ولا تعشقه لشىء فوق طاقة البشر. ويالها من تعاسة يا صديقى، يالها من سخرية أن تكون محنى القامة، مشعثًا، رماديًا، مستقيمًا، وغير غبى، وأن تعشق هذه الفتاة الحسناء اللاهية التى لا تعيرك أدنى اهتمام! أو... وهذا هو الأسوأ، تصور أن هذا العامل عاشق، وفى الوقت نفسه متزوج، وأن زوجته أيضًا محنية القامة، مشعثة، ومستقيمة مثله.. يا للعذاب!

بجوار عربتنا وقف المحصل معتمدًا على حاجز البسطة وهو يتطلع إلى الجهة التى كانت الحسناء تقف فيها، وكان وجهه المنهوك الرخو، الشبعان إلى درجة منفرة، والمتعب من ليالى السهاد واهتزاز العربة، يعبر عن التأثر والحزن العميق، كأنما كان يرى فى الفتاة شبابه وسعادته وصحوه وطهارته وزوجته وأولاده، كأنما كان يندم ويحس بكل كيانه أن هذه الفتاة ليست له، وأنه بشيخوخته المبكرة، وهيئته الخرقاء، ووجهه السمين بعيد عن السعادة الإنسانية العادية، سعادة أى راكب، بعده عن السماء.

ودق الجرس لثالث مرة، وترددت الصفارات، فتحرك القطار بكسل، ومرق من أمام نوافذنا أولا المحصل، فناظر المحطة، ثم البستان، فالحسناء بابتسامتها الساحرة الماكرة كمكر الأطفال..

وأخرجت رأسى من النافذة ونظرت إلى الوراء فرأيتها وهى تشيع القطار

بنظراتها ثم تسير على الرصيف مارة أمام نافذة عامل التليغراف، وسوت شعرها ثم ركضت إلى البستان. ولم يعد مبنى المحطة يحجب الغروب، وبدا الحقل مكشوفًا، إلا أن الشمس كانت قد غربت، وارتمى الدخان سحبًا سوداء فوق نبتات القمح المخملية الخضراء. وانتشر الحزن فى هواء الربيع، وفى السماء المعتمة، وفى العربة.

ودخل المحصل المذكور العربة وراح يشعل الشموع.

قلادة آنّا

١

بعد عقد القران لم تقدم حتى المزات الخفيفة. شرب العروسان كأسين، وبدّلا ثيابهما، ورحلا إلى المحطة. وبدلا من حفل الزفاف المرح والعشاء، وبدلا من الموسيقى والرقص كانت هذه الرحلة للحج على بعد مائتى فرسخ. وحبذ الكثيرون ذلك قائلين أن موديست أليكسييتش رجل ذو مركز ولم يعد شابا، وأن العرس الصاخب قد يبدو على الأرجح، غير لائق تماما. كما أنه من الممل سماع الموسيقى عندما يتزوج موظف فى الثانية والخمسين من عمرة فتاة لم تتجاوز الثامنة عشرة إلا بقليل. وقالوا أيضا أن موديست أليكسييتش، كرجل يراعى الأصول، إنما دبر هذه الرحلة إلى الدير لكى يُفهم زوجته الشابة بأنه فى الزواج أيضا يضع الدين والأخلاق فى المقام الأول.

ودعوا العروسين. ووقف جمع زملاء العمل والأقارب والكؤوس فى أيديهم منتظرين تحرك القطار لكى يهتفوا: «هورا»، وكان والد العروس، بيوتر ليونتيتش، الذى يرتدى قبعة أسطوانية وحلة المدرسين، وهو ثمل جدا وشاحب جدا، يهم طول الوقت بجسده نحو نافذة العربة، والكأس فى يده، ويقول بصوت ضارع:

ـ أنيوتا! يا آنيا! يا آنيا، كلمة واحدة!

فتنحنى آنيا نحوه من النافذة، فيهمس لها بكلمات ما وهو يلفحها ببخر

الخمر وينفخ فى أذنها، فلا تستطيع أن تميز شيئا، ويرسم علامة الصليب على وجهها وصدرها وذراعيها. وأثناء ذلك تتهدج أنفاسه وتغرورق عيناه بالدموع. أما شقيقا آنيا، التلميذان بيتيا وأندريوشا، فيشدانه من بدلته من الخلف ويهمسان بحرج:

ـ بابا كفى.. بابا لا داعى..

وعندما تحرك القطار رأت آنيا كيف ركض أبوها قليلا فى أثر العربة وهو يترنح ويسكب الخمر، وكان وجهة بائسا، طيبا، مذنبا.

وصاح:

ـ هورا.. ا.. ا..

أصبح العروسان وحدهما. تفحص موديست أليكسييتش المقصورة، ووزع المتاع على الأرفف، وجلس قبالة زوجته الشابة مبتسما. كان موظفا متوسط الطول، بدينا، مدملجا شبعان جدا، بسالفين طويلين وبلا شارب، وكان ذقنه الحليق المستدير البارز بشدة يشبه الكعب. وكان أكثر ما يميز وجهة انعدام الشارب، وذلك المكان الحليق العارى، الذى يلتقى تدريجيا بخدين مكتنزين مرتعشين كالجيلى. وكانت هيئته رصينة، وحركاته متأنية، وأسلوبه ناعما.

قال مبتسمًا:

ـ لا يسعنى الآن إلا أن أتذكر إحدى الوقائع. فمنذ خمس سنوات، عندما حصل كوسوروتوف على وسام القديسة آنا من الطبقة الثانية وجاء للشكر رد عليه صاحب السمو هكذا: «إذن فقد أصبح لديك آنات: واحدة فى عروتك، واثنتان فى رقبتك». وجدير بالذكر أنه فى ذلك الوقت كانت زوجة كوسوروتوف قد عادت إليه لتوها، وكانت امرأة سليطة، مستهترة تدعى آنا. آمل عندما أحصل على وسام آنا من الطبقة الثانية ألا يكون لدى صاحب السمو مبرر ليقول لى نفس الشىء.

وابتسم بعينيه الصغيرتين. وابتسمت هى أيضا مضطربة من فكرة أن هذا

الرجل يستطيع فى أية لحظة أن يقبلها بشفتيه السميتين، وأنها لم تعد تملك الحق فى منعه من ذلك. كانت حركات جسمه البدين الناعمة تخيفها، فكانت تشعر بالرهبة والتقزز. ونهض، ونزع الوسام من رقبته على مهل، ونزع السترة والصديرى، وارتدى الروب.

ـ هكذا.. ـ قال وهو يجلس إلى جوار آنيا.

وتذكرت كم كانت طقوس العرس مرهقة، عندما خيل إليها أن القسيس والمدعوين وكل من فى الكنيسة ينظرون إليها بأسى: فلماذا، لماذا تتزوج، هى الفتاة الرقيقة، الجميلة، من هذا السيد الكهل غير الظريف؟ اليوم صباحا كانت فى قمة الإعجاب من أن الأمور سارت بهذا التوفيق، ولكن أثناء الزفاف، والآن فى المقصورة، أحست بأنها مذنبة، مخدوعة ومضحكة. ها هى ذى قد تزوجت من رجل ثرى، ومع ذلك فهى بلا نقود، وفستان الزفاف حيك دينا، وعندما ودعها أبوها وأخواها اليوم أدركت من وجوههم أنه ليس لديهم كوبيك واحد. ترى هل سيتعشون اليوم؟ وغدا؟ ولسبب ما خيل إليها أن أباها وأخويها يجلسون الآن بدونها جوعى، ويشعرون بتلك الوحشة التى تملكتهم فى أول مساء بعد دفن الأم.

وفكرت: «أوه، كم أنا تعيسة! لماذا أنا تعيسة هكذا؟».

وبسماجة الرجل الرصين الذى لم يألف معاملة النساء لمس موديست أليكسييتش خصرها وربت على كتفها، بينما كانت هى تفكر فى النقود، وفى أمها وموتها. فعندما ماتت أمها أغرق أبوها، بيوتر ليونتيتش، مدرس الخط والرسم، فى الشراب، وحلت بهم الفاقة. لم يكن لدى الصبيين أحذية وأخفاف، وجرجر الدائنون أباها إلى قاضى الصلح، وجاء محضر المحكمة فحجز على الأثاث... يا للعار! وكان على آنيا أن تعتنى بأبيها الثمل، وترتق جوارب أخويها، وتتردد على السوق، وعندما كانوا يمتدحون جمالها وشبابها وحركاتها الرشيقة، كان يخيل إليها أن الدنيا كلها ترى قبعتها الرخيصة وثقوب حذائها المدهونة بالحبر. وفى الليل الدموع وفكرة ملحة مزعجة بأنه قريبا جدا سيطردون أباها

من المدرسة لضعفه، وأنه لن يحتمل ذلك فيموت أيضا كأمها. ولكن ها هى ذى السيدات المعارف قد تحركن وأخذن يبحثن عن عريس جيد لآنيا. وسرعان ما وجدن هذا الموديست أليكسييتش نفسه، الذى لم يكن شابا ولا جميلا، ولكن ذا نقود. كان لديه فى البنك حوالى مائة ألف روبل، وضيعة موروثة يؤجرها. وهو رجل يعرف الأصول وله مكانة لدى صاحب السمو. ولم يكن يكلفه شيئا، كما قيل لآنيا،أن يأخذ من صاحب السمو رسالة إلى مدير المدرسة، بل حتى إلى رئيس مصلحة المعارف، لكيلا يفصلوا بيوتر ليونتيتش..

وبينما كانت تتذكر هذه التفاصيل دوت الموسيقى فجأة واقتحمت النافذة مع صخب أصوات. لقد توقف القطار فى محطة صغيرة. ووراء الرصيف كانوا يعزفون وسط حشد بحيوية على الأكورديون وعلى كمان رخيص معول، ومن وراء أشجار البتولا والحور العالية، من وراء الدور الصيفية المغمورة بنور القمر تناهت أنغام أوركسترا عسكرية؛ يبدو أنه كانت هناك حفلة راقصة. وعلى الرصيف كان يتنزه المصطافون وأهل المدينة الذين كانوا يأتون إلى هنا فى الطقس الجيد ليستنشقوا الهواء النقى. وكان هنا أرطينوف أيضًا، مالك هذه الدور الصيفية، ذلك الثرى الطويل البدين، الأسود الشعر، الذى كان يشبه بوجهه أرمنيًا، بعينين جاحظتين وفى بدلة غريبة. كان يرتدى قميصا مفكوك الأزرار على صدره، وحذاء طويلا بمهماز، ومن كتفيه أسدل معطف خفيف أسود متجرجرا على الأرض كذيل الفستان. وسار خلفه كلبان سلوقيان وقد نكسا سحنتيهما الحادتين.

كانت الدموع لا تزال تترقرق فى عينى آنيا، إلا أنها لم تعد تذكر أمها أو النقود أو زفافها، بل أخذت تصافح التلاميذ والضباط المعارف؛ وتضحك بمرح وتقول بسرعة:

ـ مرحبا! كيف حالكم؟

وخرجت إلى فسحة العربة، ووقفت تحت ضوء القمر بحيث يرونها بكامل هيئتها، فى فستانها الجديد الرائع والقبعة.

وسألت:

ـ لماذا توقفنا هنا؟

فقيل لها:

ـ هنا مفرق طرق. ينتظرون القطار المعاكس. وإذ لاحظت أن أرطينوف يتطلع إليها، زرت عينيها بدلال وتحدثت بالفرنسية بصوت عال. ولأن صوتها تردد بهذه الروعة بينما صدحت الموسيقى وانعكس القمر فى البركة، ولأن أرطينوف، هذا الدون جوان والعابث المعروف كان يتطلع إليها بشراهة وفضول، ولأن الجميع كانوا يشعرون بالمرح، فقد تملكتها الفرحة فجأة، وعندما تحرك القطار، وأدى لها الضباط المعارف التحية مودعين، كانت تدندن بلحن رقصة البولكا، الذى أخذت الفرقة العسكرية الهادرة فى مكان ما وراء الأشجار تبعث بأنغامه فى أثرها. فعادت إلى مقصورتها بإحساس، وكأنما اقنعوها فى المحطة الصغيرة بأنها ستكون سعيدة حتما، وبالرغم من أى شىء.

أمضى العروسان فى الدير يومين ثم عادا إلى المدينة. وعاشا فى شقة حكومية. وعندما كان موديست أليكسييتش يذهب إلى العمل كانت آنيا تعزف على البيانو، أو تبكى من الملل، أو تستلقى على التخت وتقرأ روايات أو تتصفح مجلة أزياء. وكان موديست أليكسييتش يأكل كثيرا جدا أثناء الغداء ويتحدث عن السياسة وعن التعيينات والتنقلات والمكافآت، وعن أنه لابد من الكد، وأن الحياة الزوجية ليست متعة بل واجبا، وأنك إذا صنت الكوبيك صنت الروبل، وأنه يضع الدين والأخلاق فوق كل شىء. وكان يقول ممسكا بالسكين فى قبضته كالسيف:

ـ ينبغى أن يكون لكل شخص واجباته!

وكانت آنيا تستمع إليه وتخافه ولا تستطيع أن تأكل، فتنهض عادة عن المائدة وهى جائعة. وبعد الغداء ينام الزوج ويشخر بصوت عال، أما هى فتذهب لزيارة أهلها. وكان أبوها وأخواها ينظرون إليها نظرة خاصة، كأنما

كانوا قبل وصولها بقليل يدينونها لأنها تزوجت من أجل النقود من رجل ممل، ثقيل الدم، لا تحبه. وكان فستانها ذو الحفيف، وأساورها، وعموما مظهرها كسيدة يحرجهم ويهينهم. وفى حضرتها كانوا يشعرون بالخجل ولا يعرفون عم يتحدثون معها. ومع ذلك ظلوا يحبونها كما فى السابق، ولم يتعودوا بعد على الغداء بدونها. كانت تجلس معهم إلى المائدة فتأكل حساء الكرنب والعصيدة والبطاطس المحمرة بدهن الضأن الذى كانت تفوح منه رائحة الشمع. وكان بيوتر ليونتيتش يصب الفودكا من الإبريق بيد مرتعشة فيشرب بسرعة ونهم وتقزز، ثم يشرب كأسا أخرى، ثم ثالثة... وكان بيتيا وأندريوشا، النحيلان الشاحبان، الواسعا العينين، ينحيان الإبريق ويقولان بارتباك:

ـ لا داعى يا بابا.. كفى يا بابا..

وتنزعج آنيا أيضا وتتوسل إليه ألا يشرب بعد، فينفجر فجأة ويدق على الطاولة بقبضته صائحا:

ـ لن أسمح لأحد بمراقبتى! عيال صغار! طفلة! سأطردكم جميعا من هنا!.

ولكن صوته كان يبدى ضعفا وطيبة، فلم يخف منه أحد. وبعد الغداء عادة كان يتأنق. كان يقف أمام المرآة طيلة نصف ساعة، شاحبا، بذقن مجروح من الحلاق، يمد عنقه النحيل، ويتزين، فتارة يمشط شعره وتارة يفتل شاربه الأسود، ويرش العطر، ويعقد رابطة العنق فراشة، ثم يرتدى القفاز والقبعة الأسطوانية، ويخرج لإعطاء دروس خصوصية. أما فى العيد فكان يبقى فى المنزل ويرسم بالألوان أو يعزف على القدمية[1] التى كانت تفح وتزأر. وكان يحاول أن يستخرج منها أنغاما منسقة، هارمونية، ويدندن، أو يغضب من الصبيين فيصيح بهما:

---

(١) آلة موسيقية، ضرب من الأرغن، تشبه بمظهرها البيانو. (المعرب).

ـ يا أوغاد! يا سفلة! أتلفتم الآلة!.

فى المساء كان زوج آنيا يلعب الورق مع زملائه الذين كانوا يقطنون معه فى نفس المنزل الحكومى. وأثناء اللعب كانت تجتمع زوجات الموظفين القبيحات، المتأنقات بلا ذوق، الفظات كالطاهيات، فتتردد فى الشقة الشائعات القبيحة، القليلة الذوق مثل زوجات الموظفين أنفسهن. وكان يحدث أن يذهب موديست أليكسييتش مع آنيا إلى المسرح. وفى فترات الاستراحة لم يكن يتركها تبتعد عنه خطوة، بل كان يتجول معها فى الممرات والردهة متأبطا ذراعها. وإذ ينحنى محييا شخصا ما، يهمس على الفور لآنيا: «مستشار دولة... استقبله صاحب السمو...» أو «غنى... يملك داره الخاصة...». وعندما يمران بجوار البوفيه كانت آنيا تتوق إلى شىء حلو، فقد كانت تحب الشيكولاته والجاتوه بالتفاح، ولكنها لم تكن تملك نقودا وتخجل من سؤال زوجها. وكان هو يتناول ثمرة الكمثرى فيجسها بأصابعه ثم يسأل مترددا:

ـ بكم؟

ـ بخمسة وعشرين كوبيكا.

ـ يا سلام! ـ يقول ويضع الكمثرى فى مكانها ـ ولكن لما كان من المحرج الانصراف من البوفيه دون شراء شىء فقد كان يطلب زجاجة مياه سلتر ويشربها كلها وحده، بينما تطفر الدموع من عينيه، وفى تلك اللحظة كانت آنيا تمقته.

أو يتضرج كله فجأة، ويقول لها بسرعة:

ـ حيى هذه السيدة العجوز!

ـ ولكنى لا أعرفها.

ـ سيان. إنها زوجة مدير الغرفة الأميرية، حييها أقول لك! ـ يلح متذمرا ـ لن ينكسر عنقك.

فتحيى آنيا بإيماءة، ولا ينكسر عنقها بالفعل، ولكنها تشعر بمعاناة. كانت تفعل كل ما يريده زوجها، وتمقت نفسها لأنه خدعها وكأنها أحمق حمقاء. لم تتزوج منه إلا من أجل النقود فقط، بينما أصبح لديها من النقود أقل مما كان قبل الزواج. فمن قبل كان أبوها على الأقل يعطيها عشرين كوبيكا بين الحين والحين، أما الآن فلا تملك خردة. ولم تكن تجرؤ على اختلاس النقود سرا أو سؤال زوجها، فقد كانت تخشاه وترتعب منه. وخيل إليها أنها تحمل الخوف من هذا الرجل فى قلبها منذ أمد بعيد. ففى زمن ما فى طفولتها كانت تتصور ناظر المدرسة أرهب وأرعب قوة تزحف نحوها كالعاصفة أو كالقاطرة التى توشك أن تدهمها؛ أما القوة الأخرى التى كانوا يتحدثون عنها فى الأسرة دائما، والتى كانوا يخشونها لسبب ما فكان صاحب السمو؛ وكانت هناك أيضا بضع قوى أصغر، من بينها مدرسو المدرسة ذوو الشوارب المحلوقة، الصارمون القساة، ثم أخيرا موديست أليكسييتش، الرجل الذى يراعى الأصول، والذى يبدو حتى بملامحه أشبه بالناظر. واتحدت هذه القوى فى خيال آنيا فى كل واحد، وزحفت فى صورة دب أبيض ضخم رهيب على الضعفاء والمذنبين أمثال أبيها، فكانت تخشى أن تقول شيئا معارضا، وتبتسم بتكلف وتبدى الرضا المتصنع عندما يلاطفونها بغلظة، ويدنسونها بالعناق الذى يلقى فى قلبها الرعب.

مرة واحدة فقط تجرأ بيوتر ليونتيتش فطلب منه خمسين روبلا قرضا لكى يسدد أحد الديون الكريهة، ولكن أى عذاب كان ذلك!

فقد فكر موديست أليكسييتش قليلا ثم قال:

ـ حسنا، سأعطيك. ولكنى أنبهك إلى أننى لن أساعدك بعد ما لم تكف عن الشراب. إن هذا الضعف عار على شخص يخدم فى الدولة. ولا يسعنى إلا أن أذكرك بحقيقة معروفة، وهى أن هذه الشهوة قد أهلكت كثيرا من الأشخاص الموهوبين، فى حين أنهم لو تجنبوها لربما بلغوا مع الزمن مراكز مرموقة.

وتتابعت عبارات طويلة: «وبقدر ما...». و«انطلاقا من واقع أن...» و«بناء على ما سبق ذكره»، فكان بيوتر ليونتيتش المسكين يعانى من الذل ويشعر برغبة شديدة فى الشرب.

وكان على الصبيين اللذين يزوران آنيا عادة فى أحذية ممزقة وسراويل مهترئة، أن يسمعا أيضا المواعظ الطويلة كان موديست أليكسييتش يقول لهما:

ـ ينبغى أن يكون لكل شخص واجباته!

ولا يعطى نقودا. ولكنه فى المقابل أهدى آنيا خواتم وأساور وبروشات، قائلا إنه من المستحسن اقتناء هذه الأشياء لليوم الأسود. وكثيرا ما كان يفتح صوانها ويجرى تفتيشا ليتأكد هل كل شىء فى مكانه.

٢

ثم حل الشتاء. وقبل أعياد الميلاد بفترة نشرت الصحيفة المحلية إعلان بأنه فى ٢٩ ديسمبر سيقام فى مجمع النبلاء الحفل الشتوى المعهود. فكان موديست أليكسييتش يتهامس مع زوجات الموظفين كل مساء بعد الفراغ من لعب الورق، ويتطلع إلى آنيا بقلق، ثم يظل طويلا يذرع الغرفة مستغرقا فى التفكير، وأخيرا، وذات ساعة متأخرة من المساء، توقف أمام آنيا وقال:

ـ ينبغى أن تفصلى فستانا للحفل، مفهوم؟ ولكن أرجوك، تشاورى مع ماريا جريجوريفنا ونتاليا كوزمينشنا.

وأعطاها مائة روبل، فأخذتها. ولكنها لم تستشر أحدا عندما أوصت على فستان الحفل بل تحدثت فقط مع أبيها، وحاولت أن تتصور كيف كانت أمها ستتزين للحفل. كانت المرحومة أمها تتأنق دائما حسب آخر موضة، وكانت تنشغل دائما بآنيا وتلبسها بأناقة كدمية، وعلمتها التحدث بالفرنسية ورقص

المازوركا جيدا (فقد عملت أمها مربية لخمس سنوات قبل أن تتزوج). وكانت آنيا، مثل أمها، تعرف كيف تصنع فستانا جديدا من ثوب قديم، وتغسل القفاز في البنزين وتستأجر الـ bijoux [1]، وكأمها كانت تجيد أيضا زر عينيها واللثغ واتخاذ الأوضاع الجميلة، وإبداء الإعجاب عند الضرورة، والتطلع بحزن وغموض. أما عن أبيها فقد ورثت لون الشعر الداكن، والعينين السوداوين والعصبية، وطريقته في التأنق الدائم.

وقبيل الرحيل إلى الحفل بنصف ساعة، عندما دخل عليها موديست أليكسييتش بدون سترة لكي يضع قلادة الوسام في رقبته أمام مرآتها، سحره جمالها وبريق فستانها الهوائي المنعش، فمشط سالفيه برضى وقال:

ـ كم أنت جميلة... كم أنت جميلة!ـ واستطرد فجأة بنبرة احتفاليةـ أنيوتا! أنا قد أسعدتك، واليوم تستطيعين أنت إسعادي. أرجوك تعرفي بزوجة صاحب السمو! بالله عليك! فعن طريقها يمكنني أن أصبح كبير المعاونين.

وذهبا إلى الحفل. وها هو ذا مجمع النبلاء، والمدخل ذو الحاجب. والردهة ذات المشاجب، ومعاطف الفراء، والخدم المهرولون، والسيدات العاريات الأكتاف والصدور، وهن يتقين بالمراوح تيارات الهواء. وتفوح رائحة غاز الاستصباح والجنود. وعندما سمعت آنيا الموسيقى وهي تصعد الدرج متأبطة ذراع زوجها، ورأت نفسها بالكامل في مرآة ضخمة، وقد أضاءتها عشرات المصابيح، استيقظت الفرحة في قلبها وذلك الهاجس بالسعادة، الذي تملكها في تلك الأمسية القمرية على المحطة الصغيرة. سارت بعزة، وثقة، وهي تحس بنفسها لأول مرة لا كفتاة، بل كسيدة، وتقلد بمشيتها وحركاتها لا إراديا المرحومة أمها. ولأول مرة في حياتها أحست بأنها غنية وحرة. حتى حضور زوجها لم يضايقها، ذلك لأنها ما إن عبرت عتبة المجمع حتى أدركت بغريزتها أن وجود زوج عجوز بقربها لا يحط من قدرها أبدا، بل بالعكس، يضفي عليها

---

(١) الحلي (بالفرنسية في الأصل).

طابع الغموض المثير الذى يستهوى الرجال إلى تلك الدرجة. وفى القاعة الكبيرة كان الأوركسترا يدوى وقد بدأ الرقص. وبعد الشقة الحكومية نظرت آنيا التى بهرها انطباع الأضواء والألوان والموسيقى والصخب إلى الصالة وفكرت: «آه ما أروع هذا»، وعلى الفور ميزت فى الحشد جميع معارفها، جميع هؤلاء الضباط والمدرسين، والمحامين، والموظفين، والإقطاعيين، وصاحب السمو، وأرطينوف، وسيدات المجتمع الراقى المتأنقات، العاريات الأكتاف والصدور بشدة، الجميلات والقبيحات، اللائى شغلن مواقعهن فى أكشاك وأجنحة السوق الخيرية استعدادا لبدء البيع لصالح الفقراء. وظهر فجأة ضابط ضخم بكتفيات حريرية مقصبة ـ كانت قد تعرفت به فى شارع ستارو كيفسكايا وهى بعد تلميذة، ولم تعد تذكر اسمه الآن ـ وكأنما انشقت الأرض عنه، ودعاها لرقصة الفالس، فحلقت مبتعدة عن زوجها، وأصبح يخيل إليها أنها تسبح فى زورق شراعى أثناء عاصفة شديدة، بينما بقى زوجها بعيدا على الشاطئ.. رقصت بهيام وولع رقصات الفالس والبولكا والكادريل، والأيدى تتناقلها، وهى نشوى من الموسيقى والصخب، وتخلط الكلمات الروسية بالفرنسية، وتلثغ وتضحك ولا تفكر لا فى زوجها ولا فى أحد أو شىء. لقد حازت على إعجاب الرجال، وكان ذلك واضحا، ولم يكن من الممكن أن يكون غير ذلك، وكانت تختنق من الانفعال وتعصر المروحة فى يدها بتوتر وتشعر بالظمأ. واقترب منها أبوها بيوتر ليونتيتش، فى فراك مجعد تفوح منه رائحة البنزين، ومد لها طبقا به آيس كريم أحمر.

وقال لها وهو يرمقها بإعجاب:

ـ أنت اليوم فاتنة. لم أشعر أبدا بالأسف كما شعرت اليوم على تسرعك بالزواج.. لماذا؟ أنا أعرف أنك فعلت ذلك من أجلنا، ولكن..ـ وأخرج بيدين مرتعشين رزمة نقود صغيرة وقال ـ اليوم أخذت أجر الدروس وأستطيع أن أسدد دينى لزوجك.

ودست الطبق فى يديه وحلقت بعيدا عنه وقد سحبها شخص ما، ورأت من فوق كتفى مراقصها كيف انزلق أبوها على باركيه الأرضية فاحتضن سيدة ودار بها فى الصالة.

وفكرت: «كم هو لطيف عندما يكون مفيقا!».

رقصت المازوركا مع ذلك الضابط الضخم. كان يخطو بثقل وعظمة كأنما ذبيحة فى حلة، ويدير كتفيه وصدره، ولا يكاد يحرك قدميه، فقد كان غير راغب فى الرقص أبدا، أما هى فكانت تخفق من حوله مستفزة إياه بجمالها وعنقها المكشوف. وكانت عيناها تتقدان حماسة، وحركاتها تفيض حرارة، أما هو فازداد لامبالاة ومد إليها يديه بتفضل كأنه ملك.

وتردد فى الجمع:

ـ برافو! برافو!.

ولكن شيئا فشيئا لم يصبر الضابط الضخم. دبت فيه الحياة، فانفعل واستجاب للسحر فتملكته الحمية وأصبح يتحرك بخفة وصبا، أما هى فكانت تدير كتفيها فحسب وتحدق بمكر، كأنما هى التى أصبحت ملكة وهو عبد، وفى تلك الأثناء خيل إليها أن الصالة كلها تنظر إليهما، وأن كل هؤلاء الناس يذوبون تأثرا ويغبطونهما. وما إن شكرها الضابط الضخم حتى انشق الجمهور فجأة، واستطالت قامات الرجال بصورة غريبة وتهدلت أذرعهم... كان صاحب السمو قادما نحوها، فى فراك بنجمتين. نعم، كان صاحب السمو قادما نحوها بالذات إذ كان يحدق فيها مباشرة ويبتسم ابتسامة معسولة وخلال ذلك كان يتلمظ بشفتيه، وهو ما كان يفعله دائما عندما يرى نساء جميلات.

وأخذ يقول:

ـ سعيد جدا، سعيد جدا،.. سآمر بسجن زوجك لأنه أخفى عنا هذا الكنز حتى الآن ـ واستطرد يقول مادا لها يده ـ جئتك بتكليف من زوجتى. ينبغى أن

تساعدينا.. إم.. يجب أن تخصص لك جائزة الجمال.. كما فى أمريكا.. إم.. الأمريكيون.. زوجتى تنتظرك بفارغ الصبر.

وقادها نحو كشك، إلى سيدة كهلة، كان الجزء الأسفل من وجهها ضخما بما لا يتسق وبقية الوجه، فبدت وكأنما وضعت فى فمها حجرا كبيرا.

وقالت لآنيا بصوت أخنف ناغم:

ـ ساعدينا. كل السيدات الجميلات يعملن فى السوق الخيرية، وأنت وحدك التى تلهو لسبب ما. لماذا لا تريدين مساعدتنا؟

وانصرفت، وشغلت آنيا مكانها بجوار سماور فضى حوله فناجين الشاى. وعلى الفور بدأت تجارة نشيطة. لم تكن آنيا تتقاضى مقابل فنجان الشاى أقل من روبل، وأجبرت الضابط الضخم على شرب ثلاثة فناجين... وجاء أرطينوف، ذلك الثرى ذو العينين الجاحظتين الذى يعانى من اللهاث، ولكنه لم يكن فى حلته الغريبة التى رأته آنيا فيها صيفا، بل فى فراك، مثل الجميع. ودون أن يحول بصره عن آنيا شرب كأس شمبانيا ودفع مائة روبل، ثم شرب شايا ودفع مائة أخرى.. فعل كل ذلك فى صمت، وهو يعانى من الربو... ومضت آنيا تنادى الزبائن وتتقاضى منهم النقود، وهى واثقة تماما من أن ابتساماتها ونظراتها لا تجلب لهؤلاء الناس سوى المتعة الخالصة. وأدركت أنها لم تخلق إلا لهذه الحياة الصاخبة البراقة الضاحكة بموسيقاها ورقصها ومعجبيها، وبدا لها مضحكا خوفها القديم من تلك القوة التى تزحف نحوها وتهدد بدهمها. لم تعد تخشى أحدا، ولم تأسف إلا لغياب أمها التى لو كانت حية لشاركتها الفرحة بنجاحها.

اقترب بيوتر ليونتيتش، الذى أصبح شاحبا، وإن كان لا يزال يقف راسخا على قدميه، من الكشك وطلب كأس كونياك. وتضرجت آنيا وهى تتوقع أن يتفوه بشىء غير لائق (فقد أصبحت تشعر بالخجل من أن لها أبا فقيرا وعاديا إلى هذا الحد)، ولكنه شرب، وألقى إليها بعشرة روبلات من رزمته الصغيرة،

وابتعد بعظمة دون أن يقول كلمة واحدة. وبعد قليل رأته وهو يراقص سيدة فى grand-rond، ولكنه أصبح الآن يترنح ويصرخ بشىء ما، مما أثار خجل صاحبته الشديد، فتذكرت آنيا كيف كان يترنح ويصرخ هكذا فى الحفل منذ ثلاث سنوات، وانتهى الأمر بأن حمله الشرطى إلى البيت لينام، وفى اليوم التالى هدده الناظر بالفصل من الوظيفة. أوه، كم جاءت هذه الذكرى فى غير وقتها!

عندما أطفئت نيران السماور فى الأكشاك وسلمت فاعلات الخير حصيلة البيع إلى السيدة الكهلة ذات الحجر فى فمها، تأبط أرطينوف ذراع آنيا وقادها إلى الصالة، حيث أقيمت مأدبة عشاء لجميع المشتركين فى السوق الخيرية. ولم يزد عدد المدعوين عن العشرين شخصا ولكن الصخب كان شديدا. ورفع صاحب السمو نخبا: «فى هذا المطعم الفاخر سيكون من المناسب أن نشرب من أجل ازدهار المطاعم الرخيصة التى أقيمت من أجلها سوق اليوم». واقترح الجنرال أن يشربوا «نخب القوة التى تتراجع أمامها حتى المدفعية» فمد الجميع كؤوسهم ليقرعوها بكؤوس السيدات. كان الجو فى غاية المرح!

وعندما أوصلوا آنيا إلى البيت كانت تباشير الفجر تلوح، وكانت الطاهيات يمضين إلى السوق. ونزعت آنيا ثيابها فرحة، ثملة، مشبعة بالانطباعات الجديدة، منهوكة القوى، وارتمت على السرير فنامت على الفور..

وفى حوالى الساعة الثانية أيقظتها الخادمة وأبلغتها أن السيد أرطينوف جاء للزيارة. فارتدت ثيابها على عجل وذهبت إلى غرفة الجلوس. وبعد أرطينوف سرعان ما جاء صاحب السمو ليشكرها على مساهمتها فى السوق الخيرية. وقبل يدها وهو ينظر إليها نظرة معسولة ويتلمظ بشفتيه، ورجاها أن تسمح له بزيارتها مرة أخرى، ثم رحل، بينما وقفت هى وسط الغرفة، مذهولة، مسحورة، غير مصدقة أن تحولا فى حياتها، تحولا مدهشا، قد وقع بهذه السرعة. وفى تلك اللحظة دخل زوجها موديست أليكسييتش.. ووقف

أمامها الآن بذلك التعبير المتزلف الحلو الخانع المبجل، الذى تعودت أن تراه على وجهه فى حضور الأشخاص الأقوياء الكبار. فقالت له بابتهاج وسخط واحتقار، واثقة من أنه لن يحدث لها شىء عقابا على ذلك، وهى تلفظ كل كلمة بوضوح:

ـ اغرب من هنا أيها الأحمق!

وبعد ذلك لم يعد لدى آنيا يوم فراغ واحد، لأنها كانت تشارك إما فى رحلة خلوية وإما فى نزهة، وإما فى مسرحية. وكانت تعود إلى البيت كل يوم قرب الصباح فترقد فى غرفة الجلوس، على الأرض، ثم تحكى للجميع بتأثر كيف تنام تحت الزهور. وأصبحت بحاجة إلى نقود كثيرة جدا، ولكنها لم تعد تخشى موديست أليكسييتش فراحت تنفق نقوده وكأنها نقودها. ولم تكن ترجوه أو تطالبه بل ترسل إليه الفواتير أو رسائل قصيرة: «ادفع لحامله ٢٠٠ روبل» أو «ادفع ١٠٠ روبل فورا».

وفى عيد الفصح حصل موديست أليكسييتش على وسام قلادة آنا من الطبقة الثانية. وعندما جاء إلى صاحب السمو ليشكره، نحى الأخير الصحيفة وغاص فى مقعده أكثر. وقال وهو يتملى يديه البيضاوين بأظافرهما الوردية:

ـ إذن فقد أصبح لديك ثلاث آنّات. واحدة فى عروتك واثنتان فى رقبتك.

فوضع موديست أليكسييتش إصبعين على شفتيه خشية أن يضحك عاليا وقال:

ـ لم يبق الآن إلا أن ننتظر مجىء فلاديمير الصغير. وإننى لأتجاسر يا صاحب السمو فأرجوكم أن تكونوا راعيه.

كان يلمح إلى وسام فلاديمير من الطبقة الرابعة، ومضى يتصور كيف سيحكى فى كل مكان عن قفشته هذه.الموفقة ببراعتها وجسارتها، وأراد أن

يقول شيئا آخر، موفقا أيضا، ولكن صاحب السمو انكب على الجريدة من جديد وأومأ برأسه...

أما آنيا فكانت تتنزه فى عربة الترويكا، وتذهب مع أرطينوف إلى رحلات الصيد، وتمثل فى المسرحيات ذات الفصل الواحد، وتتعشى، وندرت زياراتها لأهلها. كانوا الآن يتغدون وحدهم. وأغرق بيوتر ليونتيتش فى الشراب أكثر من ذى قبل، ولم تعد لديه نقود، وباعوا القدمية من زمان سدادا للديون. ولم يعد الصبيان يتركانه يخرج إلى الشارع وحده، وكانا يراقبانه دائما حتى لا يسقط. وعندما كانوا يلاقون آنيا أثناء التنزه فى شارع ستاروكييفسكايا راكبة عربة بحصانين، وأرطنيوف فى مكان الحوذى، كان بيوتر ليونتيتش ينزع القبعة ويهم بأن يصرخ بشىء ما، ولكن بيتيا وأندريوشا يمسكان به من تحت إبطيه ويقولان بصوت ضارع:

ـ لا داعى يا بابا.. كفى يا بابا..

المنزل ذو العلّية

(رواية مصور)

١

كان ذلك منذ حوالى ٦ ـ ٧ سنوات عندما كنت أعيش فى أحد مراكز محافظة (ت) فى ضيعة الإقطاعى بيلوكوروف، الشاب الذى كان يستيقظ مبكرا جدا ويرتدى صديريا ثقيلا، ويشرب البيرة فى المساء ويشكو لى طوال الوقت من أنه لا يجد تعاطفا فى أى مكان ولا من أى شخص. كان يعيش فى جناح بالبستان، أما أنا ففى بيت السيد القديم، فى قاعة ضخمة ذات أعمدة، لم يكن بها أى أثاث سوى كنبة عريضة كنت أنام عليها، وطاولة كنت أنشر فوقها أوراق اللعب. وحتى فى الأوقات الصحوة، كان هناك شىء ما يئز دائما فى المدافئ، وفى أوقات العاصفة يرتعش البيت كله ويبدو أنه يتمزق أشلاء، فتشعر ببعض الخوف، خاصة فى الليل، عندما يضىء البرق فجأة النوافذ العشر الضخمة كلها.

ولما كان القدر قد رمانى بالفراغ الدائم، فقد كنت لا أفعل شيئا على الإطلاق. كنت أقضى الساعات الطوال أنظر من نوافذى إلى السماء، والطيور، وممرات البستان، وأقرأ كل ما يحمله لى البريد، وأنام. وأحيانا كنت أغادر البيت وأظل أتسكع فى مكان ما حتى ساعة متأخرة من المساء.

وذات مرة، أثناء عودتى، دلفت صدفة إلى حديقة دار غير معروفة لى. كانت

الشمس قد اختفت، وامتدت ظلال المساء على الحنطة المزهرة. وانتصب صفان من أشجار الحور العجوز المتلاصقة والطويلة جدا مثل جدارين أصمين، فصنعا دربا مظلما جميلا. وعبرت السياج بسهولة وسرت فى هذا الدرب أتزحلق على الأوراق الإبرية التى كانت تغطى الأرض بسمك شبر. كان المكان هادئا، مظلما، وعلى قمم الأشجار العالية فقط كان يلوح فى بعض الأماكن ضوء ذهبى ساطع يتموج بألوان الطيف فى خيوط العنكبوت. وفاحت رائحة الصمغ بشدة، إلى درجة خانقة. ثم انعطفتُ بعد ذلك إلى درب بأشجار زيزفون. وهنا أيضا ساد الإهمال والشيخوخة.. كانت أوراق العام الماضى تخشخش بحزن تحت الأقدام، وتخفت ظلال الغسق بين الأشجار. وإلى اليمين، فى بستان الفاكهة العجوز صدح طائر الصفارية بصوت واهن، ويبدو أنه هو أيضا كان عجوزا. وها هى ذى أشجار الزيزفون تنتهى، وسرت بجوار بيت السادة، وبركة عريضة بمسبح، ومجموعة كثيفة من الصفصاف الأخضر، وقرية على الشاطئ الآخر ببرج أجراس عال ضيق يشتعل فوقه صليب عاكسا أشعة الشمس الغاربة. وللحظة هبت علىّ روائح شىء ساحر قريب إلى النفس ومعروف جدا، وكأنما رأيت هذا المنظر نفسه فى وقت ما أيام الطفولة.

وعند البوابة الحجرية البيضاء التى كانت تفضى من الفناء إلى الحقل، عند هذه البوابة العتيقة الصلبة ذات الأسود، وقفت فتاتان. كانت إحداهما، وهى الأكبر، نحيلة، شاحبة، جميلة جدا، تحمل على رأسها كومة من الشعر الكستنائى، وبفم صغير عنيد، وكان تعبير وجهها صارما، ولم تكد تولينى انتباها. أما الأخرى فكانت شابة جدا، فى حوالى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة لا أكثر.. وكانت هى أيضا نحيلة شاحبة، بفم واسع وعينين واسعتين، ونظرت إلىّ بدهشة عندما مررت بالقرب منهما، وقالت بالإنجليزية شيئا ما واعتراها الخجل، وخيل إلىّ أن هذين الوجهين الرقيقين معروفان لى أيضا منذ زمن بعيد. وعدت إلى المنزل بإحساس من رأى حلما جميلا.

وبعد ذلك بوقت قصير، عندما كنت أتجول مع بيلوكوروف بجوار المنزل، دلفت إلى الفناء بغتة عربة بنوابض، وخشخشت الأوراق تحت عجلاتها، وفيها كانت تجلس إحدى هاتين الفتاتين. كانت الفتاة الكبرى. وقد جاءت بكشف تبرعات لمنكوبي الحريق. ودون أن تتطلع فينا أخبرتنا بجدية وتفصيل عن عدد المنازل التي احترقت في قرية سيانوفو، وعدد الرجال والنساء والأطفال الذين أصبحوا بلا مأوى، وما هي التدابير التي تنوي اتخاذها في المراحل الأولى لجنة إغاثة منكوبي الحريق التي هي عضو فيها الآن. وبعد أن أعطتنا الكشف لنوقعه أخذته وأخفته وعلى الفور ودعتنا.

وقالت لبيلوكوروف وهي تناوله يدها:

ـ لقد نسيتنا تماما يا بيوتر بتروفتش. زرنا، وإذا كان monsieur N (وذكرت اسمي) يرغب في أن يرى كيف يعيش محبو موهبته ويتفضل بزيارتنا فستكون ماما وأنا سعداء.

وأومأت برأسي محييا.

وبعد أن رحلت أخذ بيوتر بتروفتش يحكي لي. قال إن هذه الفتاة من أسرة طيبة وتدعى ليديا فولتشانينوفا، أما الضيعة التي تعيش فيها مع أمها وأختها، وكذلك القرية على شاطئ البركة الآخر فتسمى شيلكوفكا. وكان والدها يحتل في وقت ما مكانة مرموقة في موسكو، ومات وهو في رتبة المستشار السري. ورغم مواردهم الجيدة فقد عاش آل فولتشانينوف في القرية صيفا وشتاء دون أن يغادروها، وكانت ليديا مدرسة في مدرسة ريفية في شيلكوفكا، وتتقاضى ٢٥ روبلا في الشهر. ولم تكن تنفق على نفسها سوى هذه النقود، وتعتز بأنها تعيش على حسابها.

وقال بيلوكوروف:

ـ أسرة شيقة. أعتقد أننا ينبغي أن نزورها ذات مرة. وسيكونون سعداء جدا.

وذات مرة بعد الغداء، فى أحد الأعياد تذكرنا آل فولتشانينوف، فتوجهنا إليهم فى شيلكوفكا. كانت الأم والفتاتان فى البيت. ويبدو أن الأم يكاترينا بافلوفنا كانت فى وقت ما جميلة،أما الآن فأصبحت مترهلة قبل الأوان، مريضة بضيق التنفس وحزينة وشاردة، وحاولت أن تسلينى بالحديث عن التصوير. وعندما علمت من ابنتها أننى ربما أزور شيلكوفكا، تذكرت على عجل منظرين أو ثلاثة من رسمى كانت قد رأتها فى المعارض بموسكو، فأخذت تسألنى الآن عما كنت أريد أن أعبر عنه فيها. أما ليديا، أو كما يسمونها فى البيت ليدا، فتحدثت مع بيلوكوروف أكثر مما تحدثت معى. كانت تسأله بجدية، ودون ابتسام، لماذا لا يعمل فى مجلس الإقليم، ولماذا لم يحضر حتى الآن اجتماعا واحدا للمجلس.

وقالت بتأنيب:

ـ لا يصح يا بيوتر بتروفتش، لا يصح. عيب عليك.

وقالت أمها مؤمنة:

ـ صحيح يا ليدا صحيح.. لا يصح.

واستطردت ليدا تقول وهى تخاطبنى:

ـ مركزنا كله فى أيدى بلاجين. هو رئيس مجلس الإدارة، وقد وزع جميع المناصب فى المركز على أولاد إخوته أنسابه ويفعل ما يريد. ينبغى الكفاح ضده. وعلى الشباب أن يشكل جماعة قوية، ولكن ها أنت ذا ترى شبابنا. عيب يابيوتر بتروفتش.

وصمتت الأخت الصغرى جينيا عندما دار الحديث عن مجلس الإقليم. لم تكن تشارك فى الأحاديث الجدية، ولم تكن العائلة تعتبرها كبيرة بعد، وكانوا يدعونها كالصغار بـ «ميسوس» لأنها فى طفولتها كانت تدعو مربيتها ميس. ظلت تتطلع إلىَّ طوال الوقت بفضول، وعندما تفرجت فى الألبوم على

الصور أخذت تشرح لى: «هذا عمى.. هذا أبى فى العماد»، وتمر بأصابعها على الصور، وتمسنى بكتفها كالأطفال، فرأيت عن قرب صدرها الضعيف الذى لم يكتمل، وكتفيها الدقيقتين، وضفيرتها، وجسدها النحيل، المشدود بقوة بحزام.

ولعبنا الكروكت، و lawn - tennis وتجولنا فى البستان، وشربنا الشاى، ثم جلسنا طويلا إلى مائدة العشاء. وبعد القاعة الضخمة الخاوية ذات الأعمدة أحسست بنوع من الضيق فى هذا المنزل الصغير المريح الذى لم تكن على جدرانه لوحات زيتية ويخاطب أهله الخدم بصيغة الجمع، وبدا لى كل ما فيه شابا ونقيا بفضل وجود ليدا وميسوس، وانبعثت من كل شىء رائحة الاستقامة. وأثناء العشاء تحدثت ليدا مع بيلوكوروف مرة أخرى عن مجلس الإقليم، وعن بلاجين، وعن مكتبات المدارس. لقد كانت فتاة حية، مخلصة، ذات عقيدة، وكان الاستماع إليها ممتعا، رغم أنها كانت تتحدث كثيرا وبصوت عال، ربما لأنها تعودت على ذلك فى المدرسة. ولكن صاحبى بيوتر بتروفتش، الذى كانت لديه منذ أيام الدراسة عادة تحويل أى حديث إلى نقاش، كان يتحدث بملل وتراخ وبجمل طويلة، وبرغبة ظاهرة فى أن يبدو شخصا ذكيا وتقدميًا. وبينما كان يلوح بيديه أثناء الحديث أسقط وعاء الصلصة بكمه فظهرت على المفرش بقعة كبيرة، ولكن أحدا غيرى، فيما بدا، لم يلحظ ذلك.

وعندما غادرنا عائدين كان الظلام قد حل وساد الهدوء وقال بيلوكوروف:

ـ ليست التربية الجيدة هى ألا تريق الصلصة على المفرش، بل ألا تلاحظ ذلك عندما يفعله شخص آخر ـ ثم تنهد وقال ـ نعم، أسرة رائعة، مثقفة. لقد تخلفت عن الناس الطيبين، آه كم تخلفت! وكل ذلك بسبب الأعمال، الأعمال! الأعمال!.

وتحدثت عن العمل الكثير الذى ينبغى أن تقوم به إذا أردت أن تكون مالكا

ريفيا نموذجيا. أما أنا ففكرت، يا له من رجل ثقيل وكسول. وعندما يتحدث عن شىء ما جدى يمط بتوتر «إ.. إ.. إ» ويعمل أيضا ببطء مثلما يتحدث، ويتأخر دائما عن المواعيد. لم أكن أثق فى روحه العملية أيضا لأن الرسائل التى كنت أعطيها له ليرسلها بالبريد كانت تبقى أسابيع عديدة فى جيبه.

ودمدم وهو يسير بجانبى:

ـ أصعب شىء أن تعمل ولا تجد تعاطفا من أحد، لا أدنى تعاطف.

٢

أخذت أتردد على آل فولتشانينوف. وكنت أجلس عادة على درجة الشرفة السفلية. كان يعذبنى سخطى على نفسى، وكنت آسفا على حياتى التى كانت تمضى بهذه السرعة وعلى هذا النحو غير الممتع، فرحت أفكر فى أنه من الخير لو استطعت أن أنزع من صدرى قلبى الذى أصبح ثقيلا هكذا. وفى تلك الأثناء كانوا يتحدثون فى الشرفة، ويتناهى حفيف الفساتين، وتقليب صفحات كتاب. وتعودت على أن ليدا تستقبل المرضى نهارا وتوزع الكتب، وتذهب كثيرا إلى القرية حاسرة الرأس، حاملة مظلة، وتتحدث فى المساء بصوت عال عن مجلس الإقليم وعن المدارس. هذه الفتاة النحيلة الجميلة الصارمة دوما، ذات الفم الرشيق الخطوط، كانت تقول لى دائما بصوت جاف عندما يبدأ حديث عملى:

ـ هذا ليس ممتعا لك.

لم أكن أروق لها. ولم تكن تحبنى لأننى أرسم مناظر، ولا أصور فى لوحاتى احتياجات الشعب، وكنت، كما بدا لها، لامباليا تجاه ما كانت تؤمن به بقوة. وأذكر عندما كنت مسافرا على شاطئ بحيرة «البايكال» أننى قابلت فتاة من البوريات ترتدى قميصا وسروالا من القماش الأزرق وتمتطى جوادا. وسألتها أن تبيع لى غليونها، وطوال حديثنا كانت تنظر باحتقار إلى وجهى الأوروبى

وإلى قبعتى، وفى لحظة ملت الحديث معى فأطلقت صيحة وركضت بالحصان مبتعدة. كذلك كانت ليدا تحتقر ما هو غريب فىَّ. ولم تظهر أبدا نفورها منى، ولكنى كنت أشعر به، فكنت أحس بالغيظ وأنا جالس على درجة الشرفة السفلية فأقول إن علاج الفلاحين، بينما لست أنت طبيبا، إنما هو خداع لهم، وإنه من السهل أن تكون خيّرا عندما تملك ألفى ديسياتينا[1].

أما شقيقتها ميسوس فلم تكن لديها أية هموم، فكانت تقضى أيامها فى فراغ تام، مثلى. وعندما تستيقظ صباحا تمسك على الفور بكتاب وتقرأ وهى جالسة فى الشرفة فى مقعد عميق. فكانت قدماها لا تكادان تلمسان الأرض، أو تختفى مع الكتاب فى درب الزيزفون، أو تمضى خارج البوابة إلى الحقل. كانت تقرأ طوال النهار وهى تحدق فى الكتاب بنهم. ومن نظرتها التى كانت تصبح أحيانا مرهقة مذهولة، ووجهها الذى يشحب بشدة كان بالإمكان أن تخمن كم ترهق هذه القراءة مخها. وعندما آتى وترانى، كانت تحمر قليلا، وتنحى الكتاب، وتحدق فى وجهى بعينيها الواسعتين وتروى لى بحيوية ما حدث، كأن تحدثنى عن اشتعال السناج فى غرفة الخدم، أو أن أحد عمالهم اصطاد فى البركة سمكة كبيرة. وفى الأيام العادية كانت ترتدى قميصا فاتحا وجونلة زرقاء قاتمة. وكنا نتنزه معا ونجمع الكرز للمربى ونسبح بالقارب، وعندما كانت تقفز لتقطف الكرز، أو تجدف، كانت ذراعاها النحيلتان الضعيفتان تشفان من أكمامها الواسعة. وأحيانا كنت أرسم مشهدا فتقف بجوارى وتتطلع بإعجاب.

وفى أحد أيام الأحد، فى نهاية يوليو جئت إلى آل فولتشانينوف صباحا، فى حوالى الساعة التاسعة. سرت فى الحديقة بعيدا عن البيت وأخذت أبحث عن الفطر الأبيض الذى كان كثيرا جدا فى ذلك الوقت، وأضع علامات بجواره لكى أجمعه مع جينيا فيما بعد. وهبت ريح دافئة. ورأيت جينيا وأمها فى فستانين فاتحين من فساتين الأعياد، قادمتين، من الكنيسة إلى البيت، وكانت

---

(١) الديسياتينا ـ مقياس روسى قديم لمسطح الأرض يعادل ١,٠٩ هكتار. (المعرب).

جينيا تثبت القبعة على رأسها كيلا تطوح بها الريح. ثم سمعتهم يشربون الشاى فى الشرفة.

وبالنسبة لى، كرجل خالى البال، يبحث عن تبرير لفراغه الدائم، كانت هذه الأصباح العيدية فى ضياعنا تبدو لى دائمة جذابة بصورة غير عادية. عندما يشع البستان الأخضر فى الشمس، وهو لا يزال رطبا من الندى، فيبدو سعيدا، وعندما تتضوع قرب البيت رائحة الخزامى والدفل، والشباب قد عاد لتوه من الكنيسة ويشرب الشاى فى الحديقة، وعندما يلبس الجميع ثيابا لطيفة ويعلو وجوههم المرح، وعندما تعلم أن كل هؤلاء الأشخاص الأصحاء الشبعى الجميلين لن يفعلوا شيئا طوال اليوم.. عندها تود أن تصبح الحياة كلها هكذا. والآن كنت أفكر فى ذلك وأتمشى فى البستان، وأنا على استعداد لأن أتمشى هكذا بلا عمل طول النهار، طول الصيف.

وجاءت جينيا ومعها سلة. وكان على وجهها تعبير وكأنها كانت تعرف أو تحدس أنها ستجدنى فى البستان. وجمعنا الفطر وتحدثنا، وعندما كانت تسألنى عن شىء ما، كانت تتقدمنى لكى ترى وجهى.

وقالت:

ـ وقعت معجزة بالأمس فى القرية. فقد كانت بيلاجيا العرجاء مريضة طول السنة، ولم يسعفها أى طبيب أو دواء، وبالأمس رقتها عجوز فزال المرض.

فقلت:

ـ هذا ليس مهما. لا ينبغى أن نبحث عن المعجزات فقط بجوار المرضى والعجائز. أليست الصحة معجزة؟ والحياة نفسها؟ كل ما هو غير مفهوم معجزة.

ـ وأنت، ألا تخاف من غير المفهوم؟

ـ كلا. الظواهر التى لا أفهمها أعاملها بنشاط ولا أخضع لها. أنا أسمى منها. ينبغى على الإنسان أن يحس بنفسه أسمى من الأسود والنمور والنجوم، أسمى من كل ما فى الطبيعة، بل حتى أسمى من كل ما هو غير مفهوم ويبدو معجزا، وإلا فهو ليس بإنسان، بل فأر يخاف من كل شىء.

كانت جينيا تعتقد أننى كمصور أعرف كثيرا جدا وأستطيع أن أخمن بصواب ما لا أعرفه. وقد أرادت أن أدخلها ميدان الخلود والجمال، ذلك المجتمع السامى الذى كنت فيه، حسب اعتقادها، واحدا من أفراده، فكانت تتحدث معى عن الله، وعن الحياة الخالدة، وعن المعجزات. وكنت أنا الذى لا أتصور أنه بعد الموت سأهلك أنا وخيالى إلى الأبد، أجيبها: «نعم، البشر خالدون»، «نعم، الحياة الخالدة فى انتظارنا»، فكانت تسمع وتصدق ولا تطالب بالأدلة.

وعندما كنا عائدين إلى المنزل توقفت فجأة وقالت:

ـ ليدا إنسان رائع، أليس كذلك؟ إننى أحبها بحرارة، وبوسعى أن أضحى بحياتى من أجلها فى كل لحظة. ولكن قل لى ـ ولمست جينيا كمى بإصبعها ـ لماذا تتجادل معها دائما؟ لماذا أنت عصبى معها؟

ـ لأنها ليست على حق.

فهزت جينيا رأسها سلبا، وظهرت الدموع فى عينيها. ودمدمت:

ـ كم يبدو لى هذا غير مفهوم.

فى تلك الأثناء كانت ليدا قد عادت لتوها من مكان ما، ووقفت فى الشرفة ممسكة بسوط فى يدها، رشيقة، جميلة، تضيئها الشمس، وكانت تصدر الأوامر لأحد العاملين. واستقبلت مريضين أو ثلاثة على عجل، وهى تتكلم بصوت عال، ثم طافت بالغرف بوجه يعبر عن روح الجد والمشغولية، تفتح هذا الصوان أو ذاك، وذهبت إلى العلية. وبحثوا عنها طويلا، ودعوها للغداء فجاءت عندما فرغنا من تناول الحساء. ولست أدرى لماذا أذكر وأحب كل هذه

التفاصيل الصغيرة، وأذكر جيدا ذلك اليوم الحار كله رغم أنه لم يحدث شيء ذو قيمة. وبعد الغداء جلست جينيا فى مقعد عميق وراحت تقرأ، وجلست أنا على درجة الشرفة السفلية. ولزمنا الصمت. واتشحت السماء كلها بالغيوم، وراح يسقط مطر خفيف متقطع. كان الجو حارا، والريح قد سكنت منذ فترة طويلة، وبدا أن هذا النهار لن ينتهى أبدا. وجاءتنا يكاترينا بافلوفنا فى الشرفة بوجه ناعس وفى يدها مروحة.

فقالت جينيا وهى تقبل يدها:

ـ أوه يا ماما، من المضر لك النوم فى النهار.

كانتا تعشقان بعضهما البعض. وعندما تذهب إحداهما إلى البستان، تقف الأخرى فى الشرفة وتتطلع إلى الأشجار وتنادى «يا جينيا» أو «ماما، أين أنت؟» وكانتا تصليان دائما معا، وعلى درجة واحدة من الإيمان، وتفهمان بعضهما البعض جيدا حتى عندما تصمتان. وكان موقفهما من الناس واحدا. وكذلك تعودت علىّ يكاترينا بافلوفنا وتعلقت بى بسرعة، وعندما كنت لا أزورهم يومين أو ثلاثة، كانت ترسل من يسأل هل أنا بصحة طيبة. وكانت تتطلع إلى مشاهدى أيضا بإعجاب، وبنفس الثرثرة وبنفس الصراحة مثل ميسوس كانت تحدثنى عما يحدث، وكثيرا ما كانت تأتمننى على أسرارها العائلية.

وكانت تبجل ابنتها الكبرى. ولم تكن ليدا تلاطف أحدا، ولا تتحدث إلا عن الأمور الجدية، وتعيش حياتها الخاصة وكانت بالنسبة لأمها وشقيقتها مقدسة، وشخصية غامضة إلى حد ما مثل الأميرال بالنسبة للبحارة، والذى يجلس طوال الوقت فى مقصورته.

وكانت الأم تقول كثيرا:

ـ ليدانا شخص رائع، أليس كذلك؟

والآن، وبينما المطر يتساقط، أخذنا نتحدث عن ليدا.

ـ إنها إنسان رائع ـ قالت الأم، ثم أضافت فى همس وبنبرة تآمر وهى تتلفت حولها بخوف ـ مثلها لن تجد مهما بحثت، ولكنى، أتدرى، بدأت أقلق قليلا. المدرسة، والصيدليات، والكتب، كل ذلك جميل.. ولكن لماذا التطرف؟ إنها الآن فى الرابعة والعشرين، آن لها أن تفكر فى نفسها بجدية وإلا فلن تشعر من وراء الكتب والصيدليات إلا والحياة قد ولت.. ينبغى أن تتزوج.

ورفعت جينيا رأسها، وكان وجهها شاحبا من القراءة، وتسريحتها مجعدة وقالت وهى تنظر إلى أمها وكأنها تقول لنفسها:

ـ ماما، كل شىء رهن بمشيئة الله.

وانهمكت فى القراءة من جديد.

وجاء بيلو كوروف فى الصديرى الثقيل وقميصه المطرز. ولعبنا الكروكت، و lawn - tennis، وعندما حل الظلام تعشينا طويلا، وعادت ليدا تتحدث عن المدارس وعن بلاجين الذى سيطر على الإقليم. وعندما رحلت فى ذلك المساء عن آل فولتشانينوف حملت معى انطباع يوم طويل طويل فارغ وإدراكا حزينا بأن لكل شىء نهاية فى هذه الدنيا مهما كان طويلا. وودعتنا جينيا حتى البوابة، وربما لأنها قضت معى اليوم كله من الصباح حتى المساء، أحسست بدونها بالوحشة وبأن هذه الأسرة اللطيفة قريبة إلى قلبى، ولأول مرة طوال الصيف شعرت بالرغبة فى الرسم.

وسألت بيلوكوروف وأنا عائد معه إلى البيت:

ـ خبرنى، لماذا تعيش على هذا النحو الممل، العديم الألوان؟ إن حياتى مملة، ثقيلة ورتيبة لأننى مصور، لأننى إنسان غريب، مزقتنى منذ الصغر الغيرة وعدم الرضا عن النفس وعدم الثقة فى عملى. إننى فقير دوما، أنا صعلوك، ولكن أنت، أنت أنسان صحيح، طبيعى، إقطاعى، سيد، فلماذا تحيا هذه الحياة غير الممتعة ولماذا لا تأخذ من الحياة إلا هذا القدر القليل؟ لماذا، مثلا، لم تقع فى حب ليدا أو جينيا حتى الآن؟.

فأجاب بيلوكوروف:

ـ إنك تنسى أننى أحب امرأة أخرى.

كان يقصد صاحبته لوبوف إيفانوفنا، التى كانت تعيش معه فى الجناح. وكنت كل صباح أرى هذه السيدة البدينة، التى تشبه أوزة معلوفة، وهى تتجول فى البستان مرتدية فستانا روسيا وعقدا، ودائما تحت شمسية، والخدم يدعونها بين الحين والحين لتأكل تارة، ولتشرب الشاى تارة أخرى. منذ حوالى ثلاثة أعوام استأجرت أحد الأجنحة من بيلوكوروف كمقر صيفى، ومن يومها بقيت عنده يبدو إلى الأبد. كانت تكبره بحوالى عشرة أعوام، وتتحكم فيه بصرامة، بحيث كان عليه أن يطلب الإذن منها إذا أراد أن يغادر البيت. وكانت تنتحب كثيرا بصوت رجالى، وعندئذ أرسل إليها من يقول إنها إذا لم تكف فسأرحل عن الشقة، فكانت تكف عن البكاء.

وعندما وصلنا البيت جلس بيلوكوروف على الكنبة وقطب حاجبيه مفكرا، أما أنا فأخذت أتمشى فى القاعة وقد انتابنى اضطراب خفيف وكأننى عاشق. كنت أشعر برغبة فى الكلام عن آل فولتشانينوف.

فقلت:

ـ ليدا لا يمكن أن تحب سوى عضو مجلس إقليم، مغرم مثلها بالمستشفيات والمدارس. أوه، فى سبيل فتاة كهذه يمكن للمرء أن يصبح لا عضو مجلس إقليم فحسب، بل وأن يذيب نعل حذاء حديدى كما فى الحكايات. وميسوس؟ يا لها من ساحرة ميسوس هذه!

ومط بيلوكوروف ببطء «إ.. إ.. إ» وتحدث عن التشاؤم، مرض العصر. كان يتحدث بثقة، وبنبرة كأنما كنت أجادله. إن مئات الكيلو مترات من السهوب الخاوية، الرتيبة، العارية لا تستطيع أن تصيبك بهذه الكآبة التى يصيبك بها شخص واحد، عندما يجلس ويتحدث، ولا تدرى متى سيرحل.

وقلت بعصبية:

ـ ليست القضية فى التشاؤم أو التفاؤل، وإنما فى أن تسعة وتسعين فى المائة من الناس ليس لديهم عقول.

واعتبر بيلوكوروف أنه المقصود بذلك، فغضب وانصرف.

٣

قالت ليدا لأمها وهى تخلع القفاز وقد عادت من مكان ما:

ـ الأمير نزل ضيفا فى مالوزيوموف، ويبلغك التحية. روى أشياء طريفة كثيرة.. ووعد أن يثير فى مجلس المحافظة من جديد مسألة المركز الطبى فى مالوزيوموف، ولكنه قال إن الأمل ضعيف ـ وقالت تخاطبنى ـ عفوا، إننى دائما أنسى أن هذا لا يمكن أن يكون طريفا بالنسبة لك.

وشعرت بالضيق، فسألتها وأنا أهز كتفى:

ـ لِمَ ليس طريفا؟ أنت لا تريدين سماع رأيى، ولكنى أؤكد لك أن هذه المسألة تهمنى جدا.

ـ حقا؟

ـ نعم، فى رأيى أن المركز الطبى فى مالوزيوموف غير ضرورى البتة.

ـ وما هو الضرورى؟ المناظر؟

ـ والمناظر أيضا غير ضرورية. لا ضرورة لشىء هناك.

وفرغت من خلع قفازها وفتحت الصحيفة التى حملها البريد لتوه. وبعد دقيقة قالت بهدوء وهى تكبح نفسها فيما يبدو:

ـ فى الأسبوع الماضى ماتت آنا أثناء المخاض، ولو كان هناك مركز طبى قريب لبقيت على قيد الحياة. ويخيل إلىّ أنه ينبغى على السادة رسامى المناظر أن تكون لديهم عقيدة ما فى هذا الصدد.

فأجبت ولكنها حجبت نفسها عنى بالصحيفة وكأنما لا تريد أن تسمع:

ـ عندى عقيدة محددة تماما فى هذا الصدد. ففى رأيى أن المراكز الطبية والمدارس والمكتبات والصيدليات فى ظل الظروف القائمة لا تساعد إلا على الاستعباد. إن الشعب مكبل بسلسلة هائلة، وأنتم لا تحطمون السلسلة، بل تضيفون إليها حلقات جديدة. هذه هى عقيدتى.

ورفعت إلىّ بصرها وابتسمت بسخرية، أما أنا فاستطردت محاولا أن أقتنص فكرتى الرئيسية:

ـ ليس المهم أن آنا ماتت أثناء المخاض، ولكن المهم هو أن أمثال آنا ومافرا، وبيلاجيا، جميعهن يحنين ظهورهن من الصباح إلى المساء ويمرضن من الكد المرهق، ويرتعشن طوال حياتهن هلعا على أولادهن الجوعى والمرضى، ويخفن طوال الحياة من الموت والأمراض، ويتعالجن طوال الحياة، ويذبن مبكرا، ويهرمن مبكرا، ويمتن فى القذارة والنتانة. وعندما يكبر أولادهن يسيرون على نفس المنوال، وهكذا تمضى مئات السنين، بينما يعيش مليارات البشر أسوأ مما تعيش الحيوانات.. فقط من أجل كسرة الخبز، وهم يعانون من الخوف الدائم. والفظاعة فى وضعهم إنه لا وقت لديهم للتفكير فى أنفسهم وفى أرواحهم. الجوع والبرد، والخوف الحيوانى، وكمية العمل الهائلة قد سدت عليهم، ككتل الجليد المنهارة، كل الطرق المؤدية إلى النشاط الروحى، بالضبط إلى ذلك الذى يميز الإنسان عن الحيوان، ويشكل الشىء الوحيد الذى يستحق أن نعيش من أجله. وأنتم تخفون لمساعدتهم بالمستشفيات والمدارس، ولكنكم بذلك لا تحررونهم من القيود، بل بالعكس، تستعبدونهم أكثر، وذلك لأنكم بإدخال مزيد من الخزعبلات إلى حياتهم تزيدون من عدد احتياجاتهم، هذا إذا تغاضينا عن أنهم لابد أن يدفعوا لمجلس الأقليم مقابل العقاقير والكتب، أى مزيدا من إحناء الظهر.

فقالت ليدا وهى تنزل الصحيفة:

ـ لن أجادلك. لقد سمعت ذلك قبلا. ولكنى سأقول لك شيئا واحدا: لا ينبغى أن نجلس بلا عمل. صحيح أننا لا ننقذ البشرية، وربما كنا نخطئ فى أشياء كثيرة، ولكننا نفعل ما نستطيع، ونحن على حق. إن أسمى وأقدس مهمة للإنسان المتحضر أن يساعد الأقربين، ونحن نحاول أن نساعدهم حسبما نستطيع. هذا لا يعجبك، ولكن ما العمل، لا يمكن إرضاء الجميع.

وقال الأم :

ـ صحيح ياليدا، صحيح يا ليدا، صحيح.

كانت تشعر دائما بالوجل فى حضرة ليدا، وعندما تتكلم تتطلع إليها بقلق، خشية أن تقول شيئا ما لا لزوم له أو غير مناسب. ولم تعارضها أبدا، بل كانت توافقها دائما: صحيح يا ليدا، صحيح.

وقلت:

ـ إن تعليم الفلاحين، والكتب ذات المواعظ والدروس التافهة، والمراكز الطبية، لا يمكن أن تقلل نسبة الجهل أو الوفيات مثلما لا يمكن لضوء نوافذكم أن يضىء هذا البستان الضخم. إنكم لا تفعلون شيئا، وبتدخلكم فى حياة هؤلاء الناس لا تصنعون سوى احتياجات جديدة، ومبرر جديد للكد.

ـ آه، يا إلهى، ولكن ينبغى أن نفعل أى شىء!ـ قالت ليدا بأسى، وظهر من نبرتها أنها تعتبر أفكارى تافهة، وتحتقرها.

فقلت:

ـ ينبغى تحرير الناس من العمل البدنى الشاق. ينبغى تخفيف النير عنهم، وإعطاؤهم فرصة لالتقاط الأنفاس، لكى لا يقضوا حياتهم كلها أمام الأفران والطسوت وفى الحقل، بل يكون لديهم وقت للتفكير فى الروح والله، وفرصة للتعبير عن قدراتهم الروحية على نطاق أوسع. إن رسالة كل إنسان هى فى النشاط الروحى، فى البحث الدائم عن الحقيقة ومغزى الحياة. فلتجعلوا العمل

الحيوانى الفظ غير ضرورى لهم، أعطوهم الفرصة ليحسوا بأنفسهم أحرارًا، وعندئذ ستدركون أية سخرية فى الواقع تمثل هذه الكتب والصيدليات. وإذا ما أدرك الإنسان رسالته الحقيقية فلن يشبعها سوى الدين والعلوم والفنون، لا هذه التفاهات.

وقالت ليدا ساخرة:

ـ تحريرهم من العمل! وهل هذا ممكن؟

ـ نعم. خذوا على عاتقكم جزءا من عملهم. فلو أننا جميعا، سكان المدن والقرى، جميعا بدون استثناء، وافقنا على توزيع العمل بيننا، العمل الذى تنفقه البشرية عموما على إشباع الحاجات المادية، فربما لم يزد نصيب الفرد منا عن ساعتين أو ثلاث من العمل فى اليوم. تصورى أننا جميعا، أغنياء وفقراء، نعمل فقط ثلاث ساعات فى اليوم، وبقية الوقت أحرار. وتصورى أيضا أننا، لكى نكون أقل تبعية لأجسادنا ونعمل أقل، سنخترع آلات تقوم هى بالعمل، وأننا سنسعى إلى تخفيض احتياجاتنا إلى أدنى حد. وأننا سنقوى عزيمتنا وعزيمة أطفالنا لكى لا يخافوا الجوع والبرد ولكى لا نرتعش خوفا على صحتهم كما ترتعش آنا ومافرا وبيلاجيا. تصورى أننا لا نتعالج، ولا نحتفظ بصيدليات ولا مصانع دخان وخمور.. فأى وقت فراغ سيتبقى لدينا فى النهاية. وعندئذ نخصص جميعا هذا الوقت للعلوم والفنون. ومثلما يقوم الفلاحون جماعة بإصلاح الطريق، نقوم نحن جماعة بالبحث عن الحقيقة ومغزى الحياة، وعندئذ ـ وأنا على يقين من ذلك ـ سنكتشف الحقيقة بسرعة، وسيتخلص الإنسان من هذا الخوف الدائم المعذب الممض من الموت، بل وحتى من الموت نفسه.

فقالت ليدا:

ـ ولكنك تناقض نفسك. أنت تقول: العلوم، العلوم، ومع ذلك تنكر التعليم.

ـ التعليم عندما لا تكون لدى الإنسان إمكانية سوى قراءة لافتات الحانات، وأحيانا بعض الكتب التى لا يفهمها.. هذا التعليم قائم لدينا من أيام ريوريك. والخادم بتروشكا، عند جوجول، يقرأ منذ زمن بعيد، ومع ذلك فالقرية ظلت حتى الآن كما كانت فى عصر ريوريك. ليس المطلوب هو التعليم، بل حرية إظهار القدرات الروحية على أوسع نطاق. لسنا بحاجة إلى مدارس، بل إلى جامعات.

ـ وأنت تنكر الطب أيضا.

ـ نعم. فلن يكون ضروريا إلا لدراسة الأمراض، كظواهر طبيعية، لا لعلاجها. وإذا كان لابد من العلاج فلنعالج لا الأمراض، بل أسبابها. لو أزلنا السبب الرئيسى ـ وهو العمل البدنى ـ لاختفت الأمراض ـ ورحت أقول بانفعال ـ إننى لا أعترف بالعلم الذى يعالج. فالعلوم والفنون، إذا كانت حقيقية، لا تسعى إلى أغراض مؤقتة، جزئية، بل إلى الشىء الخالد والعام.. إنها تبحث عن الحقيقة ومغزى الحياة، تبحث عن الله، وعن الفكرة. أما عندما يربطونها بالحاجات اليومية الملحة، بالصيدليات والمكتبات فإنها لا تؤدى إلا إلى تعقيد الحياة وتلويثها. لدينا الكثير من الأطباء، والصيادلة، والمحامين، وأصبح لدينا الكثير من المتعلمين، ولكن ليس لدينا أبدا بيولوجيون ورياضيون وفلاسفة وشعراء لقد انصرف العقل كله، والطاقة الروحية كلها إلى إشباع الاحتياجات المؤقتة الزائلة... والعمل يجرى على قدم وساق لدى العلماء والكتاب والمصورين، وبفضلهم تزداد وسائل الراحة فى الحياة يوما بعد يوم، وتتضاعف متطلبات الجسد، ومع ذلك فما زلنا بعيدين عن الحقيقة، ويظل الإنسان كما كان أحط الحيوانات وأشدها وحشية، وكل شىء يشير إلى أن البشرية قد انحلت فى غالبيتها وفقدت إلى الأبد أية قدرة على الحياة. وفى ظل هذه الظروف ليس لحياة المصور من معنى، وكلما ازدادت موهبته يصبح دوره أشد غرابة وعدم مفهومية، لأنه عند التمحيص يتضح أنه يعمل من أجل

تسلية حيوان مفترس منحط مساندا بذلك النظام القائم. وأنا لا أريد أن أعمل، ولن أعمل.. لا ضرورة لأى شىء، فلتذهب الأرض فى داهية.

ـ اخرجى يا ميسوسكا.. ـ قالت ليدا لأختها وهى ترى فى كلماتى على ما يبدو ضررا بالنسبة لفتاة صغيرة. فنظرت جينيا بحزن إلى أختها ثم إلى أمها وخرجت. فقالت ليدا:

ـ إن مثل هذه الأشياء اللطيفة يقولونها عندما يريدون تبرير لا مبالاتهم. إن إنكار المستشفيات والمدارس أسهل من العلاج والتدريس.

ثم استطردت ليدا تقول:

ـ إنك تهدد بأنك لن تعمل. يبدو أنك تقدر أعمالك تقديرا عاليا. فلنكف عن الجدل فلن نلتقى أبدا، لأن أكثر المكتبات والصيدليات تخلفا، والتى تحدثت عنها لتوك باحتقار، هى فى نظرى أسمى من جميع المناظر فى العالم ـ والتفتت على الفور إلى أمها وقالت بنبرة مختلفة تماما: لقد هزل جدا وتغير بشدة منذ أن كان عندنا. الأطباء ينصحونه بالذهاب إلى فيشى.

تحدثت مع أمها عن الأمير كيلا تتحدث معى. وكان وجهها محتقنا، ولكى تخفى اضطرابها انحنت بشدة على الطاولة كقصيرى النظر وتظاهرت بأنها تقرأ الصحيفة. كان وجودى مكروها، فودعت وانصرفت عائدا إلى البيت.

٤

كان الجو فى الفناء هادئا، وقد نامت القرية على شاطئ البركة الآخر فلم يلح منها بصيص ضوء، ولم تنعكس فى مياه البركة بوهن إلا ظلال النجوم الشاحبة. وبجوار البوابة ذات الأسود كانت جينيا واقفة بلا حراك فى انتظارى لكى تودعنى.

وقلت لها وأنا أحاول أن أتفحص وجهها فى الظلمة فرأيت عينيها السوداوين الحزينتين ترمقاننى:

ـ الجميع نيام فى القرية. صاحب الحانة ولص الخيول ينامان فى هدوء، أما نحن، الناس المحترمين، فنثير أعصاب بعضنا البعض ونتجادل.

كانت ليلة حزينة من ليالى أغسطس.. حزينة لأن أنفاس الخريف ترددت فيها. وبزغ القمر ملفعا بسحابة حمراء فأضاء بالكاد الطريق والحقول على جانبيه. وتهاوت النجوم بكثرة. وسارت جينيا بجوارى على الطريق وهى تحاول ألا تتطلع إلى السماء لكيلا ترى النجوم المتهاوية التى كانت تخفيها لسبب ما.

وقالت وهى ترتعش من رطوبة الليل:

ـ يخيل إلىّ أنك على حق. لو أن الناس جميعا استطاعوا أن يكرسوا قواهم للنشاط الروحى لسرعان ما توصلوا إلى معرفة كل شىء.

ـ طبعا. إننا مخلوقات سامية ولو أننا أدركنا بالفعل كل قوة العبقرية الإنسانية وعشنا فقط من أجل الأغراض السامية لأصبحنا فى النهاية مثل الآلهة. ولكن ذلك لن يحدث أبدا. ستتحلل البشرية ولن يبقى من العبقرية أثر.

وعندما غابت البوابة عن الأنظار توقفت جينيا وصافحتنى على عجل.

ـ ليلة سعيدة ـ قالت وهى ترتعش فلم يكن يغطى كتفيها سوى القميص فانكمشت من البرد ـ تعال غدا.

أرعبتنى فكرة بقائى وحدى منفعلا، غير راض عن نفسى وعن الناس، وأخذت أنا أيضا أحاول ألا أتطلع إلى النجوم الهاوية. فقلت:

ـ ابقى معى دقيقة أخرى.. أرجوك.

كنت أحب جينيا. يبدو أننى أحببتها لاستقبالها ووداعها لى، لأنها كانت تنظر إلىّ برقة وإعجاب. وكم كان مؤثّرا ورائعا وجهها الشاحب، وعنقها

الدقيق، ويداها الدقيقتان، وضعفها، وفراغها وكتبها! وعقلها؟ لقد خمنت فيها عقلا فذا، وأعجبتني سعة تفكيرها، ربما لأنها كانت تفكر بصورة تختلف عن ليدا الصارمة الجميلة التى لم تكن تحبنى. وكانت جينيا معجبة بى كمصور، وقد انتصرت على قلبها بموهبتى، ورغبت بشدة فى أن أرسم لها وحدها وأخذت أحلم بها وكأنها ملكتى الصغيرة التى سوف تملك معى هذه الأشجار والحقول والضباب، والفجر، هذه الطبيعة الساحرة البديعة والتى شعرت بنفسى فيها رغم ذلك وحيدا وغير ضرورى بلا نهاية. ورجوتها:

ـ ابقى دقيقة أخرى. أتوسل إليك.

ونزعت معطفى وغطيت كتفيها المرتعشين، فضحكت وألقت به خشية أن تبدو مضحكة وغير جميلة فى المعطف الرجالى. وفى تلك اللحظة ضممتها وانهلت عليها بالقبلات فى وجهها وكتفيها ويديها.

ـ إلى الغد!ـ همست وعانقتنى بحذر وكأنما تخشى أن تعكر هدوء الليل ـ ليس بيننا أسرار، وعلىَّ الآن أن أخبر أمى وأختى بكل شىء.. كم أخاف ذلك! من جهة أمى لا بأس، إنها تحبك، ولكن ليدا!

وركضت نحو البوابة، وصاحت:

ـ وداعا!

وسمعت مدة دقيقتين ركضها. لم أكن أريد العودة إلى المنزل، ولم يكن ثمة داع للذهاب. فلبثت قليلا أفكر، ثم عدت أدراجى لألقى نظرة أخرى على البيت الذى كانت تقطنه، هذا البيت الرقيق الساذج القديم والذى بدا يتطلع إلىّ بنوافذ عليّته وكأنما يتطلع بأعين، ويدرك كل شىء. ومررت بحذاء الشرفة، وجلست على أريكة قرب ملعب Lawn - tennis فى الظلام تحت شجرة دردار عتيقة، ورحت أنظر من هنا إلى البيت. وشع ضوء ساطع فى نوافذ العلّية التى كانت ميسوس تسكن فيها، ثم ظهر ضوء أخضر هادئ. فقد غطوا المصباح

بالأباجورة. وتحركت ظلال.. وكنت مشبعا بالرقة والسكينة والرضا عن النفس، الرضا بأننى استطعت أن أولع وأحب، وفى الوقت نفسه شعرت بعدم الراحة من فكرة أنه فى هذه اللحظة ذاتها، وعلى قيد بضع خطوات منى، وفى إحدى غرف هذا المنزل تعيش ليدا، التى لا تحبنى، بل ربما تمقتنى. جلست ورحت أنتظر لعل جينيا تخرج، وأصخت السمع فخيل إلىّ أنهم يتحدثون فى العلية.

ومر حوالى ساعة. انطفأ الضوء الأخضر، ولم تعد تلوح الظلال. وكان القمر قد صعد عاليا فوق البيت وأضاء البستان النائم والطرقات. وفى حوض الزهور أمام المنزل لاحت الداليا والورود بوضوح وبدت كأنها من لون واحد. وبرد الجو بشدة. وخرجت من البستان والتقطت معطفى فى الطريق، ومضيت إلى المنزل على مهل.

عندما جئت فى اليوم التالى بعد الغداء إلى آل فولتشانينوف كان الباب الزجاجى المفضى إلى البستان مفتوحا على مصراعيه. وجلست فى الشرفة متوقعا أن أرى بين لحظة وأخرى جينيا قادمة من وراء حوض الزهور أو من أحد الممرات، أو يتناهى إلىَّ صوتها من الداخل. ثم دخلت غرفة الاستقبال، ثم غرفة الطعام، فلم أجد أثرا لأحد. وعبرت ممرا طويلا من غرفة الطعام إلى ردهة المدخل، ثم عدت أدراجى. كان فى الممر عدة أبواب، وخلف واحد منها تردد صوت ليدا:

ـ رزق الله.. الغراب ذات مرة.ـ قالت بصوت عال وبتمهل، إذ يبدو أنها كانت تملى ـ الغراب ذات مرة.. بقطعة جبن.. الغراب ذات مرة.. من هناك؟ـ صاحت فجأة وقد سمعت وقع أقدامى.

ـ أنا.

ـ آه، عفوا، لا أستطيع أن أخرج إليك الآن، إننى أدرّس لداشا.

ـ هل يكاترينا بافلوفنا فى البستان؟

ـ كلا لقد سافرت مع أختى صباح اليوم إلى خالتى فى محافظة بنزا. ومن المحتمل أن تسافرا شتاء إلى الخارج ـ وصمتت قليلا ثم استطردت ـ رزق الله الغراب ذات مرة.. بقطعة جبن.. كتبت؟

خرجت إلى ردهة المدخل وأنا لا أفكر فى شىء، ووقفت هناك أنظر إلى البركة والقرية، وتناهى إلى سمعى:

ـ بقطعة جبن.. رزق الله الغراب ذات مرة بقطعة جبن..

وغادرت الضيعة عبر الطريق الذى سلكته أول مرة ولكن فى اتجاه عكسى: من الفناء إلى البستان بحذاء المنزل، ثم عبر درب الزيزفون.. وهنا لحق بى صبى وناولنى ورقة مكتوبة فقرأت: «رويت كل شىء لأختى وهى تطالبنى بأن افترق عنك. وليس فى مقدورى أن أسبب لها الأحزان بعدم طاعتى. فليهبك الله السعادة، وسامحنى لو تدرى كم نبكى أنا وأمى بحرقة.».

ثم درب الشوح المظلم، السياج المتهالك.. وفى ذلك الحقل الذى كانت تزهر فيه الحنطة آنذاك ويصدح السمان تتجول الآن الأبقار والخيول المقيدة. وفى بعض الأماكن على التلال ظهرت نباتات القمح الخضراء. وسيطر علىّ مزاج واع عادى فشعرت بالخجل لكل ما قلته لدى آل فولتشانينوف، وعاد إلىّ الملل من الحياة. وعندما وصلت إلى البيت حزمت متاعى ورحلت فى المساء إلى بطرسبرج.

* * *

لم أر آل فولتشانينوف بعد ذلك ولا مرة. ومنذ فترة قريبة، كنت مسافرا إلى القرم فالتقيت فى عربة القطار ببيلوكوروف. كان فى نفس الصديرى الثقيل والقميص المطرز، وعندما سألته عن صحته أجاب: «بصلواتك». وتجاذبنا أطراف الحديث. لقد باع ضيعته واشترى أخرى أصغر منها، باسم لوبوف إيفانوفنا. ولم يخبرنى بالكثير عن آل فولتشانينوف. كانت ليدا، حسبما قال، تعيش كسابق العهد فى شيلكوفكا وتعلم الأطفال. وتمكنت شيئا فشيئا من

أن تجمع حولها مجموعة من الأشخاص الذين يروقون لها والذين يشكلون فريقا قويا، و«دحرجوا» فى انتخابات مجلس الأقليم الأخيرة بلاجين الذى كان حتى ذلك الحين يقبض بيديه على الإقليم كله. ولم يقل بيلوكوروف عن جينيا سوى أنها لا تعيش فى المنزل ولا يعرف مكانها.

لقد بدأت أنسى المنزل ذا العلية، وأحيانا فقط، عندما أرسم أو اقرأ أتذكر فجأة دون سبب الضوء الأخضر فى النافذة تارة، وتارة أخرى وقع خطواتى فى الحقل ليلا عندما كنت عائدا وأنا عاشق وأفرك يدىّ من البرد. وفى أحيان نادرة، عندما تؤرقنى الوحدة وأشعر بالحزن أتذكرها بصورة مبهمة، وشيئا فشيئا يخيل إلىّ أيضا أن هناك من يتذكرنى، وينتظرنى، وأننا سنلتقى...

ـ ميسوس، أين أنت؟

أيونيتش

١

عندما كان القادمون إلى مدينة «س» عاصمة المحافظة يشكون من الملل ورتابة الحياة فيها، كان السكان المحليون يقولون، كأنما يعتذرون، إن الحياة فى «س» على العكس جيدة جدا، وإنه توجد فى «س» مكتبة ومسرح وناد، وتقام فيها الحفلات الراقصة، وأخيرا فهناك أناس شيقون وعائلات لطيفة يمكن التعرف إليها. وكانوا يشيرون إلى عائلة توركين، باعتبارها أكثر العائلات ثقافة وموهبة.

كانت هذه العائلة تسكن فى الشارع الرئيسى، بجوار المحافظ، فى بيت ملكها. وكان إيفان بتروفتش توركين نفسه، وهو رجل أسمر جميل، بدين، بسوالف، يقيم عروض الهواة التمثيلية لأغراض خيرية، ويلعب بنفسه أدوار الجنرالات العجائز، ويسعل أثناء ذلك بصورة مضحكة للغاية. كان يعرف الكثير من النكات والألغاز والأمثال، ويحب المزاح والقفشات، وعلى وجهه يرتسم دائما تعبير لا تفهم منه إن كان يمزح أم يتكلم بجدية. وكانت زوجته فيرا يوسفوفنا، وهى امرأة نحيلة، لطيفة، فى عوينات، تكتب القصص والروايات، وتقرأها بصوت مسموع لضيوفها عن طيب خاطر. أما ابنتهم، يكاترينا إيفانوفنا، الفتاة الشابة، فكانت تعزف على البيانو. وباختصار كانت لكل فرد من أفراد العائلة موهبته الخاصة. وكان آل توركين يستقبلون الضيوف بحفاوة ويعرضون

عليهم مواهبهم بمرح، وببساطة قلبية. وكان بيتهم الحجرى الكبير رحبا، وفى الصيف باردا، ويطل نصف النوافذ على بستان قديم ظليل تصدح فيه البلابل ربيعا. وعندما يجلس الضيوف فى الداخل، تسمع من المطبخ ضربات السكاكين، وتفوح فى الفناء رائحة البصل المحمر... وكان ذلك يبشر فى كل مرة بعشاء لذيذ حافل.

وقد قيل أيضا للدكتور ستارتسف، ديمترى أيونيتش، إثر تعيينه طبيبا إقليميا واستقراره فى «دياليج»، على بعد تسعة فراسخ من «س»، إنه لا بد له كشخص مثقف من التعرف على آل توركين. وذات مرة، شتاء، قدموه إلى إيفان بتروفتش فى الشارع. فتحدثا عن الطقس، وعن المسرح، وعن الكوليرا، وتلت ذلك الدعوة. وفى الربيع، يوم العيد ـ وكان ذلك عيد الصعود ـ وبعد أن فرغ ستارتسف من استقبال المرضى، رحل إلى المدينة ليرفه عن نفسه قليلا، وبالمناسبة، ليشترى بعض الأشياء. سار على قدميه، على مهل (لم يكن قد اقتنى خيوله الخاصة بعد) وهو يدندن طوال الطريق:

لم أكن قد ذقت مرّ الدمع من كأس الوجود...

تغدى فى المدينة وتنزه فى الحديقة، وبعد ذلك تذكر عفوا دعوة إيفان بتروفتش فقرر أن يذهب إلى آل توركين ليرى أى ناس هؤلاء.

قال إيفان بتروفتش وهو يلقاه على الدرج:

ـ مرحبا من فضلك. سعيد، جدا برؤية مثل هذا الضيف اللطيف. هيا أقدمك إلى نصفى الحلو ـ ومضى يقول وهو يقدم الدكتور إلى زوجته ـ إننى أقول له يا فيروتشكا[1] أنه لا يملك أى حق رومانى فى الاختفاء هناك فى المستشفى. عليه أن يعطى وقت فراغه للمجتمع. أليس كذلك يا روحى؟

(١) اسم التدليل من الاسم الكامل «فيرا». (المعرب).

ـ اجلس هنا ـ قالت فيرا يوسفوفنا وهى تجلس الضيف بجوارها ـ يمكنك أن تغازلنى. زوجى غيور، إنه عطيل، ولكننا سنحاول أن نفعل ذلك دون أن يلاحظ شيئا.

ـ آه منك يا كتكوتة، يا شقية... ـ دمدم إيفان بتروفتش برقة وقبلها فى جبينها ـ جئت فى الوقت المناسب ـ قال مخاطبا الضيف من جديد ـ لقد كتب نصفى الحلو رواية كبّورة[1]، وسوف تقرأها لنا اليوم.

فقالت فيرا يوسفوفنا لزوجها:

ـ يا جانتشيك[2] dites que l'on nous donne du the[3].

وقدموا لستارتسف يكاترينا إيفانوفنا، فتاة فى الثامنة عشرة، تشبه أمها كثيرا، ومثلها نحيلة ولطيفة. كانت قسماتها لا تزال طفولية، وخصرها دقيق ورقيق. وكان صدرها العذرى الكاعب، الجميل، العفى ينبئ بالربيع، الربيع الحقيقى. ثم شربوا الشاى مع المربى والعسل والحلويات ومع بسكوت لذيذ جدا كان يذوب فى الأفواه. وبحلول المساء توافد الضيوف شيئا فشيئا، وكان إيفان بتروفتش يحدج كلا منهم بعينيه الضاحكتين ويقول:

ـ مرحبا من فضلك.

ثم جلسوا جميعا فى غرفة الجلوس بوجوه جدية للغاية، وراحت فيرا يوسفوفنا تقرأ لهم روايتها. وبدأتها هكذا: «صقع الصقيع...». كانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها، وسمعت ضربات السكاكين فى المطبخ وتناهت رائحة البصل المحمر... واطمأنت النفوس فى المقاعد اللينة العميقة، وومضت الأضواء برقة فى غسق الغرفة، وفى هذا المساء الصيفى، الذى تناهت فيه من

---

(١) يقصد: كبيرة، ونلاحظ أن هذه الشخصية تستخدم كثيرا من الكلمات والتعابير غير المألوفة بغرض المزاح. (المعرب).

(٢) جانتشيك ـ تدليل من الاسم الفرنسى جان (المقابل لاسم إيفان). (المعرب).

(٣) قل لهم أن يقدموا لنا الشاى (بالفرنسية فى الأصل).

الشارع أصوات وضحكات، وهبت من الفناء رائحة البنفسج، كان من العسير أن تفهم كيف صقع الصقيع، وكيف أضاءت الشمس الغاربة بأشعتها الباردة السهل الثلجى وذلك المسافر الوحيد فى الطريق. كانت فيرا يوسفوفنا تقرأ عن كونتيسة شابة جميلة تشيد المستشفيات والمدارس والمكتبات فى قريتها، وكيف أحبت مصورا جوالا.. كانت تقرأ عما لا يحدث أبدا فى الحياة، ومع ذلك كان سماعها لطيفا ومريحا، فكانت تتوارد إلى الذهن أفكار طيبة مطمئنة، ولا تشعر بالرغبة فى الانصراف..

وقال إيفان بتروفتش بصوت خافت:

ـ لم بأس..؟

وقال أحد الضيوف لا يكاد يسمع وهو يصغى ويحلق بأفكاره بعيدا جدا:

ـ نعم.. بالفعل..

ومرت ساعة، وأخرى. وفى حديقة المدينة، المجاورة لهم، عزفت فرقة موسيقية وغنت جوقة منشدين، وعندما أغلقت فيرا يوسفوفنا دفترها صمتوا حوالى خمس دقائق وهم يستمعون إلى أغنية «لوتشينوشكا» التى كانت الجوقة تغنيها، وعبرت هذه الأغنية عما لم يكن فى الرواية وعما يوجد فى الحياة.

وسأل ستارتسف فيرا يوسفوفنا:

ـ هل تنشرين مؤلفاتك فى المجلات؟

فأجابت:

ـ كلا، أنا لا أنشرها فى أى مكان. أكتبها وأخبئها فى الصوان ـ وقالت موضحة ـ ولماذا النشر؟ إن لدينا مواردنا.

ولسبب ما تنهد الجميع.

وقال إيفان بتروفتش لابنته:

ـ والآن يا قطة، اعزفى شيئا ما.

ورفعوا غطاء البيانو، وفتحوا النوت الموضوعة هناك سلفا. وجلست يكاترينا إيفانوفنا إلى البيانو وأهوت بكلتا يديها على المفاتيح. ثم أهوت على الفور مرة أخرى بكل قوتها، ثم مرة أخرى، فأخرى. وارتعش كتفاها وصدرها، وأخذت تدق بعناد على نفس الموضع، وبدا أنها لن تكف حتى تحشر المفاتيح داخل البيانو. وامتلأت غرفة الجلوس بالرعد. كان كل شىء يرعد: الأرض، والسقف، والأثاث.. كانت يكاترينا إيفانوفنا تعزف مقطعا صعبا، أطرف ما فيه صعوبته، مقطعا طويلا رتيبا، فأخذ ستارتسف يصغى ويتصور أحجارا تهوى من جبل عال، تهوى بلا انقطاع، وأراد أن تكف عن السقوط بسرعة، وفى الوقت نفسه أعجبته جدا يكاترينا إيفانوفنا، المتوردة من التوتر، القوية، النشطة، بخصلة الشعر المتهدلة على جبينها. وبعد الشتاء الذى قضاه فى «دياليج» بين الفلاحين والمرضى، كان الجلوس فى هذه الغرفة، والتطلع إلى هذا المخلوق الفتى الرشيق، والطاهر على الأرجح، والاستماع إلى هذه الأصوات الصاخبة المزعجة، والراقية مع ذلك.. كم كان هذا لطيفا وجديدا..

وقال إيفان بتروفتش والدموع تترقرق فى عينيه عندما انتهت ابنته ونهضت:

ـ يا سلام يا قطة، لعبت اليوم كما لم تلعبى أبدا. لو مت يا دينيس، فلن تكتب أفضل من ذلك[1].

وأحاط بها الجميع، وهنأوها، وأعربوا عن إعجابهم وأقسموا أنهم لم

---

(١) عبارة قيلت لدينيس فونفيزين بعد العرض الأول لمسرحية «الغر». ودينيس فونفيزين (١٧٤٥ ـ ١٧٩٢) أديب ومسرحى روسى، من أقطاب حركة التنوير فى القرن الثامن عشر. (المعرب).

يسمعوا منذ زمن بعيد موسيقى كهذه، أما هى فأصغت فى صمت، بابتسامة خفيفة، ونطقت هيئتها كلها بالظفر.

ـ رائع! ممتاز!.

ـ رائع!ـ قال ستارتسف أيضا منساقا مع الإعجاب العام، وسألها: أين تعلمت الموسيقى؟ فى الكونسرفاتوار؟.

ـ كلا، أنا أستعد للالتحاق بالكونسرفاتوار، لكنى حتى الآن كنت أدرس هنا، عند مدام زافلوفسكايا.

ـ هل تخرجت من مدرسة المدينة؟

ـ أوه، كلا!ـ أجابت عنها فيرا يوسفوفنا ـ لقد دعونا المدرسين لتدريسها منزليا. ففى المدرسة أو المعهد يمكن أن تكون تأثيرات سيئة. الفتاة أثناء نموها يجب أن تكون تحت تأثير أمها فقط.

فقالت يكاترينا إيفانوفنا:

ـ ومع ذلك سأذهب إلى الكونسرفاتوار.

ـ كلا، القطة تحب ماما. القطة لن تفعل ما يغضب بابا وماما.

ـ كلا، سأذهب، سأذهب!ـ قالت يكاترينا إيفانوفنا بمزاح ونزق، ودقت الأرض بقدمها.

أما أثناء العشاء فقام إيفان بتروفتش بعرض مواهبه. كان يضحك بعينيه فقط وهو يروى النكات، ويمزح، ويطرح مسائل مضحكة ويحلها بنفسه، ويتحدث طوال الوقت بلغته غير العادية التى اكتسبها بالمران الطويل على التندر، والتى أصبحت عادة لديه منذ زمن بعيد فيما يبدو: كبّور، لم بأس، شكرا هزيلا..

ولم يكن ذلك كل شىء. فعندما تزاحم الضيوف الشباع المسرورون فى

المدخل وهم يتناولون معاطفهم وعصيهم دار حولهم الخادم بافلوشا، أو كما كانوا يسمونه هنا: بافا[1]، وهو صبى فى حوالى الرابعة عشرة، حليق الشعر، بخدين ممتلئين.

فقال له إيفان بتروفتش:

ـ هيا يا بافا، مثّل!

فاتخذ بافا وضعًا تمثيليا، ورفع يده إلى أعلى وقال بصوت مأساوى:

ـ فلتموتى أيتها التعيسة!

وقهقه الجميع.

«طريف!» ـ قال ستارتسف لنفسه وهو يخرج إلى الشارع.

وذهب إلى المطعم فشرب بيرة، ثم توجه إلى «دياليج» سيرا على الأقدام. وظل طوال الطريق يدندن:

صوتك فى سمعى عذب وشجى..

وعندما استلقى لينام بعد أن قطع تسعة فراسخ لم يشعر بأى تعب، بالعكس فقد بدا له أنه يستطيع بكل سرور أن يقطع عشرين فرسخا أخرى.

«لم بأس..» تذكر وهو ينعس فضحك.

٢

نوى ستارتسف أن يزور آل توركين، ولكن العمل فى المستشفى كان كثيرا جدا فلم يتمكن من اقتناص ساعة فراغ. ومر أكثر من سنة على هذه الحال من

(١) تعنى فى الروسية: الطاووسة (أنثى الطاووس). (المعرب).

الكد والوحدة. ولكن ها هم أولاء قد جاءوا من المدينة برسالة فى مظروف أزرق..

كانت فيرا يوسفوفنا تعانى من صداع نصفى منذ زمن بعيد، ولكن نوبات الصداع تزايدت فى الفترة الأخيرة عندما أصبحت القطة تخيفها كل يوم بالرحيل إلى الكونسرفاتوار. وجاء إلى آل توركين كل أطباء المدينة، حتى وصل الدور أخيرا إلى الطبيب الإقليمى. كتبت له فيرا يوسفوفنا رسالة رقيقة دعته فيها إلى الحضور وتخفيف عذابها. وجاء ستارتسف، وبعد ذلك أصبح يتردد على آل توركين كثيرا، كثيرا جدا..

وبالفعل فقد خفف عن فيرا يوسفوفنا إلى حد ما، فراحت تقول لجميع الضيوف إنه دكتور مدهش، عظيم. ولكنه لم يعد يزور آل توركين الآن من أجل صداعها..

كان يوم عيد. وأنهت يكاترينا إيفانوفنا تمريناتها الطويلة المرهقة على البيانو. وبعد ذلك جلسوا طويلا فى غرفة الطعام يتناولون الشاى، وروى إيفان بتروفتش شيئا ما مضحكا. وها هو ذا جرس الباب يدق، ولا بد من الذهاب إلى المدخل لاستقبال ضيف ما. وانتهز ستارتسف فرصة الاضطراب فقال ليكاترينا إيفانوفنا همسا وهو فى شدة الانفعال:

ـ أرجوك، أتوسل إليك، لا تعذبينى، فلنذهب إلى البستان!

هزت كتفيها كأنما تستغرب ولا تفهم ما الذى يريده منها، ولكنها نهضت وذهبت.

وقال وهو يتبعها:

ـ أنت تعزفين على البيانو بالثلاث والأربع ساعات، ثم تجلسين مع ماما، وليس هناك آية فرصة للحديث معك. أعطينى ولو ربع ساعة، أرجوك.

كان الخريف يقترب، فكان الجو هادئا وحزينا فى البستان القديم، وغطت أرض الممرات أوراق داكنة. وأصبح الغسق يهبط مبكرا.

ومضى ستارتسف يقول:

ـ أنا لم أرك أسبوعا كاملا، وآه لو تعلمين أىّ عذاب هذا! فلنجلس. أصغى إلىّ.

كان لديهما مكان مفضل فى البستان: أريكة تحت شجرة قيقب عجوز عريضة. وها هما ذان قد جلسا على هذه الأريكة.

وسألت يكاترينا إيفانوفنا بجفاء، بصوت عملى:

ـ ماذا تريد؟

ـ أنا لم أرك أسبوعا كاملا، لم أسمعك منذ مدة طويلة. أنا مشتاق جدا، أنا ظمآن إلى صوتك. تكلمى.

أثارت إعجابه بنضارتها وبتعبير السذاجة فى عينيها وخديها. حتى فى كون الفستان لائقا عليها رأى ستارتسف شيئا رقيقا للغاية ومؤثرا ببساطته ورشاقته الساذجة. وفى الوقت نفسه، وبالرغم من هذه السذاجة، بدت له ذكية جدا وناضجة بأكبر من سنها. كان بوسعه أن يتحدث معها عن الأدب وعن الفن، عن أى شىء، بوسعه أن يشكو لها من الحياة والبشر، رغم أنه كان يحدث أثناء الحديث الجدى أن تضحك فجأة دون مناسبة أو تركض إلى البيت. كانت ككل فتيات مدينة (س) تقرأ كثيرا (وعموما فقد كانوا فى (س) يقرأون قليلا جدا، وكانوا فى المكتبة المحلية يقولون إنه لولا الفتيات واليهود الشبان لتوجب إغلاق المكتبة). وكان ذلك يعجب ستارتسف إلى أقصى حد، وفى كل مقابلة كان يسألها بانفعال عما قرأته فى الآونة الأخيرة، ويصغى مسحورا إلى ما ترويه.

وسألها الآن:

ـ وماذا قرأت فى الأسبوع الأخير الذى لم نتقابل فيه؟ تحدثى أرجوك.

ـ قرأت بيسيمسكى[1].

ـ وماذا بالتحديد؟

ـ فأجابت القطة:

ـ «ألف نفس». كم كان اسم بيسيمسكى مضحكا: أليكسى فيوفيلاكتتش!

ـ إلى أين أنت؟ـ قال ستارتسف بذعر عندما نهضت فجأة ومضت إلى البيت ـ أنا بحاجة إلى الحديث معك، يجب أن أصارحك.. ابقى معى ولو خمس دقائق! أستحلفك!

فتوقفت كأنما تريد أن تقول شيئا، ثم دست فى يده بحرج قصاصة وركضت إلى البيت، حيث جلست إلى البيانو من جديد.

وقرأ ستارتسف: «اليوم فى الحادية عشرة مساء انتظرنى فى المقابر عند تمثال ديميتّى».

وفكر عندما عاد إلى صوابه: «ليس هذا ذكيا على الإطلاق. ما دخل المقابر هنا؟ لأى غرض؟».

كان واضحا أن القطة تعبث. وبالفعل فمن ذا الذى يفكر جديا فى تحديد موعد ليلا، بعيدا خارج المدينة، فى المقابر، بينما من السهل تدبير ذلك فى الشارع، فى حديقة المدينة؟ وهل تليق به وهو طبيب الإقليم، الرجل الذكى الرصين هذه الزفرات والرسائل والتسكع فى المقابر وارتكاب الحماقات التى

---

(١) أليكسى بيسيمسكى (١٨٢١ ـ ١٨٨١) كاتب ومسرحى روسى. من أشهر أعماله رواية «ألف نفس» ومسرحية «الحظ المرير». هاجم الأوضاع الاجتماعية فى روسيا القيصرية، ولكنه هاجم أيضا الأفكار الثورية. (المعرب).

يضحك منها الآن حتى تلاميذ المدراس؟ إلى أين ستقوده هذه الغراميات؟ وما الذى سيقوله رفاقه إذا علموا؟ هكذا فكر ستارتسف وهو يتجول فى النادى حول طاولات القمار، ولكنه فى منتصف الحادية عشرة قرر فجأة أن يرحل إلى المقابر.

كان قد اقتنى زوجا من الجياد وحوذيا يدعى بانتيليمون، يرتدى صديريا من القطيفة. وكان القمر فى السماء. وساد الهدوء والدفء، ولكنه دفء خريفى. وفى ضاحية المدينة، قرب المجزر، عوت الكلاب. وترك ستارتسف عربته عند طرف المدينة فى إحدى الحارات، وذهب إلى المقابر سيرا على الأقدام. وفكر: «لكل شخص غرائبه. والقطة أيضا غريبة. ومن يدرى، ربما لم تكن تمزح، وستأتى». واستسلم لهذا الرجاء الضعيف الفارغ فانتشى.

قطع نصف فرسخ عبر الحقل. ولاحت المقابر في البعيد خطا أسود كالغابة أو البستان الكبير. وظهر سور حجرى أبيض وبوابة... وكان من الممكن فى ضوء القمر قراءة هذه الكلمات على البوابة: «تأتى ساعة يسمع فيها جميع من فى القبور..» ودخل ستارتسف، وكان أول ما رآه الصلبان البيضاء والتماثيل على كلا جانبى الممر الطويل العريض، وظلالا سوداء ترتمى منها ومن أشجار الحور. كان الأبيض والأسود مرئيين لمسافة بعيدة حوله، وأسدلت الأشجارالناعسة أغصانها على الأبيض. وبدا أن المكان هنا أكثر نورا من الحقل. وبرزت أوراق القيقب التى تشبه المخالب بحدة على خلفية الرمال الصفراء فى الممرات وعلى الألواح كما كانت الكتابات على التماثيل بادية. أذهل ستارتسف فى اللحظات الأولى ما يراه الآن لأول مرة فى حياته وما لن يتسنى له فى الغالب أن يراه بعد ذلك.. عالم لا يشبه أى شىء آخر، عالم فيه نور القمر جميل وناعم إلى هذه الدرجة، وكأنما هنا مهده، عالم ليس فيه حياة أبدا أبدا، ولكنك تحس فى كل شجرة حور قاتمة وفى كل قبر بوجود سر يعد بحياة هادئة رائعة خالدة. ومع رائحة الأوراق الخريفية ينبعث من الألواح والأزهار الذابلة الغفران والأسى والسكينة.

الصمت يلف المكان. وأطلت النجوم من المساء فى استكانة عميقة، فترددت خطوات ستارتسف بحدة ونشاز. وعندما بدأت ساعة الكنيسة تدق وتصور نفسه ميتا ومدفونا هنا إلى الأبد، عندئذ فقط خيل إليه أن أحدا يتطلع إليه، ففكر للحظة أن هذا ليس هدوءا وسكينة، بل وحشة العدم الصماء، واليأس المكبوت..

كان تمثال ديميتّى على شكل مصلى بملاك فى أعلاه. فى زمن ما مرت بمدينة «س» فرقة أوبرا إيطالية، وتوفيت إحدى المغنيات فدفنوها هنا وأقاموا لها هذا التمثال. ولم يعد أحد يذكرها فى المدينة، ولكن القنديل المعلق على المدخل عكس ضوء القمر فبدا وكأنما يشتعل.

لم يكن هناك أحد. ومن ذا الذى سيأتى إلى هنا فى منتصف الليل؟ ولكن ستارتسف انتظر وكأنما ألهب فيه ضوء القمر العواطف الجياشة فراح ينتظر بهيام ويرسم فى خياله القبلات والأحضان. جلس بجوار التمثال نصف ساعة، ثم تمشى فى الممرات الجانبية وقبعته فى يده وهو ينتظر ويفكر: كم يرقد هنا فى هذه القبور من نساء وفتيات، كنّ جميلات، فاتنات، أحببن، وتأججت شهواتهن فى الليالى مستسلمات للحنان. وما أسوأ مزاح أمنا الطبيعة بالإنسان، فى الواقع، وما أمرّ أن تعى ذلك! كان ستارتسف يفكر هكذا، وفى الوقت نفسه ود لو يصرخ بأنه يريد الحب وينتظره مهما كان الأمر. ولم يعد ما يلمع أمامه هو القطع المرمرية البيضاء بل أجساد رائعة، رأى تكويناتها تتستر فى خجل بظلال الأشجار، وأحس بدفئها، وأصبح هذا الضنى لا يطاق..

كأنما أسدل الستار.. اختفى القمر خلف السحب، فأظلم المكان كله فجأة. وبالكاد عثر ستارتسف على البوابة، فقد كان الجو مظلما كما فى ليلة خريفية، ثم تخبط حوالى ساعة ونصف بحثا عن الحارة التى ترك فيها العربة.

وقال لبانتيليمون:

ـ أنا متعب، لا أكاد أقف على قدمى.

وعندما جلس بتلذذ فى العربة فكر: «آه، لا يجوز أن أسمن!».

٣

فى مساء اليوم التالى رحل إلى آل توركين ليخطب ابنتهم. ولكن الفرصة لم تكن مناسبة، إذ كان الحلاق يصفف شعر يكاترينا إيفانوفنا فى غرفتها. كانت تستعد للذهاب إلى حفلة راقصة فى النادى.

واضطر مرة أخرى إلى الجلوس طويلا فى غرفة المائدة وشرب الشاى. وعندما رأى إيفان بتروفتش أن ضيفه مستغرق فى التفكير وضجر أخرج من جيبه أوراقا وقرأ رسالة مضحكة من وكيل أعماله الألمانى يقول فيها إن جميع قوافل الأبواب فى الضيعة قد «عندت» وأن الحيطان قد «جلست».

وفكر ستارتسف وهو يصغى إليه شارد البال: «أظن أنهم سيعطون بائنة كبيرة».

كان فى حالة من الذهول بعد ليلة مسهدة وكأنما سقوه شرابا حلوا منوما. وكان الضباب يلف روحه، ولكنه أحس بالفرحة والدفء، وفى الوقت نفسه كانت ثمة قطعة باردة ثقيلة فى رأسه تفكر:

«توقف قبل فوات الأوان! هل هى تناسبك؟ إنها مدللة، نزقة، تنام حتى الساعة الثانية، أما أنت فابن شماس، طبيب إقليمى..».

وقال فى نفسه: «وماذا؟ فليكن».

ومضت القطعة تقول: «وعلاوة على ذلك إذا تزوجتها فسوف يرغمك أهلها على ترك العمل فى الإقليم والعيش فى المدينة».

فقال فى نفسه: «وماذا؟ فليكن فى المدينة. سيعطوننا بائنة فنؤثث بيتا...».

وأخيرا دخلت يكاترينا إيفانوفنا فى فستان سهرة ديكولتيه، جميلة، نظيفة، فملّى ستارتسف عينيه منها وتملكه الإعجاب لدرجة أنه لم يستطع أن يتفوه بكلمة، بل أخذ يتطلع إليها ويضحك.

وهمت بالانصراف فنهض ـ إذ لم يعد ثمة معنى لبقائه ـ وقال إنه آن له أن يعود، فالمرضى فى انتظاره.

فقال إيفان بتروفتش:

ـ طيب، ما العمل، اذهب، وبالمناسبة توصل القطة إلى النادى.

كان مطر خفيف يسقط فى الخارج، والظلام حالك،ومن سعال بانتيليمون الأبح وحده كان يمكن تحديد مكان العربة. وشدوا غطاء العربة.

وقال إيفان بتروفتش وهو يجلس ابنته فى العربة:

ـ أنا أفقت من النوم، أنت أفقت، هو أفّاق، هم أفّاقون.. أفّاقون هيا، تحرك. وداعا من فضلك!

وتحركوا.

وقال ستارتسف:

ـ لقد ذهبت أمس إلى المقابر.. كم كنت ظالمة وقاسية علىّ..

ـ هل كنت فى المقابر؟

ـ نعم، وانتظرتك حتى الساعة الثانية. كنت أتعذب..

ـ فلتتعذب ما دمت لا تفهم المزاح.

قهقهت يكاترينا إيفانوفنا وقد أسعدها أنها مزحت بهذه الصورة الماكرة

من عاشقها وأنه يحبها إلى هذه الدرجة، ولكنها صرخت فجأة رعبا، ففى تلك اللحظة انعطفت العربة بحدة إلى بوابة النادى فمالت. وطوق ستارتسف خصرها فالتصقت به مذعورة، ولم يتمالك نفسه فقبلها بشهوة فى شفتيها وذقنها، وضمها إليه بشدة.

فقالت بجفاء:

ـ كفى.

وبعد لحظة لم تكن فى العربة، وصاح الشرطى الواقف بجوار مدخل النادى المضاء فى بانتيليمون بصوت منفر:

ـ ما لك تقف أيها الغراب؟ سر فى طريقك!

ورحل ستارتسف إلى بيته، لكنه سرعان ما عاد. ارتدى فراكا مستأجرًا ورابطة عنق بيضاء قاسية كانت تنفر وتوشك على الانزلاق عن الياقة. وفى منتصف الليل كان جالسا فى قاعة الجلوس فى النادى يقول ليكاترينا إيفانوفنا بهيام:

ـ أوه، ما أقل ما يعرف أولئك الذين لم يحبوا! يخيل إلىّ أن أحدا لم يصور الحب تصويرا صحيحا حتى الآن، ولا أظن أنه من الممكن تصوير هذا الإحساس الرقيق البهيج المضنى، ومن كابدة ولو مرة فلن يصوره بالكلمات. ما الداعى للمقدمات والتصوير؟ ما الداعى للبلاغة التى لا معنى لها؟ إن حبى بلا حدود.. أرجوك، أتوسل إليك ـ قال ستارتسف أخيرا ـ كونى زوجتى!

ففكرت يكاترينا إيفانوفنا ثم قالت وعلى وجهها تعبير جاد جدا:

ـ يا ديمترى أيونيتش، أنا ممتنة لك جدا على هذا التشريف، إننى أحترمك ولكن..ـ ونهضت واستطردت وهى واقفة ـ ولكن اعذرنى، لا أستطيع أن

أكون زوجتك. فلنتحدث جديا. أنت تعرف يا ديمترى أيونيتش أننى أحب الفن أكثر من أى شىء، إننى أهوى الموسيقى، أحبها بجنون، وقد وهبتها كل حياتى. أنا أريد أن أصبح فنانة، أريد الشهرة والنجاح والحرية، وأنت تريدنى أن أواصل الحياة فى هذه المدينة، أواصل هذه الحياة التافهة الخاوية التى أصبحت لا أحتملها. أن أصبح زوجة.. أوه، كلا، اعذرنى! يجب على الإنسان أن يسعى إلى هدف أسمى باهر، أما الحياة العائلية فستقيدنى إلى الأبد. يا ديمترى أيونتيتش (وابتسمت قليلا، فعندما قالت «ديمترى أيونيتش» تذكرت «أليكسى فيوفيلاكتش»)، يا ديمترى أيونيتش، أنت رجل طيب، نبيل، ذكى، أنت أحسن الجميع..ـ واغرورقت عيناها بالدموع ـ أنا أتعاطف معك من كل قلبى، ولكن.. ولكنك ستفهم..

واستدارت كى لا تبكى وخرجت من القاعة.

كف قلب ستارتسف عن الخفقان المؤلم. وكان أول ما فعله عندما خرج من النادى أن انتزع من رقبته ربطة العنق القاسية وتنفس بملء رئتيه. كان يشعر بشىء من العار وبأن كرامته أهينت ـ إذ لم يتوقع الرفض ـ ولم يصدق أن كل أحلامه ولوعته وآماله قد أفضت به إلى هذه النهاية الحمقاء كما فى مسرحية صغيرة من عروض الهواة. وكان يشعر بالشفقة على إحساسه، على حبه هذا، كان يشعر بالشفقة إلى درجة بدا له فيها أنه مستعد لأن ينفجر بالبكاء أو يهوى بالشمسية على ظهر بانتيليمون العريض.

ظل ثلاثة أيام غير قادر على العمل، ولم يأكل ولم ينم، ولكن حينما بلغه أن يكاترينا إيفانوفنا قد سافرت إلى موسكو للالتحاق بالكونسرفاتوار، هدأت نفسه وعاد إلى حياته السابقة.

وفيما بعد، حين كان يتذكر أحيانا كيف تمشى فى المقابر، وكيف قطع شوارع المدينة كلها بحثا عن فراك، كان يتمطى فى كسل ويقول:

ـ أوه، يا لها من هموم كانت!

٤

مرت أربع سنوات، وأصبح لدى ستارتسف الكثير من الزبائن فى المدينة. وكل صباح كان يستقبل المرضى فى دياليج بعجلة ثم يرحل إلى مرضاه فى المدينة، ويرحل الآن لا فى عربة بجوادين بل فى عربة «ترويكا» بأجراس، ويعود إلى البيت فى ساعة متأخرة. أصبح ممتلئا، بدينا، لا يحب السير على قدميه إذ كان يعانى من اللهاث. وبانتيليمون أيضا أصبح بدينا، وكلما ازداد امتلاء زفر بحسرة واشتكى من حظه المرير: فقد قهرته السواقة!

كان ستارتسف يتردد على بيوت كثيرة ويلتقى بأناس كثيرين ولكنه لم يوطد علاقته بأحد. كان البرجوازيون الصغار يثيرونه بأحاديثهم وبآرائهم فى الحياة، بل حتى بمظهرهم. وعلمته الخبرة شيئا فشيئا أن البرجوازى الصغير، طالما تلعب معه الورق أو تشرب وتمز، فهو شخص مسالم، سمح، بل وحتى ذكى، ولكن ما إن تتحدث معه عن شىء لا يؤكل، عن السياسة أو العلم مثلا، حتى يواجه مأزقا أو يشرع فى الثرثرة بفلسفة بليدة، شريرة، حتى لا يعود أمامك إلا أن تشيح بيديك وتبتعد. وحينما حاول ستارتسف أن يتحدث حتى مع برجوازى ليبرالى عن أن البشرية والحمد لله تسير إلى الأمام وأنها فى المستقبل ستستغنى عن جوازات السفر وعن عقوبة الإعدام، نظر إليه البرجوازى شزرا وبريبة وسأله: «وإذن فسيكون بوسع أى شخص أن يذبح فى الشارع من يشاء؟». وعندما كان ستارتسف يتحدث فى جمع أثناء العشاء أو تناول الشاى عن أنه لا بد من الكدح، و أنه لا يمكن أن تعيش بلا عمل، كان كل شخص يعتبر ذلك لوما موجها إليه، فيتملكه الغضب ويشرع فى الجدال بإلحاح. وعلاوة على ذلك كله لم يكن البرجوازيون الصغار يفعلون أى شىء مطلقًا، ولم يهتموا بشىء، وكان من المستحيل إيجاد مادة للحديث معهم. فصار ستارتسف يتجنب الأحاديث و يأكل فقط ويلعب «الفنت»، وعندما تصادف زيارته عيدا

عائليا فى أحد البيوت ويدعونه للمائدة، كان يجلس ويأكل فى صمت محدقا فى طبقه. وكل ما كان يقال آنذاك كان غير طريف، ظالما، أحمق، فيشعر بالانزعاج والاضطراب، ولكنه يصمت. ولأنه كان يصمت دائما فى تجهم ويحدق فى طبقه فقد سموه فى المدينه «البولندى المتعجرف» رغم أنه لم يكن بولنديا فى أى وقت من الأوقات.

كان يتحاشى ألوان التسلية من أمثال العروض المسرحية وحفلات الموسيقى، وفى المقابل كان يلعب «الفنت» كل مساء، حوالى ثلاث ساعات، وباستمتاع. وكانت لديه تسلية أخرى انغمس فيها شيئا فشيئا ودون أن يلحظ: فقد كان كل مساء يستخرج من جيوبه أوراق البنكنوت التى حصل عليها من مرضاه، وأحيانا تكون جيوبه محشوة بحوالى سبعين روبلا من شتى الأوراق الصفراء والخضراء التى تفوح منها رائحة العطور، والخل، والبخور، وزيت الحوت. وعندما يتجمع لديه منها بضع مئات كان يحملها إلى جمعية القرض المتبادل فيودعها فى حسابه الجارى.

وخلال السنوات الأربع التى مرت بعد رحيل يكاترينا إيفانوفنا لم يزر آل توركين سوى مرتين بدعوة من فيرا يوسفوفنا التى كانت لا تزال تتعالج من الصداع النصفى. وكانت يكاترينا إيفانوفنا تأتى إلى أهلها كل صيف لقضاء العطلة، ولكنه لم يرها مرة واحدة، لم يتصادف ذلك.

وها هى ذى السنوات الأربع قد انصرفت. وذات صباح هادئ دافئ تسلم رسالة فى المستشفى. كتبت فيرا يوسفوفنا تقول إنها اشتاقت إليه جدا ورجته أن يتفضل بزيارتها حتما ليخفف من عذابها، كما أن اليوم بالمناسبة عيد ميلادها. وفى أسفل الرسالة أضافت: «أضم صوتى إلى رجاء ماما.. ك.».

وفكر ستارتسف ثم رحل مساء إلى آل توركين.

ـ آه، مرحبا من فضلك ـ استقبله إيفان بتروفتش مبتسما بعينيه فقط ـ بونجور عليكم.

وصافحت فيرا يوسفوفنا التى هرمت بشدة وابيض شعرها يد ستارتسف وتنهدت بتصنع وقالت:

ـ أنت يا دكتور لا تريد أن تغازلنى، ولا تزورنا أبدا، أصبحت عجوزا بالنسبة لك. ولكن ها هى ذى أخرى شابة قد جاءت، فربما كان حظها أسعد.

وماذا عن القطة؟ لقد هزلت وشحبت، وأصبحت أجمل وأرشق، ولكنها الآن يكاترينا إيفانوفنا وليست القطة. لم تعد فيها تلك النضارة السابقة وتعبير السذاجة الطفولية. وكان فى نظراتها وحركاتها شىء جديد، شىء متردد ومذنب كأنما لم تعد تشعر هنا، فى دار آل توركين، بأنها فى بيتها.

ـ من زمان لم نرك! ـ قالت وهى تمد يدها إلى ستارتسف، وكان واضحا أن قلبها يدق بقلق. وحدجته بنظرة فاحصة وبفضول واستطردت ـ كم سمنت! لوحتك الشمس ، وكبرت، ولكنك عموما لم تتغير كثيرا.

كانت الآن أيضا تعجبه، تعجبه جدا، ولكن كان ينقصها شىء ما، أو كان فيها شىء زائد، ولم يكن بوسعه أن يحدد هذا الشىء، ولكن شيئا ما كان يعوقه عن الإحساس بما كان يحس به من قبل. لم يعجبه شحوبها، والتعبير الجديد على وجهها، وابتسامتها الواهنة، وصوتها، ثم بعد فترة قصيرة لم يعد يعجبه فستانها، والمقعد الذى جلست فيه، لم يعجبه شىء ما فى الماضى عندما كاد أن يتزوجها. وتذكر حبه وأحلامه وآماله التى أثارته قبل أربع سنوات، فشعر بالحرج.

شربوا الشاى مع كعكة حلوة. ثم قرأت فيرا يوسفوفنا رواية عما لا يحدث أبدا فى الحياة، وأصغى ستارتسف وهو يتطلع إلى رأسها الأشيب الجميل منتظرا أن تنتهى من القراءة.

وفكر: «العاطل من الموهبة ليس ذلك الذى لا يجيد كتابة الروايات، بل ذلك الذى يكتبها ولا يجيد إخفاء ذلك».

وقال إيفان بتروفتش:

ـ لا بأس..

ثم عزفت يكاترينا إيفانوفنا على البيانو بصخب ولمدة طويلة. وعندما انتهت من العزف شكروها طويلا وأبدوا إعجابهم بها.

وفكر ستارتسف:

«حسنا أننى لم أتزوجها».

ونظرت إليه وهى تنتظر على ما يبدو أن يقترح عليها الخروج إلى البستان، ولكنه جلس صامتا.

فقالت وهى تقترب منه:

ـ هيا نتحدث. كيف أحوالك؟ ماذا لديك؟ لقد كنت طوال هذه الأيام أفكر فيك ـ استطردت بعصبية ـ أردت أن أرسل إليك خطابا، أردت أن أذهب بنفسى إليك فى دياليج، وقررت بالفعل أن أذهب، ولكنى عدلت، فمن يدرى ما هو إحساسك الآن نحوى. بأى قلق انتظرت مجيئك اليوم. أستحلفك بالله، فلنذهب إلى البستان.

وذهبا إلى البستان، وجلسا هناك على الأريكة تحت القيقب العجوز كما حدث منذ أربع سنوات. وكان الجو مظلما.

وسألته يكاترينا إيفانوفنا:

ـ إذن كيف أحوالك؟

فأجاب ستارتسف:

ـ لا بأس. الأمور تسير.

ولم يستطع أن يجد أكثر من ذلك. فصمتا.

وقالت يكاترينا إيفانوفنا وغطت وجهها بيديها:

ـ إننى مضطربة، ولكن لا تلق بالا. كم أشعر بالراحة فى البيت، كم أنا سعيدة برؤية الجميع ولا أستطيع أن أتعود على ذلك. كم من ذكريات! بدا لى أننا سنتحدث بلا توقف حتى الصباح.

كان الآن يرى عن قرب وجهها وعينيها البراقتين، فبدت له هنا، فى الظلام، أصبى مما كانت فى الغرفة بل وكأنما عاد إليها التعبير الطفولى السابق. وبالفعل فقد كانت تنظر إليه بفضول ساذج، وكأنما تريد أن تتأمل وتفهم عن قرب هذا الرجل الذى أحبها فى وقت ما بذلك التأجج وتلك الرقة وتلك النهاية التعيسة. وشكرته عيناها على ذلك الحب. فتذكر كل ما حدث، بأدق التفاصيل، كيف جال وسط المقابر، وكيف عاد بعدها إلى البيت قرب الصباح متعبا، فأحس فجأة بالحزن والأسف على الماضى. وومضت فى روحه جذوة.

فقال:

ـ أتذكرين كيف أوصلتك إلى الحفل فى النادى؟ كان المطر يسقط آنذاك، والدنيا مظلمة..

وازدادت الجذوة اشتعالا فى روحه، وأحس برغبة فى الحديث والشكوى من الحياة..

وقال متنهدا:

ـ إيه! ها قد سألتنى عن أحوالى وكيف أحيا. كيف نحيا هنا؟ لا نحيا. نهرم ونسمن ونتدهور. نهار وليل ويمر اليوم، وتمضى الحياة كابية، بلا انطباعات، بلا أفكار.. بالنهار الكسب وبالليل النادى وصحبة المقامرين والسكارى، ذوى الأصوات المبحوحة الذين لا أطيقهم. فأى خير؟

ـ ولكن لديك عملا، هدفا نبيلا فى الحياة. كم كنت تحب الحديث عن مستشفيات. كنت أنا حينذاك غريبة، أتصور نفسى عازفة عظيمة. كل الآنسات الآن يعزفن على البيانو، وأنا أيضا كنت أعزف مثل الجميع، ولم يكن فىَّ أى شىء مميز. أنا عازفة مثلما أمى كاتبة. وبالطبع لم أفهمك آنذاك، ولكن فيما

بعد، فى موسكو، كنت كثيرا ما أفكر فيك. كنت أفكر فيك وحدك. يالها من سعادة أن تكون طبيبا إقليميا وتساعد المعذبين وتخدم الشعب ـ وكررت يكاترينا إيفانوفنا بحماس ـ يالها من سعادة! عندما كنت أفكر فيك فى موسكو كنت تبدو لى مثاليا، ساميا..

وتذكر ستارتسف الأوراق التى يستخرجها من جيوبه بلذة كل مساء فانطفأت الجذوة فى روحه.

ونهض لكى يذهب إلى البيت. فوضعت ذراعه فى ذراعها. ومضت تقول:

- أنت أفضل من عرفتهم فى حياتى. سوف نتقابل ونتحدث أليس كذلك؟ عدنى. أنا لست عازفة بيانو، ولم أعد مخدوعة فيما يخصنى ولن أعزف فى حضورك أو أتحدث عن الموسيقى.

وعندما دلفا إلى البيت ورأى ستارتسف فى ضوء المساء وجهها وعينها الحزينتين الشاكرتين المتفرستين والمصوبتين إليه، أحس بالقلق وفكر ثانية «حسنا أننى لم أتزوجها آنذاك».

ونهض يودع.

فقال إيفان بتروفتش وهو يوصله:

ـ ليس لديك أى حق رومانى فى الرحيل دون عشاء. هذا من جانبك محورى جدا.. هيا، مثّل - قال مخاطبا بافا فى المدخل.

اتخذ بافا، الذى لم يعد صبيا، بل شابا بشوارب، وضعا تمثيليا ورفع يده إلى أعلى وقال بصوت مأساوى:

ـ فلتموتى أيتها التعيسة!

أثار ذلك كله ستارتسف. وعندما جلس فى العربةونظر إلى البيت المظلم والبستان اللذين كانا رقيقين وعزيزين عليه جدا فى زمن ما، تذكر على الفور

كل شيء: رويات فيرا يوسفونا، وعزف القطة الصاخب، ونكات إيفان بتروفتش ووضع بافا المأساوى، وفكر: إذا كان أكثر الناس موهبة فى هذه المدينة على هذه الدرجة من البؤس، فكيف ينبغى إذن أن تكون المدينة؟

بعد ثلاثة أيام جاء بافا برسالة من يكاترينا إيفانوفنا.

«أنت لا تزورونا. لماذا؟ ـ كتبت تقول ـ أخشى أن تكون قد تغيرت نحونا. أخاف وأشعر بالرهبة من مجرد التفكير فى ذلك. فلتطمئنى، تعال وقل إن كل شيء على ما يرام.

أنا بحاجة إلى التحدث معك. المخلصة ى. ت.».

قرأ هذه الرساله، وفكر، ثم قال لبافا:

ـ قل لها يا عزيزى إننى لا أستطيع الحضور اليوم. أنا مشغول جدا. قل لها إننى سآتى بعد حوالى ثلاثة أيام.

بيد أنه مرت ثلاثة أيام، ومر أسبوع لكنه لم يذهب. وذات مره كان مارا بجوار منزل آل توركين فتذكر أنه ينبغى أن يعرّج ولو لدقيقة ولكنه فكر و.. لم يعرج.

وبعدها لم يزر آل توركين أبدا.

٥

ومرت عدة سنوات أخرى. ازداد ستارتسف سمنة وشحما، وأصبح يتنفس بصعوبة ويسير ورأسه ملقى إلى الوراء. وعندما يستقل الترويكا ذات الأجراس، مكتنزا، أحمر الوجه، وبانتيليمون أيضا مكتنز أحمر الوجه، بقفا غزير اللحم، جالسا على مقعد الحوذى ويمد إلى الأمام ذراعيه المستقيمتين كأنهما خشبيتان، ويصيح فى المارة «الزم يمينك!»، فإن الصورة تبدو مهيبة، ويبدو أن الراكب ليس بشرا بل صنما وثنيا. وأصبح لديه فى المدينة زبائن لا حصر لهم، ولا وقت لديه لالتقاط الأنفاس، ولديه ضيعة ومنزلان فى المدينة

ويسعى لاقتناء ثالث، مربح، وعندما يخبرونه فى جمعية القرض المتبادل عن منزل ما مخصص للبيع، يتوجه إلى هذا البيت دون كلفة، ويطوف بجميع غرفه غير عابئ بالنساء المتجردات والأطفال الذين ينظرون إليه بذهول ورهبة، ويدفع بعصاه جميع الأبواب ويقول:

ـ هذه غرفة مكتب؟ وهذه غرفة نوم؟ وماذا هنا؟

وأثناء ذلك يتنفس بصعوبة ويمسح العرق عن جبينه.

ولديه مشاغل كثيرة، ومع ذلك لا يترك وظيفة طبيب الإقليم. لقد تملكه الجشع، ويود أن يلحق هنا وهناك. وأصبحوا يدعونه فى المدينة وفى دياليج أيونيتش فقط. يقولون: «إلى أين يذهب أيونيتش؟» أو «ألا ندعو أيونيتش للكونسلتو؟».

وربما لأن الشحم تراكم فى زوره فقد تغير صوته، أصبح رفيعا حادا. وتغيرت طباعه أيضا. أصبح ثقيلا، عصبيًا. وعندما يستقبل المرضى يغضب عادة ويدق بعصاه على الأرض بنفاد صبر ويصرخ بصوته المنفر:

ـ تفضل بالإجابة على الأسئلة فقط! ممنوع الكلام!

وهو وحيد. يحيا بملل، ولا يهتم بشىء.

وطوال إقامته فى دياليج كان حبه للقطة فرحته الوحيدة وربما الأخيرة. وفى المساء يلعب «الفنت» فى النادى، ثم يجلس وحيدا إلى مائدة كبيرة ويتعشى. ويقوم على خدمته النادل إيفان، أقدم الخدم وأكثرهم احتراما ويقدم له نبيذ لافيت رقم ١٧، ويعرف الجميع ـ رؤساء النادى والطهاة والنادل ـ ماذا يحب وما لا يحب، ويبذلون قصارى جهدهم لنيل رضاه، وإلا لاقدر الله فقد يغضب فجأة ويروح يدق الأرض بعصاه.

وأثناء العشاء يلتفت أحيانا فيتدخل فى حديث ما:

ـ ما هو الموضوع؟ هه؟ من؟.

وإذا ما حدث أن دار الحديث على طاولة مجاورة عن آل توركين فإنه يسأل:

ـ عن أى توركين تتحدثون؟ عن أولئك الذين تعزف ابنتهم على البيانو؟

وهذا كل ما يمكن أن يقال عنه.

فماذا عن آل توركين؟ لم يهرم إيفان بتروفتش، ولم يتغير مطلقا، وما زال كما فى السابق يمزح ويروى النكات. وفيرا يوسفوفنا تقرأ للضيوف رواياتها عن طيب خاطر وببساطة قلبية كما فى السابق. والقطة تعزف على البيانو كل يوم حوالى أربع ساعات. لقد هرمت بصورة ملحوظة ومرضت، وتسافر مع أمها كل خريف إلى القرم. ويودعهما إيفان بتروفتش على المحطة، وعندما يتحرك القطار يكفكف دموعه ويصيح:

ـ مع السلامة من فضلك!

ويلوح بالمنديل.

الرجل المعلّب

فى أقصى طرف قرية ميرونوسيتسكويه، وفى حظيرة العمدة بروكوفى، نزل صيادان متأخران ليقضيا الليلة. كانا اثنين فقط: الطبيب البيطرى إيفان إيفانيتش والمدرس الثانوى بوركين. وكان اسم عائلة إيفان إيفانيتش غريبا ومزدوجا: تشيمشا جيملايسكى، ولم يكن يناسبه أبدا، ولذلك كانوا يدعونه فى المحافظة كلها باسمه واسم أبيه. كان يعيش قرب المدينة فى مزرعة لتربية الجياد، وقد جاء الآن للصيد من أجل أن يستنشق الهواء النظيف. أما المدرس الثانوى بوركين فكان ينزل كل صيف ضيفا على الكونت (ب)، وأصبح شخصا معروفا فى هذه الناحية منذ زمن بعيد.

كانا مستيقظين. وجلس إيفان إيفانيتش، العجوز الطويل النحيف ذو الشوارب الطويلة، قرب الباب من الخارج وهو يدخن الغليون. وكان نور القمر يضيئه. أما بوركين فكان راقدا فى الداخل على الدريس، فلم يكن ظاهرا فى الظلمة.

كانا يرويان شتى الحكايات. وبالمناسبة فقد رويا أن مافرا زوجة العمدة، وهى امرأة قوية وغير غبية، لم تذهب طوال حياتها إلى أى مكان أبعد من قريتها، ولم تر أبدا لا المدينة ولا السكة الحديدية، وفى السنوات العشر الأخيرة ظلت جالسة خلف الفرن ولا تخرج إلى الشارع إلا ليلا.

وقال بوركين:

ـ وما العجيب فى ذلك! الأشخاص الانطوائيون بطبعهم، والذين يسعون إلى الاختفاء خلف قشرتهم، كسرطان البحر الراهب و القوقعة، كثيرون فى هذه الدنيا. وربما كان ذلك أحد مظاهر الردة الخلقية، والعودة إلى ذلك العهد الذى لم يكن فيه جد الإنسان حيوانا اجتماعيا بعد، وكان يحيا وحيدا فى عرينه، وربما كان ذلك مجرد صورة من صور الطبع البشرى، من يدرى؟ أنا لست من المتخصصين فى العلوم الطبيعية، وليس من شأنى أن أتناول هذه القضايا، بل أريد فقط أن أقول إن الأشخاص الذين من طراز مافرا ليسوا ظاهرة نادرة. ولماذا نذهب بعيدا، فمنذ حوالى شهرين مات فى مدينتنا شخص يدعى بيليكوف، مدرس اللغة اليونانية، زميلى. لقد سمعت عنه بالطبع. كان يمتاز بأنه كان دائما، وحتى فى الجو الجيد لا يخرج إلا بالخف فوق الحذاء وبشمسية، وحتما فى معطف ثقيل ببطانة من القطن. وكانت شمسيته فى كيس، وساعته فى كيس من الشامواه الرمادى، وعندما كان يستخرج المطواة الصغيرة ليبرى قلما يستخرجها من كيس. حتى وجهه بدا وكأنه أيضا فى كيس، فقد كان يخفيه دائما خلف الياقة المرفوعة. وكان يضع نظارة سوداء، ويرتدى سترة بدون أكمام، ويسد أذنيه بالقطن، وعندما يستقل عربة يأمر الحوذى برفع الغطاء. وباختصار فقد لوحظ لدى هذا الرجل ميل مستمر وجارف إلى إحاطة نفسه بقشرة، إلى وضع نفسه فيما يشبه العلبة، التى يمكن أن تعزله وتحميه من المؤثرات الخارجية. كان الواقع يثيره، ويخيفه ويجعله فى قلق مستمر، وربما لكى يبرر وجله هذا، وتقززه من الحاضر، كان يمدح الماضى دائما وكل ما لم يكن له وجود أبدا. وكانت اللغات القديمة التى يعلمها بالنسبة له فى الواقع هى نفس الخف والشمسية التى يختبئ بها من الحياة الواقعية.

وكان يقول بتعبير عذب:

ـ أوه، ما أروع اللغة اليونانية، كم هى موسيقية.

ويزر عينيه ويرفع إصبعه ويقول كأنما يدلل على صدق كلماته: أنثروبوس[1].

وكان بيليكوف يسعى إلى إخفاء أفكاره أيضا فى علبة. فلم تكن واضحة له سوى المنشورات الدورية ومقالات الصحف التى تمنع شيئا ما. فعندما كان المنشور الدورى يمنع التلاميذ من الخروج إلى الشارع بعد الساعة التاسعة مساء، أو تمنع مقالة ما الحب الجسدى؟ كان ذلك بالنسبة له واضحا ومحددا.. ممنوع وانتهينا. أما السماح والإباحة فكانا ينطويان بالنسبة له على عنصر مشكوك فيه دائما، وشىء غامض لا يفصح عن نفسه. وعندما يسمح فى المدينة بتأسيس جمعية تمثيل أو قاعة مطالعة أو مقهى، كان يهز رأسه ويقول بصوت خافت:

ـ طبعا هذا، يعنى، عظيم، ولكن أخشى أن يحدث شىء.

وكانت كل مخالفة أو انحراف أو خروج عن القواعد تجعله مهموما، بالرغم من أنه لا دخل له بذلك. فإذا ما تأخر أحد من رفاقه عن الصلاة، أو سرت شائعة عن فعلة ارتكبها التلاميذ، أو شوهدت المشرفة المدرسية فى ساعة متأخرة مع أحد الضباط، كان ينفعل بشدة ويردد أنه يخشى أن يحدث شىء. وفى اجتماعات مجلس التربية كان يرهقنا بحذره وريبته وأفكاره المعلبة للغاية بخصوص السلوك المعيب للشباب فى مدرستى البنين والبنات والضجة التى يثيرونها فى الصفوف.. آه، أخشى أن يصل الأمر إلى الرؤساء، آه، أخشى أن يحدث شىء.. ولو أننا فصلنا بتروف من الصف الثانى، ويجوروف من الصف الثالث لكان ذلك حسنا جدا. وماذا؟ أتدرى لقد كان يثقل علينا جميعا بآهاته، وشكايته، وبنظارته السوداء على وجهه الصغير ـ وجه صغير كسحنة الظربان ـ فكنا نتنازل ونخفض درجة السلوك لبتروف ويجورروف ونعاقبهما بالحبس وأخيرا نفصل بتروف ويجورروف. وكانت لديه عادة غريبة: أن يطوف بمنازلنا.

(١) الإنسان (باليونانية).

كان يأتي إلى المدرس فيجلس صامتا وكأنه يتفحص شيئا ما. ويظل على جلسته الصامته هذه ساعة أو ساعتين ثم ينصرف. وكان يسمى ذلك «الحفاظ على العلاقات الطيبة مع الرفاق»، ويبدو أن مجيئه إلينا وجلوسه كان صعبا عليه، ولم يكن يفعل ذلك إلا لأنه يعتبره واجبا عليه نحو رفاقه. وكنا نحن المدرسين نخشاه. حتى المدير كان يخافه. انظر، إن مدرسينا رجال مفكرون، قويمون جدا، تربوا على أدب تورجينيف وشيدرين، إلا أن هذا الشخص الذى كان يسير بخف وشمسية سيطر على المدرسة خمسة عشر عاما كاملة. وماذا تكون المدرسة؟ بل سيطر على المدينة كلها. كانت سيداتنا فى أيام السبت لا يقمن الحفلات المنزلية، خشية أن يعلم بذلك. وكان رجال الكنيسة يتحرجون من تناول اللحوم أمامه أو لعب الورق. وبتأثير هؤلاء الأشخاص أمثال بيليكوف، أصبح أهالى مدينتنا فى العشر أو الخمس عشرة سنة الأخيرة يخشون كل شيء. يخشون التحدث بصوت عال، وإرسال الرسائل، والتعارف، وقراءة الكتب، ويخشون مساعدة الفقراء وتعليم القراءة والكتابة...

وسعل إيفان إيفانيتش وقد أراد أن يقول شيئا ما، ولكنه أشعل غليونه أولا وتطلع إلى القمر، ثم قال على مهل:

ـ نعم. أناس مفكرون، قويمون، يقرأون شيدرين وتورجينيف وأمثال بوكلى وغيرهم، ومع ذلك خضعوا له، وتحملوه.. هذه هى المسألة فعلا.

ومضى بوركين يقول:

ـ كان بيليكوف يعيش فى نفس المنزل الذى أقطنه، فى نفس الطابق، وبابه قبالة بابنا، وكنا نتلاقى كثيرا، وكنت أعرف حياته المنزلية. نفس الوضع فى المنزل: الروب والطاقية والنوافذ المغلقة الشيش والأبواب الموصدة بالمزاليج، وسلسلة طويلة من الممنوعات والمحظورات، وأيضا: آه، أخشى أن يحدث شئ. أكل الصيام مضر، واللحوم ممنوعة إذ قد يقال أن بيليكوف لا يصوم، فكان يأكل السمك مقليا فى سمن البقر، فهذا طعام ليس من مأكولات الصوم، ولكنك لا تستطيع أن تقول إنه من اللحوم. وكان لا يستخدم خادمات

نساء خشية أن يساء به الظن، وكان لديه طاه يدعى أفناسى، عجوز فى حوالى الستين، سكير ،ومخبول، كان جندى مراسلة فى وقت ما، ويستطيع كيفما كان أن يعد الطعام. وكان أفناسى هذا يقف عادة بجوار الباب، عاقدا ذراعيه، ويدمدم دائما بجملة واحدة مع زفرة عميقة:

ـ ما أكثر عددهم الآن!

كانت غرفة نوم بيليكوف صغيرة، كالصندوق، وكان سريرة تحت ناموسية. وعندما يأوى إلى الفراش يغطى جسمه حتى رأسه. وكان جو الغرفة خانقا، حارا، والريح تعصف بالباب، وتئز فى المدفأة، ومن المطبخ تتناهى الزفرات، الزفرات الشريرة..

وكان يرتعد رعبا تحت البطانية. كان يخشى أن يحدث شىء، أن يذبحه أفناسى، أن يتسلل اللصوص، ثم يرى طوال الليل أحلاما مزعجة، وفى الصباح، عندما نتوجه معا إلى المدرسة، كان يلوح كئيبا، ممتقعا، ويبدو واضحا أن المدرسة الكبيرة المزدحمة التى كان ذاهبا إليها، مرعبة وكريهة إلى قلبه، وكان من الصعب عليه أن يسير معى وهو الشخص المنعزل بطبعه.

ويقول كأنما يبحث عن تفسير لمشاعره المرهقة:

ـ الضجة شديدة جدا فى الصفوف. شىء لا مثيل له.

وهل تتصور أن مدرس اللغة اليونانية هذا، الرجل المعلب، كاد يتزوج.

وتطلع إيفان إيفانيتش بسرعة نحو الحظيرة وقال:

ـ أنت تمزح!

ـ نعم، كاد أن يتزوج مهما بدا ذلك غريبا. أرسلوا إلينا مدرسا جديدا للتاريخ والجغرافيا يدعى كوفالنكو ميخائيل سافيتش، من الأوكرانيين. وقد وصل مع أخته فارنكا. كان شابا، طويل القامة، أسمر، بيدين ضخمتين، ويبدو من وجهه أن صوته غليظ، وبالفعل كان يتكلم وكأنه يتكلم من برميل: بو.. بو.. بو.. أما

هى فقد تخطت سن الشباب، فى حوالى الثلاثين، ولكنها أيضا طويلة القامة، رشيقة، سوداء الحاجبين، حمراء الخدين، وباختصار لم تكن فتاة بل قطعة حلوى. وكانت مرحة، صاخبة، تغنى دائما الأغانى الاوكرانية وتقهقه. ولأتفه الأسباب تغرق فى ضحك رنان: ها.. ها.. ها. وأذكر أن أول مرة تعرفت فيها بآل كوفالنكو عن قرب كانت فى حفلة عيد ميلاد مدير المدرسة. فبين المربين الصارمين المتوترين المملين، الذين يذهبون حتى لحفلات الميلاد وكأنهم يؤدون واجبا، إذ بنا نرى فجأة أفروديت الجديدة وقد بعثت من زبد الأمواج.. تسير وهى تتمخطر، وتقهقه وتغنى وترقص. وغنت «الرياح تعصف» بصورة مؤثرة، ثم غنت أغنية أخرى، ثم أخرى، فأسرتنا جميعا.. جميعا بمن فينا بيليكوف. وجلس بقربها وقال وهو يبتسم ابتسامة عسلية:

ـ اللغة الأوكرانية تشبه فى رقتها وموسيقاها اللطيفة اللغة اليونانية القديمة.

وراقها ذلك فراحت تروى له بتأثر واقتناع أن لديها منزلا ريفيا فى مركز جاياتشى، وأمها تعيش فيه، وأن هناك كمثرى وشماما وكوسة رائعة. والأوكرانيون يسمون القرع العسلى كوسة، والكوسة «شينكى»، ويطهون حساء الكرنب من الكرنب والطماطم والباذنجان، «ما ألذه، ما ألذه، شىء خرافى.».

وأصغينا نحن طويلا، ثم سنحت لنا جميعا نفس الفكرة.

وقالت لى زوجة المدير بصوت خافت :

ـ حسن لو زوجناهما.

ولسبب ما تذكرنا أن بيليكوف ليس متزوجا، فبدا لنا غريبا أننا لم نلاحظ ذلك من قبل، ولم نلتفت أبدا إلى هذا الجانب المهم فى حياته. فما هو موقفه من النساء عامة يا ترى؟ وكيف يواجه هذه المسألة الحيوية؟ لم يثر هذا اهتمامنا أبدا من قبل، وربما لم تراودنا حتى فكرة أن الشخص الذى يسير فى جميع الأحوال الجوية فى خف وينام تحت ناموسية، يمكن أن يحب.

وقالت زوجة المدير موضحة فكرتها:

ـ لقد تخطى الأربعين منذ زمن بعيد، وهى فى الثلاثين... يخيل إلىّ أنها ستقبله زوجا.

وما أكثر الأمور التى تحدث بفعل الملل فى الأرياف عندنا، وما أكثر ما يجرى من تفاهات لا داعى لها وحماقات! وذلك لأننا لا نفعل أبدا ما هو مطلوب. حسنا، لماذا أصبحنا فجأة فى حاجة إلى تزويج بيليكوف هذا، وهو الذى لا يمكن حتى أن تتخيله زوجا؟ لقد انتعشت زوجة المـدير، والمفتشة وكل سيدات المدرسة، بل وازددن جمالا، وكأنما عثرن فجأة على غـاية الحياة. وإذا بزوجة المدير تحجز مقصورة فى المسرح، وننظر نحن فنرى فى المقصورة فارنكا ممسكة بمروحة، وهى سعيدة، مشرقة، وبجوارها بيليكوف، صغيرا، منطويا، كأنما أخرجوه من المنزل بكماشة. وأقيم أنا حفلا منزليا فتصر السيدات على أن أدعو بيليكوف وفارنكا. وباختصار فقد انطلقت الآلة. واتضح أن فارنكا لم تكن تمانع فى الزواج. فلم تكن مرتاحة فى حياتها مع أخيها، إذ لم يكن لهما من عمل سوى الجدال والشجار طول النهار. خذ مثلا هذا المشهد: كوفالنكو يسير فى الشارع، طويلا، عملاقا فارع الجسد، فى قميص مطرز، وقصته تتهدل من تحت العمرة على جبينه. ويحمل فى إحدى يديه رزمة كتب، وفى اليد الأخرى عصا غليظة بعقد. وتسير وراءه أخته، حاملة كتبا هى الأخرى.

وتجادله بصوت عال:

ـ إنك لم تقرأ هذا يا ميخايليك. إننى أقول لك، أقسم إنك لم تقرأ هذا أبدا!

فيصيح كوفالنكو وهو يقعقع بعصاه على الرصيف:

ـ وأنا أقول لك إننى قرأته.

ـ آه، يا إلهى، لماذا تغضب يامنتشيك، إن حديثنا مبدئى!.

فيصيح كوفالنكو بصوت أعلى:

ـ وأنا أقول لك إننى قرأته.

وما إن يوجد فى منزلها شخص غريب حتى ينشب بينهما الشجار. ويبدو أن هذه الحياة أرهقتها، ثم أنها أرادت أن تستقل بركنها، زد على ذلك السن أيضا. عندئذ لا يكون هناك متسع للاختيار، وتصبح مستعدة للزواج بأى كان، حتى بمدرس اللغة اليونانية القديمة. ثم إنه بالنسبة لمعظم آنساتنا ليس المهم من يتزوجن، بل المهم أن يتزوجن. وأيا كان الأمر فقد أخذت فارنكا تبدى نحو بيليكوف ميلا واضحا.

وماذا عن بيليكوف؟ كان يتردد على كوفالنكو كما يتردد علينا. يأتى إليه فيجلس صامتا. هو يصمت أما فارنكا فتغنى له «الرياح تعصف»، أو تنظر إليه شاردة بعينيها السوداوين، أو تقهقه فجأة:.

ـ ها.. ها.. ها!.

إن الإيحاء يلعب دورا كبيرا فى أمور الغرام، وخاصة فى الزواج. ومن ثم راح الجميع ـ الرفاق والسيدات ـ يؤكدون لبيليكوف أنه ينبغى عليه أن يتزوج، وأنه لم يعد لديه شىء فى الحياة إلا أن يتزوج. وهنأناه كلنا، وتفوهنا بأشياء مبتذلة وقد اكتست وجوهنا ملامح الجدية، أشياء من قبيل أن الزواج هو خطوة جادة، ثم إن فارنكا لا يعوزها الجمال، وهى جذابة، وكانت ابنة مستشار اعتبارى[1]، ولديها منزل ريفى، وأهم شىء أنها أول امرأة تعامله برقة وود. فدار رأسه وقرر أن ينبغى عليه بالفعل أن يتزوج.

وقال إيفان إيفانيتش:

ـ تلك هى اللحظة التى يمكن فيها انتزاع الخف والشمسية منه.

ـ تصور، لقد اتضح أن ذلك مستحيل. لقد وضع صورة فارنكا على مكتبه،

---

(١) كانت رتبة مدنية فى روسيا القيصرية تعادل رتبة العقيد. (المعرب).

وأخذ يتردد علىّ ويتحدث عن فارنكا، وعن الحياة الزوجية، ويقول إن الزواج خطوة جادة، وأكثر من زيارته لآل كوفالتكو، لكنه لم يغير طريقة حياته قيد شعرة. بل بالعكس، لقد أثر عليه قراره بالزواج تأثيرا مَرَضيا، فهزل وشحب وجهه وبدا أنه قد غاص أكثر فى علبته.

كان يقول لى بابتسامة ضعيفة ممتعضة:

ـ فارفارا سافيشنا تعجبنى، وأنا أعرف أنه من الضرورى لكل إنسان أن يتزوج، ولكن.. كل ذلك، أتدرى، حدث فجأة.. ينبغى علىَّ أن أفكر.

فأقول له:

ـ وفيم تفكر؟ تزوج وهذا كل ما فى الأمر.

ـ كلا، الـزواج خطوة جـادة. ينبغى أولا أن أزن الواجبات القادمة والمسئوليات.. حتى لا يحدث شىء بعد ذلك. إن هذا يقلقنى جدا، وأصبحت لا أنام الليل. وأصارحك أننى أخاف: فلديها هى وشقيقها طريقة تفكير غريبة، إنهما يفكران، أتدرى، بطريقة غريبة، وطبعها أيضا مندفع جدا. فإذا تزوجت، فربما أقع، لا قدر الله، فى ورطة ما.

ولم يتقدم لطلب يدها، وراح يؤجل ذلك، مما أثار خيبة أمل زوجة المدير وكل نسائنا. ظل يزن الواجبات القادمة والمسئوليات، وفى الوقت نفسه كان يتنزه مع فارنكا كل يوم تقريبا. إذ ربما كان يظن أن ذلك مطلوب فى وضعه، ويأتى إلىّ ليتحدث عن الحياة العائلية. وربما تقدم فى نهاية الأمر لطلب يدها، وعندئذ كان سيتم زواج من تلك الزيجات الحمقاء التى لا ضرورة لها والتى تحدث عندنا بالآلاف بفعل الملل والفراغ. لو لا أن وقعت **Kolossalische** Scandal[1] فجأة. إذ لا بد من القول بأن شقيق فارنكا، كوفالنكو، قد كره بيليكوف من أول يوم تعارفهما، ولم يعد يطيقه.

---

(١) فضيحة كبيرة (بالألمانية فى الأصل).

وكان يقول لنا وهو يهز كتفيه:

ـ أنا لا أفهم، كيف تطيقون هذا الواشى، هذه السحنة المنحطة. إيه يا ساده كيف تستطيعون العيش هنا! الجو لديكم خانق، قذر. فهل أنتم مربون، معلمون؟ أنتم عبدة ألقاب، وليس ما لديكم محراب علم، بل إدارة مناصب تفوح منها رائحة حامضة كما فى كشك الشرطة. كلا يا إخوان، سأعيش معكم قليلا ثم أرحل إلى منزلنا الريفى وأصطاد هناك السرطان وأعلم الأوكرانيين الصغار. سأرحل، وستبقون أنتم هنا مع يهوذاكم، ألا فلتأخذه مصيبة!

وأحيانا كان يقهقه، يقهقه حتى تدمع عيناه قهقهات غليظة مرة ورفيعة حادة مرة أخرى ويسألنى بالأوكرانية وهو يلوح بيدية:

ـ لماذا يجلس عندى؟ ما الذى يريده؟ إنه يجلس ويتطلع.

بل وأطلق عليه اسم «العنكبوت». وبالطبع فقد تجنبنا أن نذكر له أن أخته فارنكا تنوى الزواج من «العنكبوت» وعندما ألمحت له زوجة المدير ذات مرة بأنه من الخير تزويج أخته من سيد رصين، يحترمه الجميع مثل بيليكوف، عقد حاجبيه ودمدم ساخطا:

ـ ليس هذا من شأنى، فلتتزوج ولو ثعبانا. أنا لا أحب أن أتدخل فى شئون الغير.

فلتسمع ما حدث بعد ذلك. لقد رسم أحد الأشقياء رسما كاريكاتيريا لبيليكوف وهو يسير فى خف وسروال مشمر، وتحت الشمسية، ويتأبط ذراع فارنكا. وكتب تحت الرسم «الأنثروبوس العاشق». وهو تعبير كما ترى مناسب بشكل مدهش. لا بد أن الرسام أنفق فى هذا العمل أكثر من ليلة، لأن كل مدرسى مدرستى البنين والبنات، ومدرسى المعهد الدينى وجميع الموظفين حصل كل منهم على نسخة من الرسم. وحصل بيليكوف أيضا على نسخة. وتركت الصورة فى نفسه أسوأ انطباع.

وخرجنا معا من المنزل، وكان ذلك فى أول مايو، يوم الأحد، وكنا قد اتفقنا

نحن المدرسين والتلاميذ أن نلتقى عند المدرسة، ثم نذهب جميعا سيرا على الأقدام خارج المدينة إلى الغابة، وإذا به مربد الوجه مكفهر كالغمامة.

وقال:

ـ يا لهم من أناس خبثاء، أشرار!

وارتعشت شفتاه.

حتى إننى شعرت بالرثاء له. وبينما نحن نسير إذ بنا نرى كوفالنكو قادما نحونا على دراجة، تصور، ومن ورائه فارنكا على دراجة أيضا، خداها أحمران، هى مرهقة، ولكنها مرحة مسرورة.

وصاحت:

إننا نسير إلى الأمام. ياللجو الرائع، ياللجو الرائع، شىء خرافى!

واختفيا عن أنظارنا. وتحول اربداد وجه بيليكوف إلى شحوب، وبدا كأنه تسمر فى مكانه. وتوقف وراح يحملق فىّ، ثم سألنى:

ـ عفوا، ما هذا؟ أم أن نظرى يخدعنى؟ هل من اللائق لمدرسى المدرسة وللنساء أن يركبوا الدراجات؟

فقلت له:

ـ وما عدم اللياقة فى ذلك؟ فليركبوا ما شاء لهم.

فصاح وقد أذهله هدوئى:

ـ كيف يمكن؟ ماذا تقول؟!

كان مصعوقا لدرجة أنه لم يشأ أن يواصل السير وقفل عائدا إلى المنزل.

وفى اليوم التالى ظل يفرك راحتيه فى عصبية ويتنفض، وكان واضحا أنه

فى حالة سيئة. وترك الدروس، الأمر الذى حدث له لأول مرة فى حياته. ولم يتناول الغداء، وقبيل المساء ارتدى ملابس ثقيلة رغم أن الجو فى الخارج كان صيفيا تماما، ومضى إلى كوفالنكو. ولم تكن فارنكا فى المنزل فلم يجد سوى شقيقها.

فقال له كوفالنكو ببرود وقد عقد حاجبيه:

ـ تفضل اجلس لو سمحت.

كان وجهه ناعسا. فقد أفاق لتوه من نوم بعد الغداء، وكان مزاجه معتلا للغاية.

وجلس بيليكوف صامتا حوالى عشر دقائق ثم بدأ يقول:

ـ لقد جئت إليكم لأخفف عن قلبى. إننى مرهق نفسيا جدا. إن أحد الرسامين قد رسمنى فى صورة مضحكة مع آنسة قريبة لنا معا. وأرى من واجبى أن أؤكد لك أنه لا دخل لى بذلك.. لم أفعل من جانبى أى شىء يبرر هذه السخرية، بالعكس دائما أسلك مسلك الشخص القويم.

كان كوفالنكو جالسا مكفهر الوجه وصامتا. وانتظر بيليكوف قليلا، ثم مضى يقول بصوت خافت حزين:

ـ ولدىَّ ما أريد أن أقوله لك أيضا. إننى أخدم منذ زمن طويل، أما أنت فمازلت فى بداية الخدمة وأرى من واجبى كرفيق أقدم أن أحذرك. إنك تركب الدراجة، وهذه تسلية لا تليق أبدا بمرب للنشء.

فسأل كوفالنكو بصوت غليظ:

ـ ولماذا؟

ـ وهل هناك داع لشرح ذلك يا ميخائيل سافيتش، أليس ذلك مفهوما؟ إذا كان المدرس يركب دراجة، فماذا يتبقى للتلاميذ؟ لا يبقى لهم إلا أن يسيروا على رؤوسهم. وإذا كان ذلك غير مسموح به فى المنشورات الدورية فهذا

يعنى أنه ممنوع. لقد ارتعت أمس. عندما رأيت شقيقتك غامت عيناى. المرأة أو الآنسة فوق الدراجة.. هذا فظيع.

ـ ماذا تريد بالضبط؟

ـ لا أريد سوى شيء واحد أن أحذرك يا ميخائيل سافيتش. أنت رجل شاب، والمستقبل عريض أمامك، ينبغى أن يكون سلوكك حذرا، وحذرا جدا. إنك بذلك تستهتر، أوه كم تستهتر! إنك ترتدى قميصا مطرزا، وتسير فى الشارع حاملا كتبا ما دائما، ثم ها أنت ذا تركب دراجة. وسيعلم المدير أنك تركب دراجة أنت وشقيقتك، ثم يصل الأمر إلى رئيس المنطقة التعليمية... فما هو الخير فى ذلك؟

فقال كوفالنكو وهو يتضرج:

ـ لا شأن لأحد بركوبى الدراجة أنا وشقيقتى. أما من سيتدخل فى أمورى المنزلية العائلية فسأبعث به إلى الشياطين.

فامتقع بيليكوف ونهض. وقال:

ـ إذا كنت تتحدث معى بهذه اللهجة فأنا لا أستطيع أن أواصل. وأرجوك ألا تتحدث عن الرؤساء أبدا بهذا الشكل فى حضرتى. ينبغى عليك أن تنظر إلى السلطات باحترام.

فسأله كوفالنكو وهو يحدق فيه بغيظ:

ـ وهل قلت شيئا سيئا عن السلطات؟ أرجوك دعنى فى حالى. أنا رجل شريف، ولا أريد أن أتحدث مع سيد مثلك. أنا لا أحب الوشاة.

وارتبك بيليكوف فى عصبية، وأخذ يرتدى معطفه بسرعة وقد ارتسم الرعب على وجهه. فقد كانت تلك أول مرة فى حياته يسمع فيها هذه العبارات الفظة.

فقال وهو يخرج من الباب إلى بسطة السلم:

ـ بوسعك أن تقول ما تشاء. غير أني ينبغي أن أحذرك، فربما سمع كلامنا أحد. ولكي لا يحرف حديثنا ويحدث شيء، ينبغي أن أبلغ السيد المدير فحوى حديثنا.. في الخطوط العامة. يجب عليّ أن أفعل ذلك.

ـ تبلغ؟ اذهب وبلغ.

وأمسك كوفالنكو من الخلف بياقته ودفعة، فتدحرج بيليكوف على السلم وهو يقرقع بخفة. وكان السلم عاليا وشديد الانحدار، ولكنه تدحرج حتى وصل إلى أسفل سالما، ثم نهض وتحسس أنفه ليتأكد هل النظارة سليمة أم لا؟ ولكن في اللحظة التي كان يتدحرج فيها على السلم دخلت فارنكا بصحبة سيدتين. وقفن في الأسفل ينظرن. وكان هذا أفظع شيء بالنسبة لبيليكوف. خيل إليه أنه من الأفضل أن يدق عنقه أو تنكسر كلتا ساقيه من أن يصبح مسخرة. الآن ستعلم المدينة كلها، وسيصل الأمر إلى المدير ورئيس المنطقة، آه، أخشى أن يحدث شيء! إذ ربما رسموا كاريكاتيرا جديدا، وينتهي كل ذلك بأن يأمروه بتقديم استقالته..

وعندما نهض عرفته فارنكا. ونظرت إلى وجهه المضحك، ومعطفه المجعد، وخفه، وهي لا تدرك ماذا حدث، واعتقدت أنه زل وسقط، فلم تتمالك نفسها من الإغراق في الضحك بصوت أسمع البيت كله:

ـ ها.. ها.. ها!

بهذه القهقهات المدوية المجلجلة تكلل كل شيء: الخطبة، ووجود بيْليكوف الدنيوي. لم يعد يسمع ما تقوله فارنكا، ولم ير شيئا. وعندما عاد إلى داره بادر قبل كل شيء برفع صورة فارنكا من الطاولة، ورقد ولم يقم بعدها.

وبعد حوالي ثلاثة أيام جاءني أفناسي وسألني هل يستدعي الطبيب، لأن شيئا ما يحدث للسيد. فذهبت إلى بيليكوف. كان راقدا تحت ناموسية السرير، مغطى بالبطانية. وصامتا. وعندما تسأله لا يرد إلا بلا أو نعم، ولا يزيد حرفا.

كان راقدا، وأفناسى يجوس من حوله عابسا، مكفهرا، يزفر بعمق، ورائحة الفودكا تنبعث منه كما فى حانة.

وبعد شهر توفى بيليكوف. وسرنا جميعا فى جنازته، كلتا المدرستين والمعهد الدينى. وبعد أن تمدد فى التابوت اكتسى وجهه تعبيرا مستكينا، لطيفـا، بل حتى مرحا، كأنما كان سعيدا بأنهم وضعوه أخيرا فى علبة لن يخرج منها أبدا. نعم لقد بلغ مثله الأعلى. وأثناء الجنازة، وكأنما تكريمـا له، كان الجـو مكفهرا ممطر، فارتدينا جميعا الأخفاف وحملنا الشماسى. وشهدت فارنكا أيضا الجنازة، وعندما أنزل التابوت إلى القبر أجهشت بالبكاء. وقد لاحظت أن النساء الأوكرانيات إما يضحكن وإما يبكين، وليس لديهن مزاج وسط.

وأصارحك بأن دفن أناس مثل بيليكوف هو متعة كبيرة. فعندما عدنا من المقبرة كانت وجوهنا متواضعة، محايدة، إذ لم يشأ أحد منا أن يكشف عن هذا الشعور بالمتعة.. الشعور الذى يشبه ذلك الإحساس الذى كان يعترينا منذ زمن بعيد، فى أيام الطفولة، عندما يغادر الكبار المنزل فنمرح فى الحديقة ساعة أو ساعتين مستمتعين بالحرية التامة. آه، الحرية، الحرية! مجرد التلميح، أو حتى الأمل الضعيف باحتمال تحققها يخلق للروح جناحين، أليس كذلك؟

عدنا من المقابر بنفوس منشرحة. ولكن ما إن مر أسبوع حتى عادت الحياة إلى مجراها السابق.. حياة قاسية، مرهقة، بلا معنى، لا تحدها ممنوعات المنشورات الدورية ولكنها غير مطلقة السراح تماما. لم يصبح الوضع أفضل. وبالفعل، لقد دفنا بيليكوف، ولكن كم بقى من أمثال هؤلاء الرجال المعلبين، وكم سيظهر منهم.

فقال إيفان إيفانيتش:

ـ هذه هى المسألة فعلا.

وأشعل غليونه.

وردد بوركين:

ـ وكم سيظهر منهم.

وخرج المدرس من الحظيرة. كان رجلا غير طويل أصلع تماما، بلحية سوداء تكاد تصل إلى خصره. وخرج معه كلبان.

وقال وهو يتطلع إلى أعلى:

ـ القمر، القمر، انظر!

كان الوقت منتصف الليل. وإلى اليمين بدت القرية كلها. وامتد شارعها الطويل بعيدا، حوالى خمسة كيلو مترات. وكان كل شىء غارقا فى نوم عميق هادئ. لا حركة، ولا صوت، إلى درجة يصعب معها أن تصدق أن الطبيعة يمكن أن تشتمل على هذا الهدوء. وعندما ترى فى الليل المقمر شارع القرية العريض بمنازله، وأكوام دريسه، وأشجار الصفصاف الناعسة، تشمل روحك السكينة. ويبدو الشارع فى هدوئه هذا، وقد تغطى بظلال الليل هربا من الكد والهموم والمصائب، مستكينا، حزينا ورائعا، ويخيل إليك أن النجوم تنظر إليه برقة وإعجاب، وأن الشر قد اختفى من الأرض، وكل شىء على ما يرام. وإلى اليسار، عند طرف القرية يبدأ الحقل. كان يلوح بعيدا حتى الأفق، وعلى امتداد هذا الحقل الرحب، الغارق فى ضوء القمر، لم تكن هناك أيضا حركة أو صوت.

وردد إيفان إيفانيتش:

ـ هذه هى المسألة فعلا. وهل معيشتنا فى المدينة، فى الجو الخانق والزحام، وكتابتنا لأوراق لا حاجة إليها، ولعبنا الورق.. أليس هذا علبة؟ وهل قضاؤنا لعمرنا كله بين كسالى، عاطلين، ونساء حمقاوات فارغات، وتحدثنا وسماعنا لشتى ألوان الهراء.. أليس هذا علبة؟ لو أردت لرويت لك قصة ذات موعظة.

فقال بوركين:

ـ كلا، آن لنا أن ننام. إلى الغد!

واتجه كلاهما إلى الحظيرة ورقدا على الدريس. وتغطيا ونعسا وإذ بخطوات خفيفة تتردد فجأة: دب.. دب.. دب.. كان هناك شخص ما يسير غير بعيد عن الحظيرة. يجوس قليلا ثم يتوقف. وبعد دقيقة يعود من جديد: دب.. دب.. وزمجرت الكلاب.

وقال بوركين:

ـ إنها مافرا تسير.

وسكنت الخطوات.

ودمدم إيفان إيفانيتش وهو ينقلب إلى الجنب الآخر:

ـ أن ترى وتسمع كيف يكذبون، ثم يرمونك أنت بالغباء لأنك تطيق هذا الكذب. أن تتحمل الإهانات والإذلال، دون أن تجرؤ على الإعلان صراحة أنك فى صف الشرفاء الأحرار، بل تكذب أنت نفسك، وتبتسم، وكل ذلك من أجل لقمة العيش، من أجل ركن دافئ، من أجل وظيفة حقيرة لا تساوى قرشا.. كلا، حياة كهذه لم تعد محتملة.

فقال المدرس:

ـ إنك تغنى أغنية أخرى يا إيفان إيفانيتش. هيا ننام.

وبعد حوالى عشر دقائق كان بوركين يغط فى النوم. أما إيفان إيفانيتش فكان يتقلب من جنب إلى جنب ويتنهد، ثم نهض، وخرج مرة أخرى فجلس قرب الباب وأشعل الغليون.

حبوبة

كانت أولنكا[1]، ابنة المساعد الاعتبارى المتقاعد بليميانيكوف، جالسة فى فناء منزلهم على درج المدخل وقد استغرقت فى التفكير. كان الجو حارا، والذباب يضايقها بإلحاح، وكان من المبهج جدا التفكير فى اقتراب المساء. ومن الشرق زحف غمام داكن ممطر، وكانت الرطوبة تتناهى أحيانا من هناك.

وفى وسط الفناء وقف كوكين، المتعهد وصاحب حديقة ملاهى «تيفولى»، الذى كان يسكن جناحا هنا فى الفناء، وهو يتطلع إلى السماء.

وقال بأسى:

ـ ثانية! ستمطر ثانية! كل يوم مطر، كل يوم مطر، كأنما عمدا! هذا هلاك! هذا خراب! كل يوم خسائر رهيبة!

وأشاح بيديه ومضى يقول مخاطبا أولنكا:

ـ ها هى ذى حياتنا يا أولجا سيميونفنا. شىء يبكى! تعمل وتبذل جهدك، وتتعذب، ولا تنام الليل، وتفكر دائما فى التحسين، فما النتيجة؟ من ناحية هناك الجمهور الجاهل المتوحش. أقدم له أفضل أوبريت، أفضل مسرحية سحرية، أروع المغنين، ولكن هل هو بحاجة إلى ذلك؟ هل هو يفقه شيئا

---

(١) تدليل من الاسم الكامل: أولجا. (المعرب).

فى ذلك؟ إنه بحاجة إلى مولد! بحاجة إلى أشياء مبتذلة! ومن ناحية أخرى فلتنظرى إلى الطقس. المطر كل مساء تقريبا. منذ أن بدأ يسقط فى العاشر من مايو وهو مستمر طوال مايو ويونيو، شىء فظيع! الجمهور لا يحضر، ولكن ألست أدفع الإيجار؟ ألست أدفع أجور الممثلين؟

وفى اليوم التالى قبيل المساء زحف الغمام ثانية، فقال كوكين وهو يقهقه بهيستيرية:

ـ ثم ماذا؟ فليكن! فليغرق الحديقة كلها، فليغرقنى أيضا! فليحل بى البؤس فى هذه الدنيا وفى الآخرة! فليشكنى الممثلون إلى المحكمة! وهل تهمنى المحكمة؟ فليحكموا علىّ بالأشغال الشاقة، فى سيبيريا! لتكن حتى المشنقة! ها.. ها.. ها!

وفى اليوم الثالث نفس الشىء..

كانت أولنكا تصغى إلى كوكين فى صمت، وبجدية، وأحيانا تغرورق عيناها بالدموع. وفى نهاية الأمر أثرت فيها مصائب كوكين، فأحبته. كان قصير القامة، هزيلا، بوجه أصفر وصدغين ممشطين، يتكلم بصوت «تينور» ضعيف، وعندما يتكلم يلتوى فمه. وكان اليأس مكتوبا على وجهه دائما، إلا أنه بعث فيها شعورا حقيقيًا عميقا. كانت على الدوام تحب أحدا ما، ولا تستطيع أن تعيش بدون ذلك. فى الماضى أحبت أباها الذى أصبح يجلس الآن مريضا فى مقعد، فى غرفة مظلمة، ويتنفس بصعوبة. وأحبت خالتها التى كانت تأتى من بريانسك أحيانا، مرة كل عامين. وقبل ذلك، عندما كانت تدرس فى المدرسة المتوسطة، أحبت مدرس اللغة الفرنسية. كانت آنسة هادئة، طيبة حنونا، بنظرة وديعة ناعمة، وفى غاية الصحة. وعندما ينظر الرجال إلى خديها الممتلئين المتوردين، وإلى عنقها الأبيض الناعم ذى الشامة الداكنة، وإلى ابتسامتها الطيبة الساذجة التى ترتسم على وجهها عندما تسمع شيئا سارا، كانوا يفكرون: «نعم، لا بأس بها..» ويبتسمون هم أيضا، أما النساء فلا يتمالكن أنفسهن أثناء الحديث من الإمساك بيدها والقول فى غمرة السرور:

ـ يا حبّوبة!

كان البيت الذى تعيش فيه منذ أن ولدت وكتب باسمها فى الوصية يقع فى طرف المدينة، فى محلة الغجر، غير بعيد عن حديقة ملاهى «التيفولى». وفى الأمسيات والليالى كان يسمع فى الحديقة عزف الموسيقى وانفجارات الصواريخ النارية المزمجرة، فكان يخيل إليها أن كوكين يحارب قدره، ويهاجم عدوه الرئيسى: الجمهور اللامبالى. فكان قلبها يخفق بلذة، ويجافيها النوم، وعندما يعود كوكين قبيل الصباح كانت تدق خفيفا على نافذتها من داخل غرفة نومها، وتبتسم له برقة، كاشفة له عبر الستارة عن وجهها وإحدى كتفيها فقط..

وخطبها، وعقدا قرانهما. وعندما رأى كما يجب عنقها وكتفيها الممتلئتين العفيتين، أشاح بيديه ودمدم:

ـ يا حبّوبة!

كان سعيدا، ولكن لما كان المطر يسقط يوم الزفاف ثم طوال الليل، لم يفارق وجهه تعبير الأسى.

وعاشا بعد الزفاف حياة طيبة. كانت تجلس فى شباك التذاكر لديه، وتراقب النظام فى الحديقة، وتسجل النفقات وتصرف الرواتب، وكان خداها المتوردان وابتسامتها اللطيفة الساذجة التى تشبه الإشعاع تومض تارة فى شباك التذاكر وتارة وراء الكواليس، وتارة فى البوفيه. وأصبحت تقول لمعارفها إن أروع وأهم وألزم شىء فى الدنيا هو المسرح، وإنه لا يمكن أن تحصل على المتعة الحقيقية وأن تصبح مثقفا وخيّرا إلا فى المسرح.

ـ ولكن هل يفهم الجمهور ذلك؟ـ كانت تقول ـ إنه بحاجة إلى مولد! بالأمس قدمنا «فاوست بالمقلوب»، وكانت جميع المقصورات تقريبا خالية، ولو أننا، أنا وفانتشكا، قدمنا أى شىء مبتذل لكان المسرح، صدقونى، ممتلئا عن آخره. غدا سنقدم أنا وفانتشكا «أورفيوس فى الجحيم»، تعالوا.

وكل ما يقوله كوكين عن المسرح والممثلين كانت هى تردده. كانت مثله تحتقر الجمهور لعدم اكتراثه بالفن ولجهله، وتتدخل فى البروفات وتصحح الممثلين، وتراقب سلوك الموسيقين، عندما تكتب الجريدة المحلية بعدم استحسان عن المسرح تبكى ثم تذهب إلى إدارة التحرير للتفاهم فى الأمر.

وكان الممثلون يحبونها ويسمونها «أنا وفانتشكا» و «حبوبة». وكانت ترق لحالهم وتقرضهم قروضا صغيرة، وإذا حدث وخدعوها تبكى فقط بصوت خافت لكنها لا تشكو لزوجها.

وفى الشتاء أيضا عاشا حياة طيبة. استأجرا مسرح المدينة لموسم الشتاء وكانوا يؤجرونه لفترات قصيرة تارة لفرقة أوكرانية، وتارة لحاو، وتارة للهواة المحليين. وسمنت أولنكا وأشرقت كلها سرورا، أما كوكين فنحف واصفرّ واشتكى من الخسائر الرهيبة، رغم أن الأمور طوال الشتاء سارت على ما يرام. وكان يسعل ليلا فتسقيه شراب التوت ومنقوع زهر الزيزفون، وتدلكه بالكولونيا وتدثره فى شيلانها الناعمة.

ـ كم أنت رائع !ـ كانت تقول بكل إخلاص وهى تداعب شعره ـ كم أنت حلو !

وفى الصيام الكبير سافر إلى موسكو لجمع فرقة تمثيل، فلم تستطع بدونه أن تنام وجلست طوال الليل بجوار النافذة تحدق فى النجوم. وفى تلك الأثناء كانت تقارن نفسها بالدجاجات التى لا تنام أيضا فى الليل وتشعر بالقلق إذا لم يكن الديك فى الحظيرة. وتأخر كوكين فى موسكو وكتب يقول إنه سيعود فى عيد الفصح، وأصدر فى رسائله تعليماته بخصوص «التيفولى». ولكن فى ساعة متأخرة من المساء، قبيل أسبوع الآلام دوى طرق مشؤوم على البوابة. كان أحد ما يدق الباب وكأنما يضرب برميلا: بوم! بوم! بوم! وركضت الطاهية الناعسة لتفتح وهى تطرطش بقدميها الحافيتين فى البرك.

ـ افتحوا، اعملوا معروفا ـ قال شخص ما من وراء البوابة بصوت غليظ ـ وصلتكم برقية!

كانت أولنكا تتلقى برقيات من زوجها قبل ذلك، ولكن الذهول تملكها الآن لسبب ما. وفضت البرقية بأصابع مرتعشة وقرأت التالى:

«توفى اليوم إيفان بتروفتش وفاة مفاجئة فى انتظار التعليمات عاجكا الدفد الثلاثاء».

هكذا كان مكتوبا فى البرقية «الدفد»، ثم تلك الكلمة غير المفهومة «عاجكا»، والتوقيع لمخرج فرقة الأوبريت.

وأعولت أولنكا:

ـ يا حبيبى الغالى! يا فانتشكا العزيز، يا حبيبى الغالى! لماذا التقيت بك؟ لماذا عرفتك وأحببتك؟ لمن تركت أولنكاك المسكينة، المسكينة التعيسة؟..

دفن كوكين يوم الثلاثاء، فى موسكو، فى مقابر فاجانكوفو. وعادت أولنكا يوم الأربعاء، وما إن دخلت البيت حتى ارتمت على السرير وأجهشت بالبكاء بصوت عال سمع فى الخارج وفى الأفنية المجاورة.

وقالت جاراتها وهن يرسمن علامة الصليب:

ـ الحبوبة! أولجا سيميونفنا الحبوبة، انظروا، كيف تتألم!

بعد ثلاثة أشهر كانت أولنكا عائدة من صلاة الظهر، حزينة، مجللة بالسواد. وتصادف أن سار بجوارها أحد جيرانها، فاسيلى أندرييتش بوستوفالوف، رئيس مخزن الخشب التابع للتاجر بابكايف، وكان عائدا من الصلاة أيضا. كان فى قبعة من القش، وفى صديرى أبيض بسلسلة ذهبية، ويبدو أشبه بإقطاعى منه بتاجر.

قال لها برزانة وبنبرة تعاطف:

ـ لكل شيء نظامه. فإذا مات أحد من أقربائنا فمعنى ذلك مشيئة الله، وعلينا في هذه الحالة أن نتذرع بالصبر ونرضى بها.

وأوصل أولنكا إلى باب الفناء ثم ودعها ومضى إلى داره. وبعد ذلك ظل صوته الرزين يتردد في أذنيها طول النهار وما تغمض عينيها حتى تتراءى لها لحيته السوداء. لقد أعجبها غاية الإعجاب. ويبدو أنها هي أيضا قد تركت في نفسه أثرا، إذ جاءت إليها بعد فترة قصيرة لتشرب القهوة سيدة كهلة لم تكن تعرفها إلا قليلا، وما إن جلست إلى المائدة حتى تحدثت على الفور عن بوستوفالوف، وإنه رجل طيب، رصين، وإن أية فتاة تقبله زوجا عن طيب خاطر. وبعد ثلاثة أيام زارها بوستوفالوف نفسه. لم يمكث كثيرا، حوالي عشر دقائق، وتحدث قليلا، ولكن أولنكا أحبته، أحبته إلى درجة أنها لم تنم طول الليل وهي تحترق وكأنها مصابة بالحمى، وفي الصباح أرسلت تستدعي السيدة الكهلة. وسرعان ما خطبت، ثم عقد القران.

وعاش بوستوفالوف وأولنكا بعد الزفاف حياة طيبة. كان يبقى في مخزن الخشب عادة حتى الغداء، ثم يمضي لأعماله، فتحل محله أولنكا وتبقى في المكتب حتى المساء وتسجل الحسابات وتصرف البضاعة.

وتقول للمشترين والمعارف:

ـ أسعار الخشب ترتفع الآن عشرين في المائة كل سنة. عفوًا، كنا من قبل نتاجر في الخشب المحلي، أما الآن فإن فاسيتشكا مضطر أن يسافر كل سنة إلى محافظة موجيليوف لشراء الخشب. وأية رسوم!ـ تقول مغطية برعب كلا خديها براحتيهاـ أية رسوم!

خيل إليها أنها تتاجر في الخشب منذ زمن بعيد، وأن أهم وألزم شيء في الحياة هو الخشب، وسمعت شيئا عزيزا، مؤثرا في هذه الكلمات: عرق، أرومة، لوح، بطانة، لطزان، بندقي، سقالة، تربيعة... وفي الليل تتراءى لها في المنام جبال من الألواح والعروق، وقوافل طويلة بلا نهاية من العربات

التى تنقل الخشب إلى مكان بعيد خارج المدينة. ورأت فى الحلم فوجا كاملا من الجذوع بطول اثنتى عشرة ذراعا وقطر خمسة فيرشوكات[1] للجذع يسير منتصبا ويهاجم مخزن الخشب، وتصطدم الجذوع والعروق والترابيع فيصدر عنها صوت أجوف للخشب الجاف، وتتساقط كلها ثم تنهض ثانية وهى تتكدس فوق بعضها. وتصرخ أولنكا فى المنام فيقول لها بوستوفالوف برقة:

ـ أولنكا، ماذا بك يا عزيزتى؟ صلّبى.

وكانت لها نفس الأفكار التى كانت لزوجها. فإذا ما ظن أن الجو فى الغرفة حار أو أن التجارة أصبحت الآن راكدة فإنها تظن كذلك. ولم يكن زوجها يحب أية تسليات، وفى العيد يبقى فى البيت، وهى أيضا.

ويقول معارفها:

ـ أنت دائما فى البيت أو فى المكتب. هلا ذهبت إلى المسرح أو إلى السيرك يا حبوبة.

فترد برزانة:

ـ ليس لدينا أنا وفاسيتشكا وقت للذهاب إلى المسارح نحن أناس عمل، مشغولون عن هذه التوافه. أىّ خير فى هذه المسارح؟

فى أيام السبت كانا، بوستوفالوف وهى، يذهبان إلى صلاة المساء، وفى أيام الأعياد إلى القداس المبكر، ويعودان من الصلاة متجاورين، بوجهين متأثرين، وتفوح من كليهما رائحة زكية، ويهفهف فستانها الحريرى بصوت لطيف. وفى البيت يشربان الشاى مع الخبز الدسم ومختلف أنواع المربى، ثم يتناولان الكعكة. وكل يوم فى الظهر تفوح فى الفناء وخلف البوابة فى الشارع روائح شهية من حساء الكرنب ولحم الضأن أو البط المحمر، والسمك فى

(١) الفيرشوك ـ مقياس روسى قديم يعادل $1\frac{3}{4}$ بوصة. (المعرب).

أيام الصيام، فلا يمكن أن يمر أحد بجوار البوابة إلا وتتفتح شهيته للأكل. وفى المكتب كان السماور يغلى دائما، وكانا يضيفان الزبائن شايا بالسميط الطازج. ويتردد الزوجان على الحمّام مرة فى الأسبوع، ويعودان من هناك متجاورين.

بوجهين أحمرين.

وكانت أولنكا تقول لمعارفهما:

ـ لا بأس، نعيش جيدا، الحمد لله. فليهب الله الآخرين عيشة كعيشتنا أنا وفاسيتشكا.

وعندما كان بوستوفالوف يرحل إلى محافظة موجيليوف لشراء الأخشاب تشعر بوحشة شديدة ولا تنام الليل وتبكى وأحيانا كان يزورها فى المساء طبيب الفوج البيطرى سميرنين، الشاب، القاطن لديها فى الجناح. كان يروى لها شيئا ما أو يلعب معها الورق، فكان ذلك يسرّى عنها. وكانت أطرف الروايات هى تلك التى يتحدث فيها عن حياته العائلية. كان متزوجا وله ابن، ولكنه انفصل عن زوجته لأنها خانته، وأصبح الآن يمقتها ويرسل لها كل شهر أربعين روبلا للإنفاق على ابنه. وكانت أولنكا إذ تسمع ذلك تتنهد وتهز رأسها، وتشعر بالرثاء له.

ـ طيب، ليحرسك الله ـ كانت تقول له وهى تودعه وتمضى معه بالشمعة حتى الدرج ـ شكرا على مشاركتك لى وحشتى، فلتهبك العذراء الصحة...

كانت تتحدث برزانة، بحكمة، مقلدة زوجها. وعندما يغيب البيطرى وراء الباب فى الأسفل تناديه قائلة:

ـ أتدرى يا فلاديمير بلاتونيتش، هلا تصالحت مع زوجتك. هلا سامحتها ولو من أجل ابنك!.. لا بد أن الصبى يفهم كل شىء.

وعندما يعود بوستوفالوف تحدثه بصوت خافت عن البيطرى وحياته

العائلية التعيسة، فيتنهدان.. ويهزان رأسيهما ويتحدثان عن الصبى الذى لا شك يشتاق إلى أبيه، ثم وفقا لتسلسل غريب فى الأفكار يقفان كلاهما أمام الأيقونة ويركعان بشدة ويدعوان الله أن يرزقهما أطفالا.

وهكذا عاش آل بوستوفالوف فى هدوء وسكينة وحب ووفاق تام ست سنوات. ولكن حدث ذات شتاء أن خرج فاسيلى أندرييتش من المخزن ليصرف خشبا، بعد أن شرب شايا ساخنا، فأصيب بنزلة برد ومرض. وعالجه أفضل الأطباء، لكن المرض تغلب عليه فمات بعد أربعة أشهر. ومرة أخرى أصبحت أولنكا أرملة.

ـ لمن تركتنى يا عزيزى الغالى؟ـ انتحبت بعد أن دفنت زوجها ـ كيف سأعيش الآن بدونك، أنا البائسة المسكينة؟ أيها الطيبون فلترقوا لحالى، أنا اليتيمة المقطوعة..

أصبحت ترتدى فستانا أسود بأشرطة الحداد، وتخلت تماما عن القبعة والقفاز، وكانت لا تخرج من بيتها إلا نادرا وفقط إلى الكنيسة أو إلى قبر زوجها، وعاشت فى بيتها كراهبة. وفقط بعد مرور ستة أشهر نزعت أشرطة الحداد وأصبحت تفتح شيش النوافذ. وأحيانا كانوا يرونها صباحا وهى فى طريقها إلى السوق لشراء المؤونة وبصحبتها طاهيتها، ولكن لم يعد أحد يعرف كيف تعيش الآن وما الذى يجرى فى بيتها إلا تخمينا. كانوا يخمنون ذلك مثلا من رؤيتهم لها جالسة فى حديقتها الصغيرة تشرب الشاى مع البيطرى بينما يقرأ لها الجريدة، ومن قولها لإحدى معارفها عندما التقت بها فى مكتب البريد:

ـ ليس لدينا فى المدينة رقابة بيطرية سليمة، ولهذا فالأمراض كثيرة. كثيرا ما نسمع أن الناس يمرضون من اللبن ويصابون بالعدوى من الخيول والأبقار. فى الحقيقة ينبغى أن نهتم بصحة الحيوانات الداجنة مثلما نهتم بصحة الناس.

كانت تردد أفكار البيطرى، وأصبح رأيها فى كل شىء الآن مثل رأيه. كان واضحا أنها لا تستطيع أن تعيش ولو سنة واحدة دون ارتباط، وقد وجدت سعادتها الجديدة فى جناح بيتها. ولو كانت امرأة غيرها لأدانوها، ولكن لم يكن بوسع أحد أن يفكر بسوء فى أولنكا، وكان كل شىء فى حياتها مفهوما تماما. ولم تذكر لا هى ولا البيطرى لأحد شيئا عن التغير الذى طرأ على علاقتهما، وحاولا إخفاءه ولكنهما أخفقا فى ذلك.. فليس من الممكن أن تكون لدى أولنكا أسرار. وعندما كان يزوره ضيوف، من زملائه فى الفوج كانت أولنكا، وهى تصب لهم الشاى أو تقدم العشاء، تشرع فى الحديث عن طاعون البقر وعن مرض اللؤلؤ، وعن مجازر المدينة، فكان يشعر بالحرج الشديد، وبعد انصراف الضيوف يقبض على ذراعها ويفح بغضب:

ـ ألم أطلب منك ألا تتحدثى فيما لا تفهمينه! أرجوك ألا تتدخلى عندما نتحدث نحن البيطريين فيما بيننا هذا فى النهاية شىء ممل!

أما هى فكانت تنظر إليه بذهول وقلق وتسأله:

ـ فعم إذن أتحدث يا فولودتشكا؟

وتعانقه وعيناها مغرورقتان، وتتوسل إليه ألا يغضب، ويظل كلاهما سعيدين.

إلا أن هذه السعادة لم تدم طويلا. فقد رحل البيطرى مع فوجه، رحل نهائيا، إذ نقل الفوج إلى مكان بعيد جدا، ربما إلى سيبيريا. وأصبحت أولنكا وحيدة.

كانت الآن وحيدة تماما. فقد توفى والدها منذ زمن بعيد، وأصبح مقعده مطوحا فى المخزن العلوى يكسوه الغبار وقد فقدت إحدى قوائمه. وهزلت أولنكا وقبحت، ولم يعد من يقابلها فى الطريق ينظر إليها كما فى السابق أو يبتسم لها. يبدو أن أفضل سنوات العمر قد ولت وأصبحت خلف ظهرها، وبدأت الآن حياة جديدة، مجهولة، يحسن ألا تفكر فيها. كانت أولنكا

تجلس فى أوقات المساء على الدرج، ويتناهى إلى سمعها عزف الموسيقى وانفجار الصواريخ النارية فى «التيفولى»، بيد أن ذلك لم يعد يثير لديها أية أفكار. وكانت تنظر بلا اكتراث إلى فنائها الخاوى دون أن تفكر أو ترغب فى شىء، وعندما يأتى الليل تذهب إلى فراشها وترى فى المنام فناءها الخاوى. وكانت تأكل وتشرب كأنما قسرا.

أما المهم، وأسوأ ما فى الأمر، أنه لم تعد لديها أية آراء. كانت ترى من حولها الأشياء، وتدرك كل ما يجرى حولها، لكنها لم تكن قادرة على تكوين رأى فى أى شىء ولا تعرف عم تتحدث. وما أفظع أن تكون بلا أى رأى! ترى مثلا زجاجة أمامك، أو المطر يسقط، أو فلاحا راكبا عربة، ولكن لأى غرض هذه الزجاجة، أو المطر، أو الفلاح، وما مغزى ذلك، هذا ما لا تستطيع أن تقوله، ولن تستطيع ولو دفعوا لك ألف روبل. عندما كانت أولنكا مع كوكين وبوستوفالوف، ثم بعد ذلك مع البيطرى، كان بوسعها أن تشرح كل شىء وتدلى برأيها فى أى شأن مهما كان، أما الآن فكان فى أفكارها وقلبها نفس الخواء الذى فى الفناء. وكان ذلك فظيعا ومريرا كأنما أكلت حنظلا حتى الشبع.

اتسعت المدينة شيئا فشيئا فى جميع الاتجاهات. وأصبحت محلة الغجر تسمى الآن شارعا، وفى المكان الذى كانت تقوم فيه حديقة ملاهى «التيفولى» ومخازن الأخشاب، قامت المنازل وظهرت عدة حارات. ما أسرع مرور الزمن! ازداد منزل أولنكا قتامة، وصدئ سطحه، ومالت الحظيرة وغطى الحسك والأرقطيون الشائك أرض الفناء. أما أولنكا نفسها فهرمت وقبحت. وفى الصيف تجلس على الدرج وتشعر فى نفسها كما فى السابق بالخواء، والضجر ومرارة الحنظل، وفى الشتاء تجلس إلى النافذة وتنظر إلى الثلج. وما إن تهب أنفاس الربيع، أو تحمل الريح رنين أجراس الكنائس حتى تنهال عليها فجأة ذكريات الماضى، وينقبض قلبها بلذة، وتنهمر من عينيها الدموع الغزيرة، ولكن ذلك لا يستمر غير دقيقة ومن بعدها الخواء، ولا تعود تدرى لماذا تعيش.

وتتودد إليها قطتها السوداء «بريسكا» وتهر بصوت ناعم، ولكن ملاطفة القطة هذه لا تحرك فى نفس أولنكا شيئا. فهل هذا هو ما تبغيه؟ إنها بحاجة إلى حب يملك كل كيانها، كل روحها وعقلها، حب يهبها الأفكار واتجاه الحياة، ويدفئ دمها الهرم. فتنفض «بريسكا» السوداء عن حجرها وتقول لها بأسى:

ـ امشى، امشى... ابتعدى عنى!

وهكذا.. يوما بعد يوم، وعاما بعد عام، دون فرحة واحدة، دون أى رأى. وما تقوله الطاهية مافرا فهو حسن.

وذات يوم حار من شهر يوليو، قبيل المساء عندما ساقوا قطيع ماشية المدينة فى الشارع فامتلأ الفناء بالغبار طرق أحدهم البوابة فجأة. وذهبت أولنكا لتفتح بنفسها، وما إن نظرت حتى ذهلت: فخلف البوابة وقف البيطرى سيميرنين، وقد أصبح أشيب، وفى بدلة مدنية. تذكرت فجأة كل شىء، فلم تتمالك نفسها وأجهشت بالبكاء ووضعت رأسها على صدره دون أن تقول كلمة واحدة، ولم تلاحظ فى قمة انفعالها كيف دخلا البيت معا، وكيف جلسا ليشربا الشاى.

وأخذت تدمدم وهى ترتعش من الفرحة:

ـ يا عزيزى الغالى! يا فلاديمير بلاتونيتش! من أين بعثك الله؟

ـ أريد أن أستقر هنا بصفة دائمة ـ مضى يحدثها ـ قدمت استقالتى وجئت أجرب حظى فى حياة الحرية، لكى أعيش حياة استقرار. كما أن الوقت حان لإدخال ابنى المدرسة. لقد كبر. أتدرين، لقد تصالحت مع زوجتى.

فسألته أولنكا:

ـ وأين هى؟

ـ إنها مع ابنى فى الفندق، وها أنا ذا أبحث عن شقة.

ـ يا إلهى، ماذا تقول، خذوا بيتى! ألا يصلح لكم كشقة؟ يا إلهى ، لن آخذ منكم شيئا ـ وهاجت مشاعر أولنكا فبكت من جديد ـ أية فرحة، يا إلهى!

في اليوم التالى كانوا يطلون سطح البيت ويبيضون الجدران، بينما كانت أولنكا تروح وتجىء فى الفناء، ويدها فى خصرها، وتصدر التعليمات. وتهلل وجهها بابتسامته السابقة، أما هى فدبت فيها الحياة وانتعشت، وكأنما استيقظت من نوم طويل. وجاءت زوجة البيطرى، سيدة نحيفة قبيحة، بشعر قصير وتعبير نزق، ومعها الصبى ساشا، وكان يبدو أصغر من سنة (كان فى عامه العاشر)، ممتلئا، بعينين زرقاوين صافيتين وغمازتين فى خديه. وما إن دخل الفناء حتى ركض وراء القطة، وعلى الفور ترددت ضحكاته المرحة الفرحة.

وسأل أولنكا:

ـ يا عمة، هل هذه قطتك؟ عندما تلد أهدينا من فضلك قطا. ماما تخاف جدا من الفئران.

وتحدثت أولنكا معه، وسقته شايا، وأصبح قلبها دافئا فجأة وانقبض بلذة، وكأنما كان هذا الصبى ابنها الحبيب. وعندما جلس مساء فى غرفة الطعام يراجع دروسه، نظرت إليه بتأثر وهمست بإشفاق:

ـ يا عزيزى الغالى، ما أجملك.. يا سلام يا ولدى، كيف خلقك المولى بهذا الذكاء وهذا البياض.

وقرأ الصبى:

ـ الجزيرة هى ذلك الجزء من اليابسة الذى تحيطه المياه من جميع الجهات.

ـ الجزيرة هى ذلك الجزء من اليابسة..ـ رددت هى ـ وكان ذلك أول رأى تدلى به بثقة بعد هذه السنوات الطويلة من الصمت وخواء الأفكار.

وأصبحت لها آراؤها، وكانت تتحدث أثناء العشاء مع والدى ساشا عن مدى صعوبة الدراسة الآن فى المدارس الثانوية بالنسبة للأطفال، وعن أن التعليم الكلاسيكى أفضل من التعليم العملى، لأن الطريق من المدرسة

الكلاسيكية مفتوح إلى كل مكان: فإذا شئت فلتصبح طبيبا وإذا شئت فلتصبح مهندسا.

وبدأ ساشا يتردد على المدرسة. وسافرت أمه إلى أختها فى مدينة خاركوف ولم تعد بعد، وكان أبوه يرحل كل يوم إلى جهة ما ليتفقد القطعان، فيتغيب عن البيت أحيانا ثلاثة أيام، فخيل لأولنكا أن ساشا أصبح مهجورا تماما، لا حاجة لأحد به، وأنه يهلك جوعا. فأخذته إليها فى الجناح وأنزلته هناك فى غرفة صغيرة.

وها قد مر نصف عام منذ أن استقر ساشا عندها فى الجناح. وكل صباح تدخل أولنكا غرفته فتجده يغط فى نوم عميق، وقد وضع يده تحت خده. وتشعر بالإشفاق من إيقاظه.

وتقول بحزن:

ـ ساشنكا، انهض يا عزيزى! حان موعد المدرسة. فينهض، ويرتدى ملابسه، ويصلى، ثم يجلس لتناول الشاى. ويشرب ثلاثة أكواب ويأكل سميطتين كبيرتين ونصف رغيف إفرنجى بالزبد. ومزاجه معتل لأنه لم يستيقظ بعد تماما.

ـ إنك يا ساشنكا لم تحفظ الخرافة جيداـ تقول أولنكا وهى تنظر إليه كأنما تودعه فى سفر طويل ـ كم أنا قلقة عليك. اجتهد يا عزيزى فى المدرسة... أطع المدرسين.

فيقول ساشا:

ـ أوه، كفى أرجوك!

وبعد ذلك يسير فى الشارع قاصدا المدرسة، صغيرا ولكن فى عمرة كبيرة، والحقيبة المدرسية على ظهره. ومن خلفه تسير أولنكا بخطوات خفيفة.

وتناديه:

ـ يا ساشنكا!

فيلتفت، فتدس فى يده بلحه أو حبة كراملة. وعندما ينعطفان إلى الحارة التى تقع فيها المدرسة، يشعر بالخجل من أن امرأه طويلة عريضة تسير خلفه. فيلتفت ويقول لها:

ـ عودى يا عمة إلى البيت، وسأصل الآن بنفسى.

فتتوقف وتنظر فى أثره دون أن تطرف إلى أن يختفى خلف باب المدرسة. أوه، كم تحبه! لم تكن أىّ من عواطفها السابقة بمثل هذا العمق، ولم تذعن روحها من قبل أبدا بمثل هذا التفانى والتجرد والبهجة كما أذعنت الآن عندما تأججت فيها أكثر فأكثر مشاعر الأمومة. فمن أجل هذا الصبى الغريب عنها، من أجل غمازتى خديه، من أجل عمرته، كانت على استعداد لأن تقدم كل حياتها، تقدمها فى سرور ودموع التأثر فى عينيها. لماذا؟ ومن ذا يعلم لماذا؟

وبعد أن توصل ساشا إلى المدرسة تعود إلى البيت فى هدوء وهى راضية، قريرة، فياضة الحب. ويبتسم وجهها الذى عاد إليه الشباب فى نصف السنة الأخير ويشع. ويشعر المارة وهم ينظرون بالرضى ويقولون لها:

ـ مرحبا أولجا سيميونفنا الحبوبة! كيف حالك يا حبوبة؟

وتقول وهى فى السوق:

ـ أصبحت الدراسة فى المدارس صعبة الآن، بالأمس مثلاً أعطوا للتلاميذ فى الصف الأول واجبا: أن يحفظوا خرافة، ويترجموا من اللاتينية، ويحلوا مسألة... فهل يقوى الطفل على ذلك؟..

وتشرع فى الحديث عن المدرسين، وعن الدروس، وعن الكتب المدرسية، فتردد ما يقوله ساشا عن ذلك.

وفى الساعة الثالثة يتناولان الغداء، وفى المساء يحضران الدروس معا ويبكيان. وعندما تضعه فى السرير توسم طويلا علامة الصليب وتهمس

بالصلوات، ثم تأوى إلى النوم فتحلم بالمستقبل، المستقبل البعيد الغامض، عندما يتخرج ساشا فيصبح طبيبا أو مهندسا، ويقتنى منزلا كبيرا وخيولا وعربة، ويتزوج ويولد له أولاد... وتنعس وهى تفكر فى ذلك، وتسيل الدموع على خديها من عينيها المغمضتين. وترقد القطة السوداء بجوارها وتهر:

ـ هر.. ر.. هر.. ر.. هر.. ر..

وفجأة يدوى طرق شديد على باب الفناء. وتستيقظ أولنكا محتبسة الأنفاس من الخوف. ويدق قلبها بعنف. ويمر نصف دقيقة ويتردد الطرق ثانية.

«إنها برقية من خاركوف ـ تفكر ويبدأ بدنها كله يرتجف ـ أم ساشا تستدعيه إليها فى خاركوف.. يا إلهى!».

ويتملكها اليأس. وتتثلج رأسها وساقاها ويداها، ويبدو لها أنه لا يوجد من هو أتعس منها فى الدنيا كلها. ولكن ها هى ذى دقيقة أخرى تمر، وتسمع أصواتا: إنه البيطرى قد عاد من النادى.

فتقول لنفسها: «الحمد لله».

وشيئا فشيئا يخف الثقل عن قلبها، وتشعر مرة أخرى بالراحة. وترقد وتفكر فى ساشا الذى يغط فى نوم عميق فى الغرفة المجاورة، ويردد أحيانا فى نومه:

ـ مهلا سأريك! امش من هنا! لا تتشاجر!

اللعوب

١

شهد زفاف أولجا إيفانوفنا كل أصدقائها ومعارفها الطيبين.

ـ انظروا إليه، أليس صحيحا أن فيه شيئا ما؟ ـ قالت لأصدقائها وهى تومئ إلى زوجها وكأنما تريد أن توضح لهم لماذا تزوجت هذا الرجل البسيط والعادى للغاية والذى ليس فيه أى شىء مميز.

وكان زوجها أوسيب ستيبانتش ضيموف طبيبا يحمل لقب المستشار الاعتبارى[١]. وكان يعمل فى مستشفيين، فى إحداهما طبيبا ممارسا منتدبا، وفى الآخر طبيب مشرحة. وكان يستقبل المرضى ويعمل فى العنبر يوميا من التاسعة صباحا حتى منتصف النهار، وبعد الظهر يتوجه بالعربة إلى المستشفى الآخر حيث يشرح من يتوفى من المرضى. وكان دخله من الممارسة الخاصة ضئيلا، لا يتعدى خمسمائة روبل فى العام. وهذا كل ما هنالك. فما الذى يمكن أن نضيفه عنه؟ بينما كانت أولجا إيفانوفنا وأصدقاؤها ومعارفها الطيبون أناسًا غير عاديين أبدا. كان كل منهم يتميز بشىء ما، ومعروفا قليلا، وله اسمه وشهرته، أو إذا لم يكن بعد مشهورا فقد كان يبشر بآمال رائعة. كان هناك ممثل من مسرح الدراما، موهبة كبيرة، معترف بها منذ زمن ورجل رشيق، ذكى ومتواضع وأستاذ ممتاز فى الإلقاء كان يعلم أولجا إيفانوفنا فن الإلقاء. ومغنى أوبرا.. رجل بدين

(١) المستشار الاعتبارى من الرتب المدنية الدنيا فى روسيا القيصرية. (المعرب).

طيب، كان يؤكد لأولجا إيفانوفنا متنهدًا أنها تقضى على نفسها، فلو لم تركن إلى الكسل، وحزمت أمرها لأصبحت مغنية رائعة. وكان هناك أيضا عدد من المصورين وعلى رأسهم ريابوفسكى مصور المواضيع والحيوانات والمناظر.. شاب أشقر، جميل جدا فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره، حقق نجاحا فى المعارض وباع لوحته الأخيرة بخمسمائة روبل. كان يصحح لأولجا إيفانوفنا رسوماتها ويقول إنها ربما بلغت شيئا ما. وكان هناك أيضا عازف الفيولنشلو الذى كانت آلته تنتحب، والذى اعترف صراحة بأنه من بين جميع من يعرفهن من النساء لا توجد من تستطيع مصاحبته فى العزف سوى أولجا إيفانوفنا وكان هناك أديب، شاب ولكنه معروف، يكتب الروايات والمسرحيات والقصص القصيرة. ثم من أيضا؟ نعم، كان هناك فاسيليتش، السيد الإقطاعى، المصور الهاوى والمزخرف، والذى كان يجيد تذوق الأسلوب الروسى القديم والروايات الشعبية والملاحم. وكان يصنع المعجزات على الورق والخزف والأطباق المدخنة. ووسط هذه الجماعة الأرستقراطية الحرة التى دللها القدر، وإن كانت مهذبة ومتواضعة، هذه الجماعة التى لم تكن تتذكر وجود أطباء ما إلا ساعة المرض، والتى كان اسم ضيموف لا يثير اهتمامها تماما كأسماء مثل سيدروف أو ساراتوف.. وسط هذه الجماعة كان ضيموف يبدو غريبا ونشازا وصغيرا، رغم أنه كان طويل القامة عريض المنكبين. وبدا كأنه يرتدى حلة ليست له ، وأن له لحية خولى. وعموما فلو أنه كان كاتبا أو مصورا لقالوا إن لحيته تذكر بالأديب زولا.

وكان الممثل يقول لأولجا إيفانوفنا إنها بشعرها الكتانى وفى ثوب الزفاف تشبه إلى حد كبير شجرة كرز رشيقة عندما تغطيها الأزهار البيضاء الرقيقة تماما فى الربيع.

وقالت له أولجا إيفانوفنا وهى تقبض على يده:

ـ كلا، بل اسمع! كيف أمكن أن يحدث ذلك فجأة؟ اسمع، اسمع.. ينبغى

أن أقول لك إن أبى كان يعمل مع ضيموف فى مستشفى واحد. وعندما مرض أبى المسكين ظل ضيموف مرابطا إلى جوار سريره ليل نهار. أوه، ياللتفانى! اسمع يا ريابوفسكى.. وأنت يا حضرة الأديب اسمع، فهذا طريف جدا. اقترب منا. ياللتفانى والمشاركة المخلصة! أنا أيضا لم أنم الليالى جالسة بجوار أبى، وفجأة.. أهلا، انتصرت على الفارس الشجاع! غرق ضيموف فى حبى حتى أذنيه. حقا ما أغرب تصاريف القدر. حسنا، بعد وفاة والدى كان يزورنى أحيانا ويلقانى فى الشارع، وذات مساء رائع، هوب! طلب يدى.. وكان لذلك وقع الصاعقة علىَّ.. قضيت الليل كله فى النحيب ووجدت نفسى أحبه بجنون. وها قد أصبحت كما ترون زوجة. أليس صحيحا أن فيه شيئا ما قويا، هائلا، شيئا من الدببة؟ إن وجهه الآن لا يبدو لنا من هنا كاملا، والإضاءة ضعيفة، ولكن عندما يلتفت انظروا إلى جبينه. ماذا تقول فى هذا الجبين يا ريابوفسكى؟ ـ وصاحت بزوجها ـ يا ضيموف، إننا نتحدث عنك! تعال هنا. مد يدك الشريفة إلى ريابوفسكى.. نعم هكذا. فلتكونا صديقين.

ومد ضيموف يده إلى ريابوفسكى وهو يبتسم ببشاشة وسذاجة وقال:

ـ سعيد جدا. لقد تخرج معى شخص يدعى ريابوفسكى، أليس قريبك؟

٢

كانت أولجا إيفانوفنا فى الثانية والعشرين من عمرها بينما كان ضيموف فى الحادية والثلاثين. وعاشا بعد الزفاف حياة رائعة. وغطت أولجا إيفانوفنا جدران غرفة الجلوس كلها برسوماتها ورسومات الآخرين، فى أطر وبدون أطر، وصنعت بجوار البيانو والأثاث ازدحاما جميلا من المظلات الصينية والحوامل والخرق الملونة والخناجر والتماثيل النصفية والصور.. وغطت جدران

غرفة الطعام برسومات «اللوب» وعلقت على الجدران أحذية «اللابتى»[1] والمناجل، ووضعت فى أحد الأركان محصدة ومجرفة، فأصبحت غرفة طعام على الطراز الروسى. أما غرفة النوم فأرادت أن تجعلها تشبه الكهف فكست السقف والجدران بقماش داكن، وعلقت فوق الأسرة مصباحا من طراز مصابيح البندقية ووضعت بجوار الباب تمثالا يحمل رمحا برأس بلطة. وقال الجميع إن لدى الزوجين الشابين ركنا لطيفا.

وعندما تنهض أولجا إيفانوفنا من الفراش كل صباح فى الساعة الحادية عشرة تلعب على البيانو، أو إذا كان النهار مشمسا، ترسم شيئا ما بألوان الزيت. ثم ترحل بعد الثانية عشرة إلى خياطتها. ولما كانت نقودها هى وضيموف قليلة وتكفى بالكاد فقد لجأت هى وخياطتها إلى الحيلة لكى تبدو كثيرا فى أزياء جديدة وتبهر الناس بفساتينها. وكثيرا جدا ما كان يخرج من الفستان القديم المعاد صبغه ومن قطع الدانتلا والقطيفة والحرير التى لا قيمة لها معجزات حقيقية، شىء ما خلاب، ليس فستانا بل حلما. ومن الخياطة كانت أولجا إيفانوفنا تتوجه عادة إلى إحدى معارفها من الممثلات لتعرف أخبار المسرح وبالمناسبة تدبر أمر بطاقة لأول عرض لمسرحية جديدة أو بنفيس. ومن الممثلة كان عليها أن تذهب إلى مرسم مصور أو إلى معرض صور، ثم إلى أحد المشهورين لتدعوه لزيارتهم أو لترد الزيارة أو لمجرد الثرثرة. وفى كل مكان كانوا يستقبلونها بمرح ومودة ويؤكدون لها أنها جميلة ورقيقة ونادرة.. وأولئك الذين كانت تسميهم بالمشهورين أو العظام كانوا يستقبلونها كواحدة منهم، على قدم المساواة، ويتنبأون لها فى صوت واحد بأنها بمواهبها وذوقها وذكائها يمكن أن تصبح ذات شأن كبير إذا لم تبعثر قواها. لقد كانت تغنى وتعزف على البيانو وترسم بالألوان وتشكل الصلصال وتشترك فى تمثيليات الهواة، ولكنها لم تكن تفعل ذلك كيفما كان، بل بموهبة. وسواء أكانت تصنع

---

(١) صور «اللوب» هى لون من التصوير الشعبى بالألوان على ألواح خشبية، و«اللابتى» أحذية فلاحية قديمة كانت تصنع من لحاء الشجر. (المعرب).

المصابيح للزينات، أم تتزين، أم تعقد ربطة العنق لشخص ما.. فقد كان كل شىء يخرج من بين يديها بفن ورشاقة ولطف لا مثيل له. ولكن موهبتها لم تتجل فى أى شىء بمثل هذا السطوع كما تجلت فى قدرتها على التعارف بسرعة والتقرب من مشاهير الناس. فما إن يشتهر شخص ما ولو قليلا، وما إن يجعل الناس تتحدث عنه حتى تتعرف به على الفور وتتصادق معه فى نفس اليوم وتدعوه لزيارتها. وكان كل تعارف جديد عيدا حقيقيا بالنسبة لها. كانت تعبد المشاهير وتفخر بهم وتراهم كل ليلة فى الحلم. كانت متعطشة إليهم ولم تستطع أبدا أن تروى ظمأها. كان القدامى يرحلون أو يطويهم النسيان، ويأتى محلهم آخرون جدد، ولكنها كانت تعتاد عليهم بسرعة أو يخيب أملها فيهم فتبدأ فى البحث بنهم عن الجديد والجديد من المشاهير فتجدهم، ثم تعود تبحث ثانية. لأى شىء؟

وبعد الرابعة كانت تتغدى فى البيت مع زوجها. كانت بساطته وتفكيره الراجح وطيبة قلبه تثير تأثرها وإعجابها. فكانت من حين لآخر تهب واقفة وتعانق رأسه بتأثر وتغمره بالقبلات.

كانت تقول له:

ـ أنت يا ضيموف إنسان ذكى، نبيل. ولكن فيك عيبا واحدا خطيرا جدا. أنت لا تهتم أبدا بالفن. أنت تنكر الموسيقى والتصوير.

فيقول باستكانة:

ـ أنا لا أفهمهما. لقد اشتغلت طوال حياتى بالعلوم الطبيعية والطب ولم يكن لدىَّ وقت للاهتمام بالفنون.

ـ ولكن هذا فظيع يا ضيموف!

ـ لماذا؟ إن معارفك لا يعرفون العلوم الطبيعية والطب، ولكنك لا تعيبين عليهم ذلك. لكل شخص ما يخصه. أنا لا أفهم المناظر أو الأوبرات، ولكنى

أفكر هكذا: إذا كان بعض الناس الأذكياء يكرسون لها حياتهم كلها، وبعض الناس الأذكياء الآخرين يدفعون مقابلها مبالغ ضخمة، إذن فهى ضرورية. إننى لا أفهمها ولكن عدم الفهم لا يعنى الإنكار.

ـ دعنى أشد على يدك الشريفة!

وبعدالغداء كانت أولجا إيفانوفنا تذهب إلى معارفها، ثم إلى المسرح أو إلى حفلة موسيقية، وتعود إلى البيت بعد منتصف الليل. هكذا كل يوم.

وفى أيام الأربعاء كانت تقيم حفلات. وفى هذه الحفلات لم تكن ربة البيت أو الضيوف يلعبون الورق أو يرقصون، بل يسرون عن أنفسهم بشتى الألوان الفنية. فكان فنان مسرح الدراما يلقى، والمغنى يغنى، والمصورون يرسمون فى الألبومات التى كانت أولجا إيفانوفنا تحتفظ بعدد ضخم منها، وعازف الفيولنشلو يعزف، أما ربة الدار فكانت أيضا ترسم وتشكل الصلصال وتغنى وتصاحب العازفين والمغنين.

وفى فترات الراحة ما بين الإلقاء والعزف والغناء كانوا يتحدثون ويتناقشون فى الأدب والمسرح والتصوير. ولم تكن هناك نساء، لأن أولجا إيفانوفنا كانت تعتبر جميع النساء، ما عدا الممثلات وخياطتها مملات ومبتذلات. ولم تكن حفلة تمر دون أن تنتفض ربة الدار لدى كل قرع لجرس الباب، ودون أن تقول بتعبير انتصار على وجهها: «هذا هو!» وهى تعنى بـ«هو» شخصية شهيرة جديدة دعتها إلى الحفلة. لم يكن ضيموف يبقى فى غرفة الاستقبال، ولم يكن أحد يتذكر غيابه. ولكن فى الحادية عشرة والنصف تماما كان الباب المفضى إلى غرفة الطعام يفتح، ويظهر ضيموف بابتسامته البشوش المستكينة ويقول وهو يفرك راحتيه:

ـ تفضلوا إلى المائدة يا سادة.

فيسير الجميع إلى غرفة الطعام ويرون فى كل مرة نفس الأشياء على

المائدة: طبق «أم الخلول»، وقطعة من الخنزير أو العجل، وسردين وجبن وكافيار وفطر وفودكا ودورقان من النبيذ.

وتقول أولجا إيفانوفنا وهى تشيح بيديها من الإعجاب:

ـ آه يا متردوتيلى العزيز! أنت ساحر! انظروا يا سادة إلى جبينه! ضيموف، استدر إلينا بجانب وجهك. انظروا يا سادة: وجه نمر بنغالى، بينما التعبير طيب ورقيق كأنه لغزال. أوه يا حبيبى!

ويأكل الضيوف وهم يتطلعون إلى ضيموف ويفكرون: «بالفعل، إنه شاب رائع»، ولكنهم سرعان ما ينسونه، ويواصلون الحديث عن المسرح والموسيقى والتصوير.

كان الزوجان الشابان سعيدين، وسارت حياتهما على أروع ما يكون. ولكن الأسبوع الثالث من شهر العسل لم يمض فى سعادة تامة، بل مضى فى حزن، فقد مرض ضيموف بعدوى الحمرة ولزم الفراش ستة أيام، واضطر أن يحلق تماما شعره الأسود الجميل. وجلست أولجا إيفانوفنا إلى جواره وبكت بحرقة، ولكن عندما تحسنت حالته قليلا، وضعت على رأسه الحليق منديلا أبيض، وراحت ترسم عنه صورة بدوى. وشعر كلاهما بالمرح. وبعد ثلاثة أيام من شفائه وتردده ثانية على المستشفى وقع له حادث جديد.

ـ إننى سيئ الحظ يا ماماـ قال ذات مرة على الغداء ـ كان لدىَّ أربع عمليات تشريح اليوم فجرحت أصبعين دفعة واحدة. ولم ألحظ ذلك إلا فى المنزل.

وخافت أولجا إيفانوفنا. فابتسم وقال إن هذا شىء تافه وإنه كثيرا ما يجرح أصابعه أثناء التشريح.

إننى أنهمك فى التشريح يا ماما فأصبح شاردا.

وراحت أولجا إيفانوفنا تتوقع عدوى الجثة بقلق وتصلى لله فى الليل،

ولكن كل شيء مر على ما يرام. ومن جديد سارت حياتهما هادئة سعيدة بلا أحزان أو هموم.. كان الحاضر رائعا، واقترب الربيع ليحل محله وهو يبتسم من بعيد ويبشر بألف فرحة. ولن تكون للسعادة نهاية! سينقضي أبريل ومايو ويونيو في البيت الريفي البعيد عن المدينة، وفي التريض والرسم وصيد السمك وسماع غناء البلابل، وبعد ذلك، ومن يوليو حتى الخريف ستكون رحلة للمصورين في نهر الفولجا. وفي هذه الرحلة سوف تشارك أولجا إيفانوفنا باعتبارها عضوا أساسيا في الـ«سوسيتي»[1]. وقد أعدت لنفسها بالفعل ثوبي سفر من الخيش، وابتاعت ألوانا وفرشا وقماش رسم ولوحة ألوان جديدة. وأصبح ريابوفسكي يتردد عليها كل يوم تقريبا لكي يرى مدى التقدم الذي أحرزته في التصوير. وعندما كانت تعرض عليه رسومها، كان يدفع يديه عميقا في جيبي سرواله، ويزم شفتيه بقوة ويشن بأنفه ثم يقول:

ـ هكذا.. هذه السحابة عندك تصرخ.. ليست مضاءة بضوء الغروب. المنظر الأمامي ممضوغ قليلا، وليس بالشكل المطلوب يعني.. أما المنزل فقد ضغط عليه شيء ما وهو لذلك يعول متوجعا.. هذا الركن ينبغي رسمه بصورة أدكن قليلا. وعموما فلا بأس.. أثني عليك.

وكلما ازدادت كلماته غموضا، سهل على أولجا إيفانوفنا أن تفهمه.

٣

في اليوم التالي لعيد العنصرة بعد الغداء اشترى ضيموف مزات وحلوى ورحل إلى زوجته في البيت الريفي. لم يكن قد رآها منذ أسبوعين واشتاق إليها كثيرا. وعندما كان جالسا في عربة القطار، وبعد ذلك عندما كان يبحث عن داره في الغيضة الكبيرة، كان يشعر دائما بالجوع والتعب ويحلم بالعشاء

(١) الجماعة (بالفرنسية في الأصل).

مع زوجته فى حرية ثم بالخلود إلى النوم. وأحس بالمرح وهو ينظر إلى اللفة التى يحملها وبها الكافيار والجبن والسمك الأبيض.

وعندما وجد داره وتعرف عليها كانت الشمس تميل نحو المغيب. وقالت الخادم العجوز إن السيدة ليست فى الدار ومن المفروض أن تعود قريبا. لم يكن منظر الدار جذابا أبدا. كان بها ثلاث غرف فقط، وأسقفها منخفضة ومغطاة بورق أبيض وأرضيتها مشققة وغير مستوية. وكان فى إحدى الغرف سرير، وفى الثانية تراكمت الفرش وقماش الرسم والأوراق المشحمة والمعاطف والقبعات الرجالية على الكراسى. وفى الغرفة الثالثة وجد ضيموف ثلاثة رجال لا يعرفهم. كان اثنان منهم أسودى الشعر وبلحى صغيرة، أما الثالث فكان حليقا تماما وبدينا، ويبدو أنه ممثل. وعلى المائدة كان السماور يغلى.

وسأل الممثل ضيموف بصوت غليظ وهو يتفحصه بنظرة غير ودود.

ـ ماذا تريد؟ هل تريد أولجا إيفانوفنا؟ انتظر، سوف تأتى قريبا.

وجلس ضيموف وراح ينتظر. وتطلع إليه أحد الرجلين الأسودى الشعر بكسل وتراخ وسأله وهو يصب لنفسه شايا:

ـ ربما تريد شايا؟

كان ضيموف يريد أن يشرب وأن يأكل، ولكنه امتنع عن تناول الشاى لكيلا يفسد شهيته. وسرعان ما تردد وقع خطوات وتناهى الضحك المألوف. واصطفق الباب واندفعت أولجا إيفانوفنا إلى داخل الغرفة وهى ترتدى قبعة عريضة الحواف وتحمل فى يدها صندوقا، ودخل وراءها ريابوفسكى مرحا، أحمر الوجه يحمل مظلة كبيرة وكرسيا مطويا.

وصاحت أولجا إيفانوفنا وتضرجت من الفرحة:

ـ ضيموف! ضيموف! ـ رددت وهى تضع يديها ورأسها على صدره ـ أهو أنت! لماذا لم تأت طوال هذه المدة؟ لماذا؟ لماذا؟.

ـ متى أستطيع يا ماما؟ إننى مشغول دائما، وعندما أفرغ قليلا أجد مواعيد القطارات غير مناسبة دائما.

ـ أوه كم أنا مسرورة برؤياك! حلمت بك طوال الليل، وخفت أن تمرض. آه لو تعرف كم أنت غال وكم جئت فى الوقت المناسب! ستكون مخلصى. أنت الوحيد الذى يستطيع أن ينقذنى!ـ ومضت تقول وهى تضحك وتربط لزوجها ربطة العنق ـ ستقام هنا حفلة زفاف طريفة للغاية. سيتزوج عامل البرق فى المحطة، المدعو تشيكيلدييف. وهو شاب جميل، ليس غبيا، وفى وجهه، أتدرى.. شىء ما قوى، شىء من الدببة.. يمكن أن ترسم منه شابا من النورمانديين. ونحن المصطافين جميعا نشاركه الفرحة وأعطيناه كلمة شرف أن نشهد العرس.. إنه شخص غير ثرى ووحيد وخجول، وحرام بالطبع ألا نشاركه فرحته. تصور، الزفاف بعد الصلاة مباشرة، ثم سيتوجه الجميع من الكنيسة سيرا على الأقدام إلى شقة العروس.. أتفهم.. الغيضة، وصدح الطيور، وبقع الشمس على العشب، ونحن جميعا نسير كالبقع الملونة على خلفية خضراء زاهية.. شىء طريف للغاية، حسب ذوق الانطباعيين الفرنسيين ـ ثم سألت وأكسبت وجهها تعبيرا باكيا ـ ولكن يا ضيموف ماذا أرتدى للكنيسة؟ ليس لدى شىء هنا، ليس لدى شىء إطلاقا! لا فساتين ولا أزهار، ولا قفازات.. عليك أن تنقذنى. إذا كنت قد جئت فإن القدر قد أرسلك لتنقذنى. خذ يا عزيزى المفتاح وارحل إلى المنزل وخذ من الصوان فستانى الوردى. أنت تذكره، إنه أول فستان على المشجب.. وفى غرفة المخزن سترى إلى اليمين على الأرض علبتين من الكرتون. تفتح العلبة العليا فتجدها مليئة بالدانتلا وقطع القماش المختلفة، وتحتها الأزهار. أخرج الأزهار كلها بحذر، وحاول يا روحى ألا تجعدها، وسوف أختار منها.. واشتر قفازا.

فقال ضيموف:

ـ حسنا، سأرحل غدا وأرسلها لك.

فتساءلت أولجا إيفانوفنا وهى تنظر إليه بدهشة:

ـ متى غدا؟ متى تلحق غدا؟ غدا يمضى أول قطار فى التاسعة، والزفاف فى الحادية عشرة. كلا يا عزيزى، بل اليوم، لا بد اليوم! إذا لم يكن فى وسعك أن تأتى غدا أرسلها مع رسول. حسنا، أذهب إذن.. سيأتى القطار الآن. لا تتأخر يا روحى.

ـ حسنا.

فقالت أولجا إيفانوفنا والدموع تترقرق فى عينيها:

ـ آه، كم يحزننى أن ترحل! يا لى من حمقاء! لماذا وعدت عامل البرق؟

وشرب ضيموف كوبا من الشاى بسرعة، وأخذ سميطة، وابتسم باستكانة، ثم اتجه إلى المحطة. أما الكافيار والجبن والسمك الأبيض فقد أكله صاحبا الشعر الأسود والممثل.

٤

فى ليلة هادئة مقمرة من ليالى يوليو وقفت أولجا إيفانوفنا على ظهر مركب من مراكب الفولجا ومضت تنظر تارة إلى المياه وتارة إلى الشواطئ الجميلة. ووقف ريابوفسكى إلى جوارها وهو يقول لها إن الظلال السوداء فى الماء ليست ظلالا، بل حلما، وإنه عند رؤية هذه المياه الساحرة ذات البريق الخيالى، وعند رؤية السماء اللانهائية والشواطئ الحزينة المتأملة التى تتحدث عن باطل حياتنا وعن وجود شىء ما سام وخالد، ومقدس، يجدر بالمرء أن يندثر، أن يموت، أن يصبح ذكرى. فالماضى مبتذل وليس طريفا، والمستقبل تافه، أما هذه الليلة الرائعة، الليلة الوحيدة فى العمر كله فسرعان ما تنتهى وتتحد بالخلود ـ فلماذا العيش؟

وكانت أولجا إيفانوفنا تصغى تارة لحديث ريابوفسكى وتارة لسكون الليل وهى تفكر فى أنها خالدة ولن تموت أبدا. وحدثها لون المياه الفيروزى، الذى لم تره من قبل أبدا، والسماء، والشطآن والظلال السوداء والفرحة الغامرة التى ملأت روحها بأنها ستصبح مصورة عظيمة، وأنه هناك فى مكان ما، وراء الأفق، وخلف الليلة المقمرة، فى الفضاء اللامتناهى، ينتظرها النجاح والشهرة وحب الشعب.. وعندما حدقت طويلا فى الأفق وهى لا تطرف خيل إليها أنها ترى جموع الشعب والأضواء وأنغام الموسيقى المهيبة، وصيحات الإعجاب، وكانت هى نفسها فى رداء أبيض، بينما انهالت عليها الأزهار من جميع الجهات. وجال بخاطرها أيضا أنه يقف إلى جوارها مرتكزا على الحاجز إنسان عظيم حقيقة، عبقرى، من الذين اختارهم الله.. كل ما أبدعه حتى الآن رائع وجديد وغير عادى، وكل ما سوف يبدعه فى المستقبل، عندما يشتد عوده وتترسخ موهبته الفريدة، سيكون باهرا وساميا إلى ما لا نهاية، وهذا واضح من وجهه وطريقة تعبيره ومن نظرته إلى الطبيعة. فهو يتحدث عن الظلال، وألوان المساء وبريق القمر بطريقة خاصة، وبكلماته هو، بحيث تشعر لا إراديا بسحر سلطانه على الطبيعة. أما هو نفسه فجميل جدا، وفريد، وحياته حرة، مستقلة، بعيدة عن أمور المعيشة وتشبه حياة طائر.

وقالت أولجا إيفانوفنا:

ـ الجو مال إلى البرودة.

وانتفضت.

ودثرها ريابوفسكى بردائه وقال بحزن:

ـ إننى أشعر أننى تحت سيطرتك. إننى عبد. لِمَ أنت باهرة هكذا اليوم؟

كان يحدق فيها طوال الوقت دون أنْ يحول عنها عينيه. وكانت عيناه مرعبتين فخافت أن تتطلع فيهما.

وهمس وهو يزفر أنفاسه على خدها:

ـ إننى أحبك بجنون.. قولى لى كلمة واحدة فأنهى حياتى، أهجر الفن..ـ دمدم فى اضطراب شديد ـ أحبينى، أحبينى..

فقالت أولجا إيفانوفنا وهى تغمض عينيها:

ـ لا تتكلم هكذا.. هذا رهيب. وضيموف؟

ـ ماذا ضيموف؟ لماذا ضيموف؟ وما شأنى بضيموف؟ هنا الفولجا، والقمر، والجمال، وحبى، وإعجابى، وليس هنا أى ضيموف.. آه، أنا لا أعرف شيئا.. لا أريد الماضى.. أعطينى لحظة واحدة.. برهة واحدة.

وخفق قلب أولجا إيفانوفنا. أرادت أن تفكر فى زوجها لكن ماضيها كله، بحفل الزفاف، وضيموف، والحفلات بدا لها صغيرا، تافها، كابيا، لا داعى له، وبعيدا بعيدا.. وبالفعل، ماذا ضيموف؟ ولماذا ضيموف، وما شأنها بضيموف؟ وهل هو موجود على قيد الحياة أم هو مجرد حلم؟

وقالت لنفسها وهى تغطى وجهها: «بالنسبة لرجل بسيط وعادى مثله، يكفيه ما حصل عليه من سعادة. فليستنكروا هناك، وليلعنونى، أما أنا فكيدا فيهم سأقتل نفسى.. نعم، أقتل نفسى. ينبغى أن يجرب المرء كل شىء فى الحياة. يا إلهى، ما أفظع هذا وما أطيبه!».

ودمدم المصور وهو يحضنهاويقبل بنهم يديها اللتين كانت تحاول بهما أن تدفعه عنها بوهن:

ـ حسنا، ماذا؟ ماذا؟ هل تحبيننى؟ نعم؟ نعم؟ أوه يا لها من ليلة! ليلة رائعة!

ـ نعم، يا لها من ليلة!ـ همست وهى تتطلع إلى عينيه البراقتين بالدموع، ثم تلفتت بسرعة، وعانقته، وقبلته فى شفتيه بقوة.

ـ نقترب من كينشما!ـ قال شخص ما من الطرف الآخر لسطح المركب.

وسمع وقع خطوات ثقيلة. كان ذلك عامل البوفيه.

فقالت له أولجا إيفانوفنا وهى تضحك وتبكى من فرط السعادة:

ـ اسمع.. أحضر لنا نبيذا.

وجلس المصور على الأريكة، شاحبا من شدة الانفعال ونظر إلى أولجا إيفانوفنا بعينين والهتين شاكرتين، ثم أغمض عينيه وقال وهو يبتسم ساهما:

ـ إننى متعب.

وأسند رأسه إلى حاجز المركب.

٥

كان الثانى من سبتمبر يوما دافئا هادئا ولكنه مكفهر. وفى الصباح الباكر انتشر ضبابا خفيفًا على الفولجا، وبعد التاسعة تساقط المطر رذاذا. ولم يكن هناك أى أمل فى أن تصفو السماء. وأثناء تناول الشاى قال ريابوفسكى لأولجا إيفانوفنا إن التصوير هو أشد الفنون مللا وانحطاطا، وإنه ليس فنانا، وإن الحمقى وحدهم هم الذين يعتقدون أنه موهوب. وفجأة، ودون مقدمات، التقط سكينا وخدش به أفضل رسومه. وبعد الشاى جلس إلى النافذة عابسا وراح يتطلع إلى الفولجا. ولم يعد الفولجا براقا، بل كابيا، مغبشا ويبدو باردا. وكان كل شىء يذكر بقرب مجىء الخريف الكئيب المكفهر وبدا أن الأبسطة الخضراء الفخمة على الشطآن، وانعكاسات الأشعة الماسية والآفاق الزرقاء الشفافة، وكل ما هو أنيق واحتفالى قد نزعته الطبيعة عن الفولجا ووضعته فى الصناديق حتى الربيع القادم، بينما حلقت الغربان بجوار الفولجا وهى تستفزه بصياحها: «عريان! عريان!». وأصغى ريابوفسكى إلى نعيقها وهو يفكر فى أنه قد انتهى وفقد موهبته، وأن كل شىء فى هذا العالم

زائل ونسبى وأحمق، وما كان ينبغى أن يربط نفسه بهذه المرأة... وباختصار كان متضايقا ومكتئبا.

وكانت أولجا إيفانوفنا جالسة على السرير خلف الحاجز وهى تقلب بأصابعها شعرها الكتانى الرائع، وتتخيل نفسها تارة فى غرفة الجلوس، وتارة فى غرفة النوم، وتارة فى غرفة مكتب زوجها. وحملها الخيال إلى المسرح، وإلى خياطتها، وإلى أصدقائها المشهورين. ترى ماذا يفعلون الآن؟ هل يتذكرونها؟ لقد بدأ الموسم، وآن الأوان للتفكير فى الحفلات. وضيموف؟ ضيموف العزيز! كم يرجوها باستكانة وشكاية طفل فى رسائل أن تعود بسرعة! وكان يرسل إليها كل شهر ٧٥ روبلا، وعندما كتبت إليه تقول إنها مدينة للمصورين بمائة روبل أرسل إليها هذه المائة أيضا. يا له من إنسان طيب، سمح! لقد أرهقت الرحلة أولجا إيفانوفنا، وشعرت بالملل، وأحست بالرغبة فى أن تترك بسرعة هؤلاء الرجال ورائحة الرطوبة النهرية، وأن تتطهر من إحساسها بالقذارة الجسدية، هذا الإحساس الذى تملكها وهى تعيش طوال الوقت فى بيوت الفلاحين وتنتقل من قرية إلى قرية. ولولا أن ريابوفسكى وعد المصورين بشرفة أن يبقى معهم حتى العشرين من سبتمبر لكان من الممكن أن ترحل اليوم. وكم كان ذلك جميلا!

وأنّ ريابوفسكى:

ـ يا إلهى! متى ستشرق الشمس؟ لا أستطيع أن أكمل منظرا مشمسا بدون الشمس!

فقالت أولجا إيفانوفنا خارجة من وراء الحاجز:

ـ لديك مشهد بسماء غائمة. أتذكر، فى الجانب الأيمن غابة وفى الأيسر قطيع بقر وأوز. تستطيع الآن أن تكمله.

فامتعض المصور وقال:

ـ إيه! أكمله! أحقا تظنين أننى من الغباء بحيث لا أعرف ما الذى ينبغى علىَّ عمله!

فزفرت أولجا إيفانوفنا قائلة:

ـ كم تبدل شعورك نحوى!

ـ فليكن، رائع.

وارتعش وجه أولجا إيفانوفنا، فاتجهت نحو الفرن وأجهشت بالبكاء.

ـ لم يكن ينقصنا سوى الدموع. كفاك! إن لدىَّ ألف سبب للبكاء ولكننى لا أبكى.

فقالت أولجا إيفانوفنا وهى تجهش:

ـ ألف سبب! أهم سبب أنك بدأت تضيق بى.

نعم!ـ قالت ثم انفجرت بالنحيب ـ إذا شئت الحقيقة فأنت تخجل من حبنا. أنت تحاول دائما ألا يلحظ المصورون، رغم أن ذلك لا يمكن إخفاؤه، وهم يعرفون كل شىء من زمان.

فقال المصور بضراعة وهو يضع يده على قلبه:

ـ أولجا، أرجو منك شيئا واحدا.. شيئا واحدا: لا تعذبينى! أنا لا أريد منك أكثر من ذلك!

ـ أقسم إنك ما زلت تحبنى!

فقال المصور من بين أسنانه وهو يقفز:

ـ يا للعذاب! سينتهى الأمر بأن ألقى بنفسى فى الفولجا أو أفقد عقلى! دعينى!

ـ اقتلنى، اقتلنى! اقتل!

وعادت إلى العويل ثانية ومضت خلف الحاجز. ونقر المطر على سقف المنزل الريفي القش. وأمسك ريابوفسكى برأسه وسار من ركن إلى ركن، ثم اكتسى وجهه ملامح الحزم وكأنه يريد أن يثبت شيئا ما لأحد ما، وارتدى القبعة ووضع بندقية الصيد على كتفه وخرج من المنزل.

وبعد خروجه ظلت أولجا إيفانوفنا مستلقية على السرير طويلا وهى تبكى. وفى البداية فكرت فى أنه من المستحسن أن تتناول سما لكى يعود ريابوفسكى فيجدها ميتة، ثم حملها الخيال إلى غرفة الجلوس، وغرفة مكتب زوجها، وتصورت نفسها جالسة إلى جوار ضيموف دون حراك، وهى تستمتع بالسكينة والنظافة الجسدية، وفى المساء جالسة فى المسرح تصغى إلى مازينى. وعصر قلبها الشوق إلى التحضر وصخب المدينة والشخصيات الشهيرة. ودلفت فلاحة إلى المنزل وراحت تشعل الفرن على مهل لتجهز الغداء. وانتشرت رائحة الحريق وأصبح الهواء أزرق من الدخان. وجاء المصورون ينتعلون أحذية طويلة قذرة ووجوههم مبللة بالمطر، وشاهدوا الرسوم وقالوا عزاء لأنفسهم إن للفولجا سحره حتى فى الجو السيئ. أما ساعة الحائط الرخيصة فمضت تتك تك.. تك.. وتجمع الذباب المقرور فى الركن الأمامى بجوار الأيقونات وهو يئز، وتناهى صوت الصراصير وهى تعبث فى المحافظ السميكة تحت الأرائك.

عاد ريابرفسكى إلى البيت عند الغروب. وألقى قبعته على الطاولة وتهالك على الأريكة شاحبا، منهكا وفى حذاء قذر، وأغمض عينيه.

ـ أنا متعب..ـ قال وهو يحرك حاجبيه محاولا أن يفتح جفنيه ـ

ولكى تتقرب أولجا إيفانوفنا إليه وتبدى له أنها ليست غاضبة منه، اقتربت وقبلته فى صمت، ومرت بالمشط فى شعره الأشقر. فقد أرادت أن تمشطه.

فانتفض ريابوفسكى وكأن شيئا باردا قد مسه، وسأل وهو يفتح عينيه:

ـ ما هذا! ما هذا؟ دعيني لحالي، أرجوك.

وأبعدها عنه بيديه، وتنحى قليلا، وخيل إليها أن تعابير وجهه تنم عن التقزز والأسى. وفي تلك اللحظة دخلت الفلاحة حاملة في يديها طبقا من حساء الكرنب، ورأت أولجا إيفانوفنا أصابع الفلاحة الكبيرة وهي مغموسة في الحساء. وبدت لها هذه المرأة القذرة المحزومة البطن، والحساء الذي أخذ ريابوفسكي يلتهمه بشراهة، والبيت، وكل هذه الحياة التي أحبتها كثيرا في البداية لبساطتها وفوضاها الفنية، بدت لها الآن فظيعة. وفجأة أحست بالإهانة فقالت ببرود:

ـ ينبغي أن نفترق لبعض الوقت، وإلا فقد نتشاجر جديا بسبب الملل. لقد سئمت كل هذا. سأرحل اليوم.

ـ وكيف؟ هل ستمطين صهوة عصا؟

ـ اليوم خميس، إذن فسيأتي المركب في التاسعة والنصف.

ـ هه ؟ نعم، نعم.. حسنا، سافري.. ـ قال ريابوفسكي بنعومة وهو يمسح فمه بالفوطة بدلا من المنديل ـ أنت هنا تسأمين ولا عمل لديك، وينبغي أن أكون أنانيا كبيرا حتى أمنعك من الرحيل. سافري، وبعد يوم عشرين سنتقابل.

وحزمت أولجا إيفانوفنا أمتعتها بمرح، بل إن خديها تضرجا من السرور. وسألت نفسها: أحقا سوف ترسم في غرفة الاستقبال وتنام في غرفة النوم وتتغدى على طاولة بمفرش؟ وانزاح الأسى عن قلبها ولم تعد غاضبة على المصور.

وقالت:

ـ سأترك لك الألوان والفرش يا ريابوشا[1]. وما يبقى منها أحضره معك.. إياك أن تتكاسل وتكتئب هنا بدوني، بل اعمل. أنت شاطر يا ريابوشا.

---

(١) «ريابوشا» ـ تدليل من «ريابوفسكي». (المعرب).

فى التاسعة قبلها ريابوفسكى قبلة الوداع لكى لا يقبلها، كما اعتقدت، أمام المصورين على ظهر المركب، وودعها حتى المرفأ. وسرعان ما وصل المركب وحملها.

ووصلت إلى البيت بعد يومين ونصف. ودون أن تنزع القبعة ومعطف المطر، مضت إلى غرفة الاستقبال وأنفاسها تتلاحق من الانفعال، ثم دلفت من هناك إلى غرفة الطعام. كان ضيموف جالسا إلى المائدة بدون سترة، فى صديرى مفتوح الأزرار، وهو يسن السكين بالشوكة، وأمامه فى الطبق ديك برى. وعندما دخلت أولجا إيفانوفنا الشقة كانت موقنة بأنها لا بد أن تخفى عن زوجها كل ما حدث، وأن لديها من المهارة والقدرة ما يمكنها من ذلك. بيد أنها الآن، عندما رأت هذه الابتسامة العريضة المستكينة السعيدة، والعينين البراقتين الفرحتين أحست أن إخفاء الأمر عن هذا الإنسان شىء وضيع مقزز ومستحيل، لا تقوى عليه تماما مثل الافتراء والسرقة أو القتل، فقررت فى لحظة أن تروى له كل شىء وبعد أن تركته يقبلها ويعانقها، جثت أمامه على ركبتيها وغطت وجهها بيديها.

فسأل ضيموف برقة:

ـ ماذا؟ ماذا يا ماما؟ اشتقت إلىَّ؟

ورفعت إليه وجها مضرجا بحمرة الخجل، ونظرت إليه نظرة مذنبة وضارعة، ولكن الخوف والخجل منعاها من أن تقول الحقيقة.

وقالت:

ـ لا شئ.. هكذا..

فأنهضها ضيموف وأجلسها قائلا:

ـ فلنجلس. نعم هكذا. كلى الديك. لقد جعت يا مسكينة!

واستنشقت بنهم الهواء المألوف وأخذت تأكل الديك البرى بينما أخذ يتطلع إليها بحب ويضحك بسعادة.

٦

يبدو أن ضيموف بدأ فى منتصف الشتاء يخمن أنها تخونه وكأنما كان ضميره هو الذى يعذبه، إذ لم يعد يستطيع أن ينظر مباشرة فى عينى زوجته، ولم يعد يبتسم بفرح عند رؤياها، ولكى يقلل من فترة بقائه معها على انفراد كان كثيرا ما يدعو إلى الغداء زميله كوروستليوف، وهو رجل قصير حليق الشعر ذو وجه مكرمش. وعندما كان يتحدث مع أولجا إيفانوفنا يفك جميع أزرار سترته ويزررها ثانية من الخجل ثم يروح يبرم شاربه الأيسر بيده اليمنى. وأثناء الغداء كان الطبيبان يتحدثان فى أن ارتفاع الحجاب الحاجز يؤدى أحيانا إلى اضطراب ضربات القلب، أو فى ازدياد الحالات العصبية فى الفترة الأخيرة، أو فى أن ضيموف عندما شرح أمس جثة بتشخيص «أنيميا خبيثة» اكتشف سرطانا فى البنكرياس. وبدا وكأنهما يخوضان فى أحاديث طبية فقط لكى يعطيا أولجا إيفانوفنا فرصة لأن تصمت، أى لكيلا تكذب. وبعد الغداء كان كوروستليوف يجلس إلى المعزف، بينما يتنهد ضيموف ويقول:

ـ إيه يا أخى! فليكن! اعزف لنا شيئا حزينا.

ويرفع كوروستليوف كتفيه عاليا ويبسط أصابعه ويعزف بعض النغمات ويبدأ فى الغناء بصوت «تينور» «دلنى على دار لا يئن فيها الفلاح الروسى»[1]، ويتنهد ضيموف ثانية ويعتمد برأسه على قبضته ويستغرق فى التفكير.

وفى الآونة الأخيرة كانت أولجا إيفانوفنا تتصرف بصورة غير حذرة

(١) أغنية مشهورة فى أوساط الثوريين الديمقراطيين الروس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عن قصيدة للشاعر نكراسوف بعنوان «تأملات عند المدخل الرئيسى». (المعرب).

للغاية. كانت تستيقظ كل صباح فى أشد حالات الكدر وبفكرة أنها لم تعد تحب ريابوفسكى وأن كل شىء قد انتهى والحمد لله. ولكن بعد أن تشرب القهوة تدرك أن ريابوفسكى سلبها زوجها، وأنها الآن أصبحت بلا زوج وبلا ريابوفسكى. وبعد ذلك تتذكر أحاديث معارفها عن أن ريابوفسكى يعد للمعرض شيئا صاعقا، خليطا من المنظر والموضوع، حسب ذوق بولينوف، شيئا يثير إعجاب كل من يزور مرسمه. وفكرت أولجا إيفانوفنا فى سرها أن هذا قد أبدعه تحت تأثيرها، وعموما فبفضل تأثيرها عليه تغير بشدة نحو الأفضل. إن تأثيرها عليه مفيد وحاسم بحيث لو تركته فربما انتهى. وتذكرت أيضا أنه زارها فى المرة الأخيرة فى سترة رمادية براقة وفى ربطة عنق جديدة وسألها بنظرة ساهمة: «هل أنا جميل؟». وبالفعل كان بخصلاته الطويلة وعينيه الزرقاوين وأناقته جميلا جدا (أو ربما خيل إليها هكذا) وكان رقيقا معها.

وبعد أن تتذكر أولجا إيفانوفنا الكثير وتقلبه فى رأسها ترتدى ثيابها فى حالة من الاضطراب الشديد وتتجه إلى مرسم ريابوفسكى. وتجده مرحا ومعجبا بلوحته الرائعة بالفعل. كان يقفز ويتشاقى ويرد بالنكات على الأسئلة الجادة. وغارت أولجا إيفانوفنا على ريابوفسكى من اللوحة ومقتتهما، ولكنها بدافع المجاملة كانت تقف أمامها صامتة حوالى خمس دقائق، وتتنهد كما يتنهد المرء أمام شىء مقدس، وتقول بصوت منخفض:

ـ نعم، لم ترسم أبدا شيئا مثل هذا. أتدرى؟ إنها تثير الرهبة.

ثم تروح تتوسل إليه أن يحبها، وألا يهجرها، وأن يشفق عليها المسكينة البائسة. كانت تبكى وتقبل يديه وتلح عليه أن يقسم لها بأنه يحبها، وتثبت له أنه بدون تأثيرها الطيب سيضل الطريق ويهلك. وبعد أن تفسد عليه مزاجه الرائق وتحس بنفسها مهانة، ترحل إلى الخياطة أو إلى أحدى معارفها الممثلات لتدبر أمر بطاقة.

فإذا لم تجده فى المرسم تترك له رسالة تقسم فيها إنها سوف تنتحر بالسم حتما إذا لم يأت إليها اليوم. ويخاف ريابوفسكى فيأتى ويبقى لتناول الغداء. ولم

يكن يخجل من وجود زوجها فيخاطبها بتبجح، وترد عليه بنفس الصورة. كان كلاهما يحس بأنه يكبل الآخر وبأنهما طاغيتان وعدوان فيزدادان غلا، ويعميهما الغل عن ملاحظة سلوكهما الفاضح وعن أنه حتى كوروستليوف الحليق يدرك كل شيء. وبعد الغداء كان ريابوفسكى يسرع بالوداع والانصراف.

فتسأله أولجا إيفانوفنا فى المدخل وهى تنظر إليه بكراهية:

ـ إلى إين أنت ذاهب؟

فيمتعض ويزر عينيه، ويذكر اسم إحدى النساء من معارفهما المشتركين، وكان واضحا أنه يسخر من غيرتها ويريد أن ينغص عليها.

فكانت تمضى إلى غرفة نومها وتستلقى فى الفراش. وبسبب الغيرة والأسى والإحساس بالمهانة والخزى كانت تعض الوسادة وتعول بصوت عال. فيترك ضيموف كوروستليوف فى غرفة الجلوس، ويذهب إلى غرفة النوم ويقول لها بصوت خافت وهو محرج ومرتبك:

ـ لا تبكى بصوت عال يا ماما.. لماذا؟ عليك أن تسكتى على هذا.. عليك الا تبدى ما بك.. أتدرين أن ما وقع لا يمكن إصلاحه؟

ودون أن تدرى أولجا إيفانوفنا كيف تكبت فى نفسها غيرتها الممضة التى كان صدغاها يكادان يتكسران بسببها، وإذ تعتقد أنه ما زال من الممكن إصلاح الأمور، تنهض فتغتسل وترش البودرة على وجهها الباكى، وتطير قاصدة السيدة معرفتها. وعندما لا تجد ريابوفسكى عندها، تذهب إلى سيدة أخرى، ثم إلى ثالثة.. وفى البداية كانت تخجل من هذا الطواف، ولكنها تعودت على ذلك فيما بعد، وكان يحدث أن تطوف فى مساء واحد بجميع معارفها من النساء بحثا عن ريابوفسكى، وكان الجميع يدركون ذلك.

وذات مرة قالت لريابوفسكى عن زوجها:

ـ هذا الرجل يرهقنى بسماحته!

وأعجبتها هذه الجملة لدرجة أنها عندما كانت تلتقى بالمصورين الذين كانوا يعرفون قصة غرامها مع ريابوفسكى، كانت تقول فى كل مرة وهى تحرك يدها حركة حادة:

ـ هذا الرجل يرهقنى بسماحته!

وظل نظام حياتها كما كان فى العام الماضى. فالحفلات تقام فى أيام الأربعاء. ويلقى الممثل، ويرسم المصورون، ويعزف عازف الفيولنشلو، ويغنى المطرب، وفى تمام الساعة الحادية عشرة والنصف يفتح الباب المؤدى إلى غرفة الطعام، ويقول ضيموف وهو يبتسم:

ـ تفضلوا إلى المائدة يا سادة.

وظلت أولجا إيفانوفنا كما فى السابق تبحث عن الأشخاص العظام، وتجدهم ولا تكتفى فتبحث من جديد. وكما فى السابق كانت تعود كل يوم فى ساعة متأخرة من الليل، ولكنها لا تجد ضيموف نائما كما فى العام السابق، بل جالسا إلى مكتبه يعمل. وكان يأوى إلى الفراش فى حوالى الثالثة ويستيقظ فى الثامنة.

وذات مساء، عندما كانت واقفة أمام المرآة لتستعد للذهاب إلى المسرح، دخل ضيموف مرتديا حلة سهرة وربطة عنق بيضاء. كان يبتسم بوداعة، ونظر فى عينى زوجته مباشرة بفرح كما فى السابق. كان وجهه متهللا.

وقال وهو يجلس ويمسد ركبتيه:

ـ لقد ناقشت الآن رسالة الدكتوراه.

فسألته أولجا إيفانوفنا:

ـ ونجحت المناقشة؟

ـ أيوه!ـ وضحك ومد رقبته لكى يرى فى المرآة وجه زوجته التى ظلت مولية ظهرها له وتصلح تسريحتها، وردد ـ أيوه! أتدرين، من المحتمل

جـدا أن يعرضوا عليَّ «بريفـات ـ دوتسنتـورا»[1] فى الباثولوجى العام. يبدو كـذلك.

كان واضحا على وجهه السعيد المتهلل أنه لو شاركته أولجا إيفانوفنا فرحته وانتصاره، لغفر لها كل شىء، فى الحاضر والمستقبل ولنسى كل شىء، ولكنها لم تكن تفهم معنى بريفات ـ دوتسنتورا والباثولوجى العام، وعلاوة على ذلك كانت تخشى أن تتأخر عن المسرح، فلم تقل شيئا.

فجلس ضيموف دقيقتين ثم ابتسم ابتسامة مذنبة، وخرج.

٧

كان ذلك يوما مزعجا.

فى الصباح أحس ضيموف بصداع شديد. ولم يتناول الشاى فى الصباح، ولم يذهب إلى المستشفى، وظل طوال الوقت راقدا على الكنبة التركية فى غرفة مكتبه. وكالعادة توجهت أولجا إيفانوفنا فى الثانية عشرة إلى ريابوفسكى لتريه مشهد «ناتور ـ مور» رسمته وتسأله لِمَ لم يحضر أمس؟ وكان الرسم يبدو لها تافها، ولم ترسمه إلا لتجد ذريعة أخرى لزيارة المصور.

دخلت دون جرس، وبينما كانت تخلـع خفهـا فى المدخـل خيـل إليهـا أنهـا سمعت صوت هرولة خفيفة فى المرسم وحفيف ثوب نسائى، وعندما أسرعت لتلقى نظرة على المرسم لم تر الا جانبا من جونلة بنية ظهر لحظة واختفى وراء لوحة كبيرة مغطاة هى والحامل بغطاء أسود منسدل حتى الأرض. لم يكن ثمة مجال للشك.. لقد كانت تختفى هنا امرأة. وكم مرة اختفت

(١) بريفات ـ دوتسنت ـ اللقب العلمى للمدرس الجامعى من خارج هيئة التدريس. (المعرب).

أولجا إيفانوفنا نفسها وراء هذه اللوحة! ويبدو أن ريابوفسكى كان مرتبكا للغاية فتظاهر بإبداء دهشة لمجيئها، ومد نحوها كلتا ذراعيه وقال وهو يعتصر ابتسامة:

ـ آ.. آ.. آ! سعيد جدا برؤياك. ماذا لديك من أنباء طيبة؟

اغرورقت عينا أولجا إيفانوفنا بالدموع. كانت تشعر بالخجل والمرارة، ولم تكن لتوافق، ولو دفعوا لها مليونا، على الكلام فى حضرة امرأة غريبة، غريمة ومخادعة، تقف الآن خلف اللوحة وربما تضحك بتشف.

ـ جئت إليك بمشهد.. ـ قالت بوجل وبصوت رفيع، وارتعشت شفتاها ـ ناتور ـ مور.

ـ آه.. مشهد؟

وأخذ المصور المشهد فى يديه وراح يتفحصه وهو يسير إلى الغرفة الأخرى كأنما بصورة آلية.

وتبعته أولجا إيفانوفنا بإذعان.

ودمدم وهو ينتقى كلمات مسجوعة:

ـ ناتور ـ مور ـ أحسن دور.. بور... حور.. سور..

وتناهى من المرسم وقع خطوات حثيثة وحفيف فستان. إذن فقد خرجت تلك. وودت أولجا إيفانوفنا لو صرخت بصوت عال وضربت المصور بشىء ثقيل على رأسه وانصرفت. ولكنها لم تر شيئا خلال الدموع، وكانت مقهورة من الخجل، وأحست فى نفسها بأنها ليست أولجا إيفانوفنا وليست مصورة بل حشرة صغيرة.

ـ أنا متعب.. ـ قال المصور ساهما وهو يتطلع إلى المشهد ويهز رأسه ليطرد عنه النعاس ـ هذا طبعا جميل، ولكن اليوم مشهد، وفى العام الماضى مشهد،

وبعد شهر سيكون مشهد.. كيف لا تملين ذلك؟ لو كنت مكانك لتركت التصوير وأنكببت جديا على الموسيقى أو أى شىء آخر. إنك لست مصورة، بل موسيقارة. ولكن أتعلمين كم أنا متعب. سأطلب لك شايا، هه؟

وخرج من الغرفة وسمعته أولجا إيفانوفنا وهو يأمر خادمه بشئ ما. ولكى لا تودعه، وتتصارح معه، والأهم من ذلك لكى لا تنتحب، هرولت بسرعة إلى المدخل قبل أن يعود ريابوفسكى، وارتدت خفها وخرجت إلى الشارع. وهناك تنفست الصعداء وأحست بنفسها حرة إلى الأبد من ريابوفسكى ومن التصوير، ومن الخجل الممض الذى أطبق على قلبها فى المرسم. انتهى كل شىء!

وتوجهت إلى الخياطة، ثم إلى برناى[1] الذى وصل بالأمس فقط، ومنه إلى متجر للنوت الموسيقية، وظلت طول الوقت تفكر فى الرسالة التى ستكتبها لريابوفسكى، رسالة باردة، قاسية، مفعمة بالعزة، وفى أنها ستسافر مع ضيموف فى الربيع أو الصيف إلى القرم، لتتخلص هناك تماما من الماضى وتبدأ حياة جديدة.

وعندما عادت إلى البيت فى ساعة متأخرة من المساء، لم تبدل ثيابها وجلست فى غرفة الجلوس تدبج الرسالة. لقد قال لها ريابوفسكى إنها ليست مصورة، وسوف تكتب الآن، انتقاما منه، إنه يرسم كل عام نفس الشىء، ويقول كل يوم نفس الشىء، وإنه قد ركد ولن يبلغ شيئا أكثر مما بلغ. وأرادت أن تكتب أيضا إنه مدين لها بتأثيرها الطيب عليه، وإذا كان يسلك سلوكا مشينا فذلك فقط راجع إلى أن تأثيرها تشله شتى السيدات المريبات، كتلك التى اختبأت اليوم وراء اللوحة.

ـ ماما !ـ نادى ضيموف من غرفة المكتب دون أن يفتح الباب ـ ماما!

---

(١) ممثل ألمانى. (المعرب).

ـ ماذا تريد؟

ـ ماما، لا تدخلى علىَّ، بل اقتربى فقط من الباب. اسمعى.. منذ ثلاثة أيام انتقلت إلىَّ فى المستشفى عدوى الدفتريا، والآن.. حالتى سيئة. أرسلى بسرعة فى طلب كوروستليوف.

كانت أولجا إيفانوفنا تدعو زوجها، ككل معارفها الرجال، باسم عائلته لا باسمه، فلم يكن اسم زوجها يعجبها لأنه كان يذكرها بشخصية أوسيب عند جوجول[1]، أما الآن فقد صاحت:

ـ أوسيب، هذا لا يمكن!

ـ أرسلى فى طلبه! حالتى سيئة..ـ قال ضيموف خلف الباب، وسُمع وقع خطواته وهو يتجه إلى الكنبة ويستلقى عليها، وجاء صوته مكتوما ـ أرسلى!

وفكرت أولجا إيفانوفنا والرعب يجمد أطرافها: «ما هذا؟ إنه شىء خطر!».

ودونما داع تناولت شمعة ومضت إلى غرفتها، وهنا أدركت ما الذى ينبغى عليها أن تفعله، ونظرت عرضا إلى صورتها فى المرآة. وبدت لنفسها مخيفة ودميمة بوجهها الشاحب المذعور، وبسترتها ذات الأكمام العالية والشرائط الصفراء على الصدر، والخطوط ذات الاتجاهات غير العادية فى الجونلة. وفجأة أحست لدرجة الآلم بالأسف على ضيموف، وعلى حبه اللا محدود لها، وعلى حياته الشابة، بل حتى على فراشه هذا اليتيم الذى لم يعد يرقد فيه من زمن طويل، وتذكرت ابتسامته المألوفة الوادعة المذعنة. وبكت بحرقة وكتبت لكوروستليوف رسالة ضارعة. وكانت الساعة قد بلغت الثانية صباحا.

(١) هو اسم خادم خليستاكوف فى مسرحية جوجول «المفتش العام». (المعرب).

عندما خرجت أولجا إيفانوفنا من غرفة النوم فى الثامنة صباحا، بصداع فى الرأس بسبب السهاد، وغير مصففة الشعر وقبيحة وبتعبير مذنب على وجهها، مر بجوارها شخص ما أسود اللحية، يبدو أنه طبيب. وانتشرت رائحة الأدوية. وبجوار باب غرفة المكتب وقف كوروستليوف وهو يبرم شاربه الأيسر بيده اليمنى.

وقال لأولجا إيفانوفنا متجهما:

ـ عفوا، لن أسمح لك بالدخول إليه. قد يعديك وعموما فلا حاجة لدخولك فى الواقع. إنه على أية حال يهذى.

فسألت أولجا إيفانوفنا بهمس:

ـ هل عنده دفتريا حقيقة؟

فدمدم كوروستليوف دون أن يجيب على سؤال أولجا إيفانوفنا:

ـ أولئك الذين يندفعون بتهور ينبغى محاكمتهم فى الواقع. أتعلمين كيف أنتقلت إليه العدوى؟ فى يوم الثلاثاء شفط بالأنبوبة أغشية الدفتريا من طفل مريض. فما الداعى؟ حماقة.. هكذا، بلا تفكير..

فسألت أولجا إيفانوفنا:

ـ هل هذا خطير؟ جدا؟

ـ نعم، يقولون إن الحالة صعبة، فى الواقع ينبغى أن نستدعى شريك.

وجاء رجل صغير، أحمر الشعر، طويل الأنف، ويتحدث بلكنة يهودية، ثم رجل طويل، مقوس، مشعث الشعر يشبه رئيس الشمامسة. وبعده جاء شاب، بدين جدا، أحمر الوجه، يضع نظارة. كانوا أطباء جاءوا ليسهروا بجوار زميلهم. ولم يكن كوروستليوف ينصرف إلى داره بعد أن يقضى نوبة سهره،

بل يبقى وهو يطوف بالغرف كلها كالظل. وكانت الخادم تقدم الشاى للأطباء المناوبين وتذهب كثيرا إلى الصيدلية، ولم يكن هناك من ينظف الغرف. وساد جو من الهدوء والوحشة.

وجلست أولجا إيفانوفنا فى غرفة النوم وأخذت تفكر فى أن هذا عقاب من الله لها على خداعها لزوجها. كان هناك مخلوق صموت، مطيع، غير مفهوم، فقد شخصيته بسبب وداعته، مخلوق بلا إرادة، وضعيف بسبب طيبته الزائدة، يتعذب هناك على الكنبة فى غرفته دون أن يشكو. ولو أنه اشتكى، حتى فى الهذيان، لعلم الأطباء المناوبون أن الدفتريا ليست المذنبة وحدها، وليسألوا كوروستليوف فهو يعرف كل شىء، ولذلك فهو ينظر إلى زوجة صديقه نظرات وكأنها هى الشريرة الأولى الحقيقية، وما الدفتريا الا شريكتها. ولم تعد تذكر الأمسية المقمرة على الفولجا ولا الاعتراف بالحب، ولا الحياة الشاعرية فى البيت الفلاحى بل كانت تذكر فقط أنها بدافع النزوة الفارغة واللهو قد تلطخت كلها، بيديها ورجليها، بشىء قذر، لزج، لن يزيله أبدا أى غسيل...

«آه، كم كذبت بفظاعة!!ـ فكرت أولجا إيفانوفنا وتذكرت حبها القلق لريابوفسكى ـ اللعنة على كل ذلك!..»

فى الساعة الرابعة تناولت الغداء مع كوروستليوف. ولم يذق شيئا، بل شرب فقط النبيذ الأحمر، وتجهم. ولم تذق هى أيضا أى شىء. وكانت تارة تصلى فى سريرتها وتقسم لله بأنها، إذا ما شفى ضيموف فسوف تحبه ثانية وتبقى زوجة وفية له. وتارة تنسى لحظة فتنظر إلى كوروستليوف وتفكر: «أليس من الممل حقا أن يكون المرء بسيطا، لا يتميز بشىء، إنسانا مجهولا، وفوق ذلك يكون له وجه مكرمش كهذا، وتصرفات غير مهذبة؟». وتارة يخيل إليها أن الله سيقضى عليها فى التو واللحظة لأنها، خوفا من العدوى، لم تدخل غرفة مكتب زوجها بعد ولا مرة. وعموما فقد كانت تحس بالتبلد والوحشة وبقناعة بأن الحياة قد فسدت ولن يمكن إصلاحها..

حل الغسق بعد الغداء. وعندما خرجت أولجا إيفانوفنا إلى غرفة

الجلوس كان كوروستليوف نائما على الأريكة، وقد وضع تحت رأسه وسادة حريرية مطرزة بخيوط مذهبة. وكان شخيرة يتصاعد «كخى.. بوا.. كخى.. بوا..»

وحتى الأطباء الذين يجيئون للمناوبة، وينصرفون لم يلاحظوا هذه الفوضى. فوجود شخص غريب نائم فى غرفة الجلوس ويشخر والمشاهد المعلقة على الجدران. والوضع الغريب فى البيت، وربة الدار غير المصففة الشعر والمهملة الثياب. كل ذلك لم يعد يثير الآن أدنى اهتمام. وضحك أحد الأطباء عرضا، فتردد هذا الضحك غريبا وخجلا، بل وأثار الرهبة.

وعندما خرجت أولجا إيفانوفنا إلى غرفة الجلوس مرة أخرى، لم يكن كوروستليوف نائما بل جالسا يدخن. وقال لها فى شبه همس:

ـ لديه دفتريا التجويف الأنفى. أصبح القلب يعمل بشكل مضطرب. الأحوال سيئة فى الواقع.

فقالت أولجا إيفانوفنا:

ـ أستدع شريك؟

ـ كان هنا بالفعل. وهو الذى لاحظ أن الدفتريا انتقلت إلى الأنف. إيه.. وماذا يفعل شريك، فى الواقع شريك لا شىء. إنه شريك وأنا كوروستليوف.. ولا شىء أكثر.

مضى الوقت ببطء رهيب. كانت أولجا إيفانوفنا مستلقية بثيابها فى الفراش الذى لم يرتب منذ الصباح وهى تغفو. وتراءى لها أن الشقة كلها ملأى من السقف حتى الأرض بقطعة ضخمة من الحديد، وأنه ما إن يلقى بهذا الحديد إلى الخارج حتى يشعر الجميع بالخفة والمرح. وعندما استيقظت تذكرت أن ذلك ليس حديدا بل هو مرض ضيموف.

وفكرت وهى تغفو من جديد: «ناتور.. مور.. بور.. حور.. وكيف شريك؟

شريك، بريك، فريك، كريك، وأين الآن أصدقائى؟ هل يعلمون بمحنتنا؟ يا إلهى الرحمة، النجاة.. شريك، بريك..».

ويعود الحديد ثانية.. والوقت يمضى ببطء والساعة فى الطابق الأسفل تدق كثيرا. ومن حين لآخر يدق جرس الباب ويدخل الأطباء.. ودخلت الخادم تحمل كوبا فارغا على صينية وسألت:

ـ سيدتى، هل تأمرين بإعداد الفراش؟

وخرجت دون أن تتلقى جوابا. ودقت الساعة فى الأسفل، ورأت أولجا إيفانوفنا فى الحلم المطر يسقط على الفولجا، ومرة أخرى دخل غرفة النوم شخص ما، يبدو أنه غريب، فقفزت أولجا إيفانوفنا وعرفت فيه كوروستليوف.

فسألته:

ـ كم الساعة؟

ـ حوالى الثالثة.

ـ ماذا هناك؟

ـ وماذا هناك! جئت أقول إنه يحتضر..

وأجهش بالبكاء، وجلس على السرير بجوارها، ومسح دموعه بكمه. ولم تدرك ما قاله على الفور، ولكن البرودة شملت جسدها كله، أخذت ترسم علامة الصليب ببطء.

وردد كوروستليوف بصوت رفيع:

ـ يحتضر...ـ وأجهش ثانيةـ إنه يموت لأنه ضحى بنفسه..ـ وقال بمرارةـ يا لها من خسارة للعلم! لقد كان بالمقارنة بنا جميعا إنسانا عظيما، إنسانا غير عادى! أية مواهب! أية آمال كنا نعلقها عليه!ـ ومضى يقول وهو يعصر يديه

ـ يا ربى، كان من الممكن أن يصبح عالما لا مثيل له الآن. أوسكا ضيموف، أوسكا ضيموف، ما الذى فعلته! آه يا إلهى!

وغطى كوروستليوف وجهه بكلتا يديه من اليأس وهز رأسه.

ومضى يقول وهو يزداد حقدا على شخص ما:

ـ وأية قوة أخلاقية! روح طيبة، طاهرة، محبة ـ لم يكن إنسانا، بل بلورًا! عاش فى خدمة العلم ومات بسبب العلم. كان يعمل كالبغل، ليل نهار، ولم يرحمه أحد، وكان عليه وهو العالم الشاب والأستاذ المقبل أن يبحث عن زبائن، وأن يعمل فى الترجمة ليلا لكى يدفع ثمن هذه الـ... الخرق الحقيرة!

وتطلع كوروستليوف بمقت إلى أولجا إيفانوفنا، وأمسك الملاءة بكلتا يديه وشدها بغضب، وكأنها هى المذنبة.

ـ لم يرحم نفسه، ولم يرحمه الآخرون. آوه، ماذا أقول، فى الواقع!

وقال شخص ما فى غرفة الجلوس بصوت غليظ:

ـ نعم، كان إنسانا نادرا.

وتذكرت أولجا أيفانوفنا كل حياتها معه، من البداية حتى النهاية بكل تفاصيلها، وأدركت فجأة أنه كان بالفعل إنسانا غير عادى ونادرا بالمقارنة مع من كانت تعرفهم. وعندما تذكرت كيف كان يعامله المرحوم أبوها وكل زملاؤه الأطباء، أدركت أنهم جميعا كانوا يرون فيه رجلا عظيما فى المستقبل. وغمزت لها الجدران والسقف والمصباح والبساط بتهكم وكأنها تريد أن تقول لها: «يا غافلة، يا غافلة!» فانطلقت من غرفة النوم وهى تبكى، وعبرت غرفة الجلوس مارة بشخص غريب، واندفعت إلى غرفة مكتب زوجها. كان ممدا بلا حراك على الكنبة التركية، مغطى إلى نصفه ببطانيه. ضمر وجهه وهزل بشدة وأصبح لونه رماديا أصفر بصورة لا تبدو بها أبدا وجوه الأحياء، وكان

لا يمكن معرفة أن هذا هو ضيموف إلا من جبينه وحاجبيه الأسودين وابتسامته المعهودة. وتحسست أولجا إيفانوفنا صدره وجبينه ويديه بسرعة. كان صدره لا يزال دافئا، لكن جبينه ويديه كانت باردة بصورة منفرة. وكانت عيناه شبه المفتوحتين لا تنظران إلى أولجا إيفانوفنا، بل إلى البطانية.

ونادته بصوت عال:

ـ ضيموف! ضيموف!

كانت تريد أن تشرح له أن ذلك كان خطأ، وأنه لم يضع كل شيء بعد، وأن الحياة يمكن أن تكون رائعة وهنيئة، وأنه أنسان نادر، غير عادى، وعظيم، وأنها سوف تظل تقدسه طول العمر وتصلى له وتضمر الخوف المقدس...

ـ ضيموف! ضيموف! يا ضيموف!ـ دعته وهى تهزه من كتفه دون أن تصدق أنه لن يستيقظ أبدا.

وفى غرفة الجلوس كان كوروستليوف يقول للخادم:

ـ وفيم السؤال؟ اذهبى إلى خفير الكنيسة واسألى أين تقطن عجائز الملجأ.. سيغسلن الجسد ويهندمنه، ويقمن بكل المطلوب.

السيدة صاحبة الكلب

١

قيل إن وجها جديدا ظهر على الكورنيش، سيدة تصحب كلبا. أخذ دميترى دميتريتش جوروف الذى وصل إلى يالطا منذ أسبوعين وألف المكان، يهتم بالوجوه الجديدة هو الآخر. ورأى وهو جالس في جناح «فيرنيه» كيف مرت على الكورنيش سيدة شابة، شقراء، متوسطة القامة، تضع على رأسها «بيريه». ووراءها ركض كلب أبيض صغير.

ثم قابلها بعد ذلك فى حديقة المدينة وفى المنتزه عدة مرات فى اليوم. كانت تتنزه وحدها، فى نفس البيريه وبصحبة الكلب الأبيض. ولم يعرف أحد من هى، فسموها ببساطة: السيدة صاحبة الكلب.

وفكر جوروف: «إذا كانت هنا بدون زوجها وبدون معارف، فلا بأس من التعرف بها».

لم يكن قد بلغ الأربعين بعد، ولكنه كان أبا لبنت فى الثانية عشرة وولدين فى المدرسة. لقد زوجوه مبكرا، وهو بعد طالب فى الصف الثانى، وبدت زوجته الآن أكبر منه سنا بمرة ونصف. كانت امرأة طويلة، بحاجبين داكنين، صريحة، متكبرة، رزينة، وكما كانت تسمى نفسها: مفكرة. وكانت تقرأ كثيرا، ولا تكتب فى رسائلها حرف «Ъ»[1]ـ وتدعو زوجها لا دميترى بل ديميترى،

(١) كان هذا الحرف يكتب سابقا فى آخر الكلمات الروسية المنتهية بحرف ساكن. (المعرب).

بينما كان يعدها فى سره امرأة غير ذكية محدودة الأفق، غير لبقة وكان يخشاها ولا يحب البقاء فى البيت. وقد بدأ يخونها منذ زمن بعيد، وكان يخونها كثيرا، وربما لذلك كان رأيه فى النساء سيئا دائما. وعندما يدور الحديث عنهن فى حضوره كان يسميهن هكذا:

ـ جنس منحط!

كان يظن أن تجربته المرة قد علمته بما يكفى لكى يسميهن كما يشاء، ومع ذلك فبدون «الجنس المنحط» لم يكن ليستطيع أن يعيش يومين اثنين. كان يشعر بين الرجال بالملل والضيق، وكان معهم قليل الكلام، باردا، ولكنه عندما يصبح وسط النساء يحس بالحرية ويعرف عم يتحدث معهن وكيف يتصرف، وحتى الصمت كان سهلا عليه. كان فى مظهره وخلقه، وفى طبيعته كلها شىء ما جذاب خفى، يستميل إليه النساء ويستهويهن. وكان يعرف ذلك، وهو أيضا، كانت قوة ما تشده إليهن.

وقد علمته التجارب العديدة، والمريرة حقا، منذ زمن بعيد، أن كل تقارب، إذ يجعل الحياة فى البداية أكثر تنوعا وبهجة ويمثل مغامرة لطيفة خفيفة، لا بد أن يتحول لدى الأشخاص القويمى السلوك وخاصة أهالى موسكو، البطيئى الحركة، المترددين، إلى مسألة كبيرة معقدة للغاية، ويصبح الوضع فى النهاية مرهقا. ومع ذلك فلدى كل لقاء جديد بامرأة جذابة كانت هذه التجارب تغيب بصورة ما عن ذاكرته، وتراوده الرغبة فى الحياة ويبدو كل شىء بسيطا ومسليا.

وذات مرة، قبيل المساء، كان يتغدى فى الحديقة، واقتربت السيدة ذات البيريه على مهل لكى تشغل الطاولة المجاورة. وأنبأه تعبير وجهها، ومشيتها، وفستانها، وتسريحتها، أنها من وسط محترم، متزوجة. وفى يالطا لأول مرة وبمفردها وأنها تشعر بالملل هنا... كان فى الأقاصيص التى تروى عن فساد الأخلاق المحلية الكثير من الكذب، وكان يحتقرها ويعلم أن مثل هذه

القصص، فى أغلبها، يؤلفها أشخاص لو كان بمقدورهم لارتكبوا الآثام عن طيب خاطر. ولكن عندما جلست السيدة إلى الطاولة المجاورة، على بعد ثلاث خطوات منه، تذكر تلك القصص عن الانتصارات السهلة والرحلات إلى الجبال، وسيطرت عليه فجأة فكرة مغرية عن علاقة قريبة عابرة، عن قصة غرام مع امرأة مجهولة لا يعرف اسمها.

ودعا الكلب إليه بلطف، وعندما اقترب منه رفع أصبعه مهددا، فنبح الكلب مغضبا. وهدده جوروف ثانية.

ونظرت إليه السيدة وخفضت بصرها على الفور.

وقالت:

ـ إنه لا يعض.

وتضرجت وجنتاها.

ـ هل يمكن أن أعطيه عظمة؟ـ وعندما هزت رأسها موافقة سألها ببشاشة ـ هل وصلت إلى يالطا منذ مدة طويلة؟

ـ منذ خمسة أيام.

ـ أما أنا فأجرجر الأسبوع الثانى هنا.

وصمتا قليلا. ثم قالت دون أن تنظر إليه:

ـ الوقت يمضى بسرعة، ومع ذلك فما أشد الملل هنا!

ـ إنها مجرد عادة أن يقال إن المكان هنا ممل. ولكن الواحد من هؤلاء يعيش فى بيته، فى مكان ما فى بليوف أو جيزدر، دون أن يشعر بالملل، وما إن يأتى إلى هنا حتى يقول: «آه يا للملل! يا للتراب!» حتى لتظن أنه جاء من غرناطة.

وضحكت. ثم واصلا الأكل فى صمت كشخصين لا يعرفان بعضهما،

ولكن بعد الغداء سارا متجاورين، وبدأ بينهما حديث مازح خفيف، حديث أناس أحرار، راضين، سيان لديهم إلى أين يمضون وعم يتحدثون، ومضيا يتنزهان ويتحدثان عن غرابة إضاءة البحر، فقد كان لون المياه بنفسجيا، ناعما ودافئا، وامتد عبرها من القمر شريط ذهبى. وتحدثا عن الجو الخانق بعد يوم حار. وأخبرها جوروف أنه من موسكو، وأنه خريج كلية الآداب ولكنه يعمل فى بنك، وكان فى وقت ما يستعد للغناء فى أوبرا خاصة، ولكنه ترك ذلك، ويملك فى موسكو منزلين.. وعرف منها أنها نشأت فى بطرسبورج ولكنها تزوجت فى مدينة (س)، حيث تعيش منذ عامين، وأنها ستقضى فى يالطا حوالى شهر، وربما يأتى فى أثرها زوجها الذى يريد أيضا أن يستريح. ولم تستطع أبدا أن توضح أين يعمل زوجها: فى إدارة المحافظة أم فى إدارة الإقليم وضحكت هى نفسها من ذلك. وعرف جوروف أيضا أن اسمها آنا سرجيفنا.

وبعد ذلك فكر فيها وهو فى غرفته بالفندق، وفى أنها ربما تقابله غدا. هكذا ينبغى أن يكون.. وعندما أوى إلى الفراش تذكر أنها منذ فترة قريبة كانت طالبة، كانت تدرس كما تدرس ابنته الآن، وتذكر كم كان فى ضحكها وحديثها مع رجل غريب من تهيب وارتباك. لا بد أنها المرة الأولى فى حياتها التى تبقى فيها وحدها وفى وضع كهذا، عندما يغازلونها، ويتطلعون إليها ويتحدثون معها بهدف خفى واحد، لا يمكن ألا أن تحدسه. وتذكر عنقها الرقيق الضعيف، وعينيها الرماديتين الجميلتين.

وفكر جوروف وهو يستسلم للنوم: «هناك شىء ما فيها يثير الشفقة مع ذلك».

٢

مر أسبوع منذ تعارفهما. وكان يوم عيد. كان الجو فى الغرف خانقا، وفى الشوارع ثارت دوامات الغبار، وطيرت الريح القبعات. واستبد بهما الظمأ

طول النهار، فكان جوروف يدخل الجناح كثيرا ويعرض على آنا سرجييفنا شراب عصير الفواكه تارة، والآيس كريم تارة أخرى. ولم يكن ثمة مكان يُلجأ إليه.

وفى المساء، عندما هدأ الجو قليلا، ذهبا إلى حاجز الأمواج ليشاهدا مجىء السفينة. وكان فى الميناء كثير من المتنزهين، وقد جاءوا لمقابلة أشخاص ما، وحملوا فى أيديهم الزهور. وهنا تبدت بوضوح خصيصتان تميزان جمهور يالطا المتأنق: فقد كانت النساء الكبيرات السن متزينات كالشابات، وكان هناك جنرالات كثيرون.

وبسبب اضطراب البحر وصلت السفينة متأخرة، بعد غروب الشمس، ودارت مدة طويلة قبل أن ترسو على الحاجز. وتطلعت آنا سرجييفنا عبر العوينات إلى السفينة والركاب وكأنها تبحث عن معارف، وعندما كانت تخاطب جوروف تلمع عيناها. تكلمت كثيرا، وكانت أسئلتها مقتضبة وكانت تنسى على الفور عم سألت. ثم فقدت عويناتها فى الزحام.

وتفرق الجمهور المتأنق، ولم تعد الوجوه تبين، وهدأت الريح تماما، بينما ظل جوروف وآنا سرجييفنا واقفين وكأنما ينتظران أن يهبط أحد آخر من السفينة. كانت آنا سرجييفنا الآن صامتة، تشم الزهور دون أن تتطلع إلى جوروف.

وقال جوروف:

ـ الجو فى المساء صار أفضل. إلى أين سنذهب الآن؟ هلا رحلنا إلى مكان ما؟

ولم ترد بشىء.

عندئذ نظر إليها مليا واحتضنها فجأة، وقبلها فى شفتيها، فهبت عليه رائحة الزهور ورطوبتها، وعلى الفور تلفت حوله بخوف: ألم يرهما أحد؟

ودمدم بصوت خافت:

ـ فلنذهب إليك..

وانصرفا بسرعة.

كان الجو فى غرفتها خانقا، وتضوعت فيه رائحة العطر الذى ابتاعته فى المتجر اليابانى. وفكر جوروف وهو ينظر إليها الآن: «ما أكثر ما يحدث فى الحياة من لقاءات!». لقد بقيت لديه من الماضى ذكرى نساء خاليات البال، طيبات، مرحات من الحب، ممتنات له على السعادة التى منحها أياهن وإن تكن قصيرة. ونساء ـ مثل زوجته ـ أحببن بلا صدق وبثرثرة كثيرة وحركات مفتعلة وهستيريا، وبتعبير على الوجه، كأنما لم يكن ذلك حبا أو شهوة، بل شيئا أهم بكثير.. وامرأتان أو ثلاث، بارعات الجمال، باردات، كان يطوف بوجوههن فجأة تعبير جشع ورغبة عنيدة فى أن يأخذن، ويختطفن من الحياة أكثر مما تستطيع أن تعطى، وكن نساء مضى شبابهن، نزقات، غير مفكرات، متسلطات، غير ذكيات، وعندما كان جوروف يشعر بالبرود نحوهن كان جمالهن يثير فيه الكراهية، وتبدو له الدانتلا على ملابسهن الداخلية أشبه بقشر السمك.

أما هنا فتلك الهيبة والارتباك لشباب غير محنك، والشعور بالخجل، وساد انطباع بالحرج كأنما طرق أحدهم الباب فجأة، ونظرت آنا سرجييفنا، هذه «السيدة صاحبة الكلب»، إلى ما حدث نظرة خاصة، وبجدية شديدة، وكأنما كان فى ذلك سقوطها. هكذا خيل لجوروف، فبدا له ذلك غريبا وغير مناسب. تهدلت قسماتها وذبلت، وتدلت على صفحتى وجهها خصلات شعرها الطويل بصورة حزينة، واستغرقت آنا سرجييفنا فى التفكير بكآبة، فبدت فى ذلك الوضع كالخاطئة فى لوحة قديمة.

وقالت:

ـ هذا ليس حسنا. إنك الآن أول من لا يحترمنى.

وكان على المائدة فى الغرفة بطيخة، فشق جوروف قطعة وراح يأكلها على مهل. ومر ما لا يقل عن نصف ساعة وهما صامتان.

كانت آنا سرجييفنا مؤثرة، وانبعث منها طهارة المرأة القويمة، الساذجة التى لم تخبر الحياة بعد. وكانت الشمعة الوحيدة المشتعلة على الطاولة لا تكاد تضىء وجهها، بيد أنه كان واضحا أنها تعانى عذابا داخليا.

وسألها جوروف:

ـ ولماذا أكف عن احترامك؟ أنت لا تدرين ما تقولين.

فقالت وعيناها تمتلئان بالدموع:

ـ فليغفر لى الله. هذا فظيع.

ـ كأنما تبحثين عن تبرير.

ـ وكيف أبرر ذلك؟ اننى امرأة سيئة، منحطة، إننى أحتقر نفسى ولا أفكر فى المبررات. أنا لم أخدع زوجى بل خدعت نفسى. وليس الآن فحسب، بل منذ زمن بعيد وأنا أخدعها. ربما كان زوجى رجلا شريفا، طيبا، ولكنه خادم. أنا لا أعرف ماذا يفعل ولا كيف يخدم، ولكن أعرف فقط أنه خادم. كنت فى العشرين من عمرى عندما تزوجته، وكان الفضول يؤرقنى وكنت أتوق إلى شىء ما أفضل. كنت أقول لنفسى: هناك حياة أخرى حقا. كنت أريد أن أعيش وأعيش وأعيش.. كان الفضول يلهبنى.. إنك لا تدرك ذلك، ولكنى أقسم لك، لم أعد أستطيع السيطرة على نفسى، كان هناك شىء ما يحدث لى، ولم يعد من الممكن لقوة أن تبقينى، فقلت لزوجى إننى مريضة وسافرت إلى هنا.. وها أنا ذا قد أصبحت امرأة مبتذلة، ساقطة، بوسع أى شخص أن يحتقرها.

كان جوروف قد ملّ السماع، وأحنقته هذه النبرة الساذجة، وهذا الندم

المفاجئ وغير المناسب. ولولا الدموع فى عينيها لظن أنها تمزح أو تؤدى دورا.

وقال بصوت خافت:

ـ أنا لا أفهم، ماذا تريدين؟

ودفنت وجهها فى صدره والتصقت به. وقالت:

ـ صدقنى، صدقنى أتوسل إليك.. إننى أحب الحياة الشريفة، الطاهرة، أما الخطيئة فكريهة علىّ، أنا نفسى لا أدرى ما الذى أفعله. البسطاء يقولون: الشيطان أضلّنا، وبوسعى الآن أن أقول عن نفسى: لقد أضلّنى الشيطان.

فدمدم جورروف:

ـ كفى، كفى..

وتطلع إلى عينيها الجامدتين المفزوعتين، وقبلها، وراح يتحدث بصوت خافت وبرقة فهدأت شيئا فشيئا، وعاد إليها المرح. أخـذا كلاهما يضحكـان.

وعندما خرجا إلى الكورنيش فيما بعد، لم يكن هناك أحد، وبدت المدينة بأشجار السرو ميتة تماما، لكن البحر ظل يصخب ويضرب الشاطئ، وتراقص على الأمواج زورق وحيد وعليه مصباح يومض ناعسا.

ووجدا حوذيا ورحلا إلى أورياندا.

وقال جورروف:

ـ لقد عرفت اسم عائلتك عندما كنا فى المدخل، كان مكتوبا على اللوحة: فون ديدريتس. هل زوجك ألمانى؟

ـ كلا، جده كان ألمانيًا على ما أظن، أما هو فروسى أرثوذوكسى.

وفى أوريانداا جلسا على أريكة، غير بعيد عن الكنيسة، وتطلعا إلى البحر فى الأسفل وهما صامتان. كانت يالطا تلوح بالكاد من خلال ضباب الصباح، وعلى قمم الجبال استقرت السحب البيضاء بلا حراك. وسكنت أوراق الشجر وأزت زيزان الحصاد، أما صخب البحر الرتيب المكتوم المتناهى من أسفل فكان يتحدث عن السكينة والكرى الخالد الذى ينتظرنا. هكذا كان البحر يصخب فى الأسفل عندما لم تكن هناك يالطا وأورياندا، وهكذا يصخب الآن، وسوف يصخب فى المستقبل بنفس اللامبالاة والصوت المكتوم عندما لا نعود على قيد الحياة. وفى هذه الاستمرارية، فى هذه اللامبالاة التامة حيال حياة كل منا وموته، ربما يكمن ضمان خلاصنا الأبدى، ضمان حركة الحياة المستمرة على الأرض، والرقى المستمر. وفكر جوروف وهو جالس بجوار امرأة شابة، بدت فى الفجر على هذه الصورة من الجمال، مستكن النفس، مفتونا بهذا الجو الأسطورى: البحر والجبال والسحاب والسماء الرحبة... فكر فى أن كل شىء رائع فى هذا العالم حقا لو أمعنا التفكير، كل شىء ما عدا ما نفكر فيه ونفعله عندما ننسى أسمى أغراض الوجود، وكرامتنا الإنسانية.

ومر بجوارهما شخص ما، يبدو أنه حارس، وتطلع إليهما ثم انصرف. وهذه الحركة بدت أيضا غامضة وجميلة ولاحت السفينة القادمة من فيودوسيا مطفأة الأنوار وقد أضاءها نور الفجر.

وقالت آنا سرجييفنا بعد صمت:

ـ الندى على العشب.

ـ نعم، فلنعد.

وعادا إلى المدينة.

وبعد ذلك كانا يلتقيان كل ظهر على الكورنيش، ويفطران معا، ويتغديان ويتنزهان ويعجبان بالبحر. واشتكت له من أنها تنام نوما سيئا، وأن قلبها يدق

بقلق، وكانت توجه إليه نفس الأسئلة وهى مضطربة من الغيرة تارة وتارة أخرى من خشية أنه لا يحترمها بما فيه الكفاية. وكثيرا ما كان يحدث وهما فى المنتزه أو الحديقة، وعندما لا يكون بقربهما أحد، أن يجذبها إليه فجأة ويقبلها بشهوة. وهذا الفراغ المطلق، وهذه القبلات فى وضح النهار مع التلفت والخوف من أن يكون أحد قد رآه، والحر، ورائحة البحر والحركة الدائبة أمام عينيه لأناس غير مشغولين، متأنقين، شباع، كأنما أعادت خلقه من جديد، فكان يقول لآنا سرجييفنا كم هى جميلة، وكم هى مغرية، وكان متلهفا عليها ولم يفارقها خطوة واحدة، بينما كانت هى تستغرق فى التفكير كثيرا، وترجوه طوال الوقت أن يعترف بأنه لا يحترمها ولا يحبها أبدا بل لا يرى فيها سوى امرأة مبتذلة. وكانا كل مساء تقريبا يرحلان فى وقت متأخر إلى مكان خارج المدينة، إلى أورياندا أو الشلال. وكانت نزهاتهما موفقة، وفى كل مرة كانت الانطباعات دائما رائعة، ومهيبة.

وانتظرا أن يصل زوجها، ولكنها تلقت منه رسالة يخبرها فيها أنه مريض بعينيه، وتوسل إليها أن تعود بسرعة. وعجلت آنا سرجييفنا بالرحيل وهى تقول لجوروف:

ـ حسن أننى أسافر. هذه مشيئة الأقدار.

ورحلت فى عربة ورحل معها إلى المحطة ليودعها. وقطعا النهار كله فى السفر. وعندما استقلت عربة القطار السريع ودق ناقوس المحطة للمرة الثانية قالت:

ـ دعنى أتطلع إليك ثانية... مرة أخرى. هكذا.

لم تبك، ولكنها كانت حزينة، وبدت كأنها مريضة، وكان وجهها يرتعش.

وقالت:

ـ سأفكر فيك... وأتذكرك. ابق فى رعاية الله. لا تذكرنى بسوء. إننا نفترق إلى الأبد. هذا ضرورى، لأنه ما كان ينبغى أن نلتقى. حسنا، يرعاك الله.

ورحل القطار بسرعة، وسرعان ما غابت أنواره، وبعد دقيقة لم يعد ضجيجه مسموعا، كأنما تآمر كل شىء عن عمد لإنهاء هذه الغيبوبة العذبة، وهذا الجنون بسرعة. وعندما أصبح جوروف وحده على الرصيف وهو يتطلع إلى الأفق المظلم، أخذ يصغى إلى صرير الجنادب وأزير أسلاك البرق بإحساس من استيقظ لتوه. وفكر فى أنه ها هى ذى مغامرة قد مرت فى حياته وانتهت، ولم يبق منها سوى الذكرى... كان متأثرا وحزينا، وأحس بقليل من الندم. فهذه المرأة الشابة التى لن يراها أبدا لم تكن سعيدة معه. كان لطيفا وودودا معها، ومع ذلك فقد كان فى معاملته لها وفى لهجته وملاطفاته ظل من السخرية الخفيفة، وشئ من الاستعلاء الفظ لرجل سعيد، هو فوق ذلك أكبر منها مرتين. كانت تقول له طوال الوقت إنه طيب وغير عادى، وسام. لقد بدا لها، فيما يظهر، على غير حقيقته فى الواقع، وإذن فقد خدعها عن غير قصد...

وانتشرت فى المحطة رائحة الخريف، وكان المساء باردا.

وفكر جوروف وهو يغادر الرصيف: «وأنا أيضا آن لى أن أرحل إلى الشمال. حان الوقت».

٣

عندما عاد إلى بيته فى موسكو كان كل شىء يسير كما فى الشتاء، وأوقدت الأفران، وفى الصباح، عندما يتهيأ الأطفال للمدرسة ويتناولون الشاى يكون الجو مظلما فتشعل المربية الضوء بعض الوقت. وبدأت بوادر الصقيع. وعندما يهطل الثلج لأول مرة، وفى أول أيام استخدام الزحافات، تشعر بالسرور وأنت ترى الأرض البيضاء والأسقف البيضاء، ويصبح الهواء

أنقى وأروع، وفى هذه الأوقات تتذكر سنوات الصبا. وتكتسب أشجار الزيزفون والبتولا العجوز، البيضاء من الثلج، تعبيرا بشوشا، فهى أقرب إلى القلب من السرو والنخيل، ولا تراودك الرغبة بالقرب منها فى التفكير فى الجبال والبحر. كان جوروف موسكوفيا، وقد عاد إلى موسكو فى يوم بارد صحو، وعندما ارتدى معطف الفراء والقفاز الثقيل وتمشى فى شارع بتروفكا، وعندما سمع مساء السبت رنين أجراس الكنائس، فقدت رحلته القريبة إلى الأماكن التى كان فيها كل سحرها بالنسبة له. وغاص شيئا فشيئا فى حياة موسكو، وأصبح يقرأ بنهم ثلاث صحف يوميا ويقول إنه لا يقرأ صحف موسكو عن مبدأ. واجتذبته المطاعم والأندية ودعوات الغداء والحفلات اليوبيلية، وأصبح يشعر بالفخر لزيارة مشاهير المحامين والممثلين له، ولأنه يلعب الورق مع بروفيسور فى نادى الأطباء. وأصبح بوسعه أن يأكل طبقا كاملا من «السليانكا» المحمَّرة...

وخيل إليه أنه لن يمر شهر حتى يغلف الضباب آنا سرجييفنا فى ذاكرته، ولن تخطر له إلا نادرا بابتسامتها المؤثرة كما خطرت من قبل أخريات. ولكن مر أكثر من شهر، وأوغل الشتاء، بيد أن كل شىء ظل واضحا فى ذاكرته وكأنما لم يفارق آنا سرجييفنا إلا بالأمس. وهاجت الذكريات أقوى وأشد. فما إن تتناهى إليه فى مكتبه فى هدوء المساء أصوات أطفاله وهم يحضرون الدروس، أو يصغى إلى أغنية عاطفية أو إلى عزف الأورغن فى مطعم، أو تعول الريح فى مدخنة المدفأة، حتى ينبعث كل شىء حيا فى الذاكرة: ما كان عند حاجز الأمواج، والصباح الباكر المضبب فى الجبال، والسفينة القادمة من فيودوسيا، والقبلات. وكان يروح ويجىء طويلا فى الغرفة، ويتذكر ويبتسم. ثم تحولت الذكريات إلى أحلام، واختلط فى خياله ما حدث بما سوف يكون. لم تعد آنا سرجييفنا تخطر له، بل كانت تتبعه فى كل مكان كالظل وتراقبه وعندما يغمض عينيه يراها أمامه حية، وبدت له أجمل وأصبى وأرق مما كانت. وهو أيضا بدا لنفسه أفضل مما كان آنذاك فى يالطا. وكانت تتطلع إليه فى المساء من خزانة

الكتب ومن المدفأة، ومن ركن الغرفة، وكان يسمع أنفاسها وحفيف ثيابها الرقيق. وكان يتابع النساء فى الشارع بعينيه بحثا عمن تشبهها...

وأمضَّته رغبة شديدة فى أن يفضى لأحد ما بذكرياته بيد أنه لم يكن من الممكن أن يتحدث عن حبه فى البيت، أما خارج البيت فليس هناك من يتحدث إليه. فليس من المعقول أن يتحدث مع السكان أو فى البنك. ثم عم يتحدث؟ هل هو أحبها آنذاك؟ وهل كان هناك شىء ما جميل وشاعرى أو ذو عبرة، أو حتى شيّق فى علاقته بآنا سرجييفنا؟ واضطر أن يقول كلاما عاما عن الحب، وعن النساء فلم يفطن أحد إلى الأمر. زوجته فقط لعّبت حاجبيها الداكنين وقالت:

ـ أنت يا ديميترى لا تليق فى دور الغندور.

وذات ليلة، وكان خارجا من نادى الأطباء مع موظف شاركه اللعب، لم يتمالك نفسه فقال:

ـ لو تدرى بأية امرأة ساحرة تعرفت فى يالطا!

وجلس الموظف فى الزحافة فمضت به، لكنه التفت فجأة وصاح:

ـ يا دميترى. ديميتريفيتش!

ـ ماذا؟

ـ لقد كنت على حق بالأمس، فالسمك عفن!

أثارت هذه الكلمات، العادية تماما، حنق جوروف فجأة لسبب ما، وبدت له مهينة ملوثة. ياللأخلاق الهمجية، يالهذه السحنات! وما هذه الليالى التى بلا معنى، وأية أيام مملة باهتة! اللعب المحموم، والأكل حتى التخمة، والسُكْر، والأحاديث المكرورة عن نفس الشىء. الأعمال التى لا ضرورة لها والأحاديث المكرورة تستولى على أفضل ساعات العمر، وعلى أفضل

القـوى، ولا يبقى فى النهاية سوى حياة مبتورة، مقصوصة الجناحين، لا يبقى سوى هراء، ولا تستطيع أن تهرب منه أو تفر، كأنما وضعت فى مستشفى المجانين أو فى السجن!

لم ينم جورروف طوال الليل وهو ساخط، ثم عانى طوال اليوم التالى من الصداع. وفى الليالى التالية نام نوما سيئا، وكان يجلس فى الفراش ويفكر أو يروح ويجيء من ركن لركن. وملّ الأطفال، ومل البنك ولم يكن يرغب فى الذهاب إلى أى مكان أو الحديث عن أى شيء.

وفى أعياد ديسمبر استعد للسفر، وقال لزوجته إنه راحل إلى بطرسبرج للتوسط لأحد الشبان، وسافر إلى (س). لماذا؟ هو نفسه لم يكن يعرف جيدا. لقد أراد أن يرى آنا سرجييفنا ويتحدث إليها ويدبر موعدا معها إذا أمكن.

وصل إلى (س) صباحا وحجز فى الفندق أفضل غرفة، وكانت أرضيتها مغطاة كلها بجوخ عسكرى رمادى، وعلى الطاولة محبرة، رمادية من الغبار، تحمل فارسا على جواد، وقد رفع يده بالقبعة بينما كان رأسه مبتورا. وأعطاه الفراش المعلومات اللازمة: فون ديدريتش يسكن فى شارع ستارو ـ جونتشارنايا فى منزله الخاص، غير بعيد عن الفندق، وهو يحيا حياة طيبة، فى بحبوحة، ويملك خيوله الخاصة ويعرفه الجميع فى المدينة. ولفظ الفراش اسمه هكذا: ضريضيرتس.

ومضى جورروف على مهل إلى شارع ستارو ـ جونتشارنايا وعثر على المنزل. وفى مواجهة المنزل مباشرة امتد سور رمادى طويل بمسامير.

وفكر جورروف وهو ينظر تارة إلى النوافذ وتارة إلى السور: «من هذا السور لا بد أن تهرب».

وفكر: اليوم عطلة، وزوجها على الأرجح فى البيت. وعلى أى حال فليس من اللائق أن يدخل البيت ويحرجها. وإذا أرسل لها رسالة فستقع فى الغالب

فى يد زوجها، وعندئذ سيفسد كل شىء. أفضل شىء الاعتماد على الصدفة. وراح يتمشى فى الشارع بجوار السور وينتظر هذه الصدفة. ورأى شحاذا يدلف إلى البوابة فتهاجمه الكلاب، ثم سمع بعد ساعة عزفا على البيانو، وتناهت إليه الأنغام ضعيفة غير واضحة. لا بد أنها آنا سرجييفنا التى تعزف. وفجأة فتح باب المدخل الرئيسى، وخرجت منه امرأة عجوز، وركض خلفها الكلب الأبيض المعروف. وأراد جوروف أن ينادى الكلب، ولكن قلبه دق فجأة بعنف، ولم يستطع من الاضطراب أن يتذكر اسم الكلب.

وأخذ يتمشى وهو يزداد كراهية للسور الرمادى، وبدأ يفكر بعصبية فى أن آنا سرجييفنا قد نسيته وربما تمرح الآن مع رجل غيره، فهذا شىء طبيعى بالنسبة لامرأة شابة، مضطرة أن ترى من الصباح إلى المساء هذا السور اللعين. وعاد إلى غرفته فى الفندق، وظل جالسا على الكنبة فترة طويلة وهو لا يدرى ماذا يفعل، ثم تغدى، ونام طويلا.

«ما أغبى كل هذا وأسخفه ـ فكر بعد أن استيقظ وهو ينظر إلى النوافذ المظلمة، فقد كان المساء قد حل ـ ها أنا ذا قد شبعت نوما، فلماذا؟ وماذا أفعل ليلا إذن؟»

جلس على الفراش المغطى ببطانية رمادية رخيصة مثل بطانيات المستشفى، أخذ يبكت نفسه بأسى:

«تلك هى السيدة صاحبة الكلب.. تلك هى المغامرة.. فلتجلس الآن هنا».

وقبل ذلك فى الصباح كان قد لفت نظره فى المحطة إعلان بأحرف كبيرة عن عرض أوبرا «فتاة الجيشا» لأول مرة. وتذكر ذلك الآن فتوجه إلى المسرح.

وفكر: «من الجائز جدا أنها تحضر العروض الأولى».

كان المسرح مكتظا. وهنا أيضا، مثلما فى جميع مسارح الأقاليم كان

الضباب متجمعا أعلى النجفة، وارتفع اللغط فى أعلى المسرح. وفى الصفوف الأولى، قبيل بدء العرض، وقف المتأنقون المحليون، عاقدين أيديهم خلف ظهورهم. وفى مقصورة المحافظ جلست فى الصف الأول ابنته فى لفاع من الفرو، أما المحافظ نفسه فكان مختبئا بتواضع خلف ستار باب المقصورة فلم تظهر سوى يديه. واهتزت ستارة المسرح وظل الأوركسترا يضبط آلاته طويلا وكان جوروف يفتش بعينيه فى نهم طوال فترة دخول النظارة وشغلهم للمقاعد.

ودخلت آنا سرجييفنا. جلست فى الصف الثالث، وعندما تطلع جوروف إليها خفق قلبه بعنف، وأدرك بوضوح أنه لم يعد لديه فى الدنيا كلها إنسان أقرب وأعز وأهم منها. هذه المرأة الصغيرة، الضائعة فى هذا الحشد الريفى، والتى لا تتميز بشىء، هذه المرأة ذات المنظار المبتذل فى يديها، أصبحت الآن تشغل حياته كلها، أصبحت حزنه وفرحته والسعادة الوحيدة التى يرجوها الآن لنفسه. وعلى أنغام الأوركسترا السيئ وآلات الكمان السوقية أخذ جوروف يفكر كم هى جميلة. كان يفكر ويحلم.

ودخل مع آنا سرجييفنا وجلس إلى جوارها رجل شاب بسالفين صغيرين، طويل جدا، محنى القامة. وكان رأسه يهتز مع كل خطوة، فبدا كأنه ينحنى محييا باستمرار. يبدو أنه زوجها الذى قالت عنه فى يالطا فى صورة إحساس مرير، إنه خادم. وبالفعل فقد كان فى قامته الطويلة، وفى سالفيه، وفى الصلعة الصغيرة شىء من تواضع الخدم، وكان يبتسم ابتسامة عسلية، ولمعت فى عروة سترته شارة علمية كأنها شارة الخدم.

وفى الاستراحة الأولى انصرف الزوج ليدخن وبقيت هى فى مقعدها. واقترب منها جوروف، الذى كان يجلس هو أيضا فى الصالة وقال بصوت متهدج وهو يغتصب ابتسامة:

ـ مرحبا.

وتطلعت إليه وامتقعت، ثم تطلعت مرة أخرى برعب وهى لا تصدق عينيها، وأطبقت يدها بقوة على المروحة والمنظار معا وهى تجاهد فيما يبدو لكى لا تسقط مغشيا عليها. وكان كلاهما صامتا. كانت جالسة وهو واقف وقد أفزعه ارتباكها، دون أن يجرؤ على الجلوس بجوارها. وصدحت آلات الكمان والناى التى كان العازفون يضبطونها، وتملكهما الرعب فجأة، وخيل إليهما أن الأنظار تتطلع إليهما من جميع المقصورات. ولكن ها هى ذى قد نهضت واتجهت بسرعة نحو باب الخروج، فتبعها. وسارا معا يتخبطان فى الطرقات والسلالم صاعدين هابطين، ومرق أمام عيونهما أناس ما فى سترات قضاة ومعلمين وموظفين، ومرقت نساء، ومعاطف فرو على المشاجب، ولفحهما تيار هواء حاملا رائحة أعقاب السجائر. وفكر جوروف وقلبه يخفق بعنف: «آوه يا إلهى. لِمَ هؤلاء الناس، وهذا الأوركسترا؟».

وفى تلك اللحظة تذكر فجأة ذلك المساء فى محطة القطار، عندما ودع آنا سرجييفنا وقال لنفسه إن كل شىء قد انتهى ولن يلتقيا بعد ذلك أبدا. ولكن كم كانت النهاية بعيدة!

وعلى سلم ضيق مظلم كتب عليه «مدخل أعلى المسرح» توقفت.

ـ كم أفزعتنى!ـ قالت وهى تتنفس بصعوبة ولا تزال شاحبة مأخوذة ـ آوه، كم أفزعتنى! أنا حية بالكاد. لماذا جئت؟ لماذا؟

فقال جوروف بصوت خافت على عجل:

ـ افهمينى يا آنا، افهمينى.. أتوسل إليك، افهمينى..

كانت تتطلع إليه بخوف، وتوسل، وحب، بنظرة ثاقبة لكى تطبع ملامحه فى ذاكرتها طويلا.

ومضت تقول دون أن تصغى إليه:

ـ كم أتعذب! كنت طوال الوقت أفكر فيك وحدك، وكنت أعيش بفكرى معك. وأردت أن أنسى، أنسى، فلماذا جئت، لماذا؟

على بسطة السلم العليا كان يقف طالبان، يدخنان ويتطلعان إلى أسفل، ولكن جوروف لم يعد يلقى بالا لشىء، فجذب آنا سرجييفنا نحوه، وأخذ يقبل وجهها وخديها ويديها.

فقالت برعب وهى تدفعه عنها:

ـ ما الذى تفعله، ما الذى تفعله! لقد أصابنا الجنون. ارحل اليوم، ارحل الآن.. أستحلفك بكل القديسين، أتوسل إليك.. إنهم قادمون إلى هنا!

كان هناك شخص يصعد الدرج.

ومضت آنا سرجييفنا تقول همسا:

ـ ينبغى أن ترحل، أتسمعنى يا دميترى دميتريتش؟ سأجىء إليك فى موسكو. أنا لم أكن أبدا سعيدة، والآن أصبحت تعيسة، ولن أكون أبدا سعيدة، أبدا! لا تجعلنى إذن أتعذب أكثر! أقسم لك إننى سآتى إلى موسكو. والآن لنفترق! يا عزيزى، يا حبيبى الطيب، لنفترق!

وصافحته ومضت تهبط الدرج بسرعة وهى تلتفت نحوه كثيرا، وكان واضحا فى عينيها أنها لم تكن سعيدة بالفعل.. ولبث جوروف فى مكانه قليلا وهو يرهف السمع، وعندما هدأ كل شىء بحث عن معطفه وغادر المسرح.

٤

وأصبحت آنا سرجييفنا تأتى إليه فى موسكو. كانت تغادر (س) مرة كل شهرين أو ثلاثة وتقول لزوجها إنها ذاهبة لاستشارة بروفيسور بخصوص مرض نسائى، فكان زوجها يصدقها ولا يصدقها. وعندما تصل إلى موسكو كانت تنزل

فى «سلافيانسكى بازار» وترسل إلى جوروف على الفور رسولا على رأسه قبعة حمراء وكان جوروف يذهب إليها ولا يعلم أحد فى موسكو بذلك.

وذات مرة كان ذاهبا إليها فى صباح شتائى (جاءه الرسول قبلها فى المساء فلم يجده). وكانت بصحبته ابنته التى أراد أن يوصلها إلى المدرسة فى طريقه. وتساقط ثلج مبلل كبير الندف.

وقال جوروف لابنته:

ـ درجة الحرارة الآن ثلاثة فوق الصفر ومع ذلك يسقط الثلج. ولكن الجو دافئ فوق سطح الأرض فقط، أما فى طبقات الجو العليا فالحرارة مختلفة تماما.

ـ بابا، ولماذا لا يرعد الرعد فى الشتاء؟

فشرح لها ذلك أيضا. كان يفكر وهو يتكلم فى أنه ذاهب الآن إلى موعد، ولا يعلم بذلك أى إنسان، وربما لن يعلم. كان يعيش حياتين: حياة ظاهرة، يعرفها ويراها كل من ينبغى أن يعرفها ويراها، حياة مليئة بالصدق النسبى والخداع النسبى، وتشبه تماما حياة معارفه وأصدقائه، وحياة أخرى تمضى سرا. وحسب اتساق غريب للظروف، ربما كان عرضا، جرى كل ما كان بالنسبة له مهما، وطريفا، وضروريا، كل ما كان فيه مخلصا وصادقا مع نفسه، كل ما كان يشكل نواة حياته، جرى فى سرية عن الآخرين. أما ما كان كذبا، وقشرة يختبى خلفها ليخفى الحقيقة، كعمله فى البنك مثلا، ومناقشاته فى النادى، و«جنسه المنحط»، وتردده مع زوجته على الحفلات ـ كل ذلك كان ظاهرا. وحسب حاله كان يحكم على الآخرين ولا يصدق ما يراه ويعتقد دائما أن لكل إنسان حياته الحقيقية، الشيقة التى تمضى تحت ستار السرية مثلما تحت جنح الليل وكل مخلوق فرد يقوم وجوده على الأسرار، وربما لذلك يسعى الإنسان المثقف بقلق من أجل أن تحترم الأسرار الشخصية.

وبعد أن أوصل جورروف ابنته إلى المدرسة اتجه إلى «سلافيانسكى بازار». وخلع معطفه فى الأسفل وصعد ودق الباب بخفة. كانت آنا سرجيفنا فى فستانها الرمادى المحبب إليه تنتظره منذ مساء الأمس وقد أرهقها السفر والانتظار. كانت شاحبة وتطلعت إليه دون أن تبتسم، وما إن دخل حتى ارتمت على صدره. وكانت قبلتها طويلة، ممتدة، كأنما لم يلتقيا منذ عامين.

وسألها جورروف:

ـ كيف حالك؟ ماذا هناك من جديد؟

ـ مهلا، سأخبرك الآن.. لا أستطيع.

لم تستطع أن تتكلم، فقد كانت تبكى. واستدارت عنه وضغطت على عينيها بالمنديل.

وقال جورروف لنفسه: «فلتبك قليلا ولأجلس أنا» وجلس فى المقعد.

ثم دق الجرس وطلب شايا. وبعد ذلك، وبينما كان يشرب الشاى، ظلت هى واقفة ووجهها إلى النافذة.. كانت تبكى من الاضطراب، ومن إدراكها الحزين بأن حياتهما تمضى على هذا النحو البائس إذ لا يلتقيان إلا سرا، ويختبئان من الناس كاللصوص! أليست حياتهما محطمة؟

وقال جورروف:

ـ هيا، كفاك بكاء.

كان من الواضح له أن حبهما هذا لن ينتهى قريبا، وليس معروفا متى ينتهى. وتعلقت به آنا سرجييفنا أكثر فأكثر، وكانت متيمة به، ولم يكن من المعقول أن يقول لها إن كل ذلك لا بد أن تكون له فى وقت ما نهاية. وما كانت لتصدق ذلك.

واقترب منها وأمسك بكتفيها لكى يلاطفها ويداعبها، وفى تلك اللحظة رأى صورته فى المرآة.

كان رأسه قد بدأ يشيب. وبدا له غريبًا أنه هرم وتدهور إلى هذه الدرجة فى الآونة الأخيرة. وكانت الكتفان اللتان وضع عليهما يديه دافئتين ترتعشان. وأحس بالعطف على هذه الحياة، التى كانت لا تزال دافئة جميلة، ولكنها ربما تقترب من الذبول والانطفاء كحياته هو. ترى لماذا تحبه هكذا؟ لقد كان يبدو للنساء دائما على غير حقيقته، ولم يكنَّ يحببنه هو نفسه، بل يحببن فيه الرجل الذى صنعه خيالهن والذى كنَّ يبحثن عنه فى حياتهن بنهم. وبعد ذلك، عندما يدركن خطأهن، كنَّ مع ذلك يحببنه. ولم تكن أى منهن سعيدة معه. وكان الزمن يمضى وهو يتعرف ويصادق ويفارق، ولكنه لم يعرف الحب مرة واحدة. كان ذلك أى شىء سوى أن يكون حبا.

والآن فقط، عندما شاب رأسه، أحب كما ينبغى، حبا حقيقا. لأول مرة فى حياته.

أحبا هو وآنا سرجييفنا بعضهما البعض كشخصين قريبين جدا، كأهل، كزوج وزوجة، كصديقين رقيقين، وبدا لهما أن القدر نفسه قد هيأهما أحدهما للآخر، ولم يكن مفهوما لماذا هو متزوج وهى متزوجة. وكأنما كانا طائرين مهاجرين، ذكرا وأنثى، أمسكوا بهما وأجبروهما على العيش فى قفصين منفردين. لقد غفرا لبعضهما البعض كل ما كانا يخجلان منه فى ماضيهما، وغفرا كل ما فى حاضرهما، وأحسا أن حبهما هذا قد غيرهما كليهما.

وكان فى لحظات الحزن سابقا يطمئن نفسه بشتى الأفكار التى كانت ترد إلى ذهنه، أما الآن فكان فى شاغل عن الأفكار. كان يشعر بشفقة عميقة وبرغبة فى أن يكون صادقا ورقيقا..

وقال لها:

ـ كفى بكاء يا حبيبتى، هذا يكفى.. تعالى نتحدث وسوف نصل إلى حل.

وظلا يتشاوران طويلا ويتحدثان فى كيفية التخلص من التخفى والخداع

والمعيشة فى مدينتين مختلفتين والفراق الطويل، وكيف يتحرران من هذه الأغلال التى لا تطاق.

ـ كيف؟ كيف؟ ـ تساءل وهو يمسك برأسه ـ كيف؟

وبدا له أنه لم يبق إلا قليل ويعثر على الحل، وعندها تبدأ حياة جديدة رائعة. وكان من الواضح لهما معا أن النهاية لا تزال بعيدة بعيدة، وأن أعقد شىء وأصعبه يبدأ لتوه.

العروس

١

كانت الساعة العاشرة مساء، والبدر المكتمل يسطع فوق الحديقة. وفى منزل آل شومين انتهت لتوها صلاة الليل التى أقيمت بطلب من الجدة مارفا ميخايلوفنا، وأصبحت نادية ـ التى خرجت إلى الحديقة لدقيقة ـ ترى كيف يعدون المائدة فى القاعة، وكيف كانت الجدة تروح وتجىء فى فستانها الحريرى المنتفخ. أما الأب أندريه، راعى الكاتدرائية، فكان يتحدث عن شىء ما مع نينا إيفانوفنا والدة نادية، وأصبحت أمها الأن فى ضوء المساء تبدو خلال النافذة لسبب ما شابة جدًا. وبجوارهما وقف أندريه أندريتش ابن الأب أندريه، مصغيًا بانتباه.

كان الجو فى الحديقة هادئًا، باردًا، وامتدت على الأرض ظلال داكنة ساكنة. وتناهى من مكان بعيد، بعيد جدًا، ربما وراء المدينة، نقيق الضفادع. وانتشرت فى الجو رائحة مايو، مايو الحبيب! وتسرب الهواء عميقًا فى الصدر، واستبدت بنادية الرغبة فى التفكير بأنه فى مكان ما غير هذا المكان، تحت السماء، وفوق الأشجار، بعيدًا وراء المدينة، فى الحقول والغابات انطلقت الآن حياة الربيع الخاصة، الغامضة، الرائعة، الخصبة والمقدسة، البعيدة عن إدراك الإنسان الضعيف المذنب. وأرادت أن تبكى لسبب ما.

كانت نادية فى الثالثة والعشرين. ومنذ أن بلغت السادسة عشرة وهى تحلم

بالزواج بشغف، وها هى ذى أخيرًا قد أصبحت عروس أندريه أندريتش، ذلك الذى يقف وراء النافذة. كان يروق لها، وقد تحدد يوم الزفاف فى السابع من يوليو، ومع ذلك لم تشعر بالفرحة، وكانت تنام نومًا سيئًا، وهجرها المرح.. ومن القبو الذى كان المطبخ فيه، تناهى عبر النافذة المفتوحة صوت الحركة المستعجلة ورنين السكاكين وصفق الباب، وانبعثت روائح الديك الرومى المحمر والكرز المخلل. ولسبب ما خيل إليها أن ذلك سوف يظل هكذا طوال الحياة، دون تغيير!

ها هو ذا شخص يخرج من المنزل ويقف على السلاملك. إنه ألكسندر تيموفيتش، أو ببساطة ساشا، الضيف الذى جاء من موسكو منذ عشرة أيام. منذ زمن بعيد كانت تتردد على الجدة طلبا للصدقة إحدى قريباتها من بعيد، وتدعى ماريا بتروفنا. وكانت أرملة من النبلاء المفلسين، صغيرة، نحيلة، مريضة. وكان لديها ابن، هو ساشا. ولسبب ما قيل إنه مصور بارع، ولما ماتت أمه، أرسلته الجدة، زكاة عن نفسها، إلى موسكو، إلى معهد كوميساروفسكويه. وبعد حوالى سنتين انتقل إلى معهد التصوير، وقضى فيه زهاء خمسة عشر عامًا. وتخرج كيفما كان من قسم العمارة، ومع ذلك لم يمارس العمارة، بل عمل فى إحدى ورش التشكيل بموسكو. وكان يأتى كل صيف تقريبًا إلى الجدة، وهو مريض عادة، لكى يستريح ويشفى.

كان يرتدى الآن سترة مزررة وسروالا قديمًا من القماش السميك، مجعدًا فى الأسفل. ولم يكن قميصه مكويًا، وكانت هيأته كلها تبدو ذابلة. كان نحيلاً للغاية، بعينين واسعتين، وأصابع طويلة دقيقة، ولحية، وكان أسمر، جميلاً رغم ذلك. وقد ألف آل شومين كأهله، وكان يحس وسطهم كأنه فى بيته. والغرفة التى كان ينزل فيها هنا كانت تسمى منذ زمن بعيد غرفة ساشا.

ورأى نادية وهو واقف على السلاملك فاتجه نحوها.

وقال:

ـ ما أجمل المكان عندكم هنا.

ـ طبعًا جميل. ابق هنا حتى الخريف.

ـ نعم، يبدو أننى سأفعل، سأبقى لديكم على الأرجح حتى سبتمبر.

وضحك دون سبب وجلس بقربها.

وقالت نادية:

ـ إننى أجلس هنا وأنظر إلى أمى. إنها تبدو من هنا شابة للغاية! ـ وأضافت بعد صمت قصير ـ بالطبع لدى أمى بعض الجوانب الغريبة، ولكنها رغم ذلك امرأة رائعة.

فقال ساشا مؤمنًا:

ـ نعم، طيبة.. إن أمك امرأة طيبة ورقيقة جدًا، بالطبع على طريقتها الخاصة، ولكن.. كيف أوضح لك؟ لقد دخلت مطبخكم اليوم فى الصباح الباكر، فرأيت هناك أربع خادمات ينمن على الأرض مباشرة، وليس هناك أسرة، وبدلاً من الفراش أسمال بالية، وروائح كريهة، وبق وصراصير.. نفس الوضع الذى كان منذ عشرين عامًا، دون أى تغيير. حسنًا، بالنسبة للجدة واضح، ليغفر لها الله، ولكن ماما، أظن أنها تتحدث الفرنسية وتشترك فى العروض المسرحية. من المفروض أن تدرك.

عندما كان ساشا يتكلم، كان يبسط أمام المستمع أصبعين طويلتين نحيفتين.

ومضى يقول:

ـ كل شىء هنا يبدو لى غريبًا غير مألوف. الشيطان يعلم ما هذا. إن أحدًا لا يريد أن يعمل. أمك تقضى النهار فى التنزه وكأنها إحدى الدوقات، والجدة أيضًا لا تفعل شيئًا، وأنت أيضًا. وعريسك أندريه أندريتش أيضًا لا يفعل شيئًا.

سمعت نادية هذا فى العام الماضى أيضًا، ويبدو فى العام الأسبق كذلك، وكانت تعلم أن ساشا لا يمكن أن يفكر بصورة أخرى، وكان ذلك يضحكها فى السابق، لكنها لسبب ما أحست الآن بالأسى.

وقالت وهى تنهض:

ـ كل هذا قديم ومللته من زمان. عليك أن تخترع شيئًا أكثر جدة.

فضحك ونهض هو الآخر، وسارا نحو المنزل. وبدت بطولها وجمالها ورشاقتها بجواره صحيحة جدًا وأنيقة. وأحست هى بذلك فشعرت بالرثاء له وبالحرج لسبب ما.

وقالت له:

ـ ثم إنك تقول كلاما كثيرًا زائدًا. ها قد تحدثت لتوك عن أندريه خطيبى، مع أنك لا تعرفه.

ـ أندريه خطيبى.. دعينا منه أندريه خطيبك! ولكنى أرثى لشبابك.

عندما دخلا القاعة كان الحاضرون قد جلسوا إلى المائدة. وكانت الجدة، البدينة، الدميمة، بحاجبيها الغزيرين وشاربها الدقيق، تتحدث بصوت عال، وبدا من صوتها وطريقة كلامها أنها ربة المنزل. كانت تملك حوانيت فى السوق وبيتًا قديمًا بأعمدة وحديقة، ولكنها كانت تصلى لله كل صباح ليحميها من الإفلاس وتبكى فى أثناء ذلك. وكانت هنا زوجة ابنها نينا أيفانوفنا، والدة نادية، الشقراء المشدودة بالكورسيه بقوة، والتى تضع عوينات وخاتمًا ماسيًا فى كل أصبع، وكان هنا أيضًا الأب أندريه، وهو عجوز نحيف، بلا أسنان، وعلى وجهه تعبير من ينوى أن يروى شيئًا مضحكًا للغاية، وابنه أندريه أندريتش، خطيب نادية، وهو رجل ممتلئ وجميل، بشعر مجعد الخصلات، ويشبه ممثلاً أو مصورًا. وكانوا ثلاثتهم يتحدثون عن التنويم المغنطيسى.

وقالت الجدة مخاطبة ساشا:

ستسترد عافيتك عندى فى أسبوع. فقط كلْ أكثر ـ وتنهدت وقالت ـ انظر ماذا تشبه! لقد أصبحت مرعبًا! يالك من ابن ضال حقًا.

وقال الأب أندريه ببطء والابتسامة تشع من عينيه:

ـ وبعد أن بدد ميراث أبيه، هام الملعون على وجهه مع البهائم..

فقال أندريه أندريتش وهو يضع يده على كتف أبيه:

ـ كم أحب والدى. إنه عجوز رائع. عجوز طيب.

وصمت الجميع. وفجأة ضحك ساشا وغطى فمه بالمنشفة.

وسأل الأب أندريه نينا إيفانوفنا:

ـ إذن فأنت تؤمنين بالتنويم المغنطيسى؟

فأجابت وهى تضفى على وجهها تعبيرًا جادًا للغاية بل وصارمًا:

ـ أنا لا أستطيع أن أؤكد أننى أؤمن، ولكن ينبغى أن أعترف أن هناك الكثير من الأشياء الغامضة وغير المفهومه فى الطبيعة.

ـ أنا متفق معك تمامًا، وإن كنت أجد لزامًا علىَّ أن أضيف بأن الإيمان يضيق لنا إلى حد كبير مجال الأشياء الغامضة.

وحمل الخدم ديكًا روميًا كبيرًا وسمينًا جدًا. وواصلت نينا إيفانوفنا والأب أندريه حوارهما. كانت الخواتم الماسية تلمع فى أصابع نينا إيفانوفنا، ثم لمعت الدموع فى عينيها إذ كانت مضطربة. وقالت:

ـ رغم أنى لا أجرؤ على مجادلتك، ولكن أرجو أن توافقنى على أن الحياة مليئة بالألغاز التى لم تحل!

ـ ولا لغز واحد، أستطيع أن أؤكد لك.

وبعد العشاء عزف أندريه أندريتش على الكمان وصاحبته نينا إيفانوفنا على

المعزف. كان قد تخرج منذ عشر سنوات من كلية الآداب بالجامعة، ولكنه لم يلتحق بالخدمة ولم يكن يزاول عملاً محددًا، وكان نادرًا ما يشارك فى الحفلات الموسيقية للأغراض الخيرية. وسموه فى المدينة بالفنان.

كان أندريه أندريتش يعزف، والجميع يصغون فى صمت. وعلى المائدة كان السماور يغلى بهدوء، ولم يشرب الشاى أحد سوى ساشا. وعندما دقت الساعة الثانية عشرة انقطع فجأة وتر فى الكمان فضحك الجميع، وساد بعض الهرج، ثم أخذوا يودعون.

وبعد أن ودعت نادية خطيبها صعدت إلى غرفتها بالطابق الثانى حيث كانت تعيش مع أمها (كان الطابق الأسفل للجدة). وفى الأسفل أخذوا يطفئون الأنوار فى القاعة بينما ظل ساشا جالسًا يشرب الشاى. كان دائمًا يستغرق وقتًا طويلاً فى شرب الشاى، على الطريقة الموسكوفية، فيشرب حوالى سبعة أكواب فى المرة الواحدة. وظلت نادية تسمع طويلاً، بعد أن خلعت ثيابها وأوت إلى الفراش، أصوات الخدم وهم يجمعون الأوانى، والجدة وهى تصيح غاضبة. ثم هدأ أخيرًا كل شىء، ولم يعد مسموعًا سوى سعال متقطع صادر عن غرفة ساشا فى الأسفل.

٢

يبدو أن الساعة كانت حوالى الثانية عندما استيقظت نادية، فقد بدأ الفجر يلوح. وفى مكان ما دق الحارس منبهًا. لم تكن راغبة فى النوم وكان مرقدها لينًا جدًا، غير مريح. وكما فى كل ليالى مايو السابقة جلست فى السرير وراحت تفكر. وكانت أفكارها هى نفس أفكار الليلة السابقة، أفكارًا رتيبة، لا ضرورة لها، أفكارًا ملحة حول أندريه أندريتش وكيف أخذ يتودد إليها وعرض عليها الزواج فقبلت، ثم استطاعت شيئًا فشيئًا أن تقدر هذا الشخص الطيب الذكى.

لكنها لا تعرف لماذا أصبحت الآن، ولم يبق على العرس أكثر من شهر، تحس بالخوف والقلق، كأنما ينتظرها شيء غير واضح وصعب.

ودق الحارس بكسل: «تك.. تك، تك.. تك..»

عبر النافذة الكبيرة القديمة تراءى البستان، ومن بعده خمائل البنفسج المزهرة الكثيفة، الناعسة والذابلة من البرد.

ويقترب الضباب الأبيض الكثيف من البنفسج ببطء ويريد أن يغطيه. وعلى الأشجار البعيدة تصيح الغربان الناعسة.

ـ يا إلهى، لماذا أشعر بهذا الضيق!

ربما هذا هو ما تحسه كل فتاة قبيل العرس، من يدرى! أم إن هذا من تأثير ساشا؟ ولكن ساشا يقول نفس الكلام منذ عدة سنوات متتالية، وكأنه يقرأ من كتاب، وعندما يتكلم يبدو ساذجًا وغريبًا. ولكن لماذا لا يخرج ساشا من رأسى؟ لماذا؟

كف الحارس منذ وقت طويل عن الدق، وصاحت الطيور تحت النافذة فى البستان، وانقشع الضباب عن البستان وشع كل شىء بنور ربيعى وكأنه يبتسم، وسرعان ما استيقظ البستان كله وقد أدفأته الشمس وداعبته، ولمعت قطرات الندى كالماسات على الأوراق. وفى هذا الصباح بدا البستان العجوز، المهمل منذ أمد بعيد، فتيًا وأنيقًا.

واستيقظت الجدة. وسعل ساشا بصوت غليظ أجش.

وتناهت من أسفل أصوات الخدم وهم يضعون السماور ويزحزحون المقاعد.

الساعات تمضى ببطء. لقد استيقظت نادية منذ زمن طويل، وتنزهت فى البستان منذ زمن طويل، ومع ذلك لا يزال الصباح ممتدًا.

وها هى ذى نينا إيفانوفنا، دامعة العينين، تمسك بكوب مياه معدنية. لقد

كانت تمارس تحضير الأرواح، والعلاج بالأعشاب، وتقرأ كثيرًا، وتهوى الحديث عن الشكوك التى تنتابها، وبدا كل ذلك لنادية مشتملاً على مغزى غامض عميق. وها هى ذى نادية تقبل أمها وتمضى إلى جوارها.

وسألتها:

ـ ما الذى أبكاك يا ماما؟

ـ ليلة أمس أخذت أقرأ رواية تتحدث عن رجل عجوز وابنته. والعجوز يعمل فى مكان ما، لا أذكر، وأحب رئيسه ابنة العجوز. لم أكمل الرواية، ولكن فيها موضعًا لم أستطع أن أمنع فيه دموعى ـ قالت نينا إيفانوفنا وجرعت من الكوب جرعة ـ لقد تذكرت ذلك الموضع اليوم فبكيت أيضًا.

وقالت نادية بعد صمت:

ـ أما أنا فأشعر بالتعاسة فى هذه الأيام. لماذا لا أنام الليل؟

ـ لست أدرى يا عزيزتى. أما أنا فعندما يجافينى النوم، أغمض عينى بقوة، هكذا، وأتخيل آنا كارنينا[1] ، وكيف تسير وتتحدث، أو أتخيل شيئًا تاريخيًا من العالم القديم..

وأحست نادية أن أمها لا تفهمها ولا تستطيع أن تفهمها. أحست بذلك لأول مرة فى حياتها، حتى لقد أصابها الجزع، وراودتها رغبة فى الاختفاء، فصعدت إلى غرفتها.

وفى الثانية جلسوا إلى مائدة الغداء. كان اليوم أربعاء، يوم صيام، ولذلك قدموا للجدة حساء «البورش» بدون سمن، وسمكة الإبريس بالعصيدة.

ولكى يثير الجدة أكل ساشا حساءه الدسم وحساء «البورش» بدون السمن. وكان يمزح طوال فترة الغداء، ولكن نكاته كانت ثقيلة، ودائمًا ذات موعظة

---

(١) بطلة رواية ليف تولستوى التى تحمل الرواية اسمها. (المعرب).

خلقية فلم تثر الضحك أبدًا عندما كان يرفع أصابعه الطويلة جدًا، النحيلة وكأنها ميتة، قبل أن يمزح. وعندما يطوف بالذهن أنه مريض وربما لن يعمر كثيرًا فى هذه الدنيا، يزداد الرثاء له إلى درجة البكاء.

وانصرفت الجدة بعد الغداء إلى غرفتها لتستريح. وعزفت نينا إيفانوفنا قليلاً على المعزف ثم انصرفت هى الأخرى.

وبدأ ساشا حديثه المعهود بعد الغداء:

ـ آه يا نادية العزيزة لو سمعت كلامى! لو!

كانت غائصة فى مقعد عتيق، وقد أغمضت عينيها، بينما كان هو يجوس فى الغرفة ذهابًا وإيابًا، ويقول:

ـ لو أنك رحلت للدراسة! الأشخاص المتنورون والقديسون هم وحدهم الشيقون، هم وحدهم الضروريون، فكلما ازداد أمثال هؤلاء، اقترب موعد قيـام ملكوت الله فى الأرض. وعندئذ لا يبقى من مدينتكم بالتدريج حجر واحد.. كل شىء سينقلب رأسًا على عقب، كل شىء سيتغير وكأنما مسه سحر. وستكون هنا عندئذ بيوت ضخمة عظيمة، وبساتين ساحرة، ونافورات مدهشة، وأناس رائعون.. ولكن ليس هذا هو المهم. المهم أن الغوغاء، كما نفهمهم نحن الآن، هذا الشر لن يعود موجودًا، لأن كل إنسان سيكون مؤمنًا وسيعرف لماذا يعيش، ولن يبحث أحد عن ركيزة فى الغوغاء. يا عزيزتى، سافرى! أظهرى للجميع أن هذه الحياة الراكدة الرمادية الآثمة قد أضجرتك. أظهرى هذا ولو لنفسك!

ـ لا يصح يا ساشا، إننى سأتزوج.

ـ أوه، كفاك! من بحاجة إلى ذلك؟

وخرجا إلى البستان وتمشيا قليلا.

ومضى ساشا يقول:

ـ أيا كان الأمر يا عزيزتى ينبغى عليك أن تفكرى، أن تدركى كم هى ملوثة ولا أخلاقية حياتكم الفارغة هذه. ألا تفهمين أنه مثلاً، إذا كنت أنت وأمك وجدتك لا تفعلن شيئًا، فهذا يعنى أن أحدًا ما يعمل بدلاً منكن، وإذن فأنتن تلتهمن حياة الأخرين، فهل هذا من الشرف، أليست وضاعة؟

أرادت نادية أن تقول: «نعم، هذا صحيح»، وأرادت أن تقول إنها تدرك ذلك، ولكن الدموع ترقرقت فى عينيها فسكنت فجأة وانكمشت وتقوقعت وذهبت إلى غرفتها.

قبيل المساء جاء أندريه أندرييتش، وكالعادة عزف طويلاً على الكمان. وعمومًا فقد كان قليل الكلام ويحب الكمان، ربما لأنه من الممكن أن يصمت أثناء العزف.

وفى الحادية عشرة، وهو خارج بعد أن ارتدى المعطف، ضم نادية إليه وراح يقبل وجهها وكتفيها وذراعيها بنهم، وهو يدمدم:

ـ يا عزيزتى، يا رائعتى.. أوه كم أنا سعيد، إننى أجن إعجابًا!

وخيل إليها أنها سمعت ذلك منذ أمد بعيد، بعيد جدًا، أو قرأته فى كتاب ما.. فى رواية قديمة، ممزقة، مهجورة من زمان.

فى القاعة كان ساشا جالسًا إلى المائدة يشرب الشاى وقد وضع طبق الفنجان على أصابعه الخمس الطويلة. وكانت الجدة تفرش أوراق اللعب، ونينا إيفانوفنا تقرأ. وطقطق اللهب فى قنديل الأيقونة، وبدا أن الهدوء والتوفيق يلفان كل شىء. وودعتهم نادية وصعدت إلى أعلى ورقدت وسرعان ما نامت. ولكن كما فى الليلة السابقة، استيقظت ما إن انبلج الضوء. جفاها النوم، وأحست بالقلق والضيق. وجلست واضعة رأسها على ركبتيها وأخذت تفكر فى خطيبها وفى الزفاف.. ولسبب ما تذكرت أن أمها لم تكن تحب المرحوم زوجها، ولم يعد لديها الآن شىء، وتعيش فى تبعية كاملة لحماتها، للجدة. ولم تستطع

نادية بأى حال أن تفهم لماذا كانت ترى فى أمها حتى هذه اللحظة شيئًا خاصًا، غير عادى، ولماذا لم تلحظ أنها امرأة عادية، بسيطة، تعيسة.

ولم يكن ساشا أيضًا نائمًا فى الأسفل، فقد تناهى سعاله من هناك. وفكرت نادية بأنه شخص غريب ساذج. وفى جميع أحلامه، فى جميع بساتينه الساحرة ونافوراته المدهشة تحس بشىء أخرق. ولكن لِمَ يبدو فى سذاجته وحتى فى هذا الخرق قدر كبير من الروعة، لدرجة أنها ما إن فكرت فى الرحيل للدراسة مجرد تفكير حتى غاص قلبها وامتلأ بالفرحة والإعجاب؟

وهمست لنفسها:

ـ ولكن من الأفضل ألا أفكر.. من الأفضل ألا أفكر. لا يجب أن أفكر فى هذا.

وفى مكان بعيد دق الحارس: «توك.. توك.. توك.. توك.. توك.. توك..»

٣

فى منتصف يونيو أحس ساشا بالوحشة فجأة ومضى يستعد للرحيل. وقال عابسًا:

ـ لا أستطيع أن أعيش فى هذه المدينة، لا مياه شرب ولا مجارى! إننى أتقزز من تناول الغداء، والمطبخ قذر بصورة لا تطاق..

وقالت الجدة تقنعه بصوت هامس لسبب ما:

ـ انتظر أيها الابن الضال! العرس فى السابع من يوليو!

ـ لا أريد.

ـ كنت تريد أن تبقى عندنا حتى سبتمبر!

ـ لكنى الآن لا أريد. ينبغى أن أعمل!

كان الصيف رطبا باردا، والأشجار مبللة، وبدا كل شيء فى البستان متجهما مهموما، وبالفعل كان هناك تشوق للعمل. وفى غرف الطابقين الأعلى والأسفل ترددت أصوات نسائية غريبة، وطقطقت ماكينة الخياطة لدى الجدة: كانوا يعجلون بإعداد جهاز العروس. خصصوا لنادية من معاطف الفراء وحدها ستة، وأرخصها، حسب كلام الجدة، يساوى ثلاثمائة روبل! وأثار الهرج والمرج ساشا، فجلس فى غرفته محنقا. ومع ذلك أقنعوه بالبقاء ووعد بألا يسافر قبل أول يوليو.

مضى الوقت بسرعة. وفى عيد القديس بيوتر تمشى أندريه أندرييتش مع نادية بعد الغداء فى شارع موسكوفسكايا، لكى يتفقدا مرة أخرى المنزل الذى استأجروه وجهزوه منذ فترة طويلة لاستقبال العريسين. كان منزلا من طابقين، ولكن لم يكن مجهزًا بعد سوى الطابق الثانى. وكانت أرضية القاعة مطلية بلون يشبه الباركيه وبها كراسى خيزران، ومعزف، وحامل نوتات للكمان. وفاحت رائحة الطلاء، وعلقت على الجدار لوحة كبيرة مؤطرة مرسومة بالألوان عارية بجوارها مزهرية ليلكية بمقبض مكسور.

وقال أندريه أندرييتش وهو يتنهد احتراما:

ـ لوحة رائعة، من رسم المصور شيشماتشيفسكى.

وبعد القاعة كانت غرفة جلوس بطاولة وكنبة ومقاعد مكسوة بقماش أزرق فاقع. وفوق الكنبة صورة فوتوغرافية كبيرة لوالد أندريه فى قلنسوة فخرية وأوسمة. ثم دلفا إلى غرفة الطعام ذات البوفيه، ثم إلى غرفة النوم. كانت شبه مظلمة، تضم سريرين متجاورين، وبدا أنهم عندما فرشوا هذه الغرفة وضعوا فى اعتبارهم أن الحال سيكون هنا ممتازا دائما، ولا يمكن أن يكون على غير هذه الصورة. وطاف أندريه أندرييتش بنادية على الغرف وهو ممسك بخصرها طوال الوقت. أما هى فقد أحست بنفسها ضعيفة، مذنبة، وامتلأت كراهية لهذه

الغرف والأسرة والمقاعد، وأحست بالغثيان من منظر المرأة العارية. لقد أصبح من الواضح لها أنها لم تعد تحب أندريه أندرييتش، أو ربما لم تحبه أبدا. ولكن كيف تقول ذلك، ولمن تقوله، ولأى غرض، لم تكن تفهم ولا تستطيع أن تفهم، رغم أنها كانت تفكر فى ذلك طوال الأيام والليـالى.. كان ممسكا بخصرها ويتحدث برقة وتواضع، وكان سعيدا جدا وهو يجول فى شقته هذه. أما هى فلم تر فى كل هذا سوى الابتذال، الابتذال الأحمق الساذج غير المحتمل، وبدت لها ذراعه التى تطوق خصرها قاسية باردة كالطوق، وكانت على استعداد فى كل لحظة لأن تولى هاربة، أو تنتحب وتلقى بنفسها من النافذة. وقادها أندريه أندرييتش إلى الحمام ولمس صنبورا مركبا فى الحائط فسالت المياه فجأة.

فقال وهو يضحك:

ـ ماذا تقولين؟ لقد أمرت بصنع خزان فى السقف سعته مائة دلو، وسيصبح لدينا الآن مياه فى المنزل.

وسارا فى الفناء ثم خرجا إلى الشارع فاستقلا عربة. كان الغبار يثور سحابات كثيفة، وبدا أن المطر على وشك السقوط.

وسألها أندريه أندرييتش وهو يزر عينيه من الغبار:

ـ هل تشعرين بالبرد؟

فلزمت الصمت.

وقال هو بعد فترة صمت:

ـ أتذكرين بالأمس عندما لامنى ساشا لأنى لا أفعل شيئا. حسنا، إنه على حق! على حق مائة فى المائة! أنا لا أفعل شيئا ولا أستطيع أن أفعل. ما السبب فى ذلك يا عزيزتى؟ لماذا أشعر بالقرف من مجرد فكرة أن أضع عمرة على رأسى فى وقت ما وألتحق بوظيفة؟ لماذا أشعر بالضيق عندما أرى محاميا، أو مدرس اللغة اللاتينية أو عضو مجلس المدينة؟ أوه أمنا روسيا! يا أمنا روسيا،

كم ما زلت تحملين على ظهرك من أناس فارغين لا فائدة منهم! كم فيك من أشخاص مثلى أيتها المعذبة!

وجعل من عدم قيامه بشىء وضعا عاما ورأى فيه دلالة العصر. واستطرد يقول:

ـ عندما نتزوج سنذهب معا إلى القرية يا عزيزتى ونعمل هناك! سنشترى قطعة أرض صغيرة ببستان ونهر، وسوف نكدح ونتأمل الحياة... أوه ما أطيب ذلك!

ونزع قبعته فتطاير شعره فى الريح، أما هى فكانت تصغى إليه وتفكر: «يا إلهى، أريد أن أعود إلى المنزل، يا إلهى!». وقرب المنزل لحقا بالأب أندريه.

فقال أندريه أندرييتش سعيدا وهو يلوح بقبعته:

ـ ها هو ذا أبى هناك! كم أحب والدى حقا ـ قال وهو يحاسب الحوذى ـ عجوز رائع، عجوز طيب.

دخلت نادية المنزل غاضبة، مريضة، وهى تفكر بأن المساء كله سيكون مشغولا بالضيوف، وأن عليها أن تسليهم، وتبتسم، وتصغى إلى الكمان وتسمع أى هراء، ولا تتحدث إلا عن الزفاف. وكانت الجدة جالسة بجوار السماور، وتبدو هامة، منتفخة فى فستانها الحريرى، ومتعالية كما كانت تتظاهر دائما فى حضرة الضيوف. ودخل الأب أندريه بابتسامته الماكرة.

وقال للجدة محييا:

ـ يسعدنى ويطيب لى أن أراك فى كامل عافيتك.

وكان من الصعب أن تفهم هل يمزح أم يقول جدا.

٤

قرعت الريح النوافذ والسقف وتردد صفير، وغنى عفريت البيت فى مدخنة المدفأة أغنيته باسترحام وجهامة. كانت الساعة الأولى بعد منتصف الليل. وأوى الجميع فى المنزل إلى أسرتهم ولكن أحد لم ينم، وتراءى لنادية أن الكمان لا يزال يعزف فى الأسفل. وسمعت طرقة حادة، لا بد أن مصراع الشيش قد انكسر. وبعد دقيقة دخلت نينا إيفانوفنا فى قميص النوم وبيدها شمعة. وسألت:

ـ ما هذا الذى طرق يا نادية؟

وبدت أمها فى هذه الليلة العاصفة، بشعرها المجدول ضفيرة واحدة، وبابتسامتها الوجلة، أكبر سنا وأكثر دمامة وأقصر قامة. وتذكرت نادية كيف كانت تعد أمها منذ فترة قريبة امرأة غير عادية وكانت تصغى بفخر إلى ما تقوله من كلمات. أما الآن فلم تستطع أبدا أن تتذكر تلك الكلمات، وكل ما خطر ببالها كان باهتا، لا لزوم له.

وتردد فى المدفأة غناء عدة أصوات غليظة، بل سمعت حتى كلمة: «آه، يا إلهى!» وجلست نادية فى الفراش وفجأة شدت شعرها بقوة وانفجرت بالنحيب.

ودمدمت:

ـ ماما، ماما، يا حبيبتى، لو تعلمين ما أعانى! أرجوك، أتوسل إليك، دعينى أسافر! أتوسل إليك!

فسألت نينا إيفانوفنا دون أن تفهم:

ـ إلى أين؟ إلى أين تسافرين؟

وجلست فى الفراش.

وبكت نادية طويلاً دون أن تستطيع أن تنطق بكلمة وأخيرا قالت:

ـ دعينى أرحل من المدينة! لا ينبغى أن يتم الزفاف، ولن يتم؟.. افهينى، أنا لا أحب هذا الشخص.. ولا أستطيع أن أتحدث عنه.

فقالت نينا إيفانوفنا بسرعة وقد خافت بشدة:

ـ كلا، يا حبيبتى، كلا.. اهدئى، هذا بسبب المزاج المعتل. سيزول. هذا يحدث أحيانا. ربما اختلفت مع أندريه، ولكن شجار المحبين لهو.

فقالت نادية منتحبة:

ـ حسنا، اذهبى يا ماما، اذهبى!

وصمتت نينا إيفانوفنا ثم قالت:

ـ نعم، منذ فترة قريبة كانت طفلة، صبية، والآن أصبحت عروسا. فى الطبيعة يحدث دائما تمثيل غذائى. ولن تلاحظى إلا وقد أصبحت أما وعجوزا، وستكون لديك ابنة متمردة مثلما لدىَّ.

فقالت نادية:

ـ يا حبيبتى الطيبة، إنك ذكية، إنك تعيسة، أنت تعيسة جدا، فلماذا تقولين أشياء وضيعة؟ لماذا، أستحلفك بالله؟

وأرادت نينا إيفانوفنا أن تقول شيئا، ولكنها لم تستطع أن تنبس بكلمة فأجهشت وانصرفت. وعادت الأصوات الغليظة تئز فى المدفأة، وشعرت نادية بالخوف فجأة، فقفزت من السرير وأسرعت إلى أمها. كانت نينا إيفانوفنا راقدة فى الفراش، دامعة العينين، مغطاة ببطانية زرقاء وممسكة فى يديها بكتاب.

وقالت نادية:

ـ أصغي إليّ يا ماما! أتوسل إليك أن تتمعني وتفهمي! انظري كم هي ضحلة ومهينة حياتنا. لقد فتحت عيني وأرى الآن كل شيء. وما هو أندريه أندرييتش هذا؟ إنه غير ذكي يا ماما! يا إلهي، يا ربي! افهمي يا ماما، إنه غبي!

فجلست نينا إيفانوفنا بحدة، وقالت وهي تجهش:

ـ أنت وجدتك تعذبانني! أنا أريد أن أعيش! أن أعيش! ـ رددت وضربت على صدرها بقبضتها مرتين ـ أعطوني حريتي! أنا ما زلت شابة، وأريد أن أعيش! أما أنتم فجعلتم مني عجوزا!..

وبكت بحرقة ورقدت وتكورت تحت البطانية، فبدت جد صغيرة وبائسة وغبية. ومضت نادية إلى غرفتها فارتدت ملابسها وجلست إلى النافذة تنتظر الصباح. ظلت طول الليل جالسة تفكر بينما كان أحد ما يطرق الشيش طوال الوقت ويصفر.

وفي الصباح اشتكت الجدة من أن الريح في الليل أسقطت كل التفاح في البستان وكسرت شجرة برقوق عجوز. وكان الجو رماديا، كابيا، مقبضا يتطلب إشعال الضوء. واشتكى الجميع من البرد، وقرع المطر النوافذ وبعد تناول الشاي مضت نادية إلى ساشا، ودون أن تتفوه بكلمة ركعت على ركبتيها في الركن بجوار المقعد وغطت وجهها بيديها.

فسألها ساشا:

ـ ماذا حدث؟

فدمدمت:

ـ لا أستطيع.. كيف احتملت العيشة هنا مِن قبل، لا أفهم، لا أتصور! إنني أحتقر خطيبي، أحتقر نفسي، أحتقر كل هذه الحياة الفارغة، العديمة المعنى..

فدمدم ساشا وهو لا يفهم بعد ماذا حدث:

ـ حسنا، حسنا، لا بأس، هذا حسن.

فمضت نادية تقول:

ـ مللت هذه الحياة. لن أتحمل هنا يوما واحدا. سأسافر غدا. خذنى معك، أستحلفك بالله!

ظل ساشا يحدق فيها بدهشة حوالى دقيقة، وأخيرا فهم ففرح كطفل. ولوح بذراعيه وبدأ يدق بحذائه وكأنه يرقص من الفرحة.

وقال وهو يفرك يديه:

ـ هذا رائع، يا إلهى ما أروع ذلك!

أما هى فحدقت فيه كالمسحورة، دون أن تطرف، بعينين واسعتين عاشقتين متوقعة أن يقول لها الآن شيئا ذا قيمة، لا حدود لأهميته. ولم يكن قد قال شيئا بعد لكنه خيل إليها أن شيئا ما جديدا عريضا لم تعرفه من قبل يتكشف أمامها، فراحت تنظر إلى ساشا وكلها انتظار، ومستعدة لكل شىء حتى ولو للموت.

وقال بعد لحظة تفكير:

ـ غدا سأسافر، ولتذهبى إلى المحطة لوداعى.. سآخذ أمتعتك فى حقيبتى وأشترى لك تذكرة. وعندما يدق الجرس الثالث ادخلى العربة، ونرحل معا. ستوصليننى إلى موسكو ثم تواصلين سفرك إلى بطرسبرج. هل لديك بطاقة شخصية؟

ـ نعم.

وقال ساشا بحماس:

ـ أقسم لك إنك لن تندمى ولن تأسفى. وستسافرين وتلتحقين بالدراسة،

وليتولك القدر. عندما تقلبين حياتك ستغير كل شيء. المهم أن تقلبي الحياة، وكل ما عدا ذلك غير مهم. حسنا، إذن سنسافر غدًا؟

ـ نعم. أستحلفك بالله!

وخيل لنادية أنها مضطربة جدًا، وأن قلبها منقبض كما لم ينقبض من قبل، وأن عليها من الآن وحتى الرحيل أن تعاني وتفكر بعذاب. ولكن ما إن صعدت إلى غرفتها وتمددت على السرير حتى غابت في سبات عميق حتى المساء، بوجه باك عليه ابتسامة.

٥

أرسلوا يستدعون عربة. وكانت نادية قد ارتدت المعطف والقبعة، وصعـدت إلى أعلى لتلقي نظرة أخرى على أمها وعلى كل ما لها. ووقفت في غرفتها بجوار الفراش الذي كان لا يزال دافئا، ونظرت حولها، ثم ذهبت بهدوء إلى غرفة أمها. كانت نينا إيفانوفنا نائمة، وساد الهدوء الغرفة. وقبلت نادية أمها وسوت لها شعرها، وقفت حـوالي دقيقتيـن.. ثم عادت إلى أسفل على مهل.

كان المطر شديدا في الخارج. ووقف الحوذي بعربته المغطاة بجوار الباب وملابسه كلها مبللة.

وقالت الجدة عندما بدأ الخدم يرتبون الحقائب في العربة:

ـ لن تتسع لكما يا نادية. ما حاجتك إلى التوديع في هذا الجو! هلا بقيت في البيت. يا للمطر!

وأرادت نادية أن تقول شيئا ولكنها لم تستطع. وها هو ذا ساشا يجلس نادية ويغطي ساقيها بمئزرة. وها هو ذا نفسه يجلس بجوارها.

وصاحت الجدة من السلاملك:

ـ طريق السلامة! فى رعاية الله! اكتب لنا يا ساشا من موسكو!

ـ حسنا، الوداع يا جدتى!

ـ فلترعك السماوات!

ودمدم ساشا:

ـ ياله من جو!

الآن فقط بكت نادية. أصبح واضحا لها الآن أنها راحلة حتما، الأمر الذى لم تكن واثقة منه عندما ودعت الجدة وعندما كانت تتطلع إلى أمها. وداعا يا مدينة! وفجأة تذكرت كل شىء: أندريه، وأباه، والشقة الجديدة، والمرأة العادية مع المزهرية، ولم تشعر بالخوف من كل ذلك ولم تحس له وطأة، وبدا ساذجا وتافها وتراجع إلى الوراء، إلى الوراء. وعندما استقلا العربة وتحرك القطار، انكمش كل هذا الماضى الكبير والخطير قبضة صغيرة، وتكشف مستقبل ضخم عريض لم يكن واضحا قبل الآن، وقرع المطر زجاج العربة، ولم يظهر سوى حقل أخضر، ومرقت أعمدة البرق والطيور الجالسة على أسلاكها، وفجأة بهرتها السعادة، وتذكرت أنها ذاهبة إلى الحرية، ولتتعلم، وهو نفس الأمر الذى كان يسمى فى الماضى البعيد الذهاب إلى القوزاق. لقد كانت تضحك وتبكى وتصلى.

وكان ساشا يردد مبتسما:

ـ لا بأس، لا بأس!

٦

مر الخريف، ومر من بعده الشتاء. وأصبحت نادية تعانى وحشة شديدة وتتذكر كل يوم أمها وجدتها وتفكر فى ساشا. وكانت تتلقى من المنزل رسائل هادئة، طيبة، وبدا أن كل شيء قد غُفر ونُسى. وبعد الامتحانات، فى شهر مايو سافرت إلى البيت وهى ممتلئة صحة ومرحًا، وتوقفت أثناء الطريق فى موسكو لترى ساشا. وجدته مثلما كان فى الصيف الماضى: بلحية، منفوش الشعر، وفى نفس السترة والسروال الخشن، وبنفس العينين الواسعتين الرائعتين. ولكنه بدا مريضا، مرهقا، وهرم وهزل ولم يفارقه السعال. ولسبب ما بدا لنادية رماديا، ريفيا.

وقال وهو يضحك بمرح:

ـ يا إلهى، نادية جاءت! يا عزيزتى الوديعة!

وجلسا فى الورشة التى كانت معبأة بالدخان وفاحت فيها إلى درجة خانقة رائحة الجواش والأصباغ. ثم توجها إلى غرفته، وكانت معبأة بالدخان وأرضيتها مغطاة بالبصاق. وبجوار السماور البارد على الطاولة كان طبق مكسور وورقة سوداء، وكان على الطاولة وعلى الأرض عدد كبير من الذباب الميت. وبدا واضحا من كل شيء أن حياة ساشا الخاصة قد رتبت بإهمال، وكيفما اتفق، باحتقار تام للوازم الراحة، ولو أن أحدا تحدث معه عن سعادته الخاصة وحياته الخاصة وعن الحب الذى يكنه له لما فقه شيئا ولضحك.

وحدثته نادية بعجلة:

ـ لا بأس، كل شيء سار على ما يرام. زارتنى ماما فى بطرسبرج فى الخريف، وقالت إن جدتى غير غاضبة وإن كانت تتردد على غرفتى كثيرًا وترسم علامة الصليب على الجدران.

وكان ساشا مرحًا، ولكنه كان يسعل ويتحدث بصوت مشروخ، وحدقت فيه نادية وهى لا تفهم أهو مريض مرضًا خطيرًا بالفعل أم أن ذلك يخيل إليها.

وقالت:

ـ ساشا، يا عزيزى، ولكنك مريض!

ـ كلا، لا بأس. إننى مريض ولكن ليس بشدة..

فاضطربت نادية وقالت:

ـ آه، يا إلهى، لماذا لا تتعالج، لماذا لا تحافظ على صحتك؟ ساشا يا عزيزى الغالى ـ قالت وطفرت الدموع من عينيها ـ ولسبب ما تجلى فى خيالها إندريه إندريتش، والمرأة العارية والمزهرية، وكل ماضيها، الذى بدا لها الآن جد بعيد كالطفولة. وبكت لأن ساشا لم يعد يبدو لها جديدًا، مثقفًا، وممتعًا كما كان فى العام الماضى ـ ساشا يا عزيزى، أنت مريض جدًا جدًا. لا أدرى ما الذى أستطيع أن أفعله لكى لا تكون شاحبًا ونحيلاً هكذا. كم أنا مدينة لك! أنت لا تستطيع حتى أن تتصور مدى ما فعلت من أجلى يا ساشا الغالى! أنت بالنسبة لى فى الواقع أقرب وأعز إنسان.

جلسا وتحدثا. وأحست نادية الآن، بعد أن قضت الشتاء فى بطرسبرج، أنه قد انبعثت من ساشا، ومن كلماته، ومن ابتسامته، ومن هيئته كلها روائح شىء عتيق، مضى وانتهى، بل ربما طواه القبر.

وقال ساشا:

ـ سأسافر بعد غد إلى الفولجا، ثم إلى المراعى طلبًا للبن الخيول. أريد أن أشرب لبن الخيول. وسيسافر معى أحد الأصدقاء مع زوجته. إنها إنسان رائع. ألح عليها لكى تدرس. أريدها أن تقلب حياتها.

وبعد أن تحادثا ذهبا إلى المحطة، وضيفها ساشا شايا وتفاحا. وعندما

تحرك القطار ولوح لها ساشا بالمنديل وهو يبتسم، بدا حتى من ساقيه أنه مريض جدًا، ولن يعيش طويلاً على الأرجح.

وصلت نادية إلى مدينتها فى منتصف النهار، وعندما توجهت من المحطة إلى البيت بدت لها الشوارع عريضة جدًا والبيوت صغيرة مسطحة. لم يكن هناك بشر فلم تقابل سوى ضابط المعازف الألمانى فى معطف أصفر. وكأنما كانت البيوت كلها مغطاة بالغبار. أما الجدة، التى هرمت تمامًا، وإن بقيت ممتلئة ودميمة كما كانت، فقد أحاطت نادية بذراعيها وبكت طويلاً ملصقة وجهها بكتف نادية وهى لا تستطيع أن تنتزعه. وشاخت نينا إيفانوفنا بشدة هى الأخرى وازدادت قبحًا، وضمرت كلها، وإن ظلت كما كانت مشدودة بالكورسيه ولمعت الماسات على أصابعها.

وقالت وجسدها كله يرتعش:

ـ يا حبيبتى، يا حبيبتى!

ثم جلسن وبكين فى صمت. وكان واضحا أن الجدة والأم أحستا أن الماضى ضاع إلى الأبد وبلا رجعة: لم يعد ثمة مكانة فى المجتمع ولا الشرف السابق، ولا الحق فى دعوة الناس إليهم. هكذا الحال عندما يحدث وسط الحياة السهلة الخالية من الهموم أن تأتى الشرطة ليلا فجأة فتجرى تفتيشا، ويتضح أن رب الدار بدد أموالا أو زور أوراقا، وعندئذ فوداعًا إلى الأبد أيتها الحياة السهلة، الخالية من الهموم!

وصعدت نادية إلى أعلى فرأت نفس الفراش، ونفس النوافذ بستائرها البيضاء الساذجة، ورأت من النافذة نفس البستان الغارق فى الشمس، المرح، الصاخب. ولمست طاولتها، وجلست، وفكرت قليلا. وتغذت جيدا، وشربت الشاى بلبن دسم لذيذ، ولكنها أحست بشىء ناقص، أحست بخواء فى الغرف، وكانت الأسقف منخفضة. وفى المساء أوت إلى الفراش، ولسبب ما أحست أنه من المضحك النوم فى هذا الفراش الدافئ الناعم جدا.

وجاءت نينا إيفانوفنا للحظة، وجلست كما يجلس المذنبون، بوجل وحذر. وسألت بعد صمت:

ـ حسنا يا نادية، كيف الحال؟ هل أنت راضية؟ راضية جدا؟

ـ راضية يا ماما.

ونهضت نينا إيفانوفنا ورسمت علامة الصليب على نادية وعلى النوافذ. وقالت:

ـ أما أنا فقد أصبحت متدينة كما ترين. أتعلمين، أننى أدرس الفلسفة الآن وأفكر كثيرا... واتضحت لى الآن أشياء كثيرة كالنهار. قبل كل شىء ينبغى أن تمضى الحياة كلها مثلما من خلال بؤرة العدسة.

ـ خبرينى يا ماما، كيف صحة جدتى؟

ـ لا بأس فيما يبدو. عندما سافرت مع ساشا وتسلمنا منك برقية وقرأتها الجدة سقطت على الفور. ورقدت ثلاثة أيام بلا حراك. وبعد ذلك ظلت. تصلى وتبكى.. أما الآن فلا بأس.

ونهضت وسارت فى الغرفة.

ودق الحارس: «توك.. توك.. توك.. توك،.. توك.. توك..».

وقالت:

ـ قبل كل شىء ينبغى أن تمضى الحياة كلها مثلما من خلال بؤرة العدسة، أى بعبارة أخرى، ينبغى أن تنقسم الحياة فى وعينا إلى عناصرها الأولية، مثل الألوان السبعة الأساسية، وينبغى دراسة كل عنصر على حدة.

لم تسمع نادية ما قالته أمها بعد ذلك ولم تعرف متى انصرفت، لأنها سرعان ما نامت.

ومضى مايو وحل يونيو. وألفت نادية البيت. وكانت الجدة تعنى بالسماور

وتتنهد بعمق، وتتحدث نينا إيفانوفنا فى ساعات المساء عن فلسفتها. وكانت تعيش فى البيت، كما فى السابق، عالة، ومضطرة إلى سؤال الجدة فى كل مليم تريده. وكان فى المنزل ذباب كثير، وبدا كأن الأسقف فى الغرف أصبحت أكثر انخفاضا. ولم تكن الجدة ونينا إيفانوفنا تخرجان إلى الشارع خشية أن تلتقيا بالأب أندريه أو أندريه أندرييتش. أما نادية فكانت تتجول فى البستان وتسير فى الشارع وتتطلع إلى البيوت والاسوار الرمادية، وخيل إليها أن كل ما فى المدينة قد شاخ منذ زمن بعيد وانتهى، وأن كل شىء ينتظر إما النهاية، وإما بداية شىء ما فتى وطازج. أوه لو تأتى سريعا هذه الحياة الجديدة الصافية، عندما يصبح بالإمكان أن تحدق فى عينى قدرك مباشرة وبجرأة، وتحس بنفسك على حق، وتصبح مرحا وحرًا! نعم، سوف تأتى هذه الحياة عاجلا أم آجلا! سيأتى وقت لن يبقى فيه أثر لبيت الجدة، الذى تمضى فيه الأمور بحيث لا تستطيع أربع خادمات أن تعيش إلا فى غرفة واحدة، فى القبو، فى القذارة. سيأتى الوقت الذى لن يبقى فيه لهذا البيت من أثر، وسينسونه ولن يذكره أحد. ولم يسلّ نادية إلا صبيان المنزل المجاور، فعندما تتنزه فى البستان، كانوا يدقون على السور ويغيظونها ضاحكين وهم يصيحون:

ـ العروس! العروس!

وجاءت رسالة من ساشا من مدينة سراتوف. كتب بخطة المرح الراقص أن رحلته إلى الفولجا نجحت تماما، ولكنه مرض قليلا فى سراتوف وفقد صوته، ويرقد فى المستشفى منذ أسبوعين. وأدركت نادية ما معنى ذلك. وتملكها هاجس يشبه اليقين. وكرهت من نفسها أنهالم تقلق كما فى الماضى بسبب هذا الهاجس والتفكير فى ساشا. استبدت بها رغبة عارمة فى الحياة، وفى العودة إلى بطرسبرج، وأصبحت معرفتها بساشا تبدو ماضيا رقيقا، ولكنه بعيد، بعيد! ولم تنم طول الليل، وفى الصباح جلست إلى النافذة وهى تصغى. وبالفعل سمعت أصواتا فى الأسفل. كانت الجدة قلقة وتسأل عن شىء ما بسرعة، ثم

بكى شخص ما... وعندما هبطت نادية رأت الجدة واقفة فى الركن تصلى، بوجه باك. وكانت هناك برقية على الطاولة.

وتمشت نادية طويلا فى الغرفة وهى تصغى إلى بكاء الجدة، ثم تناولت البرقية وقرأتها. جاء فيها: إنه فى صباح الأمس مات فى سراتوف بالسل الكسندر تيموفيتش، أو ببساطة، ساشا.

وتوجهت الجدة ونينا أيفانوفنا إلى الكنيسة لطلب قداس، أما نادية فظلت تتمشى طويلا فى الغرف وتفكر. وأدركت بوضوح أن حياتها قد قلبت كما أراد ساشا، وأنها هنا وحيدة، غريبة، غير ضرورية، وكل ما هنا غير ضرورى لها، وكل ما كان فى السابق قد اقتطع منها، واختفى كأنما احترق وتبعثر رماده فى الريح. ودخلت غرفة ساشا ووقفت فى مكانها.

«وداعا يا عزيزتى ساشا!» فكرت، وارتسمت أمامها حياة جديدة، عريضة، رحبة، حياة غير واضحة بعد، مليئة بالأسرار، كانت تجذبها وتشدها إليها.

وصعدت إلى غرفتها لترتب متاعها، وفى صباح اليوم التالى ودعت أهلها وغادرت المدينة فى حيوية ومرح، غادرتها كما كانت تعتقد إلى الأبد.